علم الإيمان

الجزء الثاني

فضيلة الشيخ

عبد المجيد بن عزيز الزنداني

بمساعدة مجموعة الإيمان

عبد الله بن علي الجودة

عبد الرحمن بن يحيى الغميدي

عبد الملك عبد الرزاق اليوسفي

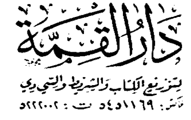
عبد الله بن عمر الكندي

شاكر بن نصيف لطيف

صالح بن عبد القوي السنباني

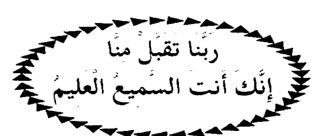
عبد اللطيف بن أحمد الهمدة

عبد الواحد عبد الله الخميسي










رقم الإيداع
١٤١١٠ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولي
977-331-299-2

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)** ﴾[آل عمران: ١٠٢]. ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)** ﴾[النساء: ١]. ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)** ﴾

[الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد؛؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

لقد بين الله ورسوله أن الإيمان أفضل الأعمال كما قال سبحانه: ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩)** ﴾[التوبة: ١٩]. وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ سُئل: أي العمل أفضل؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**إيمانٌ بالله ورسوله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**جهادٌ في سبيله**» [١].

وعلم الإيمان هو الأساس الذي يبنى عليه الإيمان، فيثمر في القلب اليقين وينقيه من الشبهات، ويجعل المؤمن معلقًا بالذي فَطَرَه، ومتبعًا لرسول الله، يتجه بعلمه وقوله لإرضاء ربه؛ ليكون من الفائزين بالجنة والناجين من النار.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب «الإيمان» باب «من قال: إن الإيمان هو العمل». ومسلم، كتاب «الإيمان» باب «كون الإيمان بالله أفضل الأعمال» وابن حبان في صحيحه (١/ ٣٦٦).

ويسرنا أن نقدم الجزء الثاني من «علم الإيمان» الذي ابتدأناه ببحث عن وسائل العلم التي خلقها الله للإنسان ليكتسب بها العلم النافع، والذي يأتي في مقدمته علم الإيمان بالله وبرسوله وبدينه.

وتطرقنا إلى بيان كيفية الوصول إلى اليقين وقانون المعرفة العلمية الذي على أساسه يبنى الإيمان بالله، والطرق العلمية التي توصل إلى ذلك الإيمان: من النظر في آيات الله في الكون ومعرفة معجزات الرسل، والارتباط بالله علميًا بالدعاء الذي تعد استجابة الله له من البراهين الحسية العملية التي تقود للإيمان، ومن إعمال العقل وفق القواعد العقلية الصحيحة للوصول إلى الإيمان، والتأمل في أدلة الفطرة التي تستغيث بخالقها عند كل ملمة. وتطرقنا إلى محدودية وسائل العلم وتكميلها بالوحي، وإلى خطر تعطيل أدوات العلم عن أهم وظيفة لها، وهي معرفة الله. كما تطرقنا إلى أهم نظريات المعرفة عند الفلاسفة.

وبعد التمهيد في الباب الأول لكيفية تحقيق اليقين بالله ورسله، بدأنا الباب الثاني باستعراض بعض آيات الله في الكون المتمثلة في النبات وفي تدبير الله لأرزاقنا، فاستعرضنا في موضوع النبات آيات كثيرة تتعلق بجعل النبات غذاء للكائنات، يوجد حيث توجد الكائنات على سطح الأرض، وتدبرنا في آيات التكاثر في النبات؛ لكي يبقى وجوده متعاقبًا مع وجود الأجيال المتعاقبة في الكائنات الحية، واستعرضنا آيات الله في تكاثر النبات وتزاوجه بواسطة الرياح والحشرات وانتشار بذوره على سطح الأرض، كما استعرضنا بعض آيات الله في حماية النبات من الأمراض والأعداء، وتناسب النبات مع كل بيئة يوجد فيها، سواء الجافة أو الباردة أو المائية أو الفقيرة إلى المعادن، وتأملنا في دور النبات في حضارة الإنسان وصناعاته وإدخال البهجة عليه واستخلاص الدواء منه لعلاج الأمراض.

وتوقفنا لنتفكر في نمو النبات بميزان دقيق، وفي الإبداع والإحكام في الجذور والسوق والأوراق والثمار والأزهار، ثم انطلقنا إلى مجال الرزق الذي لا تقوم

الحياة إلاَّ به، وتفكرنا في قدرة الله تعالى في توفير الرزق بتسخير النبات وأجهزة هضمه وتحويله إلى مواد مختلفة وتوصيل تلك المواد المخصوصة إلى الخلايا المستفيدة من ذلك الغذاء الذي وصل إليها برحلة طويلة، وتوقفنا عند آيات الله في إخراج فضلات الطعام والشراب من أجسامنا بعد أن تصبح مواد ضارة بنا، لنرد على من يقول إن ذلك كله يجري عن طريق الصدفة العشوائية.

وبينّا بالأدلة في الآيات السابقة بطلان هذا الهراء، وقادنا التأمل إلى موضوع الشكر الذي يستحقه الخلاق الرزاق سبحانه، وبينّا معناه وفضله ودرجاته، وأهله، كما بينّا كيف يتحقق الشكر من العبد لخالقه.

ثم انتقلنا إلى الباب الثالث المتعلق بأدلة صدق الرسول ﷺ وبيّنات رسالته، فاستعرضنا بعضاً من هذه البيّنات والمعجزات المتعلقة بفصاحة القرآن في ألفاظه وتراكيبه، وسر فصاحته، وكيف يتحدى القرآن الكافرين منذ نزوله أن يأتوا بسورة من مثله، ثم استعرضنا بعض العلامات الإلهية في كتاب الله الدالة على مصدره الإلهي والمتمثلة في جدته الدائمة، رغم كثرة ترداده بالقراءة، وفي أنه كلام يتميز عن كلام البشر بالروح التي تفيض منه وقوة تأثيره كما أثبت ذلك الدكتور القاضي في تجارب علمية لإثبات أثره على الجهاز العصبي، كما يتصف هذا الكتاب الكريم بخلوه من التناقض وعلومه الواسعة وإخباره بالغيب الماضي في تاريخ الكون والبشر، وبما كان يدور في نفوس المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما تكلمنا عن غيب المستقبل.

ثم تكلمنا عن الشريعة المعجزة العظيمة التي جمعت بين الثبات والمرونة، وبقيت قادرة على إيجاد الحلول لمشكلات الإنسان كلها في كل زمان ومكان، واعتراف أهل الاختصاص بذلك، واستعرضنا طرفاً من أقوالهم، وتعرضنا بعد ذلك للمعجزة القرآنية الجديدة المعاصرة المتمثلة بالإعجاز العلمي في القرآن والسُّنّة، وضربنا لذلك عدة أمثلة في مجال الفلك والبحار والنبات والحيوان.

ثم استعرضنا المعجزات الحسيّة من خوارق العادات التي شاهدها المعاصرون للنبيّ ﷺ، وانتقلوا بها من الكفر والتكذيب إلى الإيمان والتصديق، ومن العناد والمكابرة إلى الإذعان والاتباع، واستعرضنا المنهج العلمي الفريد الذي لا يوجد له نظير في تاريخ البشر لتوثيق تلك المعجزات وكيف توافرت الدوافع لذلك الضبط الدقيق، والتوثيق المحكم سواء عند الصحابة الكرام أو التابعين وتابعيهم ومن جاء بعدهم، واستعرضنا أمثلة من تلك الخوارق التي وقعت في العهد المكي كحادثة الفيل، وانشقاق القمر، وحماية النبيّ ﷺ من الاعتداءات وكيف أن النّبيّ ﷺ أقام الحجة على حادثة الإسراء، وكيف كذبه قومه، وما جرى من آيات في رحلة الهجرة من مكة إلى المدينة، وما أنزل الله من آيات لنصر المسلمين يوم بدر، وما أنزل من آيات في معركة الأحزاب.

واستعرضنا عدداً آخر من المعجزات الحسيّة الخارقة التي أجراها الله على يد رسوله، مثل تكثير الطعام القليل، وتكثير الماء القليل، حتى يكتفي الآلاف بذلك القليل من الماء والطعام، واستعرضنا حوادث شفاء المرضى ببركة دعاء النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، كما استعرضنا معجزاته الحسية الخارقة في الشجر والحيوان، وتسبيح الطعام عنده، وتكثير المال، وإضاءة العصا لأصحابه في طريقهم المظلم، وخاتم النبوة وغيرها من الآيات والخوارق.

ثم انتقلنا إلى الباب الرابع المتعلق بالإيمان بالملائكة فعرفنا الملائكة وبينّا ما لهم من صفات خلقية وخُلُقيّة، واستعرضنا عبادتهم ومقاماتهم وأعمالهم في عمارة السماوات بالعبادة وتدبير أمر الخلائق بأمر الله وحراسة السماء وحماية الرسل وتصريف الرياح وسوق السحاب وإنزال المطر. وتطرقنا إلى الموَكّلين بأمر الجبال والأرحام وتصوير الأجنة وحفظ الإنسان والموكلين بحراسة مكة والمدينة من الدجال، وذكرنا الكرام الكاتبين وملائكة الموت، وتبشيرهم للمسلمين عند الاحتضار، وملائكة العذاب وشدتهم على الكافرين عند الاحتضار، وتحدثنا عن الملائكة المصاحبين للرسل وعلاقاتهم بهم، وخاصة النبيّ محمد صلى الله عليه

وآله وسلم، وبينّا علاقة الملائكة بالمؤمنين، وخصوصيات بعض المؤمنين بالمزيد من تلك العلاقة، وبينّا حقوق الملائكة على المؤمنين، كما تطرق البحث إلى علاقة الملائكة بالعصاة من بني آدم ولعنهم إياهم وقتالهم إياهم بأمر ربهم وإنزال العذاب بهم، ثم اتجه البحث بعد ذلك إلى بيان دور الملائكة في الدار الآخرة الذي يبدأ بنفخ إسرافيل في الصور وسوقهم للناس إلى أرض المحشر ونزولهم مع رب السموات والأرض يوم القيامة وسوق المؤمنين إلى الجنة وفداً، وسوق الكافرين إلى جهنم وِرْدًا . ثم تكلمنا عن خزنة الجنة من الملائكة، وخزنة النار منهم.

ويأتي بعد ذلك الباب الخامس في هذا الكتاب ليحدثنا عن العبادة ومعناها وأهميتها وشمولها لكل جوانب الحياة، واستعرضنا بالتفصيل لماذا استحق الله سبحانه العبادة وحده، وبينّا أنواع العبادة، وشروط قبولها كما بينا أن التشريع للبشر حق لله وحده المالك لعباده سبحانه، ثم تطرقنا بعد ذلك إلى البدعة في العبادة وتعريفها وأنواعها وأقسامها وأسبابها، وبينّا الفرق بين البدعة والسُّنَّة الحسنة وبعض الضوابط العلمية حول البدعة، وانتقلنا بعد ذلك إلى موضوع من أهم موضوعات علم الإيمان وهو الشرك الذي تحبط به الأعمال ويلقي بصاحبه في النار، فاستعرضنا معنى التوحيد، وعرفنا الشرك، ودللنا على بطلانه واستعرضنا النصوص التي تحذر منه وبينّا عاقبة الشرك يوم القيامة، وأنواع الشرك في العبادة ومظاهر الشرك الأكبر وصوره، كما بينّا الشرك الأصغر والنهي عن الذرائع الموقعة فيه، وبينّا حكم من وقع في الشرك وهو جاهل.

نسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وأن يتقبله منّا، وأن يجعله نافعًا لكل من قرأه أو سمعه وأن يغفر لنا ما أخطأنا أو قصرنا .

وقد جعلناه وقفًا لكل مسلم يرغب في طباعته ونشره، ونشترط عليه حسن الطباعة واعتدال السعر؛ حتى يعم به النفع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الفصل الأول

العلم والمعرفة



وسائل العلم عند الإنسان

لقد خلق الله للإنسان أجهزة عظيمة ليتمكن بها من اكتساب العلم والمعرفة وهي :

١ – السمع . ٢ – البصر . ٣ – الفؤاد .

قال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٧٨) ﴾ [النحل : ٧٨] .

١- جهاز السمع :

إنه نعمة كبرى على الإنسان ووسيلة من وسائل انتقال العلم من إنسان إلى آخر، فيُضيف الإنسان لعلمه علوم غيره التي اكتسبوها على مر العصور .

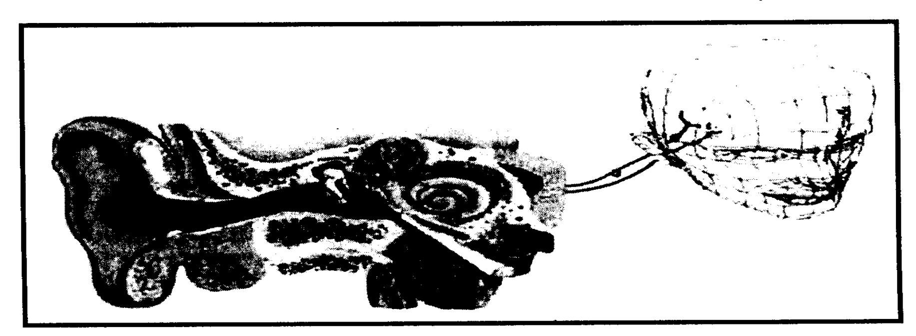
وآلة السمع (الأذن) تستقبل الأصوات من المنطقة المحيطة بنا، وهي عضو مرهف الحساسية لاستقبال الأصوات [١] ويقوم المخ بفهم ووعي معاني تلك الذبذبات الصوتية القادمة من الأذن [٢] .

---

(١) بحيث لو حوّلنا الطاقة الصوتية المنبعثة من ثلاثين مليون إنسان يصرخون بأعلى أصواتهم إلى طاقة ضوئية فلا تستطيع تلك الطاقة الضوئية أن تُضيء ثلاثة مصابيح بقوة (١٠٠ وات) مما يدل على شدة حساسية السمع .

(٢) وتتكون من الأذن الخارجية والأذن الوسطى والقوقعة، فالأذن الخارجية توجه الأصوات للداخل فيهتز غشاء طبلة الأذن (tympanic membrane) ثم تنتقل الذبذبات عن طريق عظام الأذن الوسطى إلى القوقعة، حيث توجد الخلايا السمعية، ومنها تنقل الإشارات إلى الدماغ الذي يقوم بتسجيلها وتحليلها ودراستها ووعيها، كما تتضمن عملية السمع تمييز مصدر الصوت بينما تقوم الأذن الداخلية بتحديد شدّة الصوت ودرجة تردده فالأذن آلة مرهفة . وهذه الذبذبات التي تستقبل تنتقل من الغشاء الطبلي إلى الخلايا السمعية عن طريق سائل يملأ تجويف الأذن الداخلية (endolymph) وفي داخل القناة القوقعية يكون جهاز السمع (عضو كورتي corti) حيث تتحول ذبذبات الموجة الصوتية إلى ومضات عصبية ينقلها عصب السمع إلى المخ، وعلى الرغم من معرفة كيفية استقبال الصوت في الأذن الداخلية، فإن تحول هذه الذبذبات إلى إشارات تستقبل في الدماغ لا يزال غامضاً .

وقد أنعم الله على الإنسان بأن جعل له عتبات إحساس (حدودًا) تختص بكل حاسة من الحواس، فالإنسان يستطيع سماع أصوات ذات تردد معين من (٢٠ذبذبة - ٢٠,٠٠٠ ذبذبة) في الثانية، فإن زاد على ذلك فلا يَسمع وإن قلّ فلا يَسمع، بينما تسمع بعض الحيوانات خارج هذا المدى زيادة أو نقصاً [١] ، وهذا المدى المحدود لجهازنا السمعي لطف من الله بالإنسان؛ لأنه يحجب عنه ضوضاء الأصوات التي يزخر بها الكون. كما يدلنا ذلك على أن هناك عوالم واسعة من الأصوات لا نستطيع سماعها. غير أننا نستطيع عن طريق جهاز السمع أن نتلقى أهم المعلومات المتعلقة بوجودنا: كالعلم بخالقنا وصفاته، ورسوله إلينا، ودينه الذي ارتضاه لنا، والحكمة التي خلقنا من أجلها، والمصير الذي ينتظرنا بعد موتنا، وذلك عن طريق الوحي الذي حمله الرسل المؤيَّدون بالبيّنات والمعجزات الدالة على صدقهم وتلك هي الوظيفة الكبرى لجهاز السمع الفريد الذي لا يقدر أحد أن يهبه للمخلوقات إلاَّ الله فلا يمكن للأطباء أن يهبوا سمعًا لأصم، أو بصرًا لأعمى أو عقلاً لمجنون، قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ** (٤٦) ﴾ [الأنعام: ٤٦].



صورة للجهاز السمعي

(١) فالكلب مثلاً يسمع إلى (٣٥,٠٠٠) ذبذبة في الثانية، والفأر يسمع إلى (١٠٠,٠٠٠) ذبذبة في الثانية، والخفاش يميز الترددات فوق الصوتية، فيسمع إلى (١٢٠,٠٠٠) ذبذبة في الثانية.

ولقد وهبنا الله هذا الجهاز السمعي، كما وهبنا العقل لنميز بين الحق والباطل، ولنسمع ونعقل ما جاءنا من الوحي والهدى، ويوم القيامة يندم الذين عطلوا أسماعهم عن أهم ما خُلقَت له، فيقولون كما قرر القرآن الكريم: ﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝** ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

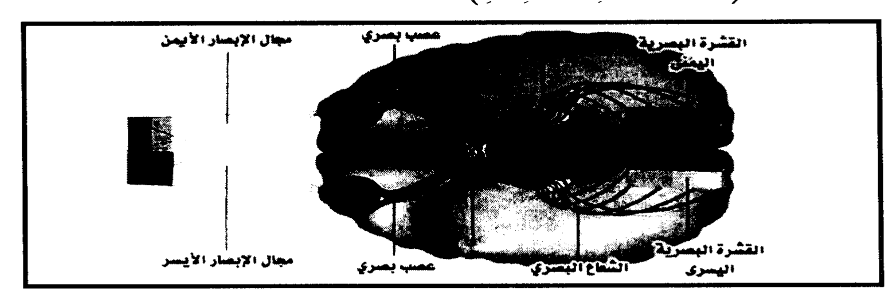
٢ - جهاز الإبصار:

لقد جعل الله البصر وسيلة مهمة للعلم، ومعظم الأشياء التي تدرك بحواس اللمس والذوق والشم يمكن أن تراها العين، وقد أحكم الله الوظيفة التي تقوم بها العين، فأعدها الخالق بتركيباتها الدقيقة [١] في عالم الظلام في الأرحام، وهيأها لاستقبال الضوء الذي ستراه بعد الولادة وبعد خروجك من الرحم المظلم؛ ذلك لأنه يريدنا أن نرى وأن نتمتع بهذه النعمة، وإن أهم شيء يريدنا أن نراه هو آياته وآثار صفات أفعاله في هذا الكون المحيط بنا، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝** ﴾ [الجاثية: ٣]، وقال تعالى: ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ۝** ﴾ [يونس: ١٠١]،

---

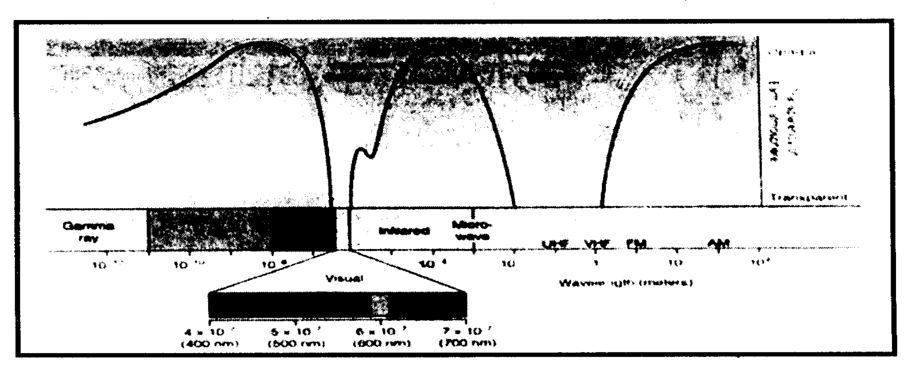
(١) إنَّ العين من أبدع ما حبانا الله به من النعم، نرى بها الأشياء المختلفة ونقدر أحجامها وأبعادها وألوانها وأشكالها، ويمر الضوء عند دخوله العين بالقرنية (cornea) وهي شفافة، وتقوم بتقوية العين وحمايتها مع الصلبة (البيضاء اللون)، ثم الحجرة الأمامية (anterior chamber) التي تحتوي على سائل شفاف (aqueous humor) ثم يمر عبر فتحة البؤبؤ (pupil) وهي الفتحة المركزية التي تشكلها القزحية (iris) وتضيق الفتحة المركزية (بؤبؤ الحدقة) في الضوء الشديد بواسطة ألياف من عضلات دائرية وتتسع في الضوء الخافت أو الظلام حتى تصل أكبر كمية ممكنة من الضوء، ثم يمر بالعدسة البلورية وتوجد خلف العدسة كتلة هلامية (الجسيم الزجاجي) (vitreous body) ثم يسقط الضوء على الشبكية حيث توجد الخلايا الحسيّة، وفيها النقرة الصفراء (fovea) وهي النقطة التي تكون الرؤية فيها أوضح ما يمكن، كما يخرج العصب البصري (optic nerve) من النقطة العمياء (blind spot)، وتنتقل الصورة إلى مركز الرؤية في المخ خلال العصب البصري وكل خلية عصبية تنقل جزءاً معيناً من الصورة، فينتقل سيل من المعلومات المنفصلة، ثم تتجمع هذه المعلومات في المخ؛ ليعيها الإنسان صورة متكاملة وصحيحة بعد أن كانت صورة مقلوبة في الشبكة وصورة مجزأة في الألياف العصبية.

وقال تعالى : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ [الروم : ٥٠] .



صورة لجهاز البصر مع المخ

ولا تستطيع عين الإنسان أن تعمل إلاَّ في مدى محدود من الأطوال الموجية للضوء المرئي، يتراوح بين ٤٠٠٠ و ٧٠٠٠ انجستروم [١] وهناك مدى واسع من الأطوال الموجية التي لا تراها العين.



صورة للموجات الكهرومغناطيسية والضوء المرئي

إن آلة الإبصار تعمل في حيز ضيق من هذا الكون المترامي الأطراف وقد تنخدع في مجال عملها المحدود فترى العصا في حوض الماء مكسورة وهي ليست

(١) الإنجستروم (A) = $١٠^{-١٠}$ من المتر، والمتر = عشرة مليارات انجستروم .

كذلك (ظاهرة انكسار الضوء) كما ترى المنازل من الطائرة بحجم علب الكبريت وهي ليست كذلك، وترى الشمس بحجم قرص من الخبز وهي أكبر من الأرض بـ٣٠٥,٠٠٠ ,١ مرة، وقد تسحر العين فترى الأشياء على غير حقيقتها، وقد ترى العين السراب ماءً وهو لا وجود له، إلاَّ أن الله تعالى كمل قدرة العين بقوة العقل التي تميز بين الحقيقة من جهة والسراب والسحر والخداع البصري من جهة أخرى.

٣ - الفؤاد :

إن المعلومات التي تأتي من السمع والبصر وسائر الحواس تُعرَض على الفؤاد ليعيها فبدون وعيه لها لا تعدو أن تكون إشارات لا معنى لها.

وقد ذهب العلماء في تحديد الفؤاد إلى ثلاثة أقوال [١] :

١ -القلب.

٢ -وسط القلب .

٣ -شغاف القلب.

والقلب مكان الفؤاد [٢] وآلة العقل [٣]. قال ابن كثير: «والأفئدة هي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل الدماغ، والعقل به يُميَّز بين الأشياء ضارّها ونافعها» وذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٧٨) ﴾ [النحل: ٧٨].

---

(١) لسان العرب.

(٢) ذكر القرآن الصغو (الميل) من عمل القلب والفؤاد معًا ، قال تعالى: ﴿ **إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا** ﴾ [التحريم: ٤] ، وقال سبحانه: ﴿ **وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ** ﴾ [الأنعام: ١١٣]، وأخبر القرآن أن الربط على القلب يؤثر في الفؤاد مما يدل على أن الفؤاد في القلب، قال تعالى: ﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** (١٠) ﴾ [القصص: ١٠].

(٣) قال تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** ﴾ [الحج: ٤٦]

وقد وصفت الآيات القرآنية الفؤاد بالصغو (وهو الميل) والهوى:

قال تعالى: ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

كما وصفت الآيات القرآنية الفؤاد بأنه يُقلَّب ويُثبَّت ويفْرُغ:

قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ [القصص: ١٠].

وقد وصف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قلوب أهل اليمن وأفئدتهم بقوله ﷺ: «**أتاكم أهل اليمن هم أَلْيَنُ قُلوبًا وأرقُّ أفئدةً**»[١].

العقـل:

(أ) تعريفه لغةً:

العلم وهو نقيض الجهل من مادة: عقل يَعْقِلُ عَقْلاً: إذا عرف ما كان يجهله قبل وهو: الحِجْرُ قال تعالى: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفجر: ٥] أي لذي عقل «وسُمِّي العقل عقلاً لأنه يعقِل عما لا يحسُن، وسُمِّي «حجرًا» لأنه يحجر صاحبه عن القبيح[٢].

(١) أخرجه البخاري كتاب «المغازي» باب «قدوم الأشعريين وأهل اليمن»، ومسلم كتاب «الإيمان» باب «تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه» واللفظ له.

تنبيه: اعتمدنا في التخريج الإحالة إلى الكتب والأبواب بالنسبة لأمهات الحديث الست، والجزء والصفحة فيما عدا ذلك كما في الجزء الأول من الكتاب.

(٢) «زاد المسير».

والنُّهى: العقول كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [طه: ٥٤]، أي لذوي العقول [(١)]، يُقال للرجل: إنه لذو النُّهْيَة إذا كان ذا عقل، قال الزجاج: واحد النُّهى: نُهْية. يُقال فلان ذو نُهْيَة: أي ذو عقل يَنْتَهي به عن المقابح ويدخل به في المحاسن، قال: وقال بعض أهل اللغة: ذو النُهْيَة: الذي يُنتهى إلى رأيه.

(ب) العقل في القرآن الكريم:

لم يرد لفظ «العقل» في القرآن الكريم، وإنما جاء لفظه بصيغة ما تصرف منه بصيغة الفعل على النحو التالي: عقلوه، نعقل، يعقلها، يعقلون، تعقلون [(٢)].

يقول ابن تيمية: العقل في كتاب الله وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وكلام الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وسائر أئمة المسلمين هو أمر يقوم بالعاقل سواء سُمّي عَرَضًا أو صفة، ليس هو عينًا بنفسها، سواء سُمِّي جوهرًا أو جسمًا أو غير ذلك [(٣)].

ومعنى هذا أنه ليس عند الإنسان عضو ماديٌّ مستقل يُسمى العقل وإنما العقل عملية التعقل.

---

(١) «زاد المسير» تفسير سورة طه.

(٢) أما في السنّة النّبويّة، فقد ورد لفظ العقل في الحديث الصحيح الذي قال فيه النّبيّ ﷺ مُخاطبًا النساء: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن..**» ثم فسَّر النقص بكون شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل، وأما ما عدا ذلك من الأحاديث الواردة في فضل العقل فلا أصل لشيء منها كما قرره جماعة من أئمة أهل الحديث كالحافظ الدارقطني وابن الجوزي، انظر «القلب ووظائفه في الكتاب والسنة» (ص٦٦، ٦٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٩/ ٢٧١) بواسطة المرجع السابق (ص٦٨).

محدودية وسائل العلم والمعرفة

إن وسائل العلم عند الإنسان محدودة في قدرتها ومجال عملها والمدى الذي تعمل فيه، فلا يرى الإنسان إلاّ ضمن مدى محدود من أطوال الموجات، ولا يسمع إلاّ ضمن مدى محدود من الذبذبات وضمن مسافة محدودة، ولا يحس إلاّ بما يلامس حواسه وتقدر الحواس على إدراكه [١].

ولما كان عمل القلب والفؤاد يعتمد على ما يأتيهما من الحواس المحدودة كان مجال عملهما محدوداً بحدود الحواس، فلو تعطلت جميع الحواس لما استطاع العقل والفؤاد أن يعلما ويعقلا أي معلومة. كما أن قدرة الإنسان على التفكير تختلط إذا خرج بها من حدود قدرتها، فعندما يتعامل العقل مثلاً مع ما لا نهاية من الحساب (8) يجد نفسه متناقضاً مع مبادئ الحساب المعهودة [٢].

وإذا أراد أن يتفكر في أصغر جزء في الكون فسيصل إلى حيرة ومتاهة عندما يريد أن يتصور أصغر جزء في الكون!! وإذا تفكر في أكبر شيء سيجد أن قدرته على التصور لا تسعفه! ولو حاول الإنسان أن يعلم ما سيكسب غداً على جهة القطع فلا يمكنه ذلك.

إن هذه المحدودية لوسائل العلم والمعرفة في المجال والقدرة حصرت الكثير من أهم وأخطر المعلومات المتعلقة بالإنسان في نطاق علم الغيب الذي لا يُعلم إلاّ بتعليم من الله عالم الغيب والشهادة سبحانه وتعالى، كالمعرفة الكافية بالله وصفاته، وحقه علينا، ومعرفتنا بدينه الذي ارتضاه لنا، ومعرفتنا بسر وغاية

---

(١) فالهواء لا يحس به الجلد إلاّ إذا تحرك، ولا يشمه الأنف ولا يتذوقه اللسان.

(٢) وعلى سبيل المثال: أ – ١٠٠,٠٠٠ 8 × ١,٠٠٠,٠٠٠ 8 = 8

ب – 8 + ١٠,٠٠٠ 8 + ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ 8 = 8

ج – ٣٠ 8 – ١٥ 8 = 8

وجودنا على هذه الأرض، ومعرفتنا بمستقبلنا الذي ينتظرنا بعد الموت، ومعرفتنا بأسباب الفلاح في الدنيا والآخرة، لذلك أرسل الله الرسل إلينا لتكميل علمنا بهذه العلوم العظيمة.

قانون المعرفة العلمية في العلوم التجريبية:

كان فرنسيس بيكون أول من نقل المبدأ العلمي (قانون المعرفة العلمية) إلى أوربا، ولا شك أن ذلك جاء نتيجة لتأثر الأوروبيين بالعلوم التي كان يُدرِّسها المسلمون في الأندلس والجامعات المتاخمة لأوروبا، مهتدين بقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا (٣٦)** ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقامت النهضة العلمية الحديثة على هذا المبدأ الذي يقوم على التجربة الحسية التي تقود إلى المعرفة العلمية اليقينية [١] وينص القانون العلمي للمعرفة على أن:

التجربة + المشاهدة + الاستنتاج العقلي ←——— الحقيقة العلمية.

فنحن نشاهد التجربة، ونراقبها، ونعرف مقدماتها، ونُتابع سيرها ونُلاحظ نتائجها، ثم بالعقل نستنتج الحقيقة العلمية التي ربطت بين ما شاهدناه أولاً في مقدمة التجربة وبين ما شهدناه ثانيًا في نتائجها فالحقيقة العلمية إذًا هي ما استنتجته العقول مما أدركته الحواس.

وبعض الظواهر كسير الفلك أو عمل الأجسام الحية لا يمكن إجراء التجربة عليها، ولكن الظاهرة المشاهدة تقوم مقام التجربة وبالتالي فإن:

الظاهرة + المشاهدة + الاستنتاج العقلي ←——— الحقيقة العلمية.

---

(١) وأنكرت المنطق الأرسطوطاليسي الفلسفي الذي ساد العقل البشري آلاف السنين، ومنذ ذلك الحين انفصلت الفلسفة عن العلوم.

فالحقيقة العلمية هي: ما تستنتجه العقول من التجارب والظواهر المشاهدة، فالحقيقة العلمية مُستَنْبَطَة من المشاهدة وليست هي المشاهدة نفسها، فعلى سبيل المثال:

١ – ثلج + حرارة ⟵ ماء .

هذه حقيقة علمية إلاَّ أننا لا نشاهد الحرارة حين تتحد بجزئيات الثلج وتصهرها وتحولها من مادة جامدة إلى مادة سائلة، إنما نشاهد الثلج ومصدر الحرارة وقد قرب من الثلج ثم نشاهد بعد ذلك الماء وهو في حالة سائلة، فنستنتج الحقيقة العلمية التي لا نشاهدها وهي أن الحرارة تصهر الثلج.

٢ – أكسچين + أيدروچين ⟵(حرارة) ماء .

هذه حقيقة علمية كيميائية استنتجناها من مشاهدتين:

المشاهدة الأولى: شاهدنا الأكسجين والأيدروچين، ثم إدخال الحرارة عليهما.

والمشاهدة الثانية: شاهدنا تكون الماء بعد إدخال الحرارة على تركيب كل منهما، لكن أحداً لم يشاهد أبداً عملية اتحاد ذرات الغازين وقيام الحرارة بعملية توحيدهما التي نتج عنها الماء (لأن الذرات والحرارة لم تُرَ إلى اليوم).

إدراك الأثر هو حقيقة المعرفة العلمية:



صورة العين

إذا تعمقنا قليلاً نجد: أن الصورة التي نشاهدها للشيء ليست حقيقته إنما هي ما فهمه الوعي في مركز الإبصار في المخ من أثر الإشارات التي يحملها العصب البصري في العين، والتي حدثت في العصب البصري بتأثير أضواء الصورة الساقطة على شبكية العين، ولقد كانت هذه الأضواء نتيجة لتأثير الجسم المشاهد على الأشعة الساقطة

عليه من الشمس أو من مصباح؛ فالرؤية البصرية للشيء ليست إلاَّ إدراكًا ووعيًا وفهمًا لآثار الألوان المختلفة الساقطة من أي جسم على الشبكية.

وكذلك السمع ليس إلاَّ إدراكًا وفهمًا ووعيًا لأثر اهتزازت الهواء على العصب السمعي، والمواد التي نشمها لا ندرك حقيقتها، وصفة تركيبها بمجرد الشم، ولكننا نفهم ونُدرك ونعي آثار هذه المواد عن طريق الإحساس بواسطة الأعصاب الشمية، والمواد التي نطعمها لا نُدرك حقيقتها وإنما ندرك آثارها على أعصاب الذوق، ثم نفهمها ونعيها بآثارها، وكذلك المواد المحسوسة جميعها تُدرك وتُفهم وتوعى بآثارها على الأعصاب الحسية، وأيما شيء لا يُحدث أثرًا على أعصاب الرؤية أو السمع أو الشم أو اللمس أو الذوق فلا سبيل لنا لمعرفة أي شيء عنه إلاَّ بصنع أجهزة يحدث فيها ذلك الشيء أثرًا، فليس العلم بالحقائق والأشياء ملامسة لها أو اتصال العقل مباشرة بها، إنما العلم يأتي عن طريق عرض آثار الأشياء والحقائق على الحواس أو على أجهزة الكشف العلمية ثم وعي وفهم وإدراك معنى هذه الإشارات بفعل ما زود الله الإنسان به من قوة عظمى لفهمها وعقلها.

أساس الإيمان بالله

إن المنهجية السابقة الموثوقة للعلم هي نفس المنهجية التي عرفنا بها الله سبحانه، أما العلم بما يتعلق بالله سبحانه فله طرق نجملها فيما يأتي :

الطريق الأول : طريق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، بعد أن أيدهم بالمعجزات المقنعة، فعرفونا بربنا وخالقنا وما له من صفات وأفعال جلال وكمال، وما يتنزه عنه من صفات.

الطريق الثاني: آيات الله في مخلوقاته، فقد دلنا الرسل على طريق منظور لمعرفة قدرة الله وبعض صفاته عن طريق إدراك آثار تلك الصفات فيما نشاهده من آيات في أنفسنا وفي الأرض والسموات، فهذه الآثار المشاهدة دليلٌ على من خلقها وأوجدها من العدم، كما أنها دليل على بعض صفاته، فإذا رأينا أثر الحكمة في تضاعيف الكون دلتنا على أنها من صنع حكيم، وإذا رأينا تدبير الأرزاق للكائنات كلها شهد لنا ذلك أنه من صنع الرزاق، وإذا نظرنا إلى تقدير ما ستحتاج إليه المخلوقات شهد لنا ذلك أنه من صنع العليم الخبير، وإذا رأينا سنن حفظ الكائنات والموجودات شهد لنا ذلك أنه من صنع الحافظ، وإذا رأينا وحدة البناء وتكامل الكون شهد لنا أنه من صنع الواحد الأحد، وهكذا نعرف الكثير من صفات ربنا عن طريق النظر في آثارها المشاهدة.

الطريق الثالث: الدليل العملي (الدعاء والإجابة) :

إن أعلى ما وصلت إليه البشرية من منهج علمي في مجال العلوم التجريبية لمعرفة الحقائق هي المشاهدة في المعامل والمختبرات لآثار تلك الحقائق، وإن إيمان المؤمنين بربهم يتأكد بطريقة عملية مشاهدة، يراها الناس، وتتمثل في إجابة الله لدعاء الداعين في قضاء شتى الحاجات في سائر الأوقات كإغاثتهم بالأمطار بعد

طول جفاف، أو إنزاله للشفاء بعد مرضٍ معضل، أو تفريجه لكُربٍ استُحكمت حلقاتها، أو تنزيله لنصر على المؤمنين في معارك غير متكافئة مع الكافرين، والحياة تزخر بهذه المشاهدات العلمية التي تدل كل عاقل على أن الله حي قيوم سميع مجيب قريب، قال تعالى: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** (٦٢) ﴾ [النمل: ٦٢]. وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** (١٨٦) ﴾ [البقرة: ١٨٦].

الطريق الرابع: الأدلة العقلية فقد منح الله الإنسان قلبًا يعقل به الحقائق ويرفض الأباطيل وجعله وسيلة لمعرفته سبحانه بما يجزم به من الحقائق العقلية مثل:

[١] العدم لا يخلق شيئًا:

دلَّت جميع الأبحاث على أن جميع المخلوقات قد كانت عدمًا، وانتقالها من العدم إلى الوجود لا يكون إلاَّ من صنع الخالق سبحانه؛ لأن العدم لا يفعل شيئًا.

[٢] المخلوقات آثار مشاهدة لبعض صفات الخالق:

فعندما ترى في الكون آثار القدرة وآثار الحكمة وآثار الخبرة وآثار العلم وآثار الرحمة وآثار الوحدة، تدلك الآثار على أنها من صنع القادر الحكيم الخبير العليم الرحيم الواحد الأحد سبحانه.

[٣] فاقد الشيء لا يعطيه:

وإذا تأملت في الوجود كله لا ترى في شيء من هذه المخلوقات من يتصف بالصفات السابقة، فيعلم بذلك استحالة نسبة الخلق إلى شيء من هذه المخلوقات مفردة أو مجتمعة، ففاقد الشيء لا يعطيه، بل تشهد هذه الصفات أنها ليست لهذه المخلوقات وإنما هي صفات خالق هذه المخلوقات سبحانه وتعالى.

[٤] لو كان فيهما آلهة إلاَّ الله لفسدتا :

وإذا تأملت التكامل والاستقرار والثبات في بناء الكون دلَّ ذلك على أنه يسير وفق إرادة واحدة لا منازع لها، هي إرادة الخالق سبحانه وتعالى، كما قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء:٢٢]. وهكذا سائر الأدلة العقلية التي تُنير الطريق أمام صاحبه لمعرفة ربه سبحانه وتعالى.

الطريق الخامس : دليل الفطرة : فقد فُطِرَ الإنسان على الشعور بأن له ولهذا الكون خالقًا يحكمه ويتصرف فيه فيلجأ إليه فطريًا إذا أحاطت به المخاطر والشدائد كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) ﴾ [الإسراء: ٦٧].

أساس الإيمان بالرسول

ولكي يطمئن الناس إلى صدق الرسل ويبتعدوا عن تكذيبهم فقد أيدهم الله ببينات قاطعة تثبت صدقهم لكل صاحب عقل مستعد لقبول الحق، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾ [الحديد : ٢٥].

ومن تمام إقامة الحجة بهذه البيّنات (المعجزات) أن جعل الله لكل رسول بيّنة تتناسب مع ثقافة قومه وعلومهم، وأيّد الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بأنواع عديدة من المعجزات تتناسب مع بني البشر قاطبة من زمنه صلى الله عليه وآله وسلم وحتى قيام الساعة على اختلاف ثقافاتهم وأزمنتهم وأماكنهم ومستوياتهم العقلية كما سبق بيانه في الجزء الأول، وكما سيأتي بيانه في «بيّنات الرسول ﷺ» والتي دخل على أساسها آلاف الملايين من البشر في الإسلام على اختلاف الأماكن والأزمنة والعلوم والثقافات .

العلم والمعرفة واليقين

العلم والمعرفة :

خلق الله سبحانه للإنسان أدوات للعلم والمعرفة؛ ليصل بها إلى اليقين في إيمانه بالله ورسوله واليوم الآخر وكلٍّ ما جاء من عند الله سبحانه وتعالى وسنتناول في هذا البحث الطرائق العلمية والمعرفية الموصلة إلى اليقين .

العلم:

[١] **لغة** : مصدر عَلِمَ يعلَم، مأخوذ من مادة (ع ل م) التي تدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره، وهو نقيض الجهل، وعلمتَ الشيء : إذا عرفته . وعلم بالشيء : شعر به، وعلم الأمر : أتقنه (١) .

[٢] **اصطلاحًا** :للعلماء عبارات مختلفة في تعريف العلم حاصلها : « أن العلم هو إدراك الشيء المعلوم على ما هو عليه إدراكًا حقيقيًا مطابقًا للواقع » (٢) .

المعرفة :

[١] **لغة** : مصدر من عَرِفَه يَعرِفْهُ، وعَرِفه : عَلِمَهُ، فيكون العلم بمعنى المعرفة(٣)، والمعرفة ضدها الإنكار، ومنه المعروف والمنكر (٤) .

---

(١) المقاييس، المفردات، لسان العرب .

(٢) اختلفت عبارات العلماء – رحمهم الله – في تعريف العلم، ومما قالوا في ذلك : هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع . وقيل : المعنى الحقيقي للفظ العلم هو الإدراك، ويُطلق على ثلاثة معان بالاشتراك : (أ) الإدراك نفسه . (ب) الملكة المسماة بالعقل . (ج) المعلومات نفسها . وقيل : حصول صورة الشيء في العقل، وقيل : معرفة الشيء على ما هو به .

(٣) يكون العلم بمعنى المعرفة في اللغة العربية إذا تعدَّى لمفعول واحد كأن تقول علمتُ زيدًا، أي عرفته، وإذا لم يكن بمعنى المعرفة يتعدّى لمفعولين مثل علمتُ زيدًا صالحًا .

(٤) **قال الراغب** : المعرفة والعرفان : إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، فهي أخص من العلم، وقال ابن فارس : العين والراء والفاء أصلان صحيحان يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلاً بعضه ببعض ومنه عُرف الفرس لتتابع الشعر عليه، ويدل الآخر على السكون والطمأنينة ومنه قولك : أمر معروف يعني تسكن إليه النفس وتطمئن فلا تنكره .

[٢] **اصطلاحًا**: هي العلم بالشيء على حقيقته، وتكون في الغالب مسبوقة بنسيان حاصل بعد العلم.

وللعلماء عبارات مختلفة في بيان معنى المعرفة قريبة من تعريفهم للعلم إلاَّ أن العلم يسبق بالجهل والمعرفة تسبق غالبًا بنسيان أو غياب.

وقال ابن قيم الجوزية: المعرفة تتعلق بذات الشيء والعلم يتعلق بأحواله.

وقال: «المعرفة تكون في الغالب لما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإذا أدركه قيل عرفه» (١).

مراتب الإدراك:

ينتقل الإنسان في مراتب «العلم والمعرفة» بالأشياء كالآتي:

[١] **الوهم**: تصور الشيء مع احتمال ضد راجح.

[٢] **الشك**: تصور الشيء مع احتمال ضد مساوٍ.

[٣] **الظن**: تصور الشيء مع احتمال ضد مرجوح.

[٤] **العلم**: العلم بالشيء ومعرفته على حقيقته.

[٥] **اليقين**: وهو درجة من العلم والمعرفة لا يتطرق إليها الشك.

اليقين:

[١] **لغة**: مصدر يَقِن، راجع إلى مادة (ي ق ن) التي تدل على زوال الشك يُقال يَقِن الشيء: ثبت وتحقق ووضح، وزال الشك عنك فيه. واليقين: العلم الذي لاشك معه (٢)، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ④ ﴾ [البقرة: ٤].

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٣٦٩ - ٣٧٠) تحقيق الرفاعي والحرستاني.

(٢) «المعجم الوسيط» [يَقِن].

ويقن الأمر ثَبُتَ ووضح، ويُطلق على الموت؛ لأنه لا يمتري فيه أحد، قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩] [١] أي الموت.

[٢] **اصطلاحًا** : جاء اليقين في القرآن دالاً على العلم الجازم القائم على الدليل كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٥]، كما دلَّ القرآن على أن اليقين هو العلم الذي يطمئن إليه القلب كما في قصة إبراهيم الخليل مع ربه سبحانه ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وحاصل كلام العلماء في اليقين: أنه درجة من العلم لا تقبل الشك. قال الكفوي: اليقين أن تعلم الشيء ولا تتخيل خلافه [٢].

وقال التهانوي: هو الاعتقاد الجازم المطابق الثابت، أي الذي لا يزول بتشكيك المتشكك [٣].

ولما كان اليقين درجة عالية من التصديق والعلم أثنى الله سبحانه على الموقنين في إيمانهم في كتابه كثيرًا، قال تعالى في وصف أهل الفلاح والإيمان: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة: ٤، ٥]، وأخبر سبحانه أن الصبر مع اليقين سبب لنيل الإمامة في الدين، فقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وبيّن النَّبيّ ﷺ أن اليقين أعلى الدرجات التي ينالها العبد، فقال: «**اسألوا**

(١) المقاييس، الصحاح، اللسان، بصائر ذوي التمييز.

(٢) الكليات.

(٣) بواسطة نضرة النعيم (اليقين).

اللهَ العفوَ والعافيَةَ ؛ فإن أحداً لم يُعْطَ بَعْدَ اليقين خيراً من العافية » (١) .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : اليقين الإيمان كله (٢) .

مراتب اليقين :

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : ولليقين ثلاث مراتب:

[١] **علم اليقين**: وهو التصديق التام به، بحيث لا تعرض له شبهة ولا شك كعلم المؤمن بالجنة والنار مثلاً .

[٢] **عين اليقين** : وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ** ﴿٧﴾ ﴾ [التكاثر : ٧] وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة، فعلم اليقين للسمع، وعين اليقين للبصر، وفي المسند مرفوعًا : « ليس الخبر كالمُعاينة »(٣)، وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه عندما طلب منه أن يريه كيف يحيي الموتى؛ ليحصل له مع علم اليقين عينُ اليقين، فيسكن القلب عند المعاينة، ويطمئن لقطع المسافة بين الخبر والعيان .

[٣] **حق اليقين**: هو مباشرة الشيء بالإحساس به، كما إذا أُدخِل المؤمن الجنةَ وتمتع بما فيها من النعيم .

فالمؤمنون في الدنيا في مرتبة عليم اليقين، وفي الموقف حين تزلف الجنة وتقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين، وإذا دخلوا الجنة وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين .

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب « الدعوات عن رسول الله » باب « في دعاء النبي » واللفظ له، وأحمد في « المسند » (١ / ٣) وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١ / ٦٧٩) برقم (٣٦٣٢) .

(٢) علقه البخاري في صحيحه كتاب « الإيمان » باب « بني الإسلام على خمس » وقال الحافظ ابن حجر في شرحه : وصله الطبراني بسند صحيح يعني موقوفًا قال : ولا يثبت رفع، وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يدعو فيقول : « اللهم زدنا إيمانًا ويقينًا وفقهًا » وسنده صحيح عنه .

(٣) أحمد في المسند والطبراني في « الأوسط » والحاكم، وهو في « صحيح الجامع » (٥٣٧٤) ومعناه : أن السماع بالواقعة ليس كمشاهدتها بالعيان؛ لأن المشاهدة بالعين أبلغ من مجرد السماع .

مثال: وقد مثل بعضهم لهذا مثلاً حسنًا، وهو أنه إذا أخبرك من تثق به أن لديه عسلاً حصل بذلك عندك علم اليقين، فإذا رأيت ذلك العسل فذلك عين اليقين، فإذا ذُقت ذلك العسل حصل لك حق اليقين [١] .

كيف نصل إلى اليقين في إيماننا بالله ورسوله:

ويصل العبد إلى علم اليقين بالله ووحدانيته عن طريق النظر في آيات الله في الكون، وعن طريق مشاهدة إجابة الله لدعاء عباده، وعن طريق التعلم من كتابه وسُنّة رسوله ﷺ وعن طريق الفوز بالنور الذي ينور الله به المؤمنين، قال تعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وعن طريق العمل بالطاعات من الفرائض والنوافل، ويصل العبد إلى اليقين بصدق الرسول ﷺ عن طريق النظر في معجزاته وبينات رسالته.

وقال أبو العباس ابن تيمية: وأما كيف يحصل اليقين فبثلاثة أشياء:

أحدها: تدبر القرآن .

والثاني: تدبر الآيات التي يحدثها الله في الآفاق والأنفس التي تبين أنه حق.

والثالث: العمل بموجب العلم [٢] .

---

(١) بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم (٥/ ١٨ – ١٩) بتصرف.
(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٣٠).

العلم والتقوى

أثبت العلم التجريبي أن هناك علاقة بين الحالة النفسية للإنسان وبين قدرته على تلقي الحقائق واستيعابها، فمتى أقبل الإنسان على تلك الحقائق راغبًا فيها ازداد لها فهمًا، وازداد بها تأثرًا، فتزداد له جلاءً ووضوحًا.

وإذا كانت تلك الحقائق متعلقة بالعلم بالله ورسوله وهدايته، فإن الله يكافئ العبد المقبل على ذلك العلم وتلك الهداية بزيادة الهداية وفتح أبوابها أمامه كما قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد: ١٧].

وعندما تهيمن التقوى على النفس تزداد الحساسية في نفس صاحبها للتحري في المواقف والآراء والنظرات لمعرفة الحق والباطل، فيرزقه الله ملكة للتفريق بين الحق والباطل كما قال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

ومتى انصرف الإنسان عن حقائق العلم وتغافل عنها، فإن فهمه لها يقل وتأثره بها يضعف، أما إذا كان في موقف نفسي رافض لتلك الحقائق فإن استقباله لها يكون مشوشًا ومهزوزًا كاستقبال المرء لحجج خصمه، فيعمى عن فقه حقائقها ودلائلها.

وإذا كان الرفض النفسي متعلقًا بالهداية الإلهية والزيغ عنها بعد معرفتها والانصراف عن حقائق الهدى، فإن الله يعاقب الرافضين لها بطمس بصائرهم وصدّ قلوبهم عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴿٥﴾ ﴾ [الصف: ٥].

كما أن التكبر في الأرض بغير الحق، والإعراض عن سبيل الرشد [1]، واتباع

---

(١) **الرشد**: الهدى.

سبيل الغي [١]، والتكذيب بآيات الله والغفلة عنها سبب لصرف أهلها عن آيات الله الهادية إلى الرشد كما قال سبحانه: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) ﴾

[الأعراف: ١٤٦].

والذين لا يؤمنون بآيات الله ويردونها ابتداءً من أول مرة تعرض عليهم، يعاقبهم الله بأن لا تثبت قلوبهم على شيء وترد عن كل أمر كما قال ذلك ابن عباس ﷺ في تفسير قوله تعالى[٢] : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ومن ختم الله على قلبه بسبب كفره فلا ينتفع بعد ذلك بنصح ولا موعظة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾

[البقرة: ٦، ٧].

ومن اتبع هواه يأتمر بأمره بعد إذْ جاءه الهدى والعلم وجعل الهوى معبوداً له، فإن الله يختم على سمعه وقلبه، ويجعل على بصره غشاوة فلا يستطيع أحد بعدئذ أن يهديه، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾

[الجاثية: ٢٣].

وهكذا يتأكد لنا أن هناك علاقة بين الحالة النفسية للإنسان وقدرته على تلقي الحقائق واستيعابها.

---

(١) **الغي**: الغواية، أي: الإمعان في الضلال.

(٢) «تفسير الطبري» عند الآية المذكورة.

تعطيل وسائل العلم عن أهم وظائفها

هناك عوامل نفسية مؤثرة تحجب أدوات العلم عن معرفة الحقيقة وتعبئ النفس بمشاعر رافضة لدلائل الحق ومؤثراته ومن هذه العوائق والحجب ما يأتي:

[١] **الغفلة**: وهي ترك متابعة الهدى إهمالاً له، قال تعالى عن الكافرين الذين يعطلون أدوات العلم: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** (١٧٩) ﴾[الأعراف: ١٧٩].

وقال سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ** (٧) **أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** (٨) ﴾[يونس: ٧، ٨].

وقال تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ** (١) ﴾[الأنبياء: ١].

ويُقال للكافر يوم القيامة: ﴿ **لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا** ﴾[ق: ٢٢].

[٢] **التقليد**: وهو ترك متابعة الهدى اتباعًا لغير الرسل كالآباء والسادة والكبراء وغيرهم، قال تعالى: ﴿ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** (٢٢) **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** (٢٣) **قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ** (٢٤) ﴾[الزخرف: ٢٢ - ٢٤]، ويعترفون يوم القيامة في ندامة قائلين كما ذكر الله عنهم حيث قال سبحانه: ﴿ **وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ** (٦٧) ﴾[الأحزاب: ٦٧].

[٣] **الشك والظن**: وهو ترك متابعة الهدى تشككًا واحتمالاً للظن الباطل

فيه، قال تعالى مبينًا تشكك الكافرين تجاه الرسل: ﴿ **إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** (٩) ﴾ [إبراهيم: ٩].

وبيّن سبحانه أن تشكك الكافرين إنما هو لعب واستهزاء منهم، قال سبحانه: ﴿ **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ** (٩) ﴾ [الدخان: ٩]، كما بيّن أن الكافرين لا يتبعون العلم وإنما يتبعون الظن، فقال سبحانه: ﴿ **وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** (٢٨) ﴾ [النجم: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ** (٣٢) ﴾ [الجاثية: ٣٢].

ومرض الشك لا يدوم مع صاحبه إلاَّ إذا ألزم نفسه الابتعاد عن الحق والهدى والانصراف عن الحجج والبيّنات الواضحة، ولذلك يستحق صاحبه العقوبة جزاء إعراضه عن الحق والهدى.

[٤] **الكِبْر**: وهو ترك متابعة الهدى والحق استعلاءً وأنفة، وهو أعظم موانع قبول الحق والهدى، وقد عرَّفه النَّبيّ ﷺ بأنه: «**بطر الحق وغَمْطُ الناس**» [(١)]، أي إنكار الحق واحتقار الناس.

قال سبحانه مبينًا حال الكفار في رده الحق: ﴿ **يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا** ﴾ [الجاثية: ٨].

وقال تعالى مبينًا استكبار الكافرين عن شهادة الحق: ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ** (٣٥) **وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ** (٣٦) ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]. وقال سبحانه: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا** (٤٢) **اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ** ﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣].

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الإيمان» باب «تحريم الكبر»، وأبو داود كتاب «اللباس» باب «ما جاء في الكبر» والترمذي كتاب «البر والصلة» باب «ما جاء في الكبر».

وبيّن سبحانه عاقبة المستكبرين عن عبادته فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠]، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٦].

ولعظم خطورة الكبر في الصد عن الحق قال النّبيّ ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر..**» (١).

[٥] **الهوى**: وهو ترك متابعة الهدى ميلاً إلى شهوة نفسية. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وأخبر سبحانه أن الذين لا يستجيبون للهدى من الله إنما يتبعون الهوى، قال سبحانه: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [القصص: ٥٠].

وهذه العوائق التي تعطل وسائل العلم عن أهم وظائفها ينتج عنها آثار سيئة في قلوب أصحابها، ومن ذلك ما يأتي (٢):

(أ) **عمى القلب**: قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٦].

قال البغوي: العمى الضار هو عمى القلب، فأما عمى البصر فليس بضار في أمر الدين (٣).

---

(١) تقدم تخريجه وهو أول الحديث السابق.
(٢) هذه الآثار مأخوذة بتصرف من كتاب «القلب ووظائفه في الكتاب والسنة» لسلمان اليماني.
(٣) «معالم التنزيل في التفسير والتأويل».

قال ابن القيم : من عقوبة المعاصي أنها تُعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتَسُد طرق العلم، وتحجب مواد الهداية.

(ب) الران : وهو من الحُجُب التي تُغطي القلب نتيجة المعصية، قال تعالى: ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين: ١٤].

وأصل الرين: الطبع والدنس، والرين كذلك: الصدأ الذي يعلو السيف والمرآة، وكل ما غطى عليه فقد ران عليه.

قال النبيّ ﷺ : «**إن المؤمن إذا أذْنَبَ كانت نُكْتَةٌ سَوْداء في قلْبِه، فإنَّ تابَ ونَزَعَ واستغْفَرَ صُقِلَ قلبُهُ، وإنْ زادَ زادَتْ حَتَّى يَعْلو قلبَهُ ذاكَ الران الذي ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ في القرآن ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾** »[١].

قال الحسن البصري في تفسير الران: هو الذنب على الذنب حتى يموت القلب، فالذنوب كالوسخ والصدأ على القلوب.

وقال القاسمي – رحمه الله – في معنى قوله تعالى: ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين: ١٤]، أي غطى على مداركهم ما اكتسبوه من الآثام حتى كدر جوهرها وصار صدأً عليها بالرسوخ فيها.

(ج) القفل على القلب : قال تعالى: ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤].

قال المفسرون في معنى القفل هنا: أي على قلوب أقفالٌ جعلها الله عز وجل، فأصحابها لا يعقلون؛ لأنهم لم يتفهموا القرآن[٢].

ويفهم من هذا أن تدبر القرآن واتباع منهجه سبب لفتح أو فكّ هذه الأقفال.

---

(١) أخرجه ابن ماجه كتاب «الزهد»، باب «ذكر الذنوب»، وأحمد في المسند، وإسناده قوي كما في تحقيق المسند (١٣/ ٣٣٣ – ٣٣٤).

(٢) القرطبي، ابن كثير، الألوسي وغيرهم.

(د) الطبع على القلب: قال تعالى: ﴿ **كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)** ﴾[غافر: ٣٥].

وأصل الطبع: الصدأ يكثر على السيف وغيره [١].

فالمطبوع على قلبه لا يعي ما جاءه من الحق؛ لأنه محصورٌ في شهواته وغيّه، والتكبر عن الحق من أسباب الطبع على القلب كما في الآية المذكورة، وكذلك من أسبابه الكفر والمعصية، قال تعالى: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ**[٢] **بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٥)** ﴾[النساء: ١٥٥].

وفي الحديث النبوي: «**من ترك ثلاث جُمَع تهاونًا بها طبع الله على قلبه**» [٣].

والطبع يكون على القلب والسمع والبصر أيضًا كما قال تعالى عمن آثر الحياة الدنيا على الآخرة: ﴿ **أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨)** ﴾[النحل: ١٠٨]. أي فلم ينتفعوا برؤية آيات الله، ولا بسماع مواعظه، ولا فقهوا حجته سبحانه.

(هـ) الختم على القلب: قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)** ﴾[البقرة: ٦، ٧]. والختم: بلوغ آخر الشيء والتغطية على الشيء، والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء.

---

(١) «لسان العرب».

(٢) **غلف**: جمع أغلف، وهو المغطى بالغلاف، أي قلوبنا في أغطية، فلا نفقه ما تقوله الرسل، ومقصدهم بهذا ردّ الحجة، فردَّ الله عليهم أن عدم فهمهم أنما هو لطبع الله سبحانه على قلوبهم جزاء كفرهم. انظر «فتح القدير» للشوكاني.

(٣) أخرجه ابن ماجه كتاب «إقامة الصلاة والسنّة فيها» باب: «ما جاء فيمن ترك الجمعة من غير عذر»، والنسائي كتاب «الجمعة» باب: «التشديد في التخلف عن الجمعة»، وأبو داود كتاب «الصلاة» باب: «التشديد في ترك الجمعة» وصححه الألباني.

ومعناه هنا: إغلاق المنافذ التي يصل منها الخير إلى القلب، وذلك يكون عقوبةً على ردّ الحق والاستكبار عنه، كما قال تعالى: ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** (١١٠) ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ومما يبين هذا المعنى حديث النَّبيّ ﷺ حيث يقول: «**تُعْرَضُ الفتنُ على القُلُوب كالحَصير عُودًا عودًا** (١) **فأيُّ قلب أُشربها** (٢) **نُكتَ** (٣) **فيه نُكتة سوداء، وأيُّ قلب أنْكرَها نُكتَ فيه نُكتة بيضاء، حتَّى تصير على قلبين قلب أبيض مثل الصَّفا** (٤) **فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أَسوَدُ مربادًا**(٥) **كالكوز** (٦) **مجخِّيًا** (٧) **لا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكرًا إلاَّ ما أُشرب من هواه**» (٨).

قال ابن جرير بعد ذكر حديث الران المتقدم ذكره: فأخبر النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قِبَل الله تعالى والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص (٩).

وكذلك يكون الختم على القلب بسبب المعصية كما قال النَّبيّ ﷺ:

---

(١) قال الخطابي: أي تظهر على القلوب فتنة بعد فتنة كما ينسج الحصير عودًا عودًا، شبه عرضها عليه بعرض قضبان الحصير على صانعها واحدًا بعد واحد. انظر تحقيق المسند (٣٨/٣١٥).

(٢) أي: دخلت فيه دخولاً تامًا.

(٣) **النّكت**: النقطة أو الأثر في الشيء.

(٤) **الصفا**: الحجر الأملس.

(٥) **مربد**: من الرُبدة وهي الغبرة أو لون إلى الغبرة، قال أبو عبيدة: هو لون بين السواد والغبرة. انظر تاج العروس [ربد] ومربادًا منصوب على الحال كما في شرح النووي لصحيح مسلم.

(٦) **الكوز**: إناء بعروة يُشرب به الماء.

(٧) **مجخيًا**: مائلاً منكوسًا.

(٨) مسلم كتاب «الإيمان» باب «بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا»، وأحمد في باقي مسند الأنصار، مسند حذيفة بن اليمان عن النّبي ﷺ.

(٩) «تفسير الطبري» (١/١١٢ - ١١٣).

«**لينتهينَّ أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين**» [١] .

ولأهمية عمل القلب في تلقي الحق، وخطورة إعراضه عن الهدى كان النَّبيّ ﷺ يدعو ربّه عز وجل أن يُثبت قلبه على الدين الحق، فيقول: «**اللهم مُصَرِّف القلوبَ صَرِّف قلوبنا على طاعتك**» [٢]، ويُكثر من قوله: «**يا مُقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**» [٣] .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الجمعة» باب «التغليظ في ترك الجمعة»، والنسائي كتاب «الجمعة» باب «التشديد في التخلف عن الجمعة».

(٢) أخرجه مسلم كتاب «القدر» باب: «تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء»، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) أخرجه الترمذي كتاب «القدر عن رسول الله» باب: «ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٩٨٧) .

نظريات المعرفة

يتبين مما سبق أن البشرية قد قررت منهجًا موثوقًا تبنى عليه علومها التجريبية وفق قانون المعرفة العلمية الذي سبق ذكره، وقررت أن ما يأتي من هذا الطريق هو العلم الموثوق، كما تبين مما سبق أن إيمان المسلم بالله ورسوله قام على ذلك المنهج العلمي قبل أن تعرفه البشرية بعشرة قرون إلى جانب ما يقوم عليه من أدلة قطعية أخرى يتميز بها المنهج الإيماني في ضوء القرآن والسنة لبيان حقائق الإيمان.

ولقد جعل الله سبحانه للعلم والمعرفة وسائل هي السمع والبصر والفؤاد ومصادر هي الوحي وآيات الله في الكون وإجابة الدعاء، وما فطر في النفوس، وما ركز في العقول من قواعد هادية يتوصل الإنسان بها إلى معرفة الحق.

نظريات المعرفة القديمة والحديثة:

لقد تاهت الإنسانية في مسالك غير صحيحة، حينما حاولت الوصول إلى المعرفة واليقين بعيداً عن منهج الله الخالق سبحانه.

ومن أبرز الأدلة على هذا التخبط ظهور النظريات المتعارضة والمتناقضة في هذا الباب، حيث إن كل فريق منهم ذهب يقرر ما يمليه عليه فهمه القاصر ونتائج تأملاته البشرية المحدودة، فخرجوا بما يعجب من قصوره الباحث المنصف، فَمِنْ قائل بعدم إمكانية المعرفة اليقينية للكائنات ومن هؤلاء من يقدح في الحس والعقل كطريقين للمعرفة، ومن مُنكر لوجود الموجودات، بل ولوجود نفسه ويُطلق عليهم (العنادية)، ومن شاكٍ في قدرة العقل والحواس على الوصول إلى المعرفة، بل يجعل طريق المعرفة عبر شخص معين قد يسميه إمامًا معصومًا كالفرق الباطنية.

وطائفة أخرى يبدأون طريق المعرفة بشك منهجي، فينطلقون من الشك في

أصول ومصادر المعرفة؛ ليصلوا إلى الإيمان، وآخرون يُقرون بوجود الحقيقة، وإمكان المعرفة البشرية، ولكنها عندهم معرفة نسبية، ومنهم من يرى أن الطريق العقلي هو سبيل المعرفة، ويُقابلهم من يرى أن الطريق التجريبي في عالم المادة هو أصل المعرفة.

ومن أعظم التخبط والضلال في أصل المعرفة، إنكار أصل المعرفة لإنكارهم الحواس والبديهيات ويطلق على هؤلاء (السوفسطائيون).

إلى غير ذلك من أنواع النظريات والطرق التي يبتغي منها الوصول إلى المعرفة، والتي تأثرت غالبًا بالبعد عن المنهج الإلهي في المعرفة، وبثقافات العصور المختلفة، وباختلاف عقول ومدارك أصحابها، وكذلك بأمزجتهم وأهوائهم وميولهم المختلفة [١]. وصدق الله العظيم إذْ يقول: ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [القصص: ٥٠].

هذا وقد شقيت البشرية بمثل هذه النظريات أزمنة طويلة من الدهر، قال تعالى مبينًا شقاء من أعرض عن هداه: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه: ١٢٤].

(١) انظر: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة للدكتور / راجح الكردي.

خاتمة

تبين لنا مما سبق أن الله خلق للإنسان وسائل للعلم والمعرفة تمكنه من العلم بربه عن طريق آياته التي بثها في الآفاق وفي النفس الإنسانية والتي جعلها الله آثاراً مشاهدة لبعض صفاته، فإذا نظرنا إلى آثار الرحمة الإلهية من حولنا عرفنا أن تلك الآثار من فعل من يتصف بالرحمة، والتفكر فيها يدل على أصل الصفة التي يتصف بها الخالق جلَّ وعلا، كما قال تعالى: ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ** ﴾

[الروم: ٥٠].

وكذلك بقية الآيات التي تمثل آثاراً مشاهدة منظورة لسائر صفات الله المتعلقة بأفعاله، كالعلم والحكمة والإرادة والقدرة والخبرة والحفظ والرزق والتصوير والإحياء، والإبداع والهداية والوحدانية، وسائر الصفات الجليلة التي تشهد بها آيات الله في مخلوقاته.

وهيا بنا لنتأمل في الفصلين التاليين في هذه الآيات في مملكة النبات وفي تدبير الرزاق الرحيم الحكيم؛ كي يصل رزقه إلى كل خلية في أجسامنا بعد أن قدر مخازنها في الأرض يوم خلقها.



الفصل الثاني

من آيات الله في النبات



مقدمة

خلق الله سبحانه بني آدم بعد أن هيأ لهم متطلبات الحياة كلها، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩].

فخلق الله آدم من تراب، واستخلفه في الأرض، وقدر له فيها رزقه فخلق النبات وجعله مصدراً لغذائه وبعض متطلباته الأخرى، كالطاقة الحرارية المتولدة عن حرق الأخشاب أو البترول والفحم ومشتقاتهما التي يعود أصلها إلى النبات.. وكصناعة الملابس من القُطن والكتان مباشرة أو من أصواف وأوبار وأشعار الحيوانات التي تتغذى على النبات.

... وكالدواء إما مباشرة من بعض النباتات أو بما يستخلص منها من دواء أو مما ينتجه الحيوان الذي يتغذى على تلك النباتات كعسل النحل.

... وكالمسكن، فمن أعواد النباتات وقشها وقصبها صنع الإنسان ومازال يصنع مساكنه لتقيه الحر والبرد ومخاطر البيئة فيأمن ويطمئن، بل إن كثيراً من البيوت في البلدان المتقدمة ماديًا مصنوعة من الخشب من أجل مقاومة آثار الزلازل المتكررة التي لا ينفع معها العمران الحديث بحديده وخرسانته.

كما أن الإنسان في البادية صنع خيامه من أصواف وأشعار الحيوانات التي تتغذى على النبات، ولولا أن سخر الله النبات لإنتاج غاز الأكسچين أثناء عملية البناء الضوئي لنفد الأكسچين في الجو وما بقي إنسان أو حيوان على قيد الحياة، وبدون الأكسچين الذي يساعد على الاشتعال تظل مصادر الوقود كنزًا لا فائدة منه.

وطبقة الأوزون التي تحمي الأرض وسكانها من الإشعاعات الكونية الضارة ما هي إلاَّ أكسچين ثلاثي الذرات مصدره مصانع النبات الخضراء.

ولا يقتصر الأمر على تقديم ما هو نافع للحياة، بل يتعداه إلى سَحب ما هو ضار بها، فالنبات بإذن الله يسحب ثاني أكسيد الكربون، فينقي الجو، ويستفيد منه النبات في عملية البناء الضوئي التي تقوم بها الحياة على البسيطة ويطلق الأكسچين الضروري لحياة الإنسان والكائنات الأخرى، وإلى جانب هذا كله جعل الله تعالى النباتات بهجة للناظرين بأوراقها الخضراء الغضة المتنوعة الأشكال وأزهارها الزاهية الألوان المختلفة التصميم وروائحها الذكية وأغصانها المتهادية، كما جعل حدائقها ترويحًا للنفوس بعد أن أقام بها بنيان الأجساد. قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ** (٦٠) ﴾ [النمل: ٦٠].

ومن تمام نعمة الله أن نشر النبات على سطح الأرض ونوَّعه وزوَّده بالقدرة على العيش في بيئات الأرض المختلفة متاعًا للناس ولأنعامهم في تلك البيئات وبهذا لا يعدم إنسان أو حيوان رزقه أينما كان، وجعلها سبحانه بالوفرة المناسبة كذلك في البحار والمحيطات التي تعج بالنباتات الدقيقة (المجهرية) غذاء لبلايين البلايين من الأسماك والأحياء البحرية التي تسد حاجات البشر الذين علم الله تعالى أنهم سيتكاثرون باطراد ويحتاجون إلى المزيد من الطعام.

إن الذي خلق النباتات لسد حاجات الإنسان والحيوان يعلم مقدمات الأشياء والأحداث ونتائجها ويقدر كل شيء بدقة فلا ترى في خلقه إلاَّ تناسقًا وانسجامًا وترابطًا وتكاملاً تشهد لكل عاقل أنها من صنع رب عليم، حكيم، رزاق، خبير.

وكما جعل الله الوجود الإنساني ممتداً عبر الزمان على الأرض بتعاقب الأجيال البشرية، جعل وجود النبات ممتداً على الأرض كذلك بتعاقب أجيال النباتات ليتوفر بذلك على الدوام كل ما يحتاج إليه الإنسان من عالم النبات.

فهيا إلى عالم النبات البهيج لنرى آيات ربنا الخالق البديع سبحانه.

النبات وغذاء الكائنات

إذا تأملت في غذائك في كل أطوارك، وغذاء جميع الكائنات من حيوان ونبات في كل أطوارها وجدت أن أصل الغذاء للإنسان والحيوان هو النبات، ومصنع الغذاء في النبات هو ذلك المصنع الأخضر «البلاستيدة الخضراء» الذي يوجد في أوراق النباتات ويُنتج غذاء الكائنات كلها دون ضجيج أو مخلفات تُفسد البيئة.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا [١] نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ [الأنعام: ٩٩].

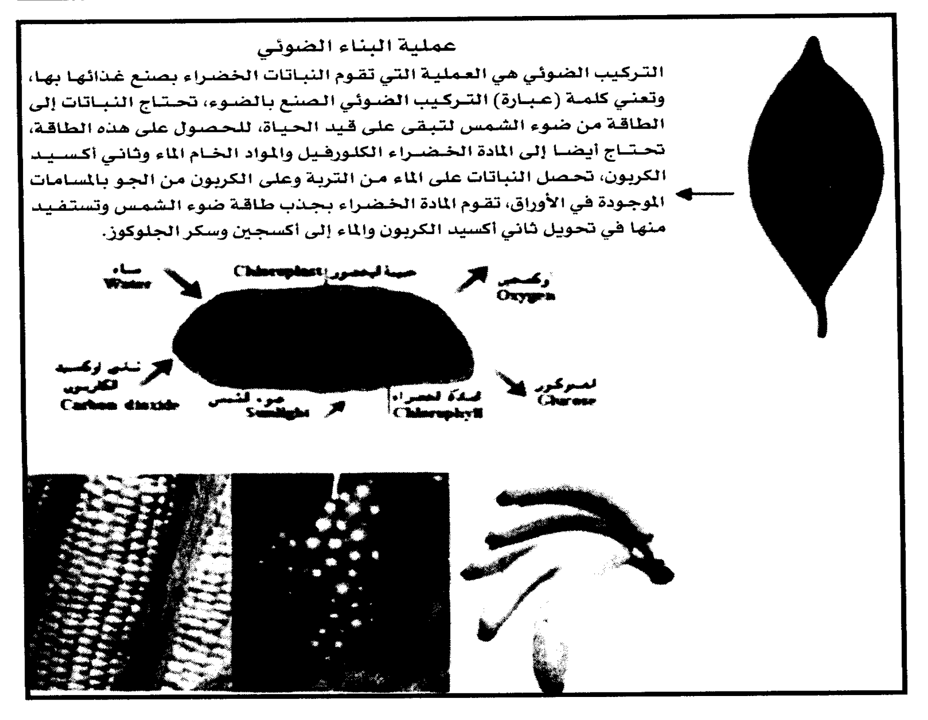
وبعد دراسة المصنع الأخضر مدة ثلاثة قرون أمَّل علماء الحياة ومهندسو القرن العشرين في أن يحاكوا عمل المصنع الأخضر في النبات، لكنهم عجزوا عن ذلك لتميز الخلية النباتية ببنية دقيقة معقدة [٢]، ولما أودع الله فيها من قدرة على التجدد، ولتعلق ذلك بسر الحياة الذي أودعه الله فيها، وخفي على الباحثين!!.

فتأمل أيها العاقل في توقف حياتك وحياة الكائنات جميعها على عمل هذا المصنع ونتاجه، والذي لو توقف فلن ينجح علماء البشر بما لديهم من معامل وعلوم أن يصنعوا لأنفسهم ما يتغذون به فضلاً عن أن يصنعوه لغيرهم من الحيوانات والنباتات.

---

(١) **الخضر**: هو البلاستيدات الخضراء التي توجد في أوراق النبات.

(٢) راجع موسوعة النبات العام للدكتور / عبد العزيز الصباغ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٩م (ص١٥).



وإذا كان العلم البشري مع ما يملك من عبقريات ومصانع ومختبرات يقف عاجزاً، فهل تفلح الصدف العشوائية الطبيعية في إنشاء وتنظيم وإدارة مصانع الرزق الوحيدة على وجه الأرض؟!.

أفلا يكفي ذلك كل عاقل ليعترف لربه الرزاق بنعمه، ويشكُرَهُ على ما حباه من أرزاق، وصدق الله القائل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ③ ﴾ [فاطر: ٣].

فأين تتجهون أيها المعاندون؟ وبأي آيات الله تجحدون؟

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ [١] وَنُفُورٍ (٢١) ﴾
[الملك: ٢١].

وانظر إلى طعامك أيها الإنسان، كيف صنعته المصانع الخضراء؟ [٢]، وكيف سحب منها ليتجمع في سنابل الحب، وعناقيد الفاكهة، ودرنات الجذور، وحبات الثمار المختلفة الألوان والمذاق؟

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢) ﴾ [عبس: ٢٩ - ٣٢].

وتأمل كيف خُلِقَ لك جهازُ هضمٍ يحولها إلى المادة المطلوبة لغذاء خلايا جسمك!، وكيف امتصت تلك المواد الغذائية المفيدة من بين فرث الأمعاء!، وتأمل كيف حملها الدم إلى كل خلية في جسمك، أفلا نشكر الرزاق؟، أفلا نعبد الخلاق سبحانه؟!.

---

(١) **لجّوا في عتو ونفور**: تمادوا في استكبار ونفور عن الحق.
(٢) راجع الجزء الأول من علم الإيمان (ص٢٦٩ - ٢٧٦).

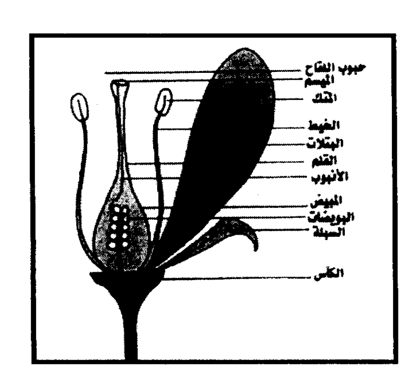
آيات المنعم الحكيم سبحانه
في بقاء النوع وتكاثره

إن الذي قدَّر للنبات دوره المهم في توفير الطعام للكائنات الحية وفي تنقية الهواء، وإمداد الإنسان بالملبس، والوقود، وإشاعة البهجة والسرور، قد قدَّر نظامًا محكمًا بديعًا لضمان استمرار وجود النباتات لتؤدي وظيفتها على الأرض، ويتمثل هذا النظام في وسائل وطرائق التكاثر في النبات لتغطية النقص بسبب الاستهلاك الدائم لها، وما قد تتعرض له من كوارث وسوء استعمال من قبل الإنسان، فجعل الباري سبحانه طرائق متعددة للتكاثر هي :

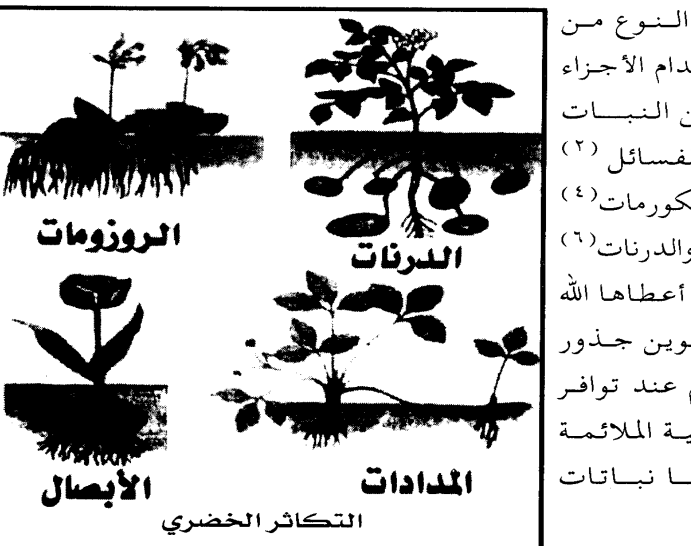
١ - التكاثر الجنسي:

خلق الله في النباتات أعضاء تذكير (المُتُك) تنتج حبوب اللقاح، وأعضاء تأنيث (المبايض) تنتج البويضات؛ لتنشأ الأجنة النباتية من التزاوج بين أعضاء التذكير والتأنيث قال تعالى : ﴿ **وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ . . .** ﴾ [الرعد : ٣ – ٦].





٢ - التكاثر الخضري (اللاجنسي):



التكاثر الخضري

ويتم هذا النوع من التكاثر باستخدام الأجزاء الخضرية من النباتات كالمدادات(١) والفسائل (٢) والأبصال (٣) والكورمات(٤) والريزومات (٥) والدرنات(٦) وهذه الأجزاء أعطاها الله القدرة على تكوين جذور عرضية وبراعم عند توافر الظروف البيئية الملائمة فتتكون منها نباتات جديدة.

---

(١) **المدادات**: ساق فرعية ممتدة من الساق الرئيسة تكون جذوراً في التربة ينشأ عنها نباتات جديدة كما في الفراولة.

(٢) **الفسائل**: جمع فسيلة وهي جزء من النبات يفصل عنه ويغرس.

(٣) **الأبصال**: ساق قصير محاط بأوراق حرشفية تحتوي على مواد غذائية مخزونة، يتضخم هذا الساق ليكون بصلة جديدة كما في البصل.

(٤) **الكرمة**: ساق قصيرة ثخينة شبيهة بالبصلة، في فصل الربيع تنمو البراعم الموجودة عليها مكونة كرمة جديدة فوقها.

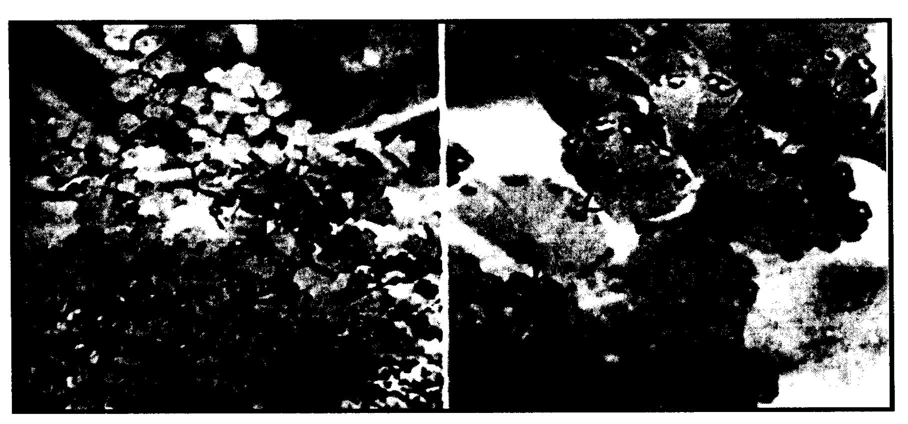
(٥) **الريزوم**: ساق ثخين ذو أوراق حرشفية ينمو أفقيًا تحت سطح التربة وينتج على مدى طوله جذوراً وبراعم تنمو منها فروع جديدة كما في النعناع.

(٦) **الدرنات**: ساق قصير ممتلئ مطمور تحت التربة يحتوي على مواد غذائية مخزنة، وينتج براعم تنمو منها النباتات الجديدة كما في البطاطس. للمزيد راجع معجم البيولوجيا المصور، تأليف: كورين ستوكلي، الطبعة العربية (ص٣٤، ٣٥)، وكتاب الأحياء للصف العاشر وزارة التربية والتعليم بالمملكة الأردنية الهاشمية (ص١٥٥)، وكتاب «النبات العام» للدكتور أحمد محمد مجاهد وآخرين، مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة السادسة (ص٧٥).

٣ - التكاثر بتعاقب الأجيال:

بعض النباتات منحها الله القدرة على التكاثر الجنسي واللاجنسي [١] ويتم التكاثر بأي منهما حسب الظروف المحيطة، فيحصل على مميزاتهما معًا في تحقيق سرعة التكاثر باللاجنسي، والتنوع الوراثي بالجنسي بما يمكنه من الانتشار ومسايرة تقلبات البيئة مثل كزبرة البئر التي تتكاثر بالجراثيم ثم بالأمشاج [٢].

وقد نوّع الحكيم العليم طرائق التكاثر هذه لبقاء أنواع النباتات تحت الظروف البيئية المختلفة لتوفير ما يحتاج الإنسان إليه على الدوام.



نبات كزبرة البئر

---

(١) عن طريق الجراثيم.
(٢) راجع رحلة إلى عالم النبات قرص مدمج.

آية نقل حبوب اللقاح

لما قضى الله أن يكون النبات ثابتًا في مكانه تكفل سبحانه بإيصال حبوب اللقاح من الزهرة المذكرة إلى الزهرة المؤنثة أو من عضو التذكير إلى عضو التأنيث في نفس الزهرة ثنائية الجنس [1] لإنجاز عملية الإخصاب، وخلق لها سبحانه من الوسائل ما ييسر لها تزاوجا وجنّد لها مخلوقاته من إنسان وحيوان وريح وماء، والكل يؤدي دوره كما قدر له ربه سبحانه.

أولاً - النقل بواسطة الرياح:

سخر الله الرياح لحمل حبوب اللقاح من الأزهار المذكرة إلى الأزهار المؤنثة. وخلق سبحانه حبوب اللقاح بكميات كثيرة لضمان تلقيح الأزهار المطلوبة، ويسّر العليم الحكيم نقل حبوب اللقاح، فجعل حوامل الأزهار المذكرة متدلية، بحيث يمكن لأخف نسيم أن يحركها، فتتناثر حبوب اللقاح وتطير مع الهواء إلى الأعضاء الأنثوية التي جعلها الله ريشية مكشوفة أمام الهواء للإمساك بحبوب اللقاح، ولم يجعل الخالق جل وعلا لهذا النوع من الأزهار رحيقًا أو روائح كما للأزهار التي تعتمد على الحشرات والحيوانات في تلقيحها لعلمه سبحانه أن الرياح لا تحتاج إلى هذه المحفزات للقيام بمهمة التلقيح.

وجعل الله نباتات المحاصيل - التي يحتاج إليها الإنسان بكميات كبيرة - من النوع الذي يتلقح بالرياح؛ لأنها الوسيلة التي يتحقق بها التلقيح على أوسع مدى.

فمن سَخَر الأزهار لإنتاج حبوب اللقاح بكميات كبيرة لضمان تلقيح

---

(١) وهي التي تحمل الأعضاء التناسلية الذكرية والأنثوية في نفس الزهرة وتُسمى هذه النباتات بالخنثوية، وهناك نباتات تُسمى أحادية المسكن، وهي التي تحمل أزهاراً أنوثية وأزهاراً ذكرية كالذرة الشامية.


لاحظ تناثر حبوب اللقاح في الهواء

المياسم الناضجة من تلك الأزهار؟ ومَن جعل حوامل حبوب اللقاح متدلية تتأثر بأدنى حركة للرياح؟ وجعل المياسم الأنثوية ريشية مكشوفة للإمساك بحبوب اللقاح الطائرة؟ ومن أوجَدَ التناسق البديع بين الرياح وحبوب اللقاح والمياسم إلاَّ العليم بما خلق، الحكيم فيما أبدع، القائل: ﴿ **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ** ﴾[الحجر: ٢٢].

ثانيًا - النقل بواسطة الحشرات:

وهناك أزهار أخرى لا تتلقح بالرياح لاختلاف تركيبها عن تلك السابقة[١]، فجعل الله لها وسيلة أخرى لتلقيحها وهي الحشرات، وجعل سبحانه في هذه الأنواع من الأزهار جواذب للحشرات كالرحيق وحبوب اللقاح والألوان الجميلة، وجعل الهادي سبحانه لبتلات الزهور بقعًا أو خطوطًا برّاقة تحدد المسار إلى مخزن الرحيق.

انظر آثار علم الله وخبرته وحكمته وقدرته في هذا التناسب بين الأزهار والحشرات الناقلة لحبوب اللقاح

وسخّر الله للأزهار – التي مخازن الرحيق فيها عميقة – حشرات مُلقِّحة ذات خراطيم طويلة كالنحل والفراشات، أما الأزهار التي مخازن الرحيق فيها قريبة فقد سخّر الله لها حشرات مُلقِّحة ذات خراطيم قصيرة كالذباب والخنافس، وهكذا تزور الأزهار المختلفة حشرات تتناسب معها.

(١) لقلّة حبوب اللقاح، ولأن أعضاء التذكير والتأنيث قد تكون محتجبة عن مهب الرياح.

وأثناء زيارة الحشرة للزهرة تلتصق حبوب اللقاح على جسمها، وعند زيارتها لزهرة أخرى من نفس النوع تنقل حبوب اللقاح إلى عضو التأنيث فيها حيث تكون أجزاء الزهرة مصممة بإحكام يتناسب مع نوع الحشرات الحاملة لحبوب اللقاح.



لاحظ قدرة المولى جل وعلا الذي أوجد التشابه بين زهرة سحلبية النحل وبين أنثى النحل لتتم عملية نقل حبوب اللقاح بين هذا النوع من الأزهار.

بل إن زهرة سحلبية النحل [١] جعل لها الباري عز وجل تركيبًا يُشبه أنثى النحل، وتنتج نفس رائحتها، فيتوهم ذكر النحل أنها حشرة أنثى من نوعه! وقد أبدع الله تصميم هذا النوع من الأزهار بحيث إذا وقفت الحشرة الذكر عليها لامَسَ رأسُها أعضاء التذكير في الزهرة فيتعفر بحبوب اللقاح ويحمله إلى زهرة أخرى لتلقيحها.

فانظر إلى آيات ربك التي تدلنا على حكمته سبحانه وعلمه ورحمته، وسلْ نفسك مَنْ وزَّع هذه التخصصات في هذه المخلوقات الضعيفة؟ ومَنْ حدَّد طرق مسارها وهداها إلى أداء وظيفتها فلا تضل الطريق، ولا يدخل مَيْسَم زهرة لقاحٌ دخيلٌ غريب عن نوعها؟ مَنْ إلاَّ الله.

وتأمل الزهرة الفخ التي تقتنص الحشرة لا من أجل التغذي عليها، بل من أجل تحميلها حبوب اللقاح إلى أعضاء التأنيث في زهرة أخرى من نفس النوع والتي تفعل بالحشرة الناقلة نفس الشيء من أجل تفريغ تلك الحمولة من حبوب اللقاح لتتم عملية التلقيح.

---

(١) السحلبي «الأركيد» Ophrys Speculum «أوفريس سبيكولوم» ، انظر مجلة العلوم الأمريكية المجلد (٦) العدد (١ ص٤٥) .

وزهرة الأرسمية [١] تنتج رائحة اللحم المتعفن لتجذب بها الذباب ليدخل قاعة مغلقة، ولا يمكن للذباب أن يهرب إلاّ عندما تفتح بوابة فوهة الزهرة، وحينها تكون الذبابة قد كسيت باللقاح في أثناء صراعها من أجل الخروج، وعندما تنتقل إلى زهرة أخرى من نفس النوع تجذبها نفس الرائحة وتحتضنها الزهرة لأخذ حبوب اللقاح التي علقت في جسمها من الزهرة المذكرة، فإذا ما تم التلقيح أطلقت سراحها.

أما السحلبية الأرجوانية [٢] المبكرة فليس عندها قاعة للسجن المؤقت، بل لها مئابر [٣] محملة بلوالب تنغلق على النحلة الزائرة في عملية تصفيد مؤقت، وصراع النحلة للخلاص يفرغ كيس اللقاح فوق ظهرها، ثم تطير إلى زهرة أخرى من النوع نفسه لتلقى المصير نفسه حتى تطلق اللقاح على ميسمها.

فمن هدى الزهرة أن تُنتج الرائحة التي تجذب الحشرة المناسبة لتلقيحها، ومن أمر الحشرة أن تنجذب لتلك الرائحة المخصوصة؟.

من علَّم الزهرة المذكرة حَبْك فخها المناسب لتلك الحشرة؟ وعلَّم الزهرة الأنثى أن تحبك نفس الفخ لنفس الحشرة؟ ومن حفّز الحشرة أن تسير إلى الفخ؟ مَنْ غير الخالق الفعال لما يريد.

ومن أحكم تركيب تلك الزهور مع أجسام تلك الحشرات للتزاوج بين النباتات؟ مَنْ غير العليم الخبير سبحانه القائل: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ** (٣٦) ﴾ [يس: ٣٦].

وهل يقبل العقل السَّوي أن ينسب كل هذه الأحكام والتقدير والتدبير إلى الصدفة والعشوائية كما يزعم الكافرون؟!.

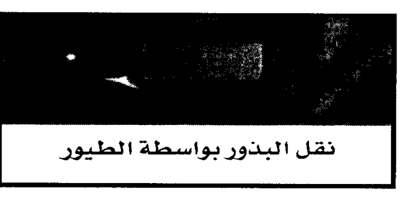
---

(١) **زهرة الأرسمية**: عشبة أمريكية.
(٢) **السحلبية الأرجوانية**: نوع من الزهور.
(٣) **مئابر**: أعضاء التذكير في الزهرة.

آية نقل البذور ونشرها

لم يحصر الباري سبحانه النباتات في أماكن محدودة، بل يسر لها من الوسائل ما يؤدي إلى انتشارها وعدم انحصارها في مكان واحد من أجل توفير الرزق للناس والدواب في كل مكان على سطح الأرض.

١ - فمن البذور ما يُنقل بواسطة الحيوانات:


نقل البذور بواسطة الطيور

(أ) فالطيور تجذبها الألوان الزهية للثمار الناضجة [١]؛ لتأكلها فتطرح البذور غير المهضومة مع فضلاتها لتنبت في أماكن أخرى.

(ب) والخفافيش بما منحها الله سبحانه من أسنان وحاسة شم جيدة تُمكنها من الاهتداء إلى ثمار المانجو، فتمتص عصيرها، ثم تلفظ بذورها الصلبة لتنمو في مكان آخر.

(ج) وتجمع بعض الحيوانات الصغيرة [٢] الثمار، وتخزنها في مكان آخر فتنبت فيه فسبحان الذي سخر هذه الحيوانات لوضع هذه البذور في أماكن جديدة وهداها لوضعها في المكان المناسب، لتنبت في الوقت المناسب.

(د) وسخر الله النمل لنقل بذور زهرة الربيع[٣] إلى مخابئه تحت الأرض وجعل على هذه البذور مادة غذائية يستفيد منها النمل كمكافأة له تاركًا البذرة

---

(١) أما الثمار غير الناضجة فلا تكون لها ألوان زاهية تجذب الطيور حتى لا تُؤكل قبل اكتمال بذورها.

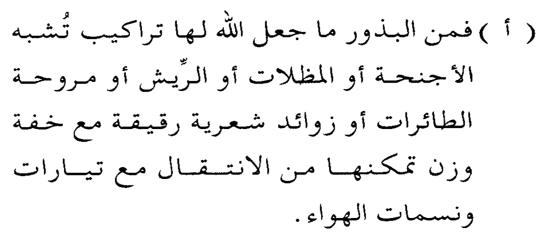
(٢) كالسناجب والفئران التي تخزن ثمار بلوط الزان والبندق تحت الأرض (تدفنها) فتنساها، فتُنبت بذورها وتنمو.

(٣) انظر الموسوعة العلمية الشاملة (ص٣١٩).

لتنبت في مكان آمن. فَمَنْ سَخَّر تلك النملة لنقل هذه البذور وحمايتها من الحيوانات والطيور لتضعها تحت سطح التربة، ومَنْ جعل على تلك البذور ما يُغْري النملة لحملها والاستفادة من المادة المغذية الملتصقة بها؟ إنه الله الرزاق الحافظ سبحانه.

(هـ) وجعل الله لبعض البذور أشواكًا مدببة أو مواد صمغية تمكنها من التعلق بأجسام الحيوانات وملابس العمال لتنقل إلى أماكن أخرى.

٢ - ومنها ما ينقل بطرق أخرى:



بذور ذات شعيرات زغبية تساعدها على الانتشار بواسطة الهواء

(أ) فمن البذور ما جعل الله لها تراكيب تُشبه الأجنحة أو المظلات أو الرِّيش أو مروحة الطائرات أو زوائد شعرية رقيقة مع خفة وزن تمكنها من الانتقال مع تيارات ونسمات الهواء.

(ب) ومنها ما ينقل بواسطة مياه السيول والأنهار إلى مسافات طويلة.

(ج) وتنتقل بذور بعض النباتات بانفجار ثمارها، فتندفع إلى مسافات بعيدة عن الشجرة الأم [١].

فسبحان العليم الحليم الرزاق الخبير الحافظ الذي خلق للنبات وسائط نقل تحمل بذوره فيذرأها في بقاع الأرض، وإلاَّ لظَلَّ كل نبات في موقع ضيق يتنافس عليه الآباء والأبناء.

---

(١) راجع معجم البيولوچيا المصور الطبعة العربية (ص٣٢)، الحياة الخاصة للنباتات فيلم علمي إنتاج قناة الجزيرة.

آية نمو النبات بميزان وتقدير

ومن آيات الله في النبات ما نشاهده في نمو النباتات بميزان دقيق، وتقدير حكيم، قدره الله في بذور أو أصول تلك النباتات، فلا تحيد عنه، فينمو كل جزء في النبات وفق ذلك التقدير الخاص به، فلكل نوع من النبات: جذر، وساق، وأوراق، وأزهار، وثمار تميز ذلك النوع عن سائر الأنواع الأخرى في شكله وصورته، وحجمه، ومادته وتركيبه، ولونه وطعمه ورائحته، وفي علاقة أجزاء النبات ببعضها، ولولا ذلك التقدير الدقيق الذي يتخضع له النباتات في نموها لاختل النمو في أعضاء وأجزاء تلك النباتات، وربما طغى نوع على سائر الأنواع كما يجر ذلك إلى اختلال الموازين التي تضبط علاقة النباتات بالتربة، والماء، والهواء، والحيوان، والإنسان.

إن ذلك التقدير والميزان، يبدأ بتقدير ما يمتص من الماء، والهواء، والأملاح، فلا يدخل عنصر إلى كل نوع من النبات إلاَّ بالقدر المحدد الدقيق المناسب لذلك النوع وتعمل الموازين عملها للتحكم فيما يصنعه كل نوع من أنواع النبات وينتجه من تلك المواد التي امتصها.

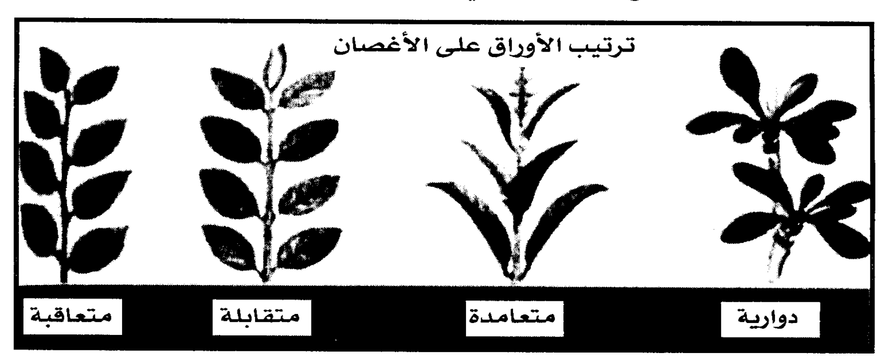
ثم يتجلى التقدير المحكم، والميزان الدقيق فيما يأخذه ذلك النوع من النبات من المواد التي أنتجها ليصنع منها خلاياه وأنسجته وأعضاءه الخاصة به، بذرة الفول تُنبت نبات الفول، ونبات الفول يُنتج حبوب الفول، وحبة القمح تنتج زرع القمح، وزرع القمح ينتج حب القمح، ولا يقع خطأ في ذلك، وهكذا سائر أنواع النباتات مع أن الكل يُسقَى بماءٍ واحد وينبت في أرض واحدة، فمن هدى كل نبات لمقادير ما يأخذه من الأرض، وموازين لصناعة ما يحتاج إليه من المواد، والطريقة الحكيمة لتركيب خلاياه وأجزائه بأشكالها وأحجامها، وألوانها،

ومقاديرها الخاصة بذلك النوع من النبات؟ من إلاَّ الذي قال في كتابه: ﴿ **وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ**[1] **يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد: ٤]، والقائل: ﴿ **وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ** ﴿١٩﴾ ﴾ [الحجر: ١٩].

وتأمل في ذلك التوازن المحكم بين طول ساق النبات وما يتفرع منه من أغصان وبين عمق الجذر وما يتفرع منه من جذور بما يحقق ثبات النبات وصموده أمام العوامل المهددة لثباته كالرياح والأمطار والحيوانات.

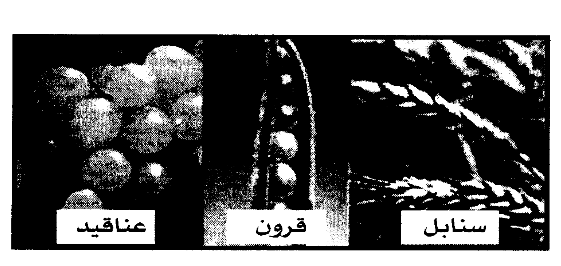
وتأمل في توزيع وتبادل الأغصان على سوق النباتات وتوزيع الأوراق وتبادلها على تلك الأغصان، بما يحقق التوازن في جسم النبات، ويضمن تعريض المصانع الخضراء في الأوراق لضوء الشمس الضروري لتلك المصانع.

فمن الذي هدى كل غصن وورقة إلى موقعها الصحيح، واتجاهها الصحيح، فإذا خرج غصن من جهة على الساق لا يخرج غصن تالٍ من نفس الجهة، وإذا خرجت ورقة من الساق أو الغصن من جهة، فإن الورقة التالية تخرج من جهة أخرى مقابلة ولا تخرج من الجهة التي خرجت منها أختها التي قبلها، فسبحان



(١) **الصنو**: النظير والمثيل. والصنو: الفسيلة المتفرعة مع غيرها من أصل شجرة واحدة.

﴿ الَّذي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) ﴾ [الأعلى : ٢ ، ٣]، و﴿ الَّذي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه : ٥٠] .



وانظر إلى آثار اللطيف الرحيم الخبير الذي سهل على الإنسان جمع الغلال والثمار من هذه النباتات، فجعل الحبات الصغيرة في سنابل أو قرون تجمع فيها الحبوب، وجعل حبات الثمار الصغيرة مجموعة في عناقيد، ولو توزعت تلك الحبوب في جسم النبات لشق على الإنسان جمعها.

وانظر كيف جعل الخالق الأشجار التي أعدها لأخذ الأخشاب طويلة سامقة قد تصل إلى ارتفاع مئة متر، بينما جعل نباتات المراعي ذات أعشاب قصيرة متشابكة تصلح طعامًا للأنعام والحيوان، وجعل بعض النباتات صغيرًا جداً كالطحالب في البحار والمحيطات لتصلح غذاءً لكائنات مجهرية تغذي الأسماك الصغيرة لتصبح بدورها غذاء لأسماك أكبر منها.

آية الإبداع والإحكام

تتجلى آية الإبداع والإحكام في جميع المخلوقات ومنها النباتات، فإذا تفكرنا في عالم النبات وجدنا أن كل جزء منها قد رُكِّب تركيبًا محكمًا يتناسب مع الوظيفة التي يؤديها، وقدَّر الله ذلك في نواة الخلية التي ينمو منها النبات، فالجذر وشكله ونوعه وعدد شعيراته وعمقه في التربة وتفريعاته وتناسبه مع بيئته، والساق وشكله وكل فرع عليه وعدد فروعه وترتيبها على السيقان، والغصن وعدد أوراقه وموضعها وحجمها وشكلها وتركيبها، والزهرة وموقعها وشكلها ونوعها ولونها ورائحتها وترتيب محيطاتها، والثمرة وحجمها ولونها وطعمها ورائحتها ومحتواها من الغذاء، كل ذلك أبدعه الخالق البديع وقدّره ووضع الأوامر لصنعه في أجزاء دقيقة من الخلية النباتية تسمى حاملة الوراثة (الكروموسومات) وهي لاتزال في داخل البذرة الصغيرة.

الإبداع والإحكام في الجذور:

وظيفة الجذور تثبيت النبات في التربة التحتية وامتصاص الماء ومواد التغذية الأخرى بالقدر الذي يحتاج إليه النبات، وتبعًا لذلك فقد جعلها الخالق البديع سبحانه أنواعا متعددة.

أولاً: الجذور الوتدية والتي قدّر الخالق أشكالها المناسبة لتحقيق وظائفها، فمنها الوتدي الأسطواني الذي يكون طويلاً متفرعًا يتكون من جذر أصلي ومجموعة من الجذور الثانوية المتفرعة بدورها إلى جذور ثلاثة كما في جذور القطن وكثير من النباتات العشبية كالبرسيم وكثير من الأشجار كالصنوبر.

وقد يختزن الجذر الوتدي الغذاء ويتضخم، ويسمى جذراً وتديًا درنيًا، وقد يكون الجذر الوتدي الدرني مغزليًا كالفجل، أو مخروطيًا كالجزر أو متكوراً

كـاللِّفت، وهـذا التنوع في شكـل الجـذر يتـلاءم مع المخزون الغـذائي ونوعـه، ومع طبيعة النبات وطبيعة الأرض التي ينمو عليها.

ثانياً: الجذور العرضية وتتكون على السيقان الأرضية في الأبصال والدرنات والكورمات والرَيزُومات والعُقَل [١] .

وقد تخرج هذه الجذور العقدية الأرضية لكثير من النباتات التي لها سوق قائمة كالقمح، أو قد تخرج من العقد التي توجد فوق سطح التربة مباشرة مثل الذرة، وهي أنواع فمنها: الليفي [٢] الذي يحل محل الجذر الأصلي، ومنها الدعامي [٣] الذي يعمل كدعامات للنبات، ومنها الدرني [٤] الذي يختزن الغذاء، ومنها الشاد[٥] الذي يجذب الأبصال إلى أعماق التربة، ومنها الهوائي[٦] الذي يمتد في الهواء حتى يصل إلى سطح التربة لتثبيت النبات وزيادة امتصاص الماء والأملاح، ومنها الجذور المتسلقة [٧] التي تخرج من السيقان

(١) سبق تعريفها.

(٢) **الجذور الليفية**: وهذه تحل محل الجذر الأصلي الذي يتوقف عن النمو في أطواره المبكرة بعد أداء دوره المنوط به في تلك الفترة وجعلها البديع سبحانه رقيقة وأخرجها من العقد الأرضية الموجودة في قاعدة الساق.

(٣) **الجذور الدعامية**: وتعمل كدعامات تساعد على تثبيت النبات في التربة وتخرج من العقد التي توجد فوق سطح التربة مباشرة وقد جعلها البديع سبحانه قوية؛ لتتناسب مع ما تقوم به من تدعيم النبات وتثبيته كما في نبات الذرة.

(٤) **الجذور الدرنية**: أبدعها الخالق جلَّ وعلا، فجعلها متضخمة تختزن المواد الغذائية، وتنشأ من جذور عرضية ليفية تتضخم لاختزانها الغذاء كما في البطاطا الحلوة.

(٥) **جذور شادة**: وهي مجموعة من الجذور توجد على بعض أنواع الأبصال وقد أحكم البديع خلقها إذْ جعلها لولبية متقلصة تعمل بتقلصاتها على جذب البصلة إلى أسفل وتثبيتها في مكان عميق مناسب لها في التربة.

(٦) **جذور هوائية**: وهي تخرج من السيقان الهوائية متجهة إلى أسفل وتمتد في الهواء حتى تصل إلى سطح الأرض كما في نبات التين البنغالي وتعمل هذه الجذور كدعامات؛ لتثبيت النبات وحمل الفروع وزيادة القدرة على امتصاص الماء والغذاء من التربة.

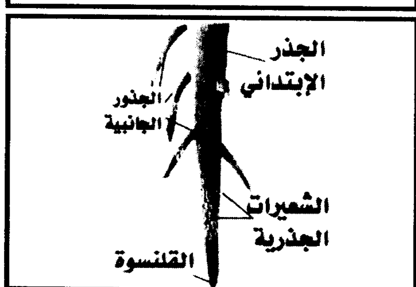
(٧) **جذور متسلقة**: تخرج من سيقان بعض النباتات المتسلقة فتُساعد على تثبيتها على الدعامات التي تتسلق عليها، ولكي تتناسب مع وظيفتها جعلها البديع الحكيم قصيرة تتجه عكس الجاذبية كما في نبات الشمع.

لتثبيت النبات على الدعامات التي يتسلق عليها النبات، ومنها الجذور التنفسية[١] لتوفير الهواء للنباتات المغمورة بالتربة المشبعة بالماء ومنها الجذور الطفيلية [٢] التي تتطفل على النباتات الأخرى [٣] .









(١)**جذور تنفسية** : يُخرجها الله من أجزاء النباتات المغمورة في التربة رديئة التهوية نتيجة لتشبعها بالماء وزوّدها البديع سبحانه بعديسات تنتشر على سطحها، وظيفتها تبادل الغازات بين الهواء الجوي والفراغات الهوائية التي تتخلل أنسجة الجذور النباتية كما في نبات الشورة .

(٢)**جذور ماصة طفيلية** : وهي جذور عرضية تخرج من بعض سيقان النباتات الجذرية المتطفلة وتخترق أنسجة النبات العائل لها؛ لتحصل منه على الغذاء المجهّز اللازم لها كما في نبات الهالوك، ومن خلال استعراضنا لأنواع الجذور المختلفة نجد أن الوظيفة الأساسية للجذور واحدة إلاّ أن البديع سبحانه قد جعل تنوعها بين دعامية ودرنية وشادة وهوائية ومتسلقة وتنفسية وماصة وغيرها لتؤدي وظائف أخرى أو لتتناسب مع نوع النبات أو نوع التربة أو طريقة التغذية، وهذا التنوع شاهدٌ بإبداع الخالق جلّ وعلا بديع السماوات والأرض .

(٣)بتصرف من موسوعة النبات العام للدكتور عبد العزيز الصباغ (ص٢٤٦)، والنبات العام، تأليف د/أحمد محمد مجاهد وآخرون، ط السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية (ص٤٣) .

الإبداع والإحكام في السيقان:

وأبدع الخلاق العليم السيقان ونوّعها في أحجامها وأشكالها وتركيبها الداخلي وطريقة نموها في الأنواع النباتية المختلفة، فقد يتراوح طولها من بضعة سنتيمترات كما في الأعشاب إلى عشرات الأمتار كما في الأشجار الضخمة، كما جعلها البديع سبحانه تختلف في سمكها من بضعة ملليمترات إلى بضعة أمتار، ومن حيث الصلابة والليونة فجعلها في الأشجار الكبيرة والصغيرة صلبة وجعلها في الحشائش والأعشاب الصغيرة غضة رقيقة يسهل قضمها وأكلها، ونوَّع البديع سبحانه طريقة نموها، فمنها ما ينمو رأسيًا إلى أعلى مثل سيقان معظم النباتات، ومنها ما ينمو زاحفًا على سطح الأرض مثل القرع والخيار والبطيخ أو متسلقًا مثل ساق العنب أو ملتفًا حول دعامات مثل اللوبيا والعُلِّيق.

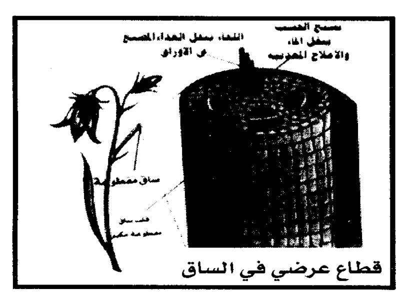
ولكي تتلاءم النباتات مع البيئات التي تنمو فيها خلق البارئ سبحانه سيقان النباتات على نحو يظهر فيه الإبداع والإحكام في الصنع، فمن السيقان ما يكون ورقيًا مفلطحًا يقوم بعملية البناء الضوئي مثل كشك الماز – السفندر.


سيقان عصيرية

ومنها العصيرية المتشحمة التي تختزن في أنسجتها الماء والغذاء وتقوم بوظيفة البناء الضوئي أيضًا، ومن أمثلتها نبات التين الشوكي، ومنها السيقان الشوكية والتي أبدعها البديع من أجل حماية النباتات من الحيوانات، ومن أجل اختزال سطحها الناتح؛ ليقلل من خروج الماء كما في نبات السلة الصحراوي ونبات العاقول [١] إلى غير ذلك من الإبداعات المتنوعة والمناسبة لنوع النبات وبيئته التي يعيش فيها، وإذا نظرنا داخل

(١) بتصرف من كتاب النبات العام (ص٥٣ – ٧٤).

هذه السيقان، فسنجد الإبداع يتمثل في شبكة النقل المتخصصة المتمثلة في تلك الأوعية التي تنقل المياه والأملاح المعدنية من التربة وتوصلها إلى كل جزء في النبات بموازين دقيقة ومقادير مضبوطة خاصة بكل نبات، وإلى جانبها شبكة أخرى متخصصة في نقل المواد الغذائية المصنعة في المصانع الخضراء؛ لتصل عبرها إلى كل خلية في النبات، ومع صغر هذه الأنيبيات الناقلة وتقاربها فلا يحدث تداخل بينها مع أنها من أعقد شبكات النقل، فسبحان الحكيم العليم الرزاق البديع.


قطاع عرضي في الساق

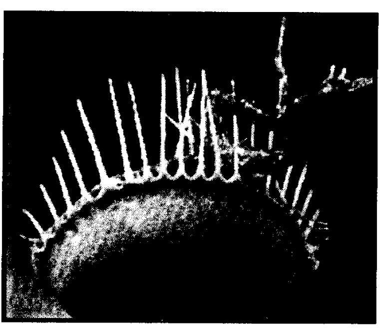
الإبداع والإحكام في الأوراق:

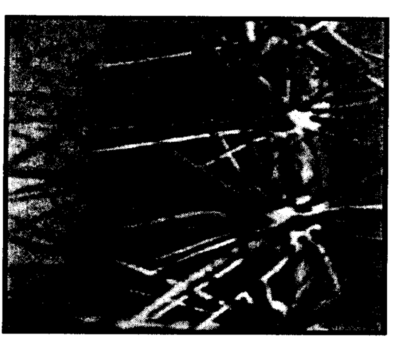
ولأن النبات ثابت في مكانه لا يتحرك بحثًا عن الغذاء فإن الخالق البديع جعل له أوراقًا وأحكم خلقها وجعلها منبسطة رقيقة خضراء تحتوي على ملايين المصانع الخضراء التي تقوم بعملية البناء الضوئي وتكوين المواد الغذائية، وقد أبدع الله خلقها وتصويرها وترتيبها على السيقان والأغصان؛ لتقوم بهذا الدور المهم، فأخرج الله في بعض النباتات ورقة واحدة من كل عقدة وجعلها تتبادل المواضع فيما بينها على محيط الساق حتى لا يقع ظل واحدة على الأخرى، فتستقبل ضوء الشمس وتحوله من طاقة ضوئية إلى طاقة كيميائية غذائية يستفيد منها الإنسان والحيوان والنبات ويُسمى التوزيع في هذه الحالة توزيعًا متبادلاً.

أو تكون ورقتان متقابلتان من كل عقدة فيسمَّى التوزيع متقابلاً كما في الياسمين، وتكون أزواج الأوراق غالبًا في مستويات متعامدة، بحيث إذا اتجهت الورقتان المتقابلتان في إحدى العقد شرقًا وغربًا اتجهت الورقتان اللتان تليانهما من أعلى ومن أسفل ناحية الشمال والجنوب، فيُقال للأوراق في هذه الحالة متقابلة متعامدة.

فَمَنْ غير الخلاَّق البديع الذي أبدع هذا التوزيع للأوراق على هذا النحو، وهدى كل ورقة إلى موقعها بحيث لا تحجب ورقة أختها عن ضوء الشمس؟

وإلى جانب هذا التنوع والترتيب أبدع الخلاّق سبحانه تنوعًا في أشكال الأوراق(١) ، ونجد الإبداع في التعرق الموجود في الأوراق فمنه التعرق المتوازي كما في نباتات ذوات الفلقة الواحدة (٢) ومنه الشبكي كما في أوراق نباتات ذوات الفلقتين(٣) .





أوراق شوكية للحماية

وهكذا نجد أن كل ورقة قد أبدعها الخالق على غير مثال سابق، فكل ورقة

---

(١) الأوراق البسيطة والتي منها الإبرية ومنها الشريطية كأوراق القمح والذرة ومنها الأنبوبية كأوراق البصل، ومنها البيضية كأوراق الدورانتا، ومنها الملعقية كأوراق الرجلة، ومنها القلبية كأوراق المشمش، والسهمية كأوراق القطبة، والقرصية كأوراق الكافور، والمزرقية كأوراق العُلّيق.
الأوراق المفصصة : ومنها عميقة التفصص الريشي أو عميقة التفصص الراحي.
الأوراق المركبة: وهي التي يتكون نصلها من عدة وريقات، فأبدع البديع سبحانه ترتيب هذه الوريقات على جانبي المحور الرئيس للورقة؛ لينتج عنها ورقة مركّبة ريشية، وأبدع تراتيب أخرى لتكون مركبة راحية، وقد يجعل البديع سبحانه الورقة مجزّأة إلى أجزاء منفصلة مرتبة على أفرع المحور الرئيس؛ لتكون مركّبة ريشية. راجع موسوعة النبات العام للدكتور عبد العزيز الصبّاغ (ص٣٣١)، وكتاب النبات العام ، الطبعة السادسة (ص٩٥) .

(٢) هي النباتات التي تتكون بذورها من فلقة واحدة مثل الذرة والقمح.

(٣) هي النباتات التي تتكون بذورها من فلقتين مثل الفول والفاصوليا وغيرها.

تختلف عن غيرها من أوراق الأشجار الأخرى في شكلها وحجمها ونوعها وتعرقها، ومع أن الوظيفة الرئيسية للأوراق هي التمثيل الضوئي وتكوين الغذاء، لكن البديع سبحانه خلق أوراق بعض النباتات أو أجزاء منها لتؤدي وظائف أخرى منها:

١ – اختزان الماء والغذاء كما في الأبصال.

٢ – الحماية كما في نبات الصبار.

٣ – تقليل النتح كما في نبات السنط [١] .

٤ – التسلق مثل نبات حمام البرج وبسلة الزهور.

٥ – اصطياد الحشرات كما في نبات خناق الذباب.



الإبداع والإحكام في الزهور:

والزهرة التي تمثل المحور الذي يحمل أعضاء التكاثر في النباتات الزهرية، أبدعها الحكيم سبحانه في أدق تصميم وأروع جمال، تترتب فيها المحيطات الزهرية في تناسق بديع، ولكل محيط زهري وظيفته الخاصة؛ فالكأس وظيفته حماية باقي المحيطات الزهرية عند بدء تكوينها. كما نوّع الخالق البديع أشكال الكأس فمنها الأنبوبي كما في القرنفل، ومنها الكأسي المهمازي كما في العائق، ومنها الشفوي كما في الفصيلة الشفوية، ومنها

---

(١) حيث يكون النصل مختزلاً وتتخذ أعناق الأوراق غالبًا وضعًا رأسيًا بدل أن تمتد أفقية ويحميها ذلك من الضوء الساطع والنتح الشديد.

الجرابي كما في الفصيلة المتعامدة [١]، ومنها الخوذي كما في زهرة بُرنُس الراهب، وغير ذلك من الأشكال [٢]، وهذا التنوع يتخذ أساسًا للتفريق بين فصائل النبات وأجناسه، والمحيط الثاني في تركيب الزهرة هو التويج الذي يتكون من عدد من البتلات الملونة عادة، وجعل البديع الوظيفة الأساسية له جذب الحشرات؛ لإتمام عملية التلقيح، كما أنه يحمي الأعضاء الداخلية الأساسية من المؤثرات الخارجية، وجعل الله أجزاء الزهرة متناسقة ومتناسبة فيما بينها بحيث تؤدي وظيفتها على أكمل وجه أراده الخالق، فانظر إلى هذا الإبداع، وهذا التنوع وهذا الإحكام ستجده يشهد لك ولكل عاقل أنه من صنع الخالق العليم الحكيم والمصور البديع سبحانه.

الإبداع والإحكام في الثمار:

وانظر إلى الثمار كيف نوّعها الخالق في أحجامها وأشكالها وألوانها وروائحها ومذاقها وهي في بقعة واحدة وتسقى بماء واحد. قال تعالى: ﴿ **وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** (٤) ﴾ [الرعد: ٤]، كما أنه سبحانه جعلها وسيلة للتمييز بين الأنواع والأجناس والفصائل، فمن الثمار البسيط والمجتمع والمركب، وتحت كل قسم من هذه الأقسام أنواع مختلفة، وكل هذا التنوع من أجلك أيها الإنسان لتنعم به ولتتفكر في بديع صنع الله فتشكره وتعبده.

---

(١) تسمى في كتب النبات الفصيلة الصليبية.

(٢) ولكي يتناسب التويج مع الوظيفة التي يؤديها أبدعه الخالق ونوّع أشكاله، فمنها المجزّأ ومنها المشقوق ومنها المفصص ومنها الجرسي ومنها الطبقي ومنها القمعي ومنها الأنبوبي ومنها الدائري ومنها المقنع، ومنها الفراشي، ومنها المتعامد، وإلى جانب هذا التنوع نوّع الخالق جلّ وعلا الأعضاء الذكرية والأعضاء الأنثوية. بتصرف من كتاب «النبات العام» (ص٥٩٣).

عـجـائـب لا تنتـهي في النبـات ... تـدل علـى الخـالق المقـتـدر
عــجــائـبُ في أصـل تـكـوينـه ... عـجـائـب في نجـمـه والشـجـرْ
عـجـائـبُ لا تنـقـضي في الجـذور ... وفي الســوق ثـم بفـيـض الثَّـمَـرْ
عــجــائـب تَبْــدو بأوراقـــه ... ومـا جـمـعت في ثغـور كَـثـرْ
نســيـج بـه يـدهـش النـاظـريـن ... وتحـتـار فـيـمـا حـواه الـفِكـرْ
ومــخــتـلفــات بـه لا تـعــد ... فـتـحـلو صنوف وأخـرى تَمَـرْ
وكـل لـه مـيــزة في الحـيـاة ... يعـرف قـيـمـتـهـا من خَـبَـرْ

بصرت بإتقانها الباهر.. فآمنتُ بالخالق القادر
عجائب فيها لأهل الفكر..
روائع آيات رب البشر.. فآمنت به (١)

(١) «براهين وأدلة إيمانية» لعبد الرحمن حسن حبنكه الميداني (ص٤٦٩) ط الأولى (١٩٨٧م) دار القلم دمشق.

آيات الله في حفظ النبات وحمايته

تتجلى آية الحفظ الإلهي في كل شيء في هذا الوجود، فالذي حفظ السماوات والأرض أن تزولا، ويكلؤ الإنسان بالليل والنهار، حفظ مقومات الحياة الإنسانية ومنها حفظه للنبات، فجعل للنبات ما يقيه الأمراض ومخاطر البيئة، وكيَّفه مع ظروف البيئة التي يعيش فيها.

حماية النبات من الأمراض :

لقد خلق العليم بخصائص النبات، والخبير بخصائص الكائنات التي تهاجمه أجهزة دفاعية ومناعية مناسبة تحمي النبات وتحفظه من المُمْرِضات [١] المهاجمة له، ومن هذه الدفاعات ما يأتي :

أولاً - الدفاعات التركيبية :

إن أول خط للدفاع عن النبات ضد المسببات المرضية هو سطحه، الذي جعل الله فيه دفاعات تركيبية مثل :

١ - الشمع الذي تطلى به الأوراق فلا يستقر عليها الماء وبالتالي لا تتوافر البيئة الصالحة لنمو الفطريات وتكاثر البكتريا.

٢ - طبقة القشيرة [٢] التي تغطي خلايا السطح الخارجي فتكون سببًا لإعاقة الممرضات من غزو النبات.

٣ - صغر حجم الثغور [٣] والعديسات [٤] ومواقعها وأشكالها التي تمثل عائقًا للمرضات.

---

(١) **المُمْرِضات**: من فطريات وبكتريا وفيروسات.

(٢) **القشيرة**: تصغير قشرة، وهي طبقة خارجية رقيقة من مادة شمعية تُسمى الكيوتين.

(٣) **الثغور**: عبارة عن فتحات صغيرة توجد في الجانب السفلي لأوراق النبات.

(٤) **العديسات**: عبارة عن ثغرات صغيرة توجد على القشرة المغطية لجذع الشجرة، و هذه العديسات تسمح للشجرة بالتنفس.

٤ – الأنسجة النباتية المتكونة من خلايا سميكة الجدران لإعاقة تقدم الممرض.

٥ – الشعيرات على سطح النبات والتي يكون لها أثر طارد للماء وبذلك تقلل الإصابة.

ثانيًا ـ الدفاعات الكيميائية:

وخلق الحافظ سبحانه للنبات دفاعات كيميائية يطلقها للتخلص من الممرضات أو إعاقتها وتعمل على سطح النبات وجذوره .

ثالثًا ـ الدفاعات التركيبية والكيميائية الطارئة:

ففي حالة تجاوز الممرض الدفاعات التركيبية والكيميائية السطحية ووصوله إلى الأنسجة الداخلية يأتي عندئذٍ دور الدفاعات الداخلية، ومنها دفاعات تركيبية وأخرى كيميائية حيوية طارئة، ومن الدفاعات التركيبية الطارئة:

١ – تغير في تركيب سيتوبلازم الخلية المستهدفة (١) يؤدي إلى تحلل خيوط الفطر المسبب للمرض.

٢ – تراكيب للدفاع عن جدار الخلية تعيق الممرض وتحد من تكاثره (٢).

٣ – تراكيب للدفاع عن النسيج (٣) تحاصر المسبب المرضي وتمنع وصول المواد الغذائية إليه.

---

(١) حيث يتمدد ويصبح محببًا وكثيفًا، وتظهر فيه أجزاء وتركيبات عديدة تؤدي إلى تحلل خيوط الفطر المسبب للمرض.

(٢) وهذه التراكيب ثلاثة أنواع: أ – طبقة خارجية على جدر الخلايا البرنشيمية تكون أجسام منتظمة ومواد ليفية تُعيق البكتريا المسببة للمرض وتمنعها من التكاثر. ب – تكون مواد سليوزية على جدر الخلايا مما يؤدي إلى صعوبة اختراق المسبب المرضي لها. ج – تكون حلمة من الكلّس على الجانب الداخلي من جدر الخلايا خلال ثلاث ساعات من بداية العدوى بالمسبب المرضي.

(٣) فقد جعل الله للنبات قدرة على تكوين طبقات عديدة من الخلايا الفللينية تتجاوز مكان الإصابة بالمسبب المرضي فتمنع انتشار المواد السامة التي يفرزها المسبب المرضي كما تمنع وصول الماء والمواد الغذائية من المناطق السليمة إلى المناطق المصابة مما يؤدي إلى حرمان المسبب المرضي من الغذاء.

٤ _ قطع العضو المصاب [١] للتخلص منه، وبهذا يتم التخلص من المسبب المرضي.

٥ _ تراكم الصمغ حول موقع الإصابة لعزل المسبب المرضي وإهلاكه.

ومن الدفاعات الكيميائية الحيوية الطارئة:

١ _ هداية الله للنبات في إيقاع الموت الموضعي للخلايا في موضع الإصابة بالممرض، حتى لا يتقدم إلى بقية الخلايا الحية السليمة.

٢ _ تعزيز جدران خلايا النبات المصاب بجزئيات مقوية.

٣ _ إنتاج مواد مضادة للجراثيم في خلايا النبات المصاب.

٤ _ إنتاج بروتينات [٢] ومركبات سامة للممرضات الفطرية [٣].

فتأمل كيف أعد الخالق النبات بتراكيب خارجية في الأوراق والساق والجذور تحفظه من مسببات المرض، وكيف هيّأ الخالق سبحانه المواد الكيميائية التي تحميه من الخارج، وكيف أعد الخالق الحافظ الخط الثاني للدفاع بتراكيب متعددة لحماية الخلية، وبمواد كيميائية قاتلة لمسببات تلك الأمراض.

ألا تشهد تلك التراكيب والمواد الكيميائية أنها من صنع الحافظ العليم بخصائص النبات وخصائص الكائنات الدقيقة المهاجمة، الخبير بالمواد والتراكيب التي تحفظ النبات من أعدائه، القادر على صناعة كل شيء سبحانه.

أما إذا أراد الله عقاباً لعباده فكثيراً ما نسمع عن انتشار أوبئة وممرضات تقضي على المحاصيل بكميات كبيرة ولا تنفع معها المبيدات أو العلاجات.

---

(١) في بعض الأحيان تموت الأنسجة المصابة، وبنمو الأنسجة الحية الواقعة تحتها تدفع الأنسجة الميتة نحو الخارج؛ مما يؤدي إلى فصل النسيج الميت عن النسيج الحي، وبهذه الطريقة يتم التخلُّص من المسبب المرضي.

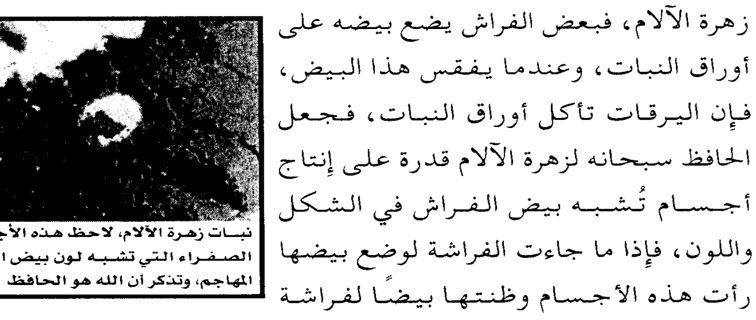
(٢) مثل الكتينات (حزمة من البروتينات).

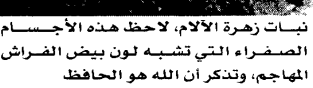
(٣) بتصرف من كتاب «كيف تدافع النباتات عن نفسها».

آية الحفظ من الحيوانات :

جعل الحافظ سبحانه وتعالى لكثير من النباتات وسائل دفاعية تصرف عنها أعداءها من الحيوانات :

١ – فمنها ما يدافع عن نفسه بواسطة الزوائد الشعرية كنبات القراص أو بواسطة السموم كنبات السرخس، أو بمحاكاة بعض الظواهر؛ لتضليل العدو كنبات زهرة الآلام، فبعض الفراش يضع بيضه على أوراق النبات، وعندما يفقس هذا البيض، فإن اليرقات تأكل أوراق النبات، فجعل الحافظ سبحانه لزهرة الآلام قدرة على إنتاج أجسام تُشبه بيض الفراش في الشكل واللون، فإذا ما جاءت الفراشة لوضع بيضها رأت هذه الأجسام وظنتها بيضًا لفراشة أخرى سبقتها؛ فتنصرف عن النبات إلى غيره [١] .





نبات زهرة الآلام، لاحظ هذه الأجسام الصفراء التي تشبه لون بيض الفراش المهاجم، وتذكر أن الله هو الحافظ

ونبات الفرقط [٢] ألهمه الله إغلاق وريقاته بمجرد لمس الحشرات لها، وتنثني أغصانه الحاملة للأوراق، وكأنها تنكسر مما يؤدي إلى انصراف الحشرات عنها.

٢ – ومنها ما يتلون بلون البيئة كنبات الملاح [٣] الذي ألهمه الله تعالى محاكاة ألوان البيئة التي يعيش فيها فلا يميزه أعداؤه.

---

(١) من المعروف أن الفراش لا يميل إلى وضع بيضه على أوراق نبات سبقه إليها فراش آخر ووضع بيضه عليها، راجع موسوعة العلم والإيمان الجزء الخامس، منف للنشر والخدمات الإعلامية (ص٥١٧) .

(٢) يُسمى أيضًا نبات الست المستحية.

(٣) من أنواع الملاح البلوري في أفريقيا الجنوبية من الفصيلة الملاحية Mesembryanthemaceace أكسبها الله تشابهًا شديدًا مع الحجارة والحصى. انظر مجلة العلوم الأمريكية المجلد (٦) العدد (١) (ص٤٩) .

فَمَنْ منح هذه النباتات قدرة للدفاع عن نفسها، وأعطى كل نبات وسيلة خاصة يدافع بها عن نفسه، فنبات يخز المهاجم، وآخر يفرز السموم، وآخر يضلل العدو؟!، مَنْ غيرُ الذي خلق فسوّى وقدَّر فهدى؟!، أما النباتات التي سخرها الله لغذاء الإنسان والحيوان فلم يجعل لها وسائل دفاع ضد من خلقت له ليتغذى عليها.

نبات القرقط ألهمه الله إغلاق أوراقه كوسيلة للدفاع عن نفسه عند ملامسة أي جسم لها.

نبات الملاح جعل الله له لونًا وشكلًا يشبه الحصى للتمويه على الحيوانات.

قال تعالى: ﴿ **فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢)** ﴾ [عبس: ٢٧ - ٣٢].

فسبحان الحافظ الذي حفظ هذه النباتات بأنماط الحفظ المختلفة، وحمداً لله الرزاق الذي سخّر لنا غذاءنا وغذاء جميع الكائنات من هذه النباتات دون عائق أو مُنغّص أو شيءٍ يضرنا.

آية تناسب النبات مع البيئة

ومن آيات الله اللطيف الخبير أن جعل لكل نبات من التراكيب الخاصة في أجزائه كلها ما يمكنه من العيش في ظروف بيئته الخاصة المناسبة له، والتي لا تناسب غيره من النباتات.

آيات الله في تناسب النبات مع البيئات الجافة:

١ - جعل الله تعالى للنباتات في المناطق الجافة أو التي تتعرض للجفاف قدرة على إيقاف حركة النمو عند غياب الماء، وقدرة على تحريكها عند وجوده؛ فقد يبدأ جنين البعض منها في الإنبات ثم يُقِرُّ الله نموه عند شدة الجفاف إلى حين تحسن الظروف فيحرك الله فيه عملية النمو مرة أخرى ليستأنفها من جديد.

٢ - تكون دورة حياة النبات قصيرة، ويحصل النضوج المبكر متناسبًا مع موسم سقوط الأمطار القصير، بل إن بعض النباتات الحولية [١] تكفيها رخة مطر صيفيٍّ واحدة للإنبات.

٣ - وأعطى الله سبحانه وتعالى للنباتات الصحراوية القدرة على الاحتفاظ بالماء في أجزائها والتقليل من عملية إخراجه منها (النتح).

٤ - وهدى الله النباتات في المناطق الجافة وشبه الجافة أن تمد جذورها إلى أعماق التربة، حتى تصل إلى مناطق الرطوبة في فترات الجفاف.

٥ - كما هدى الله بعض أنواع الدخن؛ لتكوين مادة صمغية وإفرازها على حبيبات التربة المحيطة بالجذور؛ لتحميها من فقدان الماء عند جفاف التربة.

---

(١) التي تستغرق في دورتها حولاً كاملاً.

٦ – ولما كانت الأوراق سطحًا يخرج منه الماء هدى الله النباتات لتقليص سطح الأوراق عند الجفاف، فتلتف أوراق النباتات؛ لتقلل عملية فقد الماء، وإذا ازداد الجفاف تتساقط لإيقاف فقد الماء [١] .

٧ – كما ميّز الحافظ جلّ وعلا هذه النباتات بقلّة عدد الثغور؛ ليقل فقد الماء بالنتح.

٨ – أما النباتات الصحراوية التي تمتلك تراكيب كالدرنات وغيرها فقد جعلها الله تختزن كميات كبيرة من الماء في أوقات توافره، فيكون احتياطيًا لنمو النباتات أثناء فترة الجفاف.

٩ – وجعل الله تعالى لتركيب الورق دورًا في مقاومة الجفاف، فأوراق النباتات في المناطق الجافة تتصف بما يأتي:

(أ) أنها مغطاة بشعر وزغب ليقل فقد الماء.

(ب) أنّ لها طبقة ثخينة من الكيوتين [٢] والكيوتكل [٣] على الطبقة الإسفنجية [٤] .

(ج) وجعل الله تعالى الأوراق مائلة تواجه الشمس بمسطح جزئي [٥] .

(د) وجعل سبحانه خلايا البشرة والطبقة الإسفنجية صغيرة الحجم.

(هـ) كما جعل سبحانه وتعالى الأوراق ذات سطح صغير؛ ليقل مقدار الماء الذي يخرج من الأوراق.

(و) وزوّد سبحانه وتعالى بعض النباتات بطبقة من مسحوق أبيض حول الأوراق والسيقان؛ للتقليل من تبخر الماء كما في نبات الذرة البيضاء [٦] .

---

(١) يُلاحظ ذلك في كثير من النباتات أثناء فترة الجفاف.

(٢) مادة شمعية شفافة تشكل مع السليلوز بشرة النبات.

(٣) بشرة متصلبة.

(٤) مجموعة من الخلايا.

(٥) تلاحظ هذه العملية في فترة الظهيرة.

(٦) قم بمسك ورقة نبات الذرة الرفيعة وامسحها بأصابعك تلاحظ مسحوقًا أبيضًا عليها.

هذه بعض الوسائل التي خلقها الباري جلّ وعلا لنباتات المناطق الجافة؛ كي تبقى على قيد الحياة عند نقص المياه واشتداد الحرارة [١] .

آية التناسب مع البيئات الباردة :

وإذا نظرنا في نباتات المناطق القارسة البرد سنجدها تتمتع بحفظ الله تعالى وحمايته، فقد جعل لها من الوسائل ما تحافظ به على حياتها في موسم اشتداد البرد، ومن ذلك :



أن الله تعالى جعل أوراقها تتوقف عن صنع الغذاء، فتسحب مادة اليخضور من تلك الأوراق ويصبح لونها أحمرًا، وتنتج نسيج الفلين عند منطقة اتصال الورقة بالغصن فتسقط، وتُصبح الأشجار هياكل وتتوقف عن النمو في الشتاء، فسبحان القائل : ﴿ **وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (٥٩) ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

كما جعل الله أشجار المناطق التي تتساقط فيها الثلوج مخروطية الشكل حتى يتزلق الثلج من على أغصانها فلا تتكسر.

فسبحان الذي علم بأحوال النبات كلها وقدر لكل نبات ما يناسبه .

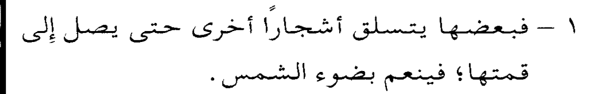
آية التناسب مع البيئات الظليلة:

ولما كانت النباتات بحاجة ماسة لضوء الشمس من أجل صنع الغذاء في

---

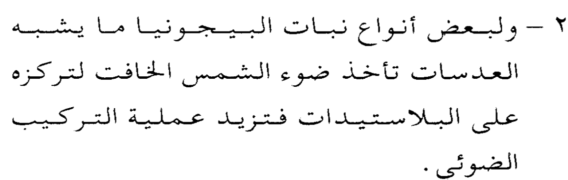
(١) راجع كتاب « عالم النبات – نباتات الصحراء » من إصدارات القسم العلمي بدار الكتاب العربي بيروت – لبنان . وكتاب « الزراعة الجافة – أسسها وعناصر استثمارها » د . **عبد الله قاسم الفخري** ، من إصدارات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بالجمهورية العراقية .

عملية التمثيل الضوئي، فقد جعل البارئ عز وجل وسيلة لكل نبات لأخذ كفايته منه أو الاكتفاء بالقليل في البيئات الظليلة.

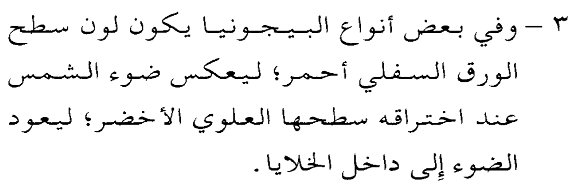


١ – فبعضها يتسلق أشجاراً أخرى حتى يصل إلى قمتها؛ فينعم بضوء الشمس.

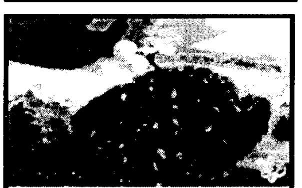
هذا النوع من البيجونيا أعد الله سطح أوراقه بما يشبه العدسات لتركيز الضوء نحو البلاستيدات.



٢ – ولبعض أنواع نبات البيجونيا ما يشبه العدسات تأخذ ضوء الشمس الخافت لتركزه على البلاستيدات فتزيد عملية التركيب الضوئي.



٣ – وفي بعض أنواع البيجونيا يكون لون سطح الورق السفلي أحمر؛ ليعكس ضوء الشمس عند اختراقه سطحها العلوي الأخضر؛ ليعود الضوء إلى داخل الخلايا.



السطح السفلي لأوراق نبات البيجونيا أحمر اللون ليعكس ضوء الشمس نحو البلاستيدات الخضراء.

آية التناسب مع البيئات المائية:

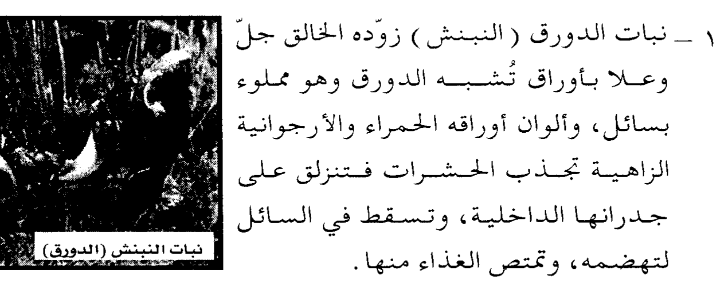
أما النباتات المائية التي تفتقر إلى الأكسجين، فقد جعل لها الحيكم الخبير سبحانه وسائل لاستمرار حياتها، ومنها:

١ – توسيع المسافات الهوائية بين خلايا أنسجة الأجزاء المغمورة من النباتات؛ لتسمح هذه الأنسجة بمرور الأكسجين عبر النبات من السيقان والأوراق المكشوفة إلى الأجزاء المغمورة.

٢ – وجعل سبحانه للبعض الآخر جذوراً عمودية تتجه أطرافها إلى أعلى خارج الماء على عكس القاعدة المعروفة من اتجاه الجذور إلى أسفل، وتسمح للهواء بالدخول منها إلى الأجزاء المغمورة بالماء، ولولا حكمة الله وحفظه لاختنق النبات ومات.

آية التناسب مع البيئات المفتقرة إلى المواد المعدنية:

وفي البيئات المفتقرة إلى المواد المعدنية الضرورية لتغذية النبات يسوق الخالق جلّ وعلا مصدراً آخر للغذاء يتمثل في أجسام الحشرات وبعض الحيوانات الصغيرة التي تقع فريسة لها، فتأخذ منها النتروچين والمعادن الأخرى التي تفتقر إليها بيئتها، ومن هذه النباتات :


نبات النبنش (الدورق)

١ ـ نبات الدورق (النبنش) زوّده الخالق جلّ وعلا بأوراق تُشبه الدورق وهو مملوء بسائل، وألوان أوراقه الحمراء والأرجوانية الزاهية تجذب الحشرات فتنزلق على جدرانها الداخلية، وتسقط في السائل لتهضمه، وتمتص الغذاء منها.


نبات الندية

٢ ـ نبات الدروسيرا (الندية) جعل البارئ سبحانه أوراقه مغطاه بشعيرات فريدة في نوعها، تتركب الواحدة منها من عنق ينتهي برأس وتفرز هذه الشعيرات مادة لزجة تغطي سطحها، وإذا هبطت عليها حشرة التصقت بها؛ فيزداد إفراز المادة اللزجة، كما تتنبه جميع أجزاء الورقة، وينشأ عن ذلك انحناء الشعيرات الأخرى للداخل حتى تلامس جسم الفريسة؛ فيهضم بواسطة الإنزيمات الموجودة في السائل ويسهل امتصاصها.

٣ ـ نبات الديونيا (خناق الذباب) : جعل الله نصل ورقته مركبًا من صمامين يتحركان على طول العرق الوسطى وينطبقان على بعضهما، يُلهم الله

نبات خناق الذباب

النبات هذه الحركة عندما تلامس الحشرة شعيرات خاصة توجد على السطح العلوي لنصل الورقة [١]، وتتم هذه العملية بسرعة فائقة لصيد الفريسة، كما زود الخالق جلّ وعلا حافة النصل بأشواك على هيئة أسنان طويلة تتداخل مع بعضها عندما ينطبق نصفا النصل، فتمنع الفريسة من الهروب؛ فتفرز الورقة الإنزيمات على الفريسة لتهضمها ثم تمتص نواتج الهضم، فسبحان الرزاق الذي علم بحاجة كل مخلوق فيسر له ما يحتاج إليه من غذاء ومتطلبات أخرى؛ لتحفظ حياته إلى حين.

فمن هيّأ كل نبات ليتناسب مع البيئة التي يوجد فيها على اختلاف ظروف تلك البيئات من حرارة، وجفاف، وبرودة شديدة، وأمطار، وندرة في ضوء الشمس، أو قرب أشعتها، ودرجة ميل سقوطها، ونوع التربة التي ينبت فيها، ونوع المياه التي ترويها، وعمقها وضحالتها، كما يتناسب النبات مع طبيعة الرياح التي يتعرض لها، وحامضية المياه وقلويّتها، وطول وقصر الليل والنهار، والفصول الأربعة، والارتفاع عن مستوى سطح البحر، وفي كل ذلك آيات بيّنة تدل على حكمة الخالق العظيم، وعلمه بأحوال خلقه، قال تعالى: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

---

(١) راجع موسوعة إكسفورد، قرص مدمج.

حدائق ذات بهجة

لقد خلق الله الإنسان وفطره على حب كل ما هو جميل يشيع البهجة والانشراح في النفوس، ولم يترك اللطيف الخبير حاجة من حاجات الإنسان إلاّ أعطاها ما يشبعها؛ لذلك جعل في النبات مصدراً للجمال وإشاعة البهجة والسرور في النفوس.

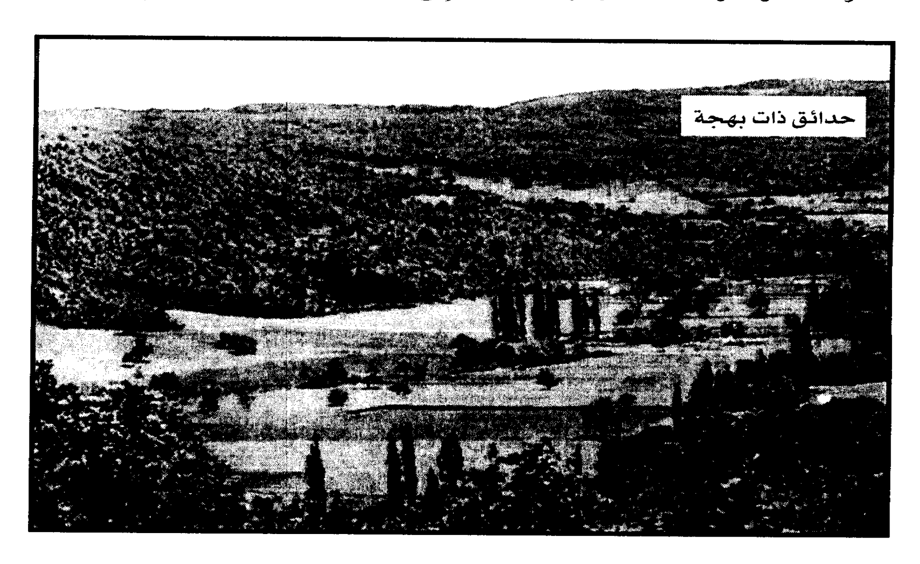
وجمال النباتات يتمثل في خضرتها وألوان أزهارها الزاهية ، وتصاميم أشكالها الرائعة المتنوعة، وشذا عطرها الأخّاذ، وترتيب أوراقها وزهورها على السيقان بتناسق وإبداع؛ فكل ورقة من أوراق الشجر منظمة أبدع نظام، مخططة أجمل تخطيط، ونجد ذلك الجمال والإبداع أروع ما يكون في الأزهار بجمالها الفاتن وتصميمها الرائع، وألوانها الزاهية بشكل يحافظ معه كل زهر على سمات جماله وتناسق ألوانه، فترى الزهور وهي مفردة أو متجمعة في نورات [١] آخذة أشكالاً متنوعة للعرض أمام الإنسان شاهدة بإبداع الخالق جلّ وعلا.

ونجد التناسق المتقن والبديع في وضع تلك الأزهار على النورات والألوان المتداخلة في بتلات الزهور؛ فنشعر بالسعادة والراحة النفسية؛ لتنوع ذلك الجمال الأخاذ من حولنا، كما نجد الإبداع والجمال في تنوع الثمار وألوانها وروائحها؛ ففي مجموع المملكة النباتية جمال وبهجة يجد فيه المؤمن آيات عظيمة تدل على إبداع الخالق جلّ وعلا، وأنه المستحق للعبادة دون سواه، كما قال تعالى: ﴿ **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ** (٦٠) ﴾ [النمل: ٦٠].

---

(١) **النورة**: مجموعة من الأزهار تنمو من نقطة واحدة على النبات.

أما غير المؤمن فينشرح صدره لذلك كله إلاَّ أن أثره يكون محصوراً في النشوة الدنيوية والمتعة العابرة ولا يتعداها إلى التفكر بآيات ربه وعظيم إبداعه!.



شفاء ورحمة

ومن آيات رحمة الله أن جعل لنا من النبات رزقًا تقوم به الحياة ودواءً لشفاء كثير من الأمراض، ويتجه الطب اليوم إلى التداوي بالأعشاب بدلاً من المواد الكيميائية [١].

ولد ذكر القرآن الكريم العسل الذي تجمع النحل مادته من ثمار النباتات ورحيق أزهارها، فقال تعالى: ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)** ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩]، وبيّنت الآية أن في العسل شفاء للناس، كما بيّنت أن النباتات هي مصدر ذلك العسل، ولقد أثبتت الأبحاث الطبية الحديثة القدرة الشفائية الواسعة للعسل[٢]، وأشارت أحاديث الرسول ﷺ إلى بعض النباتات ذات الفائدة الطبية [٣].

---

(١) حيث يعتقد أن حوالي ألفين وخمسمائة نوع من النباتات في الهند لها خصائص طبية لشفاء المرض.

(٢) حيث أثبتت الدراسات العلمية والتجارب التطبيقية المخبرية أن العسل ذو فعل مضاد للجراثيم والفطريات، وأنه مفيد في معالجة التهاب المعدة والأمعاء وعلاج الإسهال، وأنه الأسرع في التئام الجروح والأنسجة، وكذلك معالجة الحروق، ويُستعمل لعلاج الربو، وعلاج التهاب الأنف التحسسي، وفي معالجة التهاب الأنف والبلعوم والحنجرة وفي علاج أمراض الفم والأسنان، واستُخدم لمعالجة قروح العمليات في المستشفيات، وظهرت نتائج جيدة في معالجة التهاب الجفون والملتحمة والقرنية وتقرحات العيون، ومعالجة قرح المثانة البلهارسية المزمنة، وله تأثير على التسمم الكبدي، ومعالجة التسمم الحملي، وله فوائد غذائية وصحية عديدة؛ فهو أشبه بصيدلية كاملة، حتى أن سم النحل يستخدم في معالجة العديد من الأمراض. للمزيد انظر كتاب «أحدث طرق العلاج بالعسل» لمؤلفه/ ج يويريس. ترجمة الدكتور/ محمد الحلوجي.

(٣) انظر كتاب «الطب النبوي» لابن القيم.

وهذه أمثلة لبعض الأدوية المستخلصة من النباتات الطبية:

العقار	الاستعمالات الطبية	المصدر النباتي
إسبرين	يخفف الألم والالتهابات	Filipendula ulmaria
كودين	يخفف الألم ويخمد السعال	Papaver somniferum
بيلوكاربين	يخفف الضغط في العين	Pilocarpus jaborandi
بسودو إفدرين	يخفف احتقان الأنف	Ephedra sinica
كينين	يعالج الملاريا	Cinchona pubescens
رزربين	يخفض ضغط الدم	Rauvolfia serpenntina
سكوبولامين	يخفف أعراض دوار الحركة	Datura stramonium
ثيوفلين	يفتح المسالك الشعبية (القصبات)	Camllia sinensis
ثنبلاستين	يعالج مرض هودجكن	Catharanthus roseus

فتأمل كم كان الناس سيعانون من آلام الأمراض لو لم يخلق الله هذه النباتات الطبية، وتفكر في رحمة الخالق الواسعة لعباده [١] .

---

(١) مما لاشك فيه أن الأعشاب الطبية هي مصدر الدواء اليوم، فقد استخلص الأقدمون الأدوية من النباتات بالتجربة؛ فعالجوا الحمى الاستوائية بناتج غلي لحاء شجرة الكينا الذي تبيّن أنه يحتوي على مادة الكينين المقاومة لمرض الملاريا، كذلك الأمر بالنسبة لنبات « راولفيا » الهندي الذي استُعمل لعلاج بعض أمراض ارتفاع ضغط الدم أو نبات « الفرقط » القاتل الحاوي على مادة الأتروبين المستخدمة في علاج التشنجات العضلية وتقلصات عضلة الحدقة القابضة أو نبات البنج الحاوي على مادة Scopolamine المهدئة، واليوم يقوم الإنتاج الدوائي على بحوث مكثّفة في الجامعات والمختبرات الصناعية، حيث يُنتَج سنويًا عدد من المستحضرات الجديدة للتداوي، ورغم تطور الكيمياء فإن النباتات والحيوانات لاتزال مصادر مهمة للدواء. انظر موسوعة الزاد المجلد (٤) (٩٦٥ – ٩٦٦) ، وانظر مجلة العلوم الأمريكية.

النبات والحضارة

وما كان لحضارة البشر أن تقوم لولا أن خلق المنعم الوهاب النبات، وجعله المادة الأولى للصناعات المختلفة التي قادت البشرية إلى الرقي في عالم المادة والعلم والمعرفة، ومن تلك الصناعات: صناعة الورق، والمطاط، والزيوت، والأصباغ، والأصماغ، والأثاث، والبيوت الخشبية التي تقاوم آثار الزلازل، والملابس، والمفروشات، والأكياس، والحبال.

كما أن الصناعات الثقيلة تعتمد على الطاقة التي أصلها نبات أخضر جعله الله تعالى مصدرا لكل أنواع الوقود التي استعملها الإنسان قديمًا وحديثًا في الطبخ والأفران، وتسيير وسائل النقل من سيارات وطائرات وبواخر، وإدارة الكثير من المحركات وآلات المصانع التي تعمل بالوقود المأخوذ من البترول والفحم الحجري أو الغاز، وهذه أصلها من النباتات وأصل الطاقة فيها المصانع الخضراء في النبات.

ولقد أشار القرآن إلى الأصل النباتي للوقودالذي استعمله ويستعمله الإنسان فقال تعالى: ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ** (٨٠) ﴾

[يس: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ** (٧١) **أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ** (٧٢) **نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ**[١] (٧٣) ﴾ [الواقعة: ٧١- ٧٣].

بل إن بعض الملابس تصنع من البترول، ومنه تنتج اللدائن[٢] والأصباغ ومئات المنتجات التي تقوم عليها حضارة اليوم، ولقد غدا البترول من أهم أسباب

(١) **ولفظ المقوين يعني**: المسافرين وأهل الحضر، وساكني القفار من أهل البادية والفقراء.
(٢) **اللدائن**: هي مواد لينة قابلة للتشكيل.

صراع الدول وتنافسها لما له من دور في تسيير حركة الحياة، وقيام حضارة البشرية المادية.

وإذا كانت المصانع الخضراء في النبات هي أصل الطاقة التي تتحرك بها وسائل الحضارة، فهي أيضًا مصدر الطاقة التي تُسيّر العمليات الحيوية في النبات والإنسان والكائنات الحية؛ لأن مصدر هذه الطاقة الحيوية في الكائنات هو الغذاء المصنوع في المصانع الخضراء في تلك النباتات.

لا حول ولا قوة إلاَّ بالله :

وبدون هذه المصانع الخضراء، مصانع الطاقة والغذاء تتوقف حركة الإنسان وآلاته ومعداته على وجه الأرض، فتذكر أيها العاقل مع كل حركة تقوم بها في جسمك، أو تراها في أجسام غيرك من الكائنات الحية، أو في عجلات المصانع ووسائل المواصلات التي تدار بالوقود، أن كل تلك الحركات لا تكون إلاَّ بالطاقة التي خلقها الله في المصانع الخضراء، وخزنها لنا في أجسام النباتات، وبهذا يتبين لنا أن لا حركة لكائن من حال إلى حال آخر إلاَّ بطاقة، ولا طاقة ولا قوة إلاَّ بأمر الله الخالق لكل شيء فَنَعْلَم بذلك معنى قولنا: «لا حول ولا قوة إلاَّ بالله» فكيف لا يُشكر الخالق المنعم؟!، وكيف لا يُعبد الرب سبحانه؟!.


استخراج المطاط



النفط والغاز

آيات الله الواحد الأحد في خلق النبات

لقد مرت بنا آيات في النباتات تشهد لكل عاقل بأنها من صنع الرب الخالق البارئ، المصور، الحكيم، العليم، الخبير، الرزاق، اللطيف، البديع، المريد، الهادي، الجامع، الحافظ، خالق الحياة سبحانه، وإليك آيات في النبات تشهد بأن الخالق واحد لا شريك له.

وانظر إلى النباتات كيف تنقي الهواء من ثاني أكسيد الكربون الذي يطلقه الإنسان والحيوان في زفيره، وتطلق الأكسچين الذي يحتاج إليه الإنسان والحيوان والنبات نفسه في عملية التنفس. وهكذا يتعاون الكل على إبقاء نسب هذه الغازات في الجو مناسبة ثابتة، ولولا ذلك لاختنقت الحيوانات، ولعجز النبات عن صنع الغذاء، ولفسدت الحياة.

وتأمل كيف جعل الله أجيال الحيوانات والنباتات المطمورة في طبقات الأرض مصادر للطاقة كالبترول والفحم ومشتقاتهما، و تأمل كيف تنتقص الأرض من الأجساد الميتة للكائنات الحية؛ لتصبح سمادًا للأرض، وانظر إلى الغابات التي تحترق بين آونة وأخرى لتجدد حيوية الغابة ونشاطها بالاستفادة من مخلفات الاحتراق فإذا بها أكثر خصوبة وأوفر إنتاجًا.

انظر كيف تعتمد النباتات المتسلقة على الأشجار السامقة وتتخذها سُلَّمًا للوصول إلى ضوء الشمس.

وتأمل إلى التكامل بين الفطريات والنباتات [١]، وإلى التعاون بين البكتريا

---

(١) تأمل إلى التعاون بين النبات ونوعين من الفطريات، فنوعٌ منها يُغطي جذور النبات تغطية كاملة دون أن يخترق أنسجته، لكنه يقوم بعملية امتصاص الماء والأملاح لإيصالها للنبات، فيحل محل الشعيرات الجذرية للنبات، ونوعٌ آخر تعيش خيوطه داخل خلايا قشرة الجذور، وتكون على اتصال بخيوط الفطر الموجودة على سطح القاسية التي لا يستطيع أي منهما مقاومتها على انفراد.

والنباتات البقولية[١] ، وإلى النظام الذي يربط بين النباتات وبين الهواء والتربة والفطريات والمواد العضوية .

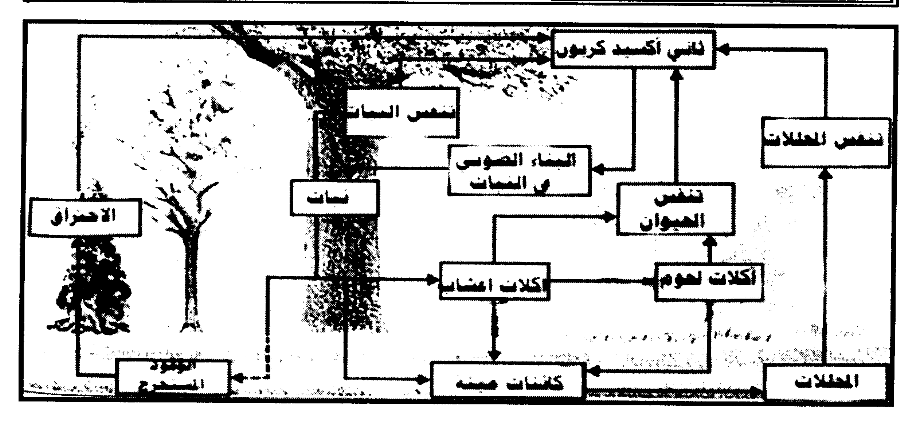
وانظر إلى التعاون الوثيق بين الحشرات والحيوانات من جهة والنباتات من جهة أخرى، ومن أمثلة ذلك أن الأزهار تقدم الرحيق للحشرة التي تحمل بدورها حبوب اللقاح لنقلها إلى زهرة أخرى من النوع نفسه، فإذا حصل الإخصاب، وظهرت الثمار أكلها الحيوان، ثم طرح بذورها في مكان آخر؛ لتنبت من جديد في أرض جديدة ومع البذور يطرح الحيوان فضلاته التي تُصبح سمادًا للنباتات، وهكذا يحصل التكافل والتكامل بين هذه المخلوقات .

وسخّر الله بعض الحشرات لحماية بعض النباتات من حشرات أخرى ضارة كما يفعل النمل الحارس لشجرة السنط، كما سخر الله له شجرة السنط؛ لتكون نتوءات لبناء أعشاشه .


صورة من التكافل بين النباتات

---

(١) تأمل في جذور النباتات البقولية كالفول والفاصوليا سترى عقدًا بكتيرية يمدها النبات بالمواد النشوية (الكربوهيدرات) وتقوم بدورها بإمداد النبات بالمواد البروتينية التي تثبّتها من النيتروجين الجوي كما يُسبب ذلك خصوبة للأرض، وهناك أنواع من الفطريات والبكتريا تقوم بتحليل المواد العضوية وتحويلها إلى مركّبات غير عضوية تنتفع بها النباتات .



انظر إلى هذه الحلقات المترابطة، المتناسقة، المتكاملة بين النبات والحيوان والإنسان والتربة والأمطار والرياح والبحار، وضوء الشمس الذي تحتاجه المصانع الخضراء، وحرارة الشمس التي تبخر مياه البحار لتكون الأمطار، وتفكر في تقلب الليل والنهار، ثم انظر بعد ذلك إلى الترابط والتناسق والإحكام بين الأرض والمجموعة الشمسية، وبين المجموعة الشمسية والمجرة، و بين المجرة وسائر مجرات الكون، فسترى أن ذلك الترابط والتناسق والتكامل بين جميع الكائنات من النبات إلى المجرة، يشهد لك ولكل عاقل بأنه من صنع العليم بصفات ودور وحاجة كل مخلوق، فكمله بغيره من المخلوقات، وسترى الكون كيانًا موحداً وبناء مترابطًا يَشُدُّ بعضه بعضًا، من الذَّرَّة إلى المجرة، يشهد بأنه من صنع إله واحد أحد، هو صاحب بقية صفات الكمال التي يشهد بها النبات، وتشهد بها سائر المخلوقات فهو: خالق الوجود ورب الكائنات، ومُنشئُ النبات البارئ، المصور، الحكيم العليم، الخبير، الرزاق، اللطيف، البديع، المريد، الهادي، الجامع، الحافظ، خالق الحياة والأحياء، الواحد الأحد سبحانه وتعالى.





الفصل الثالث
الله الرزاق



مقدمة

لقد عرفنا الله بنفسه عن طريق آياته، ومن أَلْصَقَ آياته بنا آيات تدبير الله لأرزاقنا التي لا تقوم حياتنا بدونها، فأَمَرنا بتوجيه وسائل العلم التي منحنا إياها إلى طعامنا الذي قدره لنا، فقال تعالى: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢)** ﴾

[عبس: ٢٤ - ٣٢].

كما أمرنا أن ننظر في كل ما خلقه لتوفير هذا الطعام مثل سوق الرياح، وإنزال المطر، و إنبات الزرع والشجر، واختلاف الليل والنهار وما فيها من آيات باهرات، وغيرها من آياته في الأرض والسماء التي تُعَرِّفنا بأنه الرزاق الرحيم والخالق العليم الحكيم؛ فجعل تلك الآيات والآثار المشاهدة دليلاً على صفاته التي صدر عنها خلق الأرزاق، وتدبيرها فإذا عرفنا الصفات العظيمة لرب الكائنات وبارئها ومصورها، عرفنا أن صاحب تلك الصفات هو ربنا الحكيم العليم الرزاق الكريم الواحد الأحد.

وهيا لنبدأ قصة الرزق وتدبير أسبابها منذ أن قَدَّر في الأرض أقوات جميع الكائنات التي ستعيش عليها كما قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠)** ﴾ [فصلت: ١٠] [١].

---

(١) ﴿ **وقدر فيها أقواتها** ﴾ أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة، خلق فيها جبالها وأنهارها وبحارها وشجرها وسكانها من الدواب كلها، وعن السدي قال: أقواتها لأهلها، وعن مجاهد قال: من المطر. انظر التفسير الصحيح (٤ / ٢٧٠).

أهمية الطعام للإنسان

هذا الإنسان كان بالأمس طفلاً صغيراً، فمن أين جاء نمو جسمه؟

وهذا الإنسان الذي يتحرك من أين جاءت له القوة المحركة لأجزائه الساكنة؟!، ومن أين اكتسب الصحة التي تحفظ بدنه؟!.

إن النظرة القاصرة السريعة تُجيب فتقول:

الطعام هو الذي نمّى الأطفال، وأمد الأجسام بالطاقة المحركة، وعمل على وقايتها من الأمراض.

فهل يقوم الطعام بذلك حقًا من ذات نفسه أم أنه يقوم بذلك بتدبير وتقدير من الخالق سبحانه؟ وهيا للنظر:

فلينظر الإنسان إلى طعامه:

لقد وجد علماء الحياة أن جسم الإنسان بحاجة إلى توفير كميات مستمرة إلى داخل كل خلية فيه من المواد الآتية: الزلاليات (البروتينات)، والأملاح، والمواد النشوية، والدهنية، والفيتامينات والماء [(١)]؛ لكي ينمو جسمه ويتحرك ويكتسب وقاية من الأمراض، كما أن كل خلية بحاجة إلى إخراج دائم لبقايا التفاعلات الكيماوية وفضلاتها، وإلاّ أهلكتها تلك البقايا والفضلات ويموت الإنسان.

معضلات كبرى:

وهنا تبرز أمامنا ثلاث معضلات كبرى:

١ - من أين نحصل على هذه المواد الخاصة التي يمكن لخلايا أجسامنا أن تتغذى عليها؟

---

(١) لأنه السائل الوحيد على وجه الأرض الصالح لإتمام العمليات الحيوية وحدوث التفاعلات الكيماوية الحيوية.

٢ –ومن أين لنا كميات هائلة من هذه المواد تكفي لغذاء كل خلية من ملايين الملايين من خلايا جسم الإنسان؟ وباستمرار ؟ ثم من أين لبني الإنسان جميعًا، وكذا سائر الحيوانات هذا الغذاء لكل خلية في كل جسد من أجسادها باستمرار . إن الحاجة ماسة إلى كميات هائلة تتوافر باستمرار من المواد الغذائية الصالحة لتغذية الخلايا.

٣ – ثم كيف يمكن إمداد كل خليةٍ في جسم الإنسان بهذه المواد سواء كانت تلك الخلية في وسط المخ، أو في غلاف الكلْيَة أو في باطن القلب أو في مخ العظام أو في سطح الجلد؟ وكم من ملايين الملايين من الأنابيب الرئيسية والفرعية والشعرية التي يجب أن تمد إلى كل خلية في جسم الإنسان؟ كل هذه معضلات كبرى وبغير تدبير حل لها نموت ويموت كل كائن حي.

أين الحل ومن يصنعه؟

المعضلة الأولى تتمثل في إيجاد المواد الصالحة لغذاء الخلايا وهذه المواد هي:

(أ) الأحماض الأمينية (البروتينات).

(ب) المواد السكرية (نشويات) .

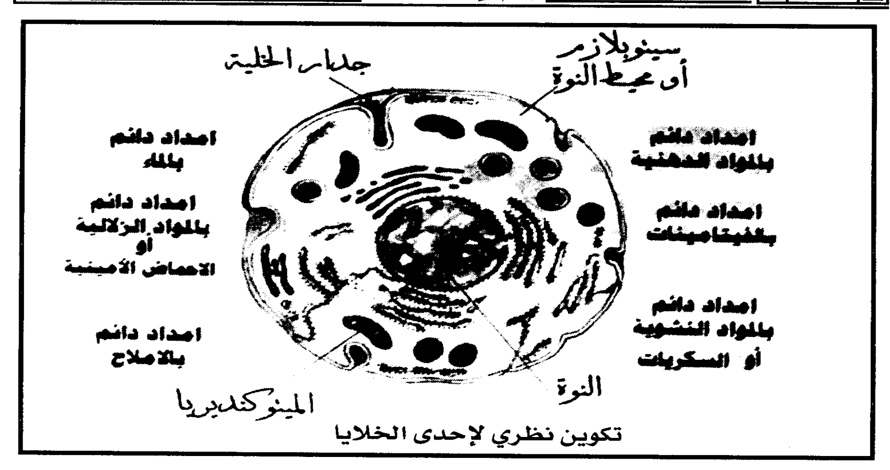
(ج) أحماض دهنية وجلسرين (مواد دهنية).

(د) ڤيتامينات .

هذه المواد جميعًا لا توجد مستقلة على وجه الأرض، لنذهب إلى مكانها ونأخذ منها حاجتنا.

(و) الأملاح، وهذه لا توجد إلاَّ مختلطة بالتربة.

(ز) وأما الماء فيوجد مستقلاً في الآبار، والينابيع والأنهار، والمياه الجوفيه، فأين نجد هذه المواد الضرورية لحياتنا؟



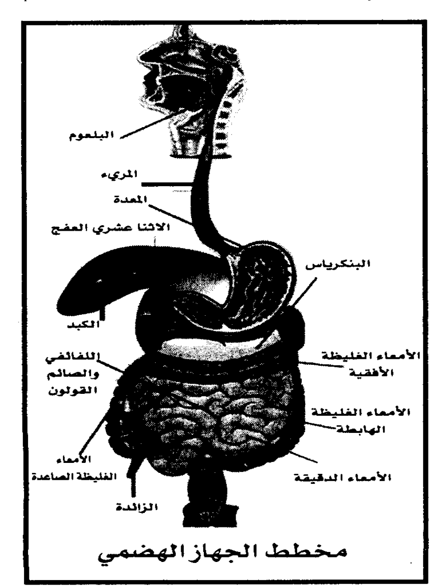
تكوين نظري لإحدى الخلايا

إن معظم المواد السابقة توجد في صورة مركبة معقدة في مختلف النباتات، أو لحوم الحيوانات، التي تغذت على هذه النباتات، فالمصدر الأصلي الخام للمواد السابقة هو النباتات التي تكسو سطح الأرض، ولكن الموجود من هذه المواد المطلوبة لغذاء الخلية يوجد في النباتات في صورة مواد خام، لا تصلح لتغذية خلايا الجسم مباشرة، مما ينشئ معضلة جديدة، وهي: الحاجة إلى أجهزة خاصة ومواد خاصة تقوم بإعداد هذه المواد الخام وتحويلها إلى مواد صالحة مناسبة لغذاء الخلايا، أما المواد الخاصة التي تقوم بتحويل الطعام (الخام) إلى طعام صالح للجسم فهي:

خمائر (إنزيمات): الببسين، الرنين، التربسين، الأربسين؛ وذلك لتحويل المواد البروتينية إلى أحماض أمينية صالحة لغذاء الخلايا وذلك كمثال، وهناك إنزيمات أخرى لتحويل الموادالنشوية والدهنية إلى سكر، وأحماض دهنية وجلسرين، فأين نجد هذه المواد الكيماوية الخاصة بكميات كافية؟ وما هو الجهاز الذي سيقوم بعملية التحويل هذه؟.



ولن نُطيل البحث كثيراً عن هذه المواد (الإنزيمات) والجهاز المحول للطعام الخام إلى غذاء مناسب للخلايا؛ لأن الجواب موجود في أنفسنا، إن هذه المواد الكيماوية الخاصة (الإنزيمات) موجودة في لعابنا، ومعدنا، وأمعائنا، ولقد خلقت لنا خلايا خاصة (غدد) ونحن في الأرحام؛ لتقوم بإنتاج هذه المواد بالكميات الكافية، وأما الجهاز المحول فهو (الجهاز الهضمي) الذي توجد فيه هذه الغدد المفرزة للإنزيمات الهاضمة، وهو جهاز محكم دقيق قد أُعِدَّ لوظيفته في غاية الدقة والإتقان، ونحن لا نزال أجنة في بطون الأمهات، ومن دقائق صُنع الله في هذا الجهاز أن معدتك تفرز خمائرَ (إنزيمات)



مخطط الجهاز الهضمي

تذيب اللحم. وبالرغم أن المعدة من اللحم إلاّ أنها قد غطيت بغشاء مخاطي، يمنع وصول هذه الإنزيمات المذيبة للحم إلى طبقة اللحم في المعدة تحت ذلك الغشاء.

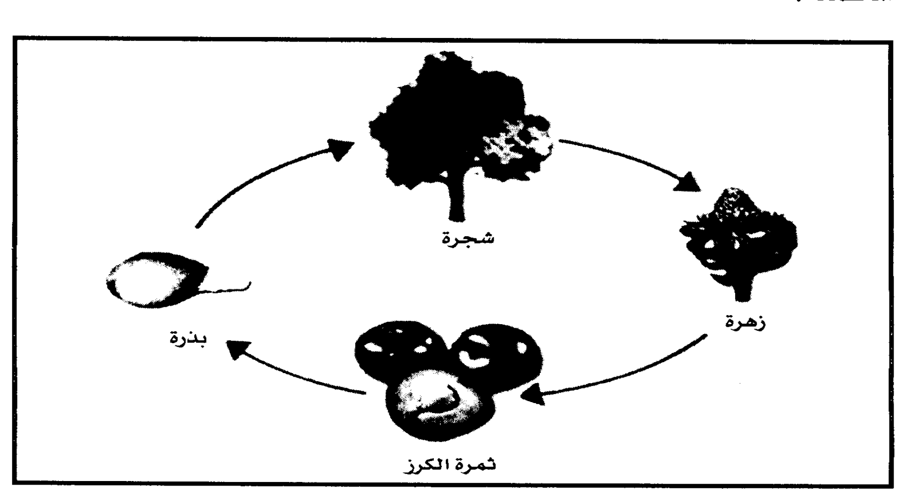
نحن والنبات:

إن مصدر غذاءنا الخام هو النبات، ومصدر المواد الكيماوية الهاضمة التي تعد الطعام الخام، وتحوله ليكون صالحًا لخلايانا ، هو تلك الغدد المفرزة للخمائر الموجودة في الجهاز الهضمي، الذي أُحكم صنعه.

صنع الغذاء في النبات وتوفيره:

قد علمنا كيف تحصل الخلايافي أجسادنا على المواد الغذائية المناسبة، وكيف يتم هضمها وبقيت المعضلة الثانية، وهي: من أين للنبات كميات الغذاء الهائلة اللازمة لتغذية كل كائن حي؟

هيا لنتفكر في طعامنا ونتأمل كيف أوجد الرزاق الرحيم الحل لهذه المعضلة:



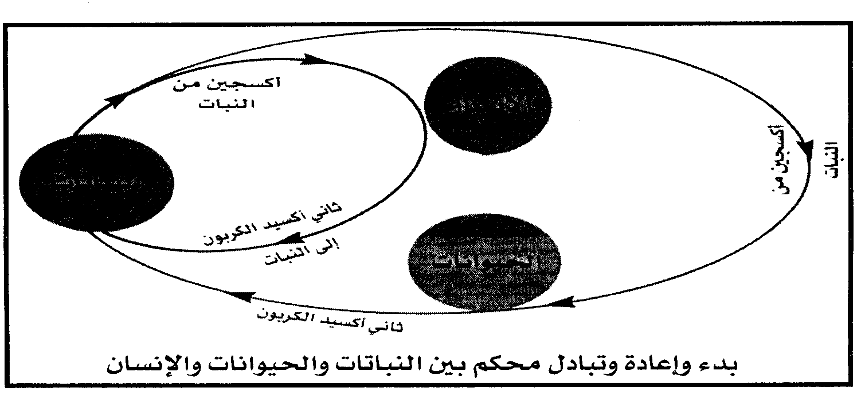
[١] البذور الأصول النباتية :

وفّر الخالق هذه البذور، والأصول النباتية من نباتات سابقة، والنباتات السابقة من بذور وأصول أسبق منها، وهكذا حتى نصل إلى الأصل الأول لهذه النباتات المتنوعة في خلقها، وتكوينها مرة بعد أخرى، وفي توفيرها بكميات هائلة كافية لحاجات كل مخلوق يتغذى على النباتات، قال تعالى: ﴿ **وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑦ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧** ﴾[ق : ٧، ٨].

[٢] المواد الخام :

(أ) التربة: لقد وفّر الخالق التربة الصالحة للزراعة بكميات هائلة تكفي لحاجة كل مخلوق يتغذّى على النباتات: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ⑧** ﴾[الشعراء : ٧، ٨].

(ب) الماء : ولقد وفّر الخالق سبحانه الماء الذي لا يكون زرع إلاَّ به بكميات تكفي حاجة كل الكائنات الحية، ويسّر لنا أخذه من الأنهار الجارية، أو العيون، أو الآبار، أو المياه الجوفية المخزونة قريبًا من سطح الأرض. وأصل هذه المياه تلك الأمطار التي تنزل من السُّحُب على الأرض باستمرار بمعدل (١٦ مليون طن في كل ثانية).



بدء وإعادة وتبادل محكم بين النباتات والحيوانات والإنسان

ومن رحمة الله مُنزّل المطر أنه ينزل علينا كميات هائلة متدفقة من المياه، ولكن في صورة قطرات صغيرة، لا تضر زرعًا، ولا إنسانًا ولا حيوانًا، وتلك السحب ما هي إلاَّ مياه متحركة تسوقها الرياح من فوق البحار إلى القارات؛ حيث توجد البذور والتربة، قال تعالى: ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ** (٢٧) ﴾ [السجدة: ٢٧].

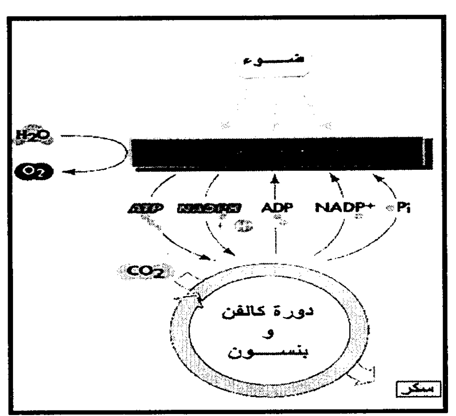
(ج) ومن رحمة الله بنا، ومن بديع تقديره أن جعل غاز (ثاني أكسيد الكربون) الخانق الذي يخرج زفيرًا أثناء التنفس من أجسامنا، وأجسام الكائنات الحية جعله من المواد الخام الضرورية لصناعة الطعام في أجسام النباتات،وفي الوقت نفسه تقوم النباتات بتعويض ما نقص من الأكسچين اللازم لتنفسنا واستمرار حياة الكائنات.

(د) والمادة الخام الأخيرة هي ضوء الشمس، الذي يأخذه النبات من الشمس بواسطة المادة الخضراء الموجودة في خلاياه، والذي يصل إلى وجه الأرض بالقدر الكافي، المناسب للحياة، فلو زاد بُعد الشمس عنّا بمقدار المسافة بيننا وبينها لتجمد كل نبات وكل حيّ؛ لنقص كمية الطاقة الواصلة إلينا منها ولو قربت إلى نصف المسافة بيننا وبينها لاحترق كل كائن حيّ، قال تعالى: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** (٣٣) ﴾ [إبراهيم: ٣٣].



مقطع في ورقة

مصانع الغذاء الوحيدة على الأرض:



الخلايا الخضراء هي المصانع الوحيدة التي تدخل إليها المواد الخام من أملاح التربة، والماء، والهواء، وضوء الشمس؛ فتصنع منها سكرًا يتحول إلى مختلف المواد الغذائية [١] : نشويات، دهون، بروتينات، ڤيتامينات، ويتم ذلك بواسطة خمائر (إنزيمات) خاصة، وتفاعلات كيماوية دقيقة مرتبة. وهذه المصانع الخضراء عبارة عن نقط خضراء صغيرة تسبح في بعض خلايا النبات، وخاصةً خلايا الأوراق، وينتج النباتُ كميات وفيرة هائلة من هذه المصانع الخضراء؛ لتحويل المواد الخام السابقة إلى أغذية مناسبة صالحة تكفي لتغذية كل الكائنات الحية.

قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)** ﴾ [الأنعام: ٩٩].

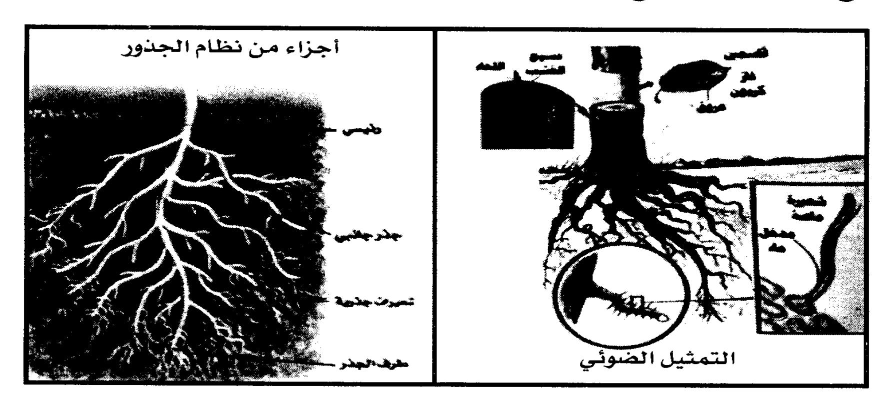
توصيل المواد الخام إلى المصنع:

أحكم الخالق سبحانه توصيل المواد الخام اللازمة لصناعة الغذاء إلى مصانعه الخضراء بتقدير حكيم، وتنظيم دقيق كما يأتي:

---

(١) يتكون السكر أولاً ثم يختزل فتتكون المواد الدهنية، ويُضاف النيتروچين إلى السكر، فيكون الأحماض الأمينية التي تتكون منها البروتينات.

[١] **امتصاص الماء والأملاح**: تقوم الماصات الجذرية الموجودة في البذور النباتية بامتصاص الماء والأملاح الذائبة فيه بقوة يخلقها الله فيها تسمى قوة التناضح (الضغط الأسموزي). ثم تقوم هذه الماصات الجذرية (الشعيرات الجذرية) بتوصيل الماء والأملاح الذائبة إلى أنابيب خاصة موجودة في الجذور، قد أُعِدَّت لاستقبال الماء والأملاح، ورفعه إلى شتى أجزاء النبات، حيث يصل في فروع صغيرة إلى المصانع الخضراء الصغيرة.



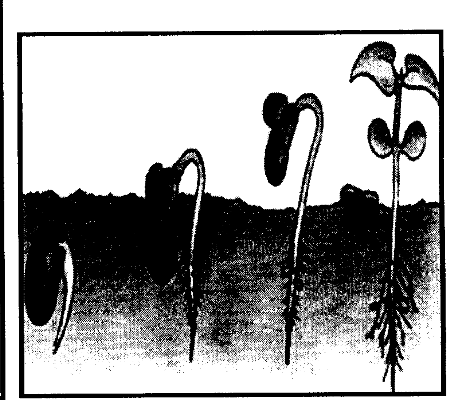
[٢] **إدخال الهواء**: ويدخل الهواء إلى المصانع النباتية عبر ثغور صغيرة، قد أعدت بإحكام، وتنتشر في الطبقة السطحية للأوراق، وقد خلق الخالق سبحانه خليتين حارستين أو أكثر تقوم بدور البواب الذي يفتح ويقفل الثغور بنظام وبحسب الحاجة.

[٣] **الضوء**: أما الضوء فيصل مباشرة إلى المصانع الخضراء المنتشرة في أجزاء النبات فوق سطح الأرض. وقد جعل الله أوراق النبات في أوضاع مناسبة للتعرض للضوء [١] فلا يُخطئ حامل الأوراق في اتجاهه، كما لا يخطئ الجزء الذي

---

(١) راجع « من آيات الله في النبات ».

سيكون الجذر حتى لو وضعت البذرة مقلوبة؛ فإن حامل المصانع الخضراء يعرف طريقه دائمًا إلى أعلى؛ فكان يتجه إلى حيث قدر له الخالق سبحانه.





الصناعة والتخزين:

بعد أن وصلت المواد الخام إلى المصانع، لم تجد أمامها مصنعًا أو مصنعين، بل استقبلتها ملايين الملايين من المصانع التي تقوم بأهم إنتاج في العالم وأعظمه، إنه الإنتاج الوحيد، من المصانع الوحيدة، القادرة على إنتاج البروتينات، والدهنيات والنشويات والڤيتامينات، من ماء وثاني أكسيد الكربون (هواء) وضوء الشمس.

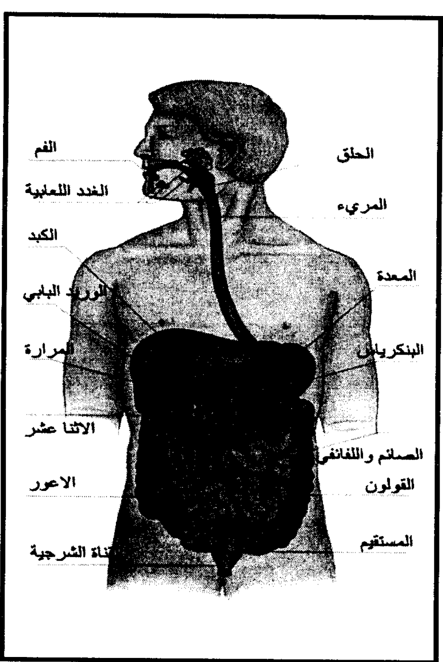
ومن بديع صنع الله في هذه المصانع أنها تقوم بعملها دون ضجيج أو إزعاج في عمليات كيماوية حيوية طويلة متلاحقة وفي سلسلة متتابعة من الخطوات؛ حتى يكون الناتج تلك الثمار اللذيذة الشهية التي ليست إلاَّ مخازن خزن الله فيها الغذاء وأحكم حفظه فيها.

المعضلة الثالثة :

قد علمنا كيف حلت المعضلتان السابقتان : معضلة إعداد المواد المطلوبة لغذاء الخلايا، ومعضلة توفير هذه المواد باستمرار وبكميات هائلة، وبقيت المعضلة الثالثة وهي : كيف يمكن إيصال هذه المواد إلى كل خلية في جسم الإنسان، سواء كانت في وسط المخ أو في قشرة الكلية، أو في سطح الجلد؟ إذْ لا معنى لتوفير المواد المطلوبة دون توصيلها إلى المكان المطلوب .

حل المعضلة الثالثة :

ويجب أن يعرف كل عاقل أن رازقه الرحيم قد أعد أجهزةً كاملةً متعددة تتعاون لحل هذه المعضلة .



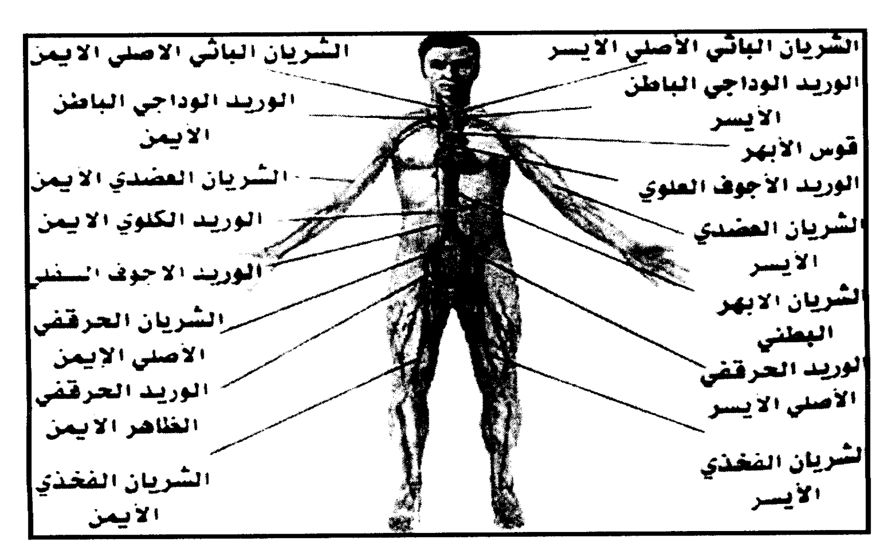
أولاً - الجهاز الهضمي :

يبدأ الجهاز الهضمي بالفم - المدخل الوحيد للطعام - وفيه يُقطَّع الطعام (الخام) إلى قطع صغيرة بواسطة الأسنان التي تحركها عضلات المضغ، ثم يطحن الطعام؛ لكي يسهل هضمه، كما أن هضمًا جزئيًا يبدأ بواسطة اللعاب الذي تفرزه غدد خاصة موجودة في الفم، والذي يساعد بلزوجته على انزلاق اللقمة في المريء إلى المعدة، ويقوم اللسان بعملية تقليب الطعام في الفم؛ ليتم خلطه باللعاب، ثم دفع اللقمة إلى البلعوم

بعد إن يغلق لسان المزمار (شرطي المرور) باب القصبة الهوائية؛ فتنزلق اللقمة إلى المعدة بفعل حركات دودية في المريء كما يساعدها على الانزلاق ما يفرزه المريء من إفرازات مخاطية.

وفي المعدة تستمر عملية الهضم، حيث يتحول الطعام إلى سائل يسمى (سائل الكيموس) الذي تفتح له فتحة البواب في المعدة، ويتجه إلى الإثنى عشر، حيث تستمر عملية الهضم التي هي تحويل المادة الخام من الطعام إلى مادة مناسبة صالحة؛ لتغذية خلايا الجسم، ثم منها إلى الأمعاء الدقيقة، حيث تستكمل عمليات الهضم النهائية، فتصبح المواد الزلالية أحماضاً أمينية، والمواد النشوية سكراً، والمواد الدهنية أحماضاً دهنية وجلسرين، ويصبح الطعام بهذه الصورة صالحًا لتغذية الخلايا إذْ تمتصه (الخملات) الموجودة في الأمعاء؛ ليجري مع مجرى الدم.

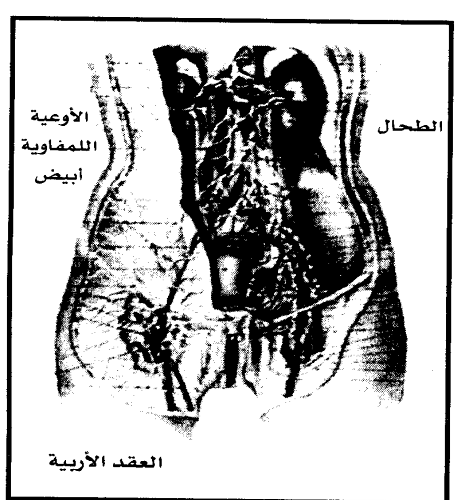
ثانياً - الجهاز الدوري:



جعل الله دوريات هائلة، مستمرة من الدماء، تقوم بالدوران على كل جزء، وكل نقطة في الجسم، فتوصل إليها ما تحتاجه من غذاء وأكسجين، وتأخذ منها الفضلات؛ لتوصلها إلى جهاز الإخراج، وتمر هذه الدوريات على الأمعاء الدقيقة، كما تمر على المعدة والمريء والفم، ولكنها لا تأخذ الطعام إلاَّ من الأمعاء الدقيقة، حيث تمت عمليات الهضم.

ولهذا الجهاز الدوري محطة ضخ مركزية، هي القلب الذي يقوم بإرسال هذه الدماء المتدفقة باستمرار، ويمكنك أن تضع يدك الآن على قلبك؛ لتحس عمله الجاد في إرسال هذه الدماء الدائرة إلى كل نقطة في الجسم، ثم استقبالها مرة ثانية، وذلك في أضخم شبكة مواصلات على الأرض.

ثالثًا - الجهاز اللمفاوي:



إن المواد الغذائية التي انتقلت من الأمعاء إلى الدم وأرسلها القلب مع تيار الدم إلى كل نقطة في الجسم لا تزال في حبس داخل الشعيرات الدموية، بعد أن قطعت هذه المواد الغذائية رحلةً طويلة من المصانع الخضراء في النبات إلى أن وصلت إلى قرب الخلية، ولكن ليس إلى داخلها؛ لأن جدار الشعيرة الدموية يمنع انتقالها من الشعيرة إلى الخلية، فخلق الرزاق سبحانه الجهاز اللمفاوي، ونحن لا نزال أجنة في بطون الأمهات، والذي بدونه لا يصل الطعام إلى الخلية؛ فيقوم هذا

الجهاز بإعداد سائل اللمف الذي يقوم بعملية الوساطة بين الشعيرة الدموية والخلية؛ فيترشح الطعام من الشعيرة الدموية إلى السائل الذي يربط بين الشعيرة الدموية والخلية (سائل اللمف) ويقوم هذا السائل بدوره بإيصال هذه المواد الغذائية إلى الخلية، وأخذ الفضلات، والمواد المتبقية منها وتسليمها للشعيرة الدموية التي تقوم بنقلها إلى أجهزة الإخراج المُعَدَّة لهذا الغرض .



العقد اللمفاوية

ولهذا كان كل ذلك الإعداد :

وكل ما سبق ذكره ابتداء من حركات السحب بالماء، وسطوع الشمس بالضوء، وامتصاص الجذور للماء والأملاح، ودخول الهواء من ثغور الأوراق وعملية التصنيع في المصانع الخضراء، وانتهائه بدخول (الأحماض الأمينية، والسكر، والأحماض الدهنية والجليسرين، والأملاح الذائبة، والڤيتامينات) من سائل اللمف إلى الخلية، كل ذلك ليس إلاَّ توصيلاً لمادة الطعام (الخام) إلى مكان التصنيع الجديد، حيث يصير الله تلك المواد الغذائية إلى عظام ولحم ودم ومخاط وشمع في الأذن أو مني يمنى أو شعر أو أظافر أو إنزيمات هاضمة أو هرمونات، أو أي نوع آخر مما يحتوي عليه جسم الإنسان .

رابعًا - الجهاز الإخراجي :

يتَخلّف عن عملية التصنيع السابقة التي تتم في الجسم وفي داخل الخلايا فضلات وبقايا إذا لم تطرح خارج الجسم يتعرض الإنسان للهلاك، فخلق البديع الرحيم جهازًا خاصًا يقوم بعملية إخراج هذه ا لمواد المتبقية التي لا فائدة من بقائها .

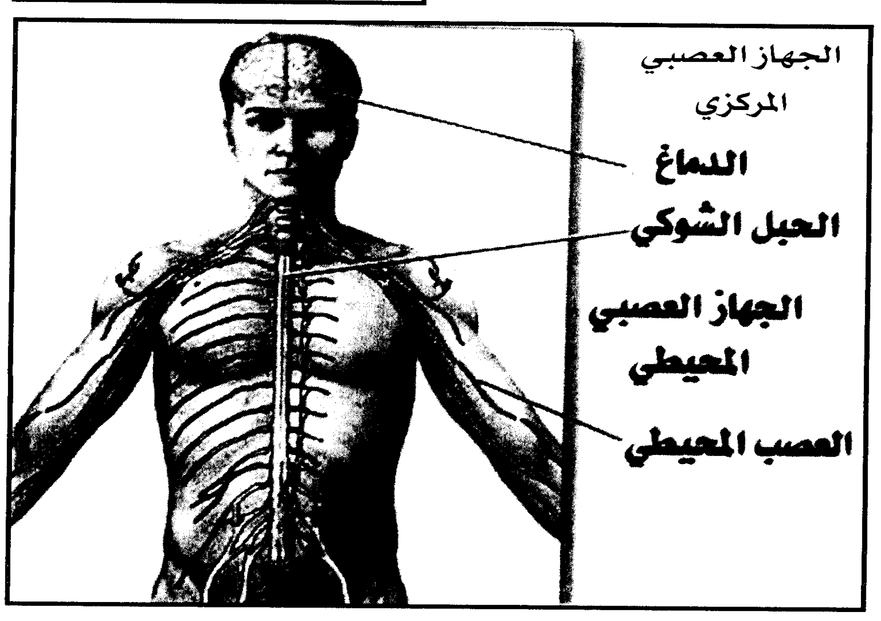


وتبدأ عملية الإخراج عن طريق المعي الغليظ الذي يحمل بقايا الطعام الذي لم يذب في الإنزيمات الهاضمة، ويخرج غائطًا من فتحة الشرج، كما تخرج بقايا الماء والبولينا وحامض البوليك عن طريق الكليتين والحالبين والمثانة في صورة بول، كما تخرج في صورة عرق من الغدد العرقية، وتقوم الرئتان بإخراج ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء المتولد في عمليات التصنيع والبناء داخل الخلايا .



خامسًا - الجهاز العصبي:

خلق الله جهازًا عصبيًا في جسم الإنسان يقوم بالإشراف على سير وتنظيم العمليات السابقة وكل عملية أخرى من عمليات الجسم.



تفكروا يا أولي الألباب

من أوجد (البذور، الماء، التربة الصالحة للزراعة، ضوء الشمس، ثاني أكسيد الكربون، المصانع الخضراء) على الأرض وجعلها بكميات وافرة تكفي لحاجة كل كائن حي، وقدرها بنسب محكمة منذ خلق الأرض؟

قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠)** ﴾ [فصلت: ١٠].

إنه لو زاد سمك الطبقة العليا من الأرض بضعة كيلو مترات لاستهلك الأكسچين الموجود الآن كله في تكوين الزيادة في قشرة الأرض، وإذًا لما بقى أكسچين، ولما وجد نبات أو حيوان أو ثاني أكسيد الكربون، كما أن الأكسچين يكون ٨٨٫٨٪ من وزن الماء في العالم والباقي أيدروچين، فلو أن كمية الأيدروچين زادت الضعف عند انفصال الأرض لاتحد مع أكسچين الهواء الجوي، ولما وجد إذن أكسچين، واستهلكه مكونًا كميات إضافية من الماء تكفي لغمر كل نقطة في الأرض.

تأمل في كمية الضوء المناسبة التي تصل إلى الأرض، فلو يطول اليوم قدر ما هو عليه عشر مرات لأحرقت الشمس كل نبات على وجه الأرض، فمن قدر الليل والنهار ليناسب حياة من على الأرض؟!!، مع العلم أن نهار بعض الكواكب أطول من نهارنا بعشرات المرات، وبعضها نصفه نهار دائم، والنصف الآخرُ ليلٌ دائم [١]، قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ**

---

(١) مثل عطارد الذي لا يظهر منه إلاَّ وجه واحد أما الوجه الآخر فهو مظلم دائمًا، أي أنّ له وجهين، واحد نهاري أبدي، وهذا تصل حرارته إلى حوالي (٤٠٠) درجة مئوية، وآخر ليلي أبدي وتصل درجة برودته إلى حوالي (٢٠٠) دورجة مئوية تحت الصفر. انظر «المحيط الكوني» نجيب زبيب (ص٥٧، ٥٨) ط١. دار الأمير (١٤١٥هـ – ١٩٩٤م).

غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾

[القصص: ٧١، ٧٢].

وتأمل في تقدير الخالق العليم الحكيم لحركة الأرض مع الشمس، بحيث تستمر المحافظة على وصول الأشعة الضوئية بالقدر المناسب للنبات، وما على الأرض من أحياء، وتأمل في تقدير المسافة بين الأرض والشمس، فلو بعدت عنا الشمس بمقدار نصف المسافة الحالية - بيننا وبينها - لتجمد كل كائن حي، ولو اقتربت نصف المسافة لاحترق كل حي؟!.

وكيف أحكم الله الخالق النبات، بحيث يتمكن من استقبال المواد الخام في يسر وسهولة؟ وكيف يوصل الرحيم إليه هذه المواد الخام الضرورية لنقل الماء من البحار، وتصعيده، وتكثيفه، وسوقه، وإنزاله، وحفظه، وإيصاله إلى حيث توجد الماصات الجذرية للنبات؟!.

وكيف سخّر الله النبات ليصنع المواد الوحيدة الصالحة لغذاء الحيوان والإنسان (بروتينات، نشويات، دهون، فيتامينات، أملاح)، قال تعالى: ﴿**أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١)**﴾ [الملك: ٢١].

وسلْ نفسك من أنشأ مليارات المليارات من تلك المصانع الخضراء الصغيرة التي تكسو وجه الأرض بلونها الأخضر الجميل. ومن يخلق هذه المصانع الفريدة في كل يوم مع كل نبات ينبت، وكل ورقة تتكون؟.

ومن منح ذلك المصنع الصغير تلك القدرة العجيبة على تحويل الماء، وثاني أكسيد الكربون وضوء الشمس إلى سكر؟! ثم تحويله إلى المواد المطلوبة لغذاء الإنسان والحيوان؟، ومن ساق تلك المواد المصنوعة إلى المخازن الغذائية (الثمار) اللذيذة ليسهل على الإنسان الحصول على أكبر كمية من الغذاء في أصغر حيز؟.

ومن شقّ لك فمك وعلم أنه في بداية الجهاز الهضمي فزوّده بأسنان عظيمة بارزة، قاطعة، وممزقة، وطاحنة، والعظام في الجسم تُغَطَّى باللحم إلاّ في الفم، حيث لابد أن تكون عظام الأسنان مكشوفة، وعلم أن تقطيع الطعام وتمزيقه وطحنه وتليينه أمر ضروري لتسهيل انزلاقه في المريء إلى المعدة، فخلق العضلات المحركة للأسنان، وخلق ذلك القلاب الخلاط الماهر اللسان، وأنشأ تلك الغدد اللعابية التي تسكب في الفم لعابًا يقوم بجزء من الهضم كما يلين البلعة الغذائية، ويربط بلزوجته بين أجزائها؟ من يا ذوي الألباب؟!.

قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩)** ﴾ [البلد: ٨، ٩].

ومن خلق ذلك الفم بما فيه من أدوات في مكانه الصحيح بداية الجهاز الهضمي بالمواصفات المناسبة؟ من يا أولي الأبصار؟! ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧)** ﴾ [الانفطار: ٦، ٧].

وهيا لنقف قليلاً عند شرطي المرور (لسان المزمار - الغلصمة) الذي يقف في الحنجرة؛ لينظم دخول الهواء إلى قصبته، ودخول الطعام إلى المريء، وبغير خلق هذا الشرطي يحدث الخلل في سير الجهاز الهضمي، والجهاز التنفسي، و يموت الإنسان (بشرقة)!!.

فمن علم بتلك الحاجة الماسة لتلك الزيادة البارزة من لحم ودم (لسان المزمار - الغلصمة) ووضعها في المكان الوحيد في جسم الإنسان - الصالح لأداء وظيفتها - من علم ذلك والإنسان لايزال جنينًا في بطن أمه وأحاط علمه بأن ذلك الجنين سيخرج من ضيق الرحم إلى سعة الأرض، وأنه سيأكل ويتنفس، وأن الأكل والهواء سيمران من مكان واحد، وأنه لابد من إنشاء (لسان المزمار - الغلصمة)؛ ليقوم بتنظيم سير الطعام والهواء، فامتدت يد قدرته الرحيمة، وأنشأت ذلك الشرطي الماهر من لحم ودم، حسب المطلوب (تركيبًا، وحجمًا،

ووزنًا، ووضعًا في المكان المحدد المطلوب)؟ ألا ترى أن ذلك كله قد تم بعمل وتدبير وحكمة، وتقدير دقيق؟ وعجبًا لذوي العقول المختلة الذين زعموا أن ذلك كله قد حدث صدفة، ونشأ بدون علم لما يقوم به من وظيفة ودور خطير!! وهل للَّحم أو الدم، أو القصبة الهوائية، أو المريء حكمة أو تدبير، أم أن رحم الأم هو صاحب تلك الحكمة البديعة والصنع الحكيم، والتصوير الدقيق، وأنه قد علم بما سيؤول إليه أمر الجنين بعد خروجه منه وعلم بحاجته إلى (لسان المزمار – الغلصمة) فأنشأه مقدمًا؟! وهل يصح في الأفهام وصف الرحم بالعلم، والتقدير والتدبير؟ ألا يشهد ذلك كله بأنه من صنع الله المصور البديع القائل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الإنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)** ﴾ [الانفطار: ٦ – ٨]؟.

وتأمل في المريء، القصبة ذات الحركات الدودية والإفرازات المخاطية، التي تعمل بإتقان؛ لتسهيل نزول اللقمة (البلعة) إلى المكان المعد لها في المعدة، فمن ربط هذه القصبة (المريء) بالمعدة، ولِمَ لم يربطها بالكبد المجاور للمعدة، أو بغدة البنكرياس، أو بإحدى الرئتين؟ ألا يدل ذلك الربط المقدر المقصود أن خالق تلك القصبة خبير بما يخلق ولِمَ يخلقه؟

وتفكر في قصبة المريء من الداخل تجد الحركات الدودية المتجهة إلى المعدة والإفرازات المخاطية، التي توصل البلعة الغذائية إلى المعدة بيسر وسهولة، فهل تمّ ذلك خبط عشواء؟ أم أن المريء قد أنشأه الخالق بعلم وخبرة؛ ليقوم بوظيفة محددة في مكان محدد؟ وهل حدد المريء لنفسه هذه المهمة؟ وهل له علم أو خبرة أو فكر أو تدبير؟ وهل يقدر أن يغيّر وظيفته حتى نقول: إن له حرية في ترك أو فعل؟.

وهذه المعدة تُفرز (خميرة) تُذيب اللحم، فمن علَّمها أن لحمًا سيأتي إليها، فخلق معها تلك الغدد المفرزة لهذه الخميرة وأعدها، وهي لا تزال قطعة صغيرة

من ذلك الجنين الذي يصل إليه غذاؤه جاريًا مهضومًا مع دماء الأم؟ وانظر إلى حفظ الله للمعدة كيف جعل لها غشاء مخاطيًا يبطنها ويمنع خمائر المعدة المذيبة للحم من أن تُذيب المعدة نفسها.

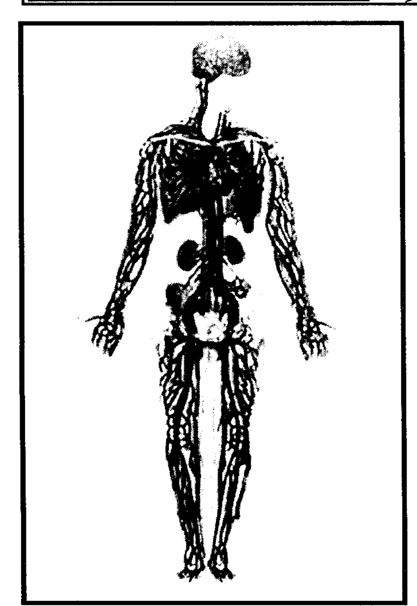
انظر ماذا يقول أحد أساطين العلوم الحديثة، إنه « أ. كريسي موريسون » رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك، وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة سابقًا في كتابه المترجم إلى العربية « العلم يدعو للإيمان » : « ... فأولاً نضع في هذا المعمل (يعني المعدة) أنواعًا من الطعام كمادة غُفْل (خام) دون أي مراعاة للمعمل نفسه، أو تفكير في كيفية معالجة كيمياء الهضم له! فنحن نأكل شرائح اللحم، والكرنب والحنطة، والسمك المقلي، وندفعها بأي قدر من الماء.. وقد نضيف إلى كل ذلك كبريتًا وعسلاً أسود، كدواء في الربيع، ومن بين هذا الخليط تختار المعدة تلك الأشياء التي هي ذات فائدة، وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيماوية، دون مراعاة للفضلات، ويُعيد الباقي إلى بروتينات جديدة تُصبح غذاء لمختلف الخلايا، وتختار أداةً لهضم الجير والكبريت واليود، والحديد، وكل المواد الأخرى الضرورية، وتُعنى بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية، وبإمكان إنتاج الهرمونات، وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة في مقادير منظمة، ومستعدة لمواجهة كل ضرورة. وهي تخزن الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى، للقاء كل حالة طارئة، مثل الجوع، وحين تتحلل هذه الأطعمة، وتجهز من جديد، تقدم باستمرار إلى كل خلية بلايين الخلايا، التي تبلغ في العدد أكثر من عدد الجنس البشري كله على وجه الأرض، ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمرًا، وأن لا يورد سوى تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعينة؛ لتحويلها إلى عظام، وأظافر، ولحم، وشعر، وعينين، وأسنان، كما تتلقاها الخلية المختصة.

فهاهنا إذن معمل كيماوي يُنتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره

ذكاء الإنسان، وهاهنا نظام للتوريد أعظم من أي نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم، ويتم كل شيء فيه بمنتهى النظام!... ومثل هذه المجموعة من المعجزات لا توجد، ولا يمكن أن تحدث بأي حال، في غيبة الحياة، وكل ذلك يتم في نظام كامل والنظام مضاد إطلاقًا للمصادفة، أليس ذلك كله من صنع الخالق؟».

والأمعاء الدقيقة تستلم الغذاء من المعدة وبعضه نصف مهضوم كالمواد الزلالية (البروتينات) التي بدأ هضمها في المعدة ولم يتم فيفرز البنكرياس المادة الكيماوية الوحيدة على وجه الأرض التي تتم هضم المواد الزلالية وتحولها إلى أحماض أمينية. فمن الذي علم أن الأمعاء تنظم التعاون بينهما لإكمال هضم المواد الناقصة بواسطة إفراز كيماوي (خميرة) هي الوحيدة التي تعمل على إتمام الهضم؟ وهل يصدق عاقل إذا قيل له: إن ذلك الاستعداد المناسب الذي هيئت به الأمعاء في ظلمات الأرحام قد كان بدون علم أو دراية لما سيأتي من المعدة من غذاء؟ وهل تعي الأمعاء هذا الدور الهام الذي تقوم به في سلسلة ترتيبات محكمة قد صُمِّمت لإيصال الغذاء الصالح إلى كل خلية في جسمك؟

والدم يستلم الغذاء من جدر الأمعاء الدقيقة، حيث الهضم قد تم بعد وصول عصارة الصفراء من الكبد ولا يأخذه من جدر المعدة مع أن العروق الدموية منتشرة في جدرها أيضًا، فهل لدى الدم إدراك بأن الهضم لم يتم بعد، وأن عليه أن ينتظر إتمام الهضم الذي سيتم في الأمعاء الدقيقة؟ وما الذي كان يحدث لو طال انتظار الدم لإتمام الهضم حتى يخرج من فتحة الشرج دون أن يُؤخذ منه الغذاء؟ فهل عرف الدم المكان الصحيح للامتصاص فوضع أجهزة الامتصاص في المكان المناسب؟ عجبًا!!، وهل للدم تفكير أو تدبير، وهل يوصف بعقل أو فهم؟ لاشك أن وصف الدم أو طبيعته أو وصف أي جزء من أجزاء جسم الإنسان أو طبيعته بشيء من هذه الصفات لا يختلف عن وصف الأوثان الصماء بالفهم والإدراك والإرادة؛ لأن الجميع لا يملك لنفسه تبديلاً ولا تحويلاً ولا ضرًا ولا نفعاً.



وتلك العروق الدموية التي تُكون أضخم وأعقد شبكة في العالم، من مدَّها إلى كل نقطة في الجسم؟ ومن ربطها بمحطة الضخ العاملة المجدة (القلب) وفروعها دون أن ينسى نقطة في الجسم؟ وهل تمّ مد تلك الشبكة الدموية في أجزاء جسم الإنسان بوعيّ وإدراك أم بخبط ومصادفات؟! وهل تصدق إذا رأيت صورة لهذه الشبكة الدموية، وقيل لك: إن هذه الخطوط المترابطة التي تشاهدها قد ارتبطت مع بعضها في الصورة بواسطة تفاعلات كيماوية، تمّت بين الألوان وورق الصورة أو بمصادفات وضعت كل خط في مكانه؟ .

إن مدَّ شبكة مياه في إحدى القرى يحتاج إلى مهندسين وفنيين، فمن مدَّ هذه الشبكة الكبرى إلى كل نقطة في جسمك، وأنت لاتزال جنينًا في ظلمات الرحم؟ وهل قام بذلك التوصيل المحكم الدم واللحم في عضلة القلب؟ وهل للدم أو اللحم وعي أو إدراك؟ أم أن ذلك قد جاء مصادفة؟ وهل يعي الدم دوره وما يقوم به من أعمال؟ هل يعلم لماذا يدفعه القلب ليدور على كل نقطة في الجسم؟ ولماذا يدور على الرئة فيأخذ منها الأكسجين، ويُلقي فيها (ثاني أكسيد الكربون)، ويمر على الكبد فيأخذ منه (الأنسولين) المنظم لتركيز السكر في الجسم، ويمر على الغدد الصماء، فيستلم منها إفرازاتها الدقيقة. ويمر على الأمعاء فيأخذ منها الطعام، ويمر على الكلية فيسلمها البول، ويمر على الغدد العرقية فيسلمها العرق؛ لتبريد الجسم عند ارتفاع حرارته، ويمر على كل جزء في جسم

الإنسان فيعطيه حاجته، ويأخذ منه ما يجب توصيله من ذلك الجزء إلى أماكن أخرى في الجسم.

فمن جعل هذا السائل الدموي يقوم بوظيفة موزع البريد الماهر؟ ومن حدّد له العناوين؟ ومن ربط أعضاء الجسم وأجزاءه به، وألهمها أنه المؤتمن على إفرازاتها، وأنه الأمين الذي سيؤدي دوره، ومن قرر له حاجاته التي تمكنه من القيام بعمله؟ وأمده بالقوة المحركة الدائمة؟ ومن صمّم القلب في غاية الإحكام ليقوم بتحريك الدم؟ وهل يعرف القلب الدور الخطير الذي يقوم به؟ وهل بيده أن يُغيّر وظيفته؟ وإذن فمن الذي يحركه؟!!.

إنَّ لكل عضو وكل جزء في جسم الإنسان يقوم بواجبه الذي لا يقدر على عمل شيء غيره؛ لأنه خُلِقَ ورُكِّب ليقوم بوظيفته المحددة، فليس هو إلاّ آلة مُسَيَّرة، لا حرية لها ولا إرادة ولا اختيار. فمن الذي قدّر سير هذه الأعضاء وحدد وظائفها ونظم أعمالها؟ ونسق بينها ذلك التنسيق الهادف المحكم الدقيق؟.

قال تعالى: ﴿ **قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩)** ﴾ [عبس: ١٧ - ١٩].

وجهاز «اللمف» بعقده وأنابيبه وسوائله، يقوم بتوصيل المواد المختلفة من الخلية إلى الشعيرات الدموية، ومن الشعيرات الدموية إلى الخلايا؛ فلماذا يقوم اللمف بهذه الخدمة للخلايا مجانًا دون أن يعود عليه أي مقابل مباشرة من هذه الخلايا؟ فهل سخر سائل اللمف نفسه لخدمة الخلايا بإرادته ليحمل إليها الغذاء، ويحمل منها الفضلات والبقايا؟ ومن ألهم الخلية وأعلمها أن سائل اللمف يقف على الأبواب، فما عليها إلاّ أن تفتح الأبواب لاستلام التموين وإخراج الفضلات؟ فمن علمها إخراج الفضلات وإخراج التموين؟!!.

وتلك الخلية النشطة العاملة النامية، هل قررت القيام بما أُلقي عليها من مهام

البناء والعمل، ومقاومة الأمراض، بعد أن ضمنت وصول الغذاء لها باتفاقية مبرمة بينها وبين كل من يشترك في إعداد غذائها الخاص، وضمنت أن كل الأطراف المعنية ستقوم بواجبها، فلا داعي للتوقف أو الإضراب عن العمل بناء على تلك الاتفاقية؟.

فإن البذور، والتربة، والبحار، والرياح، والسحب، وحرارة الشمس، والأنهار، والعيون، والمياه الجوفية، والجذور النباتية، والمصانع الخضراء الصغيرة، والضوء القادم من الشمس، وتقلب الليل والنهار، وثاني أكسيد الكربون، ورئات الحيوانات، وثغور الأوراق، ومخازن الغذاء، والأسنان، واللسان، والغدد اللعابية، ولسان المزمار والمريء وحركاته الدودية وإفرازاته المخاطية، والمعدة و(خمائرها) وغشائها المخاطي المبطن، والأمعاء الدقيقة وخملاتها، وخمائر البنكرياس، والدماء، وأنابيب الدماء (العروق والشعيرات) والقلب، واللمف وعقده وأنابيبه، كل هذه المخلوقات قد قررت التوفية بشروط الاتفاقية كل فيما يخصه لإمداد خلايا الجسم بالغذاء، أم أن هذه ا لمخلوقات تقوم بواجبها الذي قدر لها فقط، وأن هناك خالقًا قادرًا عليمًا مريدًا خبيرًا هو الذي خلق خلايا الإنسان محتاجة إلى الغذاء، وهو الذي خلق لها الغذاء وأحكم نظامه وقدّر أسبابه، فمن الخالق الرازق العليم الخبير؟ من إلاَّ الله..

- ألا تشهد كل هذه الأفعال المشاهدة والأحداث التي تقع أمام أبصارنا كل يوم أن لها خالقًا يصنعها؟
- ألا تشهد كل هذه التدابير المحكمة أنها من صنع حكيم مريد؟
- ألا تشهد هذه النظم الرحيمة بحياة الكائنات الحية أنها من فعل الرحيم؟
- ألا تشهد هذه الأقدار المُعدّة لتدبير أرزاق الكائنات الحية على وجه الأرض أنها من تقدير الرزاق؟

■ ألا يشهد هذا التساند والتنسيق بين كل المخلوقات التي تشترك في صنع وإعداد وتوصيل الغذاء إلى كل خلية حية باستمرار أنه من فعل الرزاق الرحيم الجامع العظيم المحيط علمًا بكل ما خلق؟ وأنه خالق واحد ورب واحد بيده مقاليد الأمور سبحانه.

بلى.. بلى..

إن كل ما سبق يشهد، كما شهد المسلم شهادة الحق الساطع أن ما سبق ذكره من أحداث وأفعال، ونظم، وأقدار من صنع الحكيم، العليم، الخبير، الرحيم، القادر، الرزاق، المريد، الواحد، الجامع، العظيم.

■ فمن الذي له هذه الصفات العظيمة، التي تركت آثارها وعلاماتها فيما نشاهده من صنعه وأفعاله؟

■ أهو وثن أصم؟

■ أم طبيعة عمياء بليدة؟

■ أم صدفة عشوائية ؟

■ أم تفاعل كيماوي لا يملك تدبيرًا، ولا عقلاً، ولاحكمة، ولا إرادة، ولا يملك لنفسه تبديلاً ولا تحويلاً؟

كلا.. كلا..

إن هذه الأوثان العاجزة لا تقدر على فعل شيء مما سبق بيانه من أفعال هادفة محكمة، وأحداث منسقة بديعة، وإذن فليست هي الرازقة يا أولي العقول والأبصار.

إنه الخالق ربكم ورب كل شيء، ليس شيئًا من هذه المخلوقات الضعيفة المشاهدة، إنه العليّ العظيم، الحكيم، العليم، الخبير، الرحيم، القادر، الرازق،

المريد، الواحد الأحد، الجامع العظيم، إنه الله المقيت الرزاق سبحانه، وبهذا تتحدث المخلوقات إلى عقولنا عن خالقها، وتشهد كما يشهد المسلم أنه الله الذي لا إله إلاَّ هو، وصدق الله العظيم القائل: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (٣٧)**﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٧].

ولله در القائل:

مراشف تمتص حلو الضياء لتصنع في الأرض وفر الغذاء
من الشمس تجري ينابيعه فتغمر ما حولنا من فضاء
ضياء يجوز الفضاءَ البعيد ليعبر ما حولنا من هواء
ولولا النسيمُ وتكسيره فيوض الضياء لشد اللقاء
وما كان قد جاءنا صالحاً وما كان قد جاءنا في صفاء
وما أنبت الحقل حلو النبات وما كان في الأرض هذا النماء
وما صلحت أرضنا للحياة على ما نراه بها من بهاء
تبارك من أتقن الحادثات ومد الحياة بفيض العطاء
فَقَدَّرَ في الأرض أقواتها وأودعها في تراب وماء
ولكنه ناط أسبابها بضوءٍ منابعه في السماء

تفكّرت بالمتقن الباهر
فآمنت بالخالق القادر
نظام به للفتى المعتبر
روائع آيات رب البشر فآمنت به[١]

---

(١) «براهين وأدلة إيمانية» الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (ص٧٤).

الشكر

وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها:

كنّا ترابًا فأصبحنا بنعمة الله بشرًا سويًا، وكنّا نطفًا من ماء مهين، فصورنا الله في أحسن تقويم، وخلق لنا الأجهزة الدقيقة المحكمة في أبداننا للقيام بجميع وظائف الحياة فيها، فخلق لنا جهازًا لهضم الطعام، وجهازًا لتنفس الهواء، وجهازًا لإخراج الفضلات الضارة، وجهازًا هيكليًا من عظام وعضلات للحفاظ على قوام الأبدان، وتمكيننا من السعي والعمل والانتقال من مكان إلى آخر.

كما خلق لنا الخلاق العظيم جهازًا دوريًا تتحرك فيه الدماء لإيصال ما تحتاج إليه كل خلية في أبداننا واستلام ما تنتجه لإيصاله إلى الأماكن المخصصة لذلك الإنتاج، وخلق لنا جهازًا (ليمفاويًا) يقوم بالدفاع عنّا ضد الجراثيم ومسببات الأمراض، وخلق لنا الخلاق الحكيم جهازًا عصبيًا يُنظم عمل هذه الأجهزة بتناسق محكم، وعمل متقن، وضبط دقيق.

وأنعم المنعم علينا بأدوات العلم من سمع وبصر وفؤاد، وكرّمنا بالعلم الذي عرفناه به، كما سخّر لنا بالعلم كثيرًا من النعم.

ويسّر لنا الطعام والشراب، وما ينظمها من أسباب، وسخر لنا الأرض، برًا وبحرًا، وقَلّب الليل والنهار، وحفظ الأرض، وأمسك السماء أن تقع عليها بنجومها وكواكبها. وكم من النعم الظاهرة والباطنة التي نتقلب فيها.

وأتّم لنا ذلك كله بهدايتنا إلى دينه القويم وصراطه المستقيم، وصدق الله القائل: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١٨) ﴾ [النحل: ١٨].

فهل قمنا بأداء حق هذه النعم، وهل شكرنا الله على نعمه وفضائله؟

حقيقة الشكر وتعريفه:

(أ) **الشكر لغة** : مصدر لشَكَرَ يَشْكُرُ، ويدل على : الثناء على الإنسان بمعروف يوليكه، وقد يأتي بمعنى السمن والامتلاء، والرضا باليسير [١] .

ويقال : شكر له وشكره، والأول أفصح وهو الوارد في القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ** ﴾ [لقمان : ١٤] .

والشكر يضاده الكفر الذي هو نسيان النعمة وسترها .

(ب) الشكر اصطلاحًا فيه أقوال منها :

١ ـ الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع .

٢ ـ الثناء على المحسن بذكر إحسانه .

٣ ـ عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره والثناء عليه .

٤ ـ أنه معرفة العجز عن الشكر .

٥ ـ إضافة النعم إلى موليها بنعت الاستكانة له .

٦ ـ عرفان الإحسان ونشره .

وقيل غير ذلك .

وحقيقته في العبودية : ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا وعلى قلبه محبة وشهوداً وعلى جوارحه انقياداً وطاعة [٢] .

معنى الشكر من الله والشكر من العبد:

ـ الشكر من الله هو المجازاة والثناء الجميل، وإثابته العبد الشاكر على شكره ومغفرته له؛ ففي الحديث : «**بينما رجل يمشي فاشتدَّ عليه العطش، فنزل بئراً،**

---

(١) «معجم المقاييس في اللغة» (شكر) (ص٥٣٤) ط١ – دار الفكر (١٤١٥هـ – ١٩٩٤م) .

(٢) قاله ابن قيم الجوزية في «مدارج السالكين» (٢٧٥٤٢) بتصرف ط١ – دار الجيل (١٤١٢هـ – ١٩٩١م) .

فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يَلْهَثُ يأكل الثَّرَى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي؛ فملأ خُفَّهُ ثم أمسكه بفيه ورقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له» (١).

وقال ﷺ: «**بينما رجل يمشي في الطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له**» (٢).

- والشكر من العبد: هو عرفان الإحسان ونشره (٣).

ومن أسماء الله الحسنى الشاكر والشكور، قال تعالى: ﴿**وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ** ﴿١٧﴾﴾ [التغابن: ١٧].

ومعناهما: الذي لا يضيع سعي العاملين لوجهه، ويُجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات ويُعطي بالعمل في أيام معدودة نعيمًا في الآخرة غير محدود (٤).

والشكور من عباد الله هو الذي يجهد في شكر ربه بطاعته وأدائه ما وجب عليه من عبادته (٥)، قال تعالى: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

قواعد الشكر:

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى: الشكر مبني على خمس قواعد:

١ - خضوع الشاكر للمشكور.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المساقاة والشرب، باب فضل سقي الماء، ومسلم كتاب الحيوان، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها.

(٢) أخرجه البخاري كتاب المظالم والغضب، باب من أخذ الغصن وما يؤذي الناس في الطريق فرمى به، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب إزالة الأذى عن الطريق.

(٣) انظر لسان العرب.

(٤) انظر «نضرة النعيم» (ص٢٣٩٤)، وشرح أسماء الله الحسنى (ص١٢٤) سعيد بن علي القحطاني.

(٥) «شرح الشافية الكافية» عبد الرحمن ناصر السعدي (ص١٢٥ - ١٢٦) بواسطة نضرة النعيم.

٢ ـ وحبه له.

٣ ـ واعترافه بنعمته.

٤ ـ وثناؤه عليه بها.

٥ ـ وأن لا يستعملها فيما يكره.

قال: فهذه الخمس هي أساس الشكر وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة؛ اختل من قواعد الشكر قاعدة. وكل من تكلم في الشكر وحّده، فكلامه إليه يرجع وعليها يدور [١].

وقال غيره: شكر العبد يدور على ثلاثة أركان، لا يكون شكرًا إلاَّ بمجموعها وهي:

١ ـ الاعتراف بالنعمة باطنًا.

٢ ـ والتحدث بها ظاهراً.

٣ ـ والاستعانة بها على طاعة الله [٢].

حكمه:

الشكر واجب، وقد أمر الله به، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (١٧٢) ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال أيضًا: ﴿ **وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** (١٥٢) ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**التحدث بنعمة الله شُكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والجماعة بركة، والفرقة عذاب**» [٣].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢٠ / ٢٧٥).

(٢) «البحر الرائق في الزهد والرقائق» (ص١٢٨).

(٣) أخرجه أحمد (٤ / ٢٧٨) واللفظ له، والبيهقي في شعب الإيمان (٤ / ١٠٢) وهو في مسند الشهاب (١ / ٦١) وانظره في ترتيب صحيح الجامع الصغير وزيادته تصحيح الألباني (٢ / ٤١٧).

أنواعه:

الشكر على ثلاثة أنواع كما تقدَّم :

١ – شكر القلب : وهو تصور النعمة ومعرفتها.

٢ – شكر اللسان وهو الثناء على المنعم سبحانه، قال النَّبيّ ﷺ : «**أفضل الذكر : لا إله إلاَّ الله. وأفضل الدعاء : الحمد لله**» (١) . وقال : «**إن أفضل عباد الله يوم القيامة الحمادون**» (٢).

٣ – شكر سائر الجوارح باستعمالها في طاعة الله، قال الله تعالى : ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا** ﴾ [سبأ : ١٣]، أي وقلنا لهم اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكرًا له على ما أتاكم، وسُمّيت الطاعة شكرًا؛ لأنه من جملة أنواعه (٣).

قال القرطبي : شكرًا : نصب على جهة المفعول (٤)؛ أي اعملوا عملاً هو الشكر، وكأن الصلاة والصيام والعبادات كلها هي في نفسها الشكر إذ سدّت مسده، قال : فظاهر القرآن والسُّنَّة أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان (٥) .

وقال الحسن – رحمه الله تعالى – : أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر، وقد أمر الله نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال : ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)** ﴾ [الضحى : ١١].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ١٢٦) والحاكم (١/ ٦٧٦) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والترمذي (٥/ ٤٦٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٢٠٨) واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٢٤٩) وانظره في ترتيب صحيح الجامع تصحيح الألباني (٣/ ٤٢٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٢٤) واللفظ له وأحمد (٤/ ٤٣٤) وانظره في ترتيب صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني (٣/ ٤٢٥) .

(٣) «فتح القدير» للشوكاني.

(٤) شكرًا نصب على أنه صفة مصدر محذوف أو اعملوا للشكر على أنه مفعول له أو أنه حال أي شاكرين أو مفعول به أو منصوب على المصدرية بفعل مقدّر من جنسه أي اشكروا شكرًا.

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٢٧٧) .

والله تعالى يُحب أن يرى أثر نعمته على عبده، فإن ذلك شكرها بلسان الحال[١].

وقال النبيّ ﷺ: «**التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والجماعة بركة، والفرقة عذاب**»[٢].

فضل الشكر وثماره:

١ - **أهله خواص عباد الله**: لذلك فهم قلة، قال الله تعالى: ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ: ١٣].

٢ - **أهل الشكر مخصوصون بمنة الله بين عباده**: قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٣].

٣ - **هو العبادة التي يشكر الله بها على نعمه**: قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨].

٤ - **الجزاء الحسن للشاكرين**: قال تعالى: ﴿ **وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ** ﴿١٤٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقال تعالى: ﴿ **وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

٥ - **الشاكرون هم المعتبرون بآيات الله**: قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴿١٩﴾ ﴾ [سبأ: ١٩].

٦ - **الشكر أمان من عذاب الله**: قال تعالى: ﴿ **مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء: ١٤٧].

---

(١) «البحر الرائق» (ص١٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨) واللفظ له، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١٠٢) وهو في «مسند الشهاب» (١/ ٦١) وانظره في ترتيب صحيح الجامع الصغير وزيادته تصحيح الألباني (٢/ ٤١٧).

٧ - **الشكر من صفات الأنبياء وأتباعهم**: قال تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ③ ﴾ [الإسراء: ٣]، وقال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ⑫⓪ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل ١٢٠، ١٢١]. أي لأنعم الله عليه.

وقد قيل للنبيّ ﷺ لما عَبَدَ اللهَ حتى تورّمت قدماه: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً!**»[١].

وكان من دعائه ﷺ: «.. **اللهم اجعلني لك شكاراً، لك ذكاراً..**»[٢]، وقال ﷺ لمعاذ: «**إني لأحبك يا معاذ؛ فلا تدع أن تقول دبر كل صلاة: رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[٣]، وقال ﷺ: «**أشكرُ الناس لله أشكرهم للناس**»[٤].

٨ - **الشكر يرضي الله**: قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧].

٩ - **الشكر يزيد النعمة**: قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ⑦ ﴾ [إبراهيم: ٧]، قال القرطبي: والآية نصّ على

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله «ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ويُتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيمًا» ومسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة.

(٢) أخرجه الترمذي كتاب الدعوات، باب في دعاء النّبيّ ﷺ، وابن ماجه كتاب الدعاء باب دعاء رسول الله ﷺ وأحمد من مسند بني هاشم، بداية مسند عبد الله بن العباس رضي الله عنهما وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٧٨).

(٣) أخرجه النسائي كتاب السهو باب نوع آخر من الدعاء واللفظ له، وأبو داود كتاب الصلاة، باب في الاستغفار وأحمد في مسند الأنصار من حديث معاذ بن جبل.

(٤) أخرجه أحمد في مسند الأنصار من حديث الأشعث بن قيس الكندي، وصححه الألباني في ترتيب صحيح الجامع (٢/ ٤١٧).

أن الشكر سبب المزيد [(١)]. وذكر ابن أبي الدنيا أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال لرجل من همدان: إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قَرَن [(٢)]، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد. وقال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: قيدوا نعم الله بشكر الله [(٣)]. وقد قيل: الشكر: صيد النعم المفقودة، وقيد النعم الموجودة [(٤)].

١٠ - **الأجر الكبير للشاكر**: قال ﷺ: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**»[(٥)].

١١ - **الشكر من أفضل الأموال التي يجمعها المؤمن**: ففي جواب الرسول ﷺ عن الصحابة عند نزول قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة: ٣٤]. أنه أفضل المال، فقال ﷺ: «**أفضله: لسان ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة مؤمنة تُعينه على دينه**» [(٦)].

صور عملية للشكر:

١ - **أداء الفروض وإكثار النوافل**: المؤمن الشكور يقتدي بالنبيّ ﷺ في تطبيق الشكر فقد كان ﷺ يكثر من النوافل وقيام الليل حتى تتورم قدماه أو

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩ / ٣٤٣).

(٢) قَرَن: حبل.

(٣) «البحر الرائق» (ص١٨٥).

(٤) «مدارج السالكين» (٢ / ٢٤٥).

(٥) علّقه البخاري كتاب الأطعمة باب الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر، وأخرجه الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وابن ماجه كتاب الصيام باب فيمن قال الطاعم الشاكر كالصائم الصابر واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢ / ٧٣٢).

(٦) أخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة التوبة، وقال: حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣ / ٥٦).

ساقاه، وعندما يُسأل عن ذلك يقول: «**أفلا أكون عبداً شكوراً؟!**» [١].

٢ - **شكر الله ليلاً ونهاراً**: قال رسول الله ﷺ: «**من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر، فقد أدى شكر يومه، ومن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدى شكر ليلته**» [٢].

٣ - **الشكر دبر كل صلاة**: فعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «**يا معاذ، والله إني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ: لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» [٣].

٤ - **التحديث بالنعمة والشكر على القليل**: قال النَّبيّ ﷺ: «**التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والجماعة بركة، والفرقة عذاب**» [٤].

٥ - **الشكر لله عند المسرة**: كان رسول الله ﷺ: «**إذا جاءه أمر سرور أو بُشِّر به خر ساجداً شاكراً لله**» [٥].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله: «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيمًا»، ومسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة.

(٢) سنن أبي داود كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح، واللفظ له وقال النووي وروينا في سنن أبي داود بإسناد جيد لم يضعفه «الأذكار» (ص١٤٢) ط دار الفكر الحديث، والنسائي في السنن الكبرى (٦/٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٨٩)، وذكره ابن حبان في صحيحه (٣/١٤٣)، وحسن إسناده الشيخ ابن باز في تحفة الأخيار.

(٣) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستغفار واللفظ له، وابن خزيمة (١/٣٦٩)، وابن حبان (٥/٣٦٤)، والحاكم (١/٤٠٧)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والبيهقي في السنن الصغرى (١/٢٧)، والنّسائي في السنن الكبرى (١/٣٨٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/١٣٢٠).

(٤) أخرجه أحمد (٤/٢٧٨) واللفظ له والبيهقي في شعب الإيمان (٤/١٠٢) وهو في مسند الشهاب (١/٦١) وانظره في ترتيب صحيح الجمع الصغير وزيادته تصحيح الألباني (٢/٤١٧).

(٥) أخرجه الحاكم (١/٤١١)، وقال: هذا حديث صحيح وإن لم يخرجاه، والبيهقي في السنن الصغرى (١/٥١٠) والكبرى (٢/٣٧٠)، والدارقطني (٤/١٤٧) وأبو داود كتاب الجهاد باب سجود الشكر واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/٥٣٤).

٦ - **الشكر لله عند الأكل والشرب**: قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (١٧٢) ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها**» (١)، وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ: كان إذا رفع مائدته - وفي رواية: إذا فرغ من طعامه - قال: «**الحمد لله حمداً كثيراً طيبًا مباركًا فيه، غير مكفي ولا مودع ولا مستغني عنه ربنا**»(٢).

حتَّى نكون من الشاكرين:

تأمل يا عبد الله في نعم الله الظاهرة والباطنة عليك، وتأمل لو حُرمت نعمة واحدة كم يكون خسرانك وشقاؤك، فكيف لو حُرمت عددًا منها، كيف يكون حالك؟!

ولو قُدمت لك النعم المسلوبة مرة ثانية بأثمان باهظة، أكنت تتردد في تقديم أغلى الأثمان للحصول عليها مرة ثانية، كنعمة السمع أو البصر أو الصحة مثلاً.

وتأمل كيف يهب لك الله هذه النعم ويُسخرها لك دون مقابل أفلا نشكر الله على نعمه، وهو القائل: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ [النحل: ٥٣].

ثم تذكر النعمة الكبرى التي أعدها الله لك وهي رضاه والجنة، وكيف هداك إليها بدينه القويم؛ لتكون من أعظم الفائزين بالنعيم الدائم المقيم، وتذكر حياة الذين يتخبطون بغير هدى ويصيرون إلى الخسران المبين في نار جهنم خالدين. أفلا نكون من الشاكرين؟.

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الدعوات والذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب وابن أبي شيبة (٥/ ١٣٨) وفي مسند الشهاب (٢/ ١٦٠).

(٢) رواه البخاري كتاب الأطعمة باب ما يقول إذا فرغ من طعامه، وابن حبان (١٢/ ٢٠) والحاكم (٤/ ١٥٠).



الفصل الرابع

من بينات الرسالة



البينة القرآنية

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن يؤيد رسله ببينات تدل على صدق رسالتهم، وأدلة تقوم بها الحجة على الناس، اصطلح العلماء على تسميتها بالمعجزات، وسُمّيت في كتاب الله بيّنات، كما قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ [الحديد: ٢٥] [١].

وتنوّعت البيّنات والمعجزات بتنوع الأقوام والأمم، فجعل الله لكل قوم بيّنة تُناسب مستواهم الثقافي والفكري؛ ليكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة على الناس، ولما كان محمد ﷺ مرسلاً إلى الناس كافة، فقد أيده الله سبحانه ببينات متنوعة تتناسب مع جميع من أُرسل إليهم من الأقوام، ومع جميع الأجيال إلى قيام الساعة على اختلاف ثقافاتهم ومداركهم، فكانت الفصاحة والبلاغة من بيّناته المناسبة للعرب الفصحاء البلغاء.

- ومن بيّناته ما يتناسب مع أهل الأديان كالبشارات به في الكتب السابقة.
- ومن بيناته ما عجز أهل الأنظمة والقوانين عن المجيء بمثله من تشريعات حكيمة تناسب جميع البيئات والعصور.
- ومن البيّنات الخوارق المشاهدة كخارقة انشقاق القمر التي سُجلت عند بعض الأمم ولا تزال آثارها ظاهرة إلى اليوم.
- ومنها معجزة الإخبار بالغيب الماضي والحاضر والمستقبل، والتي لا تزال تنكشف إلى يومنا هذا.
- ومنها: الخوارق للعادة التي دُوّنت في أوثق سجل عرفه البشر، وهو القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

---

(١) وكذلك سُميت المعجزة في كتاب الله: آية وبرهانًا وبصيرة وسلطانًا، أما لفظ المعجزة فلم يرد في الكتاب والسّنة.

■ ومنها ما يتناسب مع أهل الكشوف العلمية في عصرنا كالإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة.

وقد جعل الله سبحانه القرآن المتضمن لكثير من أنواع هذه المعجزات أكبر بيّنة لمحمد ﷺ، قال تعالى: ﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ**﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال النَّبيّ ﷺ: «**ما من الأنبياء نبيٌّ إلاَّ أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البَشَرُ، وإنّما كان الذي أُوتيته وَحْيًا أوْحاه الله إليَّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**» [1]، يُشير الحديث الشريف إلى طبيعة المعجزة في الوحي الذي أنزله الله على محمد ﷺ، فيبقى بعد موته ويتجدد إعجازه على مرّ العصور.

وشهادة القرآن بصدق رسالة محمد ﷺ متمثلة بما احتوى عليه من الإعجاز في ألفاظه، والإعجاز في العلم الذي جاء به، قال تعالى: ﴿**لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦)**﴾ [النساء: ١٦٦]، قال الخازن عند تفسير هذه الآية: «لكن الله يشهد لك يا محمد بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذي أنزله عليك».

وقال ابن كثير: «فالله يشهد لك يا محمد بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم.. ولهذا قال: ﴿**أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ**﴾ أي: فيه علمه الذي أراد أن يُطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل».

وقال أبو العباس ابن تيمية: فإن شهادته بما أنزل إليه هي شهادته بأن الله أنزله منه، وأنه أنزله بعلمه، فما فيه من الخبر هو خبر عن علم الله، وليس خبرًا عمن

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، ومسلم كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس.

دونه، وهذا كقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود: ١٤] وإلى هذا المعنى ذهب كثير من المفسرين[١].

فالبيّنة القرآنية تتمثل في العلم الذي تضمنته آياته، وهو الإعجاز العلمي، أما ما تحمله ألفاظه وتراكيبه، فهو إعجاز الفصاحة والبلاغة.

(١) ابن الجوزي والزمخشري وأبو حيان والألوسي والشوكاني والبيضاوي والنسائي والخازن والجلالان.

فصاحة القرآن وبلاغته

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [الزمر: ٢٣]. بيّن الله سبحانه أنّ القرآن العظيم أحسن الكلام وأجوده؛ لأنه نزل بعلمه، وذلك أن الله سبحانه يعلم أي لفظة هي أدل على المعنى المقصود، وأي لفظة تصلح أن تليها أو تسبقها، بل ومناسبة كل حرف لموضعه، جاء القرآن العظيم في غاية الفصاحة والبلاغة في مفرداته وتراكيبه، ومن أمثلة ذلك:

مناسبة الحرف لموضعه ومطابقة الكلمة لمدلولها:

المثال الأول: قول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)** ﴾

[المؤمنون: ١٢- ١٤].

تُشير الآية الكريمة إلى ثلاث مراحل للخلق البشري:

المرحلة الأولى: مرحلة النطفة.

المرحلة الثانية: التخليق، ويشمل:

(أ) العلقة. (ب) المضغة.

(جـ) العظام. (د) الكساء باللحم.

المرحلة الثالثة: النشأة.

فاستعمل القرآن حرف العطف (ثم) للعطف بين هذه المراحل الثلاث، وهذا الحرف يدل في لغة العرب على فاصل زمني بين المعطوف والمعطوف عليه.

واستعمل حرف العطف (الفاء) للعطف بين مراحل التخليق: العلقة،

المضغة، العظام، الكساء باللحم؛ لكون حرف العطف (الفاء) يدل في لغة العرب على الترتيب والتعاقب بين المعطوف والمعطوف عليه، وهذا كله مطابق تمامًا لما اكتشفه علم الأجنة الحديث في مراحل التخلق البشري، حيث وجد فاصلاً زمنيًا بين المراحل الثلاث الرئيسة، بينما اكتشف تتابعًا سريعًا نسبيًا في مراحل التخليق الأربع الفرعية.

وهناك إعجاز آخر في المفردات المعبرة أصدق تعبير عن كل طور من أطوار التخلق، وكان من الممكن أن يختل هذا الترتيب في أسماء الأطوار، أو الأحداث المصاحبة، أو الأحداث المرتبة دونما معارضة من أحد في زمن نزول الوحي؛ لقصور علم الأجنة يومذاك، وهذا كله يدلّنا على أن هذا القرآن كلام الله قد نزل بعلمه سبحانه (١).

المثال الثاني: قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ﴾ [النور: ٤٣].

تذكر الآية أربعة حوادث:

الأول: إزجاء السحاب أي سوقه برفق.

الثاني: التأليف بينه.

الثالث: جعله ركامًا.

الرابع: إنزال المطر.

وفصلت الآية بين الحوادث الثلاثة الأولى: الإزجاء، والتأليف، والركم بحرف العطف (ثم) الذي يدل على استغراق زمن بين المعطوف والمعطوف عليه، أما

---

(١) انظر «علم الأجنة في ضوء الكتاب والسنة» من أبحاث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة المنعقدة في باكستان – إسلام آباد من ٢٥ – ٢٨ صفر ١٤٠٨هـ، ولا سيما المبحث الأخير منه: توافق المعلومات الجنينية مع ما ورد في الآيات القرآنية.

الحدث الرابع، فقد عطف على الثالث بحرف العطف الفاء الذي يدل على وقوع الحدث مباشرة بعد الأول، وقد أثبت العلم أنه بانتهاء الركم (الحدث الثالث في تكوين السحاب) ينزل المطر على الفور.

المثال الثالث: قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ** ﴾ [الروم: ٤٨]، تأمل في استعمال حرفي العطف الفاء والواو، حيث يدل الفاء على الترتيب والتعقيب، بينما يدل الواو على مطلق الجمع، وفي الآية استعمل كل حرف في موضعه، ولو نقل إلى غير موضعه لأحدث خللاً في المعنى وتناقضًا مع الواقع.

فإرسال الرياح يعقبه إظهار السحب وتهييجها، فاستعمل حرف العطف المناسب بين الحدثين، وهو الفاء، فقال سبحانه: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا** ﴾ [الروم: ٤٨]، ويعقب ذلك بسط السحب في السماء في صور متعددة، فاستعمل الحرف المناسب لذلك وهو الفاء أيضًا، فقال تعالى: ﴿ **فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾ .

وفي أثناء عملية البسط تتكون قطع السحب أفقيًا، كما تتكون رأسيًا في شكل طبقات، وتتم عملية تكوين الكسف أثناء عملية البسط، وتستمر بعدها، فكان الواو هو حرف العطف المناسب للدلالة على مطلق الجمع بين عدد من الأحداث قال سبحانه: ﴿ **وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا** ﴾ .

ثم استعمل حرف العطف الذي يدل على التعقيب والترتيب، الدال على أن الحدث التالي لا يكون إلاّ بعد وقوع الأول؛ لبيان أنه لا ينزل المطر حتى يتم تكوين الكسف من السحاب، وهذه الكسف توجد حالة تشبع في السحاب يسمح بتكوين قطرات كبيرة ثقيلة تنزل إلى الأرض بإذن الله، قال سبحانه: ﴿ **فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ** ﴾ .

فتأمل كيف استعمل القرآن كل حرف في مكانه بحيث لا يصلح أن يكون غيره في موضعه.

استعمال الحرف في المعنى الدقيق:

قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

عبّر سبحانه عن الهدى بـ« على » التي تُفيد الاستعلاء، فصاحب الحق مُسْتَعْلٍ يصرف نظره كيف شاء، وعبّر عن الضلال بـ« في »، فصاحب الباطل منغمس في ضلاله لا يدري أين يتوجه!.

وهذا كقوله سبحانه: ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥].

وقوله: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ [ق: ٢٢].

وقوله: ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١].

وقوله سبحانه: ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

بلاغة اللفظ المفرد والتركيب في القرآن الكريم:

إنّ إعجاز القرآن البلاغي يُدرك بأثره في النفوس، الذي يجعل الفصحاء والبلغاء يُؤخذون بأسلوبه ولفظه ومعانيه وتركيبه وسياقه وجرسه وخطابه وبقائه جديداً لا يبلى رغم تكراره، ولا يستطيعون الإحاطة بأسرار إعجازه، فهو كالروح تُدرك آثارها ولا يُحاط بها علمًا. ومن إعجازه عدم قدرة البشر على الإحاطة بإعجازه إذْ لو عرفوا ذلك لأتوا بمثله، ولكن علماء الفصاحة والبلاغة حاولوا التعبير عما تذوقوا من إعجازه، وسنذكر أمثلة مما قالوا:

اللفظ المفرد في القرآن:

إن القرآن العظيم قد نزل بعلم الله، فلم ترتجل مفرداته ارتجالاً، فاللفظ المفرد كما يدل على المعنى أوفىٰ دلالة، فإنه يجمع إلى ذلك كونه أفصح لفظ يؤدي ذلك المعنى في ذلك السياق، ولعدم استطاعتنا الإحاطة بأوجه الفصاحة والإعجاز في كلام الله، نضرب لك هذه الأمثلة ليتبين لك الأمر.

(أ) ألفاظٌ أخف من غيرها :

استعمل القرآن ألفاظًا هي أخف لفظًا من غيرها وأنسب للمعنى المقصود، فلفظ (آثرك) في قوله تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف : ٩١] أخف من لفظ أعطاك، ولفظ ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أخف من لفظ : لا شك فيه، ولفظ : ﴿ وآتى ﴾ أخف من لفظ : أعطى . ولفظ : ﴿ آمَنَ ﴾ أخف من لفظ : صدق، وإذا تأملت تجد ذكره أكثر من ذكر التصديق .

ولفظ ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أخف من لفظ : أفضل لكم، ولفظ ﴿ تَتْلُو ﴾ أخف من لفظ : تقرأ، ولفظ ﴿ وَلا تَهِنُوا ﴾ أخف من لفظ : ولا تضعفوا [١] .

وحيث كانت الكلمة ثقيلة لا يكون ذلك اعتباطًا، وإنما للتعبير عن ثقل المعنى الذي تحمله، مثل : ﴿ اثَّاقَلْتُم ﴾ فثقل اللفظ للدلالة على معنى التثاقل الحِسِّي للمتثبط عن الجهاد [٢] .

ومثل قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ : فثقل اللفظة بالتشديد ؛ للدلالة على ما يفعله المثبط من تثقيل للآخرين .

(ب) ألفاظٌ أكمل في الدلالة من غيرها على المعنى المقصود :

لفظ « الخشية » أكمل في الدلالة من لفظ « الخوف » حيث ورد، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ [فاطر : ٢٨] [٣]، وفرّق بينهما بأن الخشية تكون من عظَم من يُخشى منه وإن كان الخاشي قويًا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان من يخاف منه غير قويّ، والله أعلم [٤] .

---

(١) « المعجزة الخالدة » (ص٢١١) لحسن ضياء الدين عتر .
(٢) والقانون الفيزيائي المعروف أن ثقل الجسم يخف مع زيادة سرعته وإذا أبطأ تثاقل .
(٣) ذلك أن الخشية هي أشد الخوف، مأخوذ من قولهم شجرة خشية أي يابسة وهو فواتٌ بالكلية، والخوف مأخوذ من قولهم : ناقة خوفاء، أي بها داء وهو نقص ليس بفوات .
(٤) « الإتقان في علوم القرآن » (١ / ٦٢١ – ٦٢٢) .

وتأمل التفريق في استعمال اللفظين في قوله تعالى: ﴿ **وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** (٢١) ﴾ [الرعد: ٢١]، فالخشية متعلقة بالله سبحانه لكونها أعظم الخوف.

■ لفظ «القعود» أدلّ من لفظ «الجلوس» في قوله تعالى: ﴿ **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ** ﴾ لدلالته على عدم الزوال؛ لأنّ القعود يستخدم لما فيه لبث وبقاء، بخلاف الجلوس فيستعمل للمُكْث اليسير، ولذا يُقال: قواعد البيت ولا يُقال: جوالسه، كما إن لفظ الجلوس أدلّ من لفظ القعود في قوله تعالى: ﴿ **تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ** ﴾ [المجادلة: ١١]؛ لأن المكث في المجالس لا يدوم.

■ لفظ: «السنة» في لغة العرب يدل غالبًا على الحول الذي فيه الشدة والجدب، بينما لفظ «العام» يدل على الحول الذي جاء فيه الرخاء والخصْب، كقوله تعالى عن نوح عليه السلام ودعوته لقومه: ﴿ **فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا** ﴾ [العنكبوت: ١٤]، حيث عبّر عن لبثه فيهم بالسَّنة؛ لأنها كانت سنوات شدة بالنسبة له عليه السلام، بينما الخمسين التي لم تحسب من لبثه فيهم عبّر عنها بالعام الدال على الرخاء والنعمة.

ومن ذلك ما ورد في قصة يوسف عليه السلام، حيث ذكر سبحانه سبع سنين تتم فيها الزراعة، ثم يأتي بعد ذلك سبع سنوات شديدة تستهلك المحصول السابق، فقال: ﴿ **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ** (٤٧) **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ** (٤٨) ﴾ [يوسف: ٤٧، ٤٨]، ثم ذكر سبحانه أنه سيأتي الغيث للناس، فعبّر عنه بلفظ «العام» قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** (٤٩) ﴾

[يوسف: ٤٩].

■ لفظ أغطش في قوله تعالى: ﴿ **وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا** ﴾ أدلّ على المعنى المقصود من

لفظ : «وأظلم»؛ لأن لفظ أغطش فيه مع معنى الظلمة معنى الصمت، ومعنى ظلام السماوات مع الصمت لوجود الفراغ لا يعطيه إلاّ لفظ : أغطش [١] .

(ج) الإفراد والجمع :

■ حيث جاءت «الريح» في القرآن مجموعة دلَّ على أنها للرحمة، وحيث جاءت مفردة دلَّ على أنها للعذاب، فمن الأول قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ** ﴾ [الروم : ٤٦]، ومن الثاني قوله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ** ⦗٦⦘ ﴾ [الحاقة : ٦] .

وخرج عن ذلك قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ **وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ** ﴾ [يونس : ٢٢] .

وذلك لوجهين – والله أعلم – :

الأول : لفظي، وهو المقابلة لقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ** ﴾ [يونس : ٢٢]، والمقابلة من فنون البلاغة، ومع ذلك فقد قُيّدت الريح بأنها طيّبة .

الثاني : متعلق بالمعنى، وهو أنّ السفينة إنما تجري باتّزان إذا كانت بريح واحدة من جهة واحدة، أما لو اختلفت عليها الرياح فلربما كان سبباً للهلاك، والمطلوب لسيرها ريح واحدة، وقد أكّد هذا المعنى بوصفها بأنها طيبة .

■ إفراد «النور» وجمع «الظلمات» كما في قوله تعالى : ﴿ **يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٧] فالظلمات أسبابها متعددة والنور مصدره واحد .

■ ومن ذلك إفراد «النار» حيث وقعت، و«الجنة» وقعت مفردةً ومجموعة؛ لأن الجنان مختلفة الأنواع؛ فحَسُن جمعها، والنار مادةٌ واحدة، و الجنة رحمة، والنار عذاب؛ فجمعت الجنة وأُفردت النار، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا**

---

(١) محاضرات مسجلة في إعجاز القرآن الكريم للدكتور طارق السويدان .

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) ﴾ [محمد : ١٢] .

■ إفراد السمع وجمع البصر: قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [المؤمنون: ٧٨]؛ لأن السمع غلب عليه المصدرية (أي حقيقة عملية السمع التي تتم في مركز السمع في المخ) فأفرد، وهو إدراك لمؤثر واحد وهو الاهتزازات الصوتية، واللائق بالبصر هو الجمع؛ لأن عملية الإبصار تتم عن طريق الإدراك لآثار الألوان المختلفة على مركز الإبصار.

■ المشرق والمغرب، ورد بالإفراد؛ لاعتبار الجهة، قال تعالى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ [الشعراء: ٢٨]، وبالتثنية: لاعتبار مشرق الصيف ومشرق الشتاء ومغربهما، مثال: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) ﴾ [الرحمن: ١٧]، وبالجمع لاعتبار تعدد المطالع في كل فصل من فصول السنة، قال تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) ﴾ [المعارج: ٤٠] [١].

(د) ألفاظٌ تناسب حروفها معانيها، ومن أمثلة ذلك:

■ لفظة ﴿ صَرْصَرٍ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦] اللفظة بجرسها الصوتي في حرفي الصاد والراء المكررين تدل على معنيي الشدة والتتابع، كما تدل على ما يصاحب الرياح الشديدة من أصوات.

■ لفظ: ﴿ الْوَسْوَاسِ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) ﴾ [الناس: ٤]، تكرار الحرفين الواو والسين، يدل على تكرار الفعل الذي هو الوسوسة، كما أن حرف السين المهموس يدل على معنى آخر، وهو كون هذه الوسوسة خفية، وليست مثل لفظ يصطرخون مثلاً في قوله تعالى في وصف أهل النار: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ [فاطر: ٣٧]، فلفظ ﴿ يَصْطَرِخُونَ ﴾ المكون من

(١) وهناك بعض الكواكب في بعض المجرات السماوية تطلع عليها أكثر من شمس وتغرب.

ثلاثة من حروف التفخيم الصاد والطاء والخاء يدل على شدة صراخهم الناشئ عن شدة العذاب والعياذ بالله.

■ لفظ «زُلزلت» تكرار حرفي الزاي واللام يدل على تكرار الزلزلة.

■ لفظ: «يُذبّحون» بالتشديد، يدل على تكرار الذبح.

■ وكذلك التشديد في لفظ «وليطوّفوا» يدل على التكرار.

■ لفظ «غليظًا» في قوله تعالى: ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢١]، فخامة الكلمة باحتوائها على حرفين من حروف التفخيم يدل على عظم شأن الميثاق.

■ لفظ «كآفّة» في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، فالمد في اللفظ الذي يقدر بست حركات في علم التجويد، يوحي بالعموم المقصود من الكلمة؛ ولذلك هو أدل من لفظ: جميعًا [١].

أمثلة من بلاغة التركيب في القرآن الكريم:

■ قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩]. اتفق علماء البيان أن هذه الآية بالغة أعلى درجات البلاغة [٢]؛ فهي تحمل ألفاظاً شريفة فيها جلالة وبلاغة وإيجاز؛ فصدر الآية ﴿وَلَكُمْ﴾: مؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم عائدة إليكم، إنما شرعت رحمة بكم وإحساناً إليكم.

■ وقوله تعالى: ﴿فِي الْقِصَاصِ﴾ [البقرة: ١٧٩]، إيذان بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل وهو أن يُفعَل بالقاتل كما فُعِل بالمقتول؛ لأن القصاص في اللغة المماثلة، وهذا تحقيق للعدل.

■ وقوله تعالى: ﴿حَيَاةٌ﴾ جاءت هنا نكرة لتعظيمها، وليس المراد أيّ حياة،

(١) محاضرات مسجلة في إعجاز القرآن الكريم للدكتور طارق السويدان.
(٢) «صفوة التفاسير» (١/١٢٠).

بل الحياة التي تحصل من القصاص حياة خاصة محبوبة لدى النفوس الشريفة؛ فإذا علم من يريد القتل أنَّ مصيره أن يقاص به ارتدع عن القتل، فتسبب ذلك في حياة الناس، وكذلك إذا قُتل القاتل فإنه سيُمنع شرُّه عن نفوس أخرى فتحيا .

■ وقوله تعالى : ﴿ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ : يعني أن هذا الحكم إنما يتقبله، ويُحسن فهم حكمته أصحاب العقول السليمة الخالصة عن شوب الهوى .

■ وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ : بيان لثمرة عظيمة من ثمار امتثال ذلك الحكم النافع المفيد، وهو أن تجعلوا وقاية بينكم وبين ما يضركم من القتل أو من معصية الله المفضية إلى عذابه .

■ وقوله سبحانه : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة : ١٧٩]، أبلغ من قول العرب : القتل أنفى للقتل، وهو أوجز كلام عند العرب في هذا المعنى، وقد بيّن العلماء ذلك فيما يأتي :

[١] أن قوله سبحانه : ﴿ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة : ١٧٩]، مطرد، فكل قصاص يوجب حياة، بينما قولهم : القتل أنفى للقتل، غير مطرد؛ فليس كل قتل أنفى للقتل، بل قد يكون أدعى للقتل، مثل القتل ظلماً فإنه أدعى لزيادة القتل، ولكن القصاص هو الذي يحدُّ من القتل .

[٢] أنّ حصول الحياة هو المقصد الأصلي، ونفي القتل إنما يُراد لحصول الحياة والتنصيص على الغرض الأصلي [الحياة] أولى من التنصيص على غيره [نفي القتل] .

[٣] أن في لفظ القتل تكراراً بخلاف الآية، فليس فيها تكرار [١] .

[٤] أن لفظ القصاص يدل على الجزاء العادل بخلاف القتل في المثال المذكور[٢]

---

(١) « بدائع التفسير من كلام ابن القيم » (١ / ٣٨١ - ٣٨٢) .

(٢) « البحر المحيط » لأبي حيان (٢ / ١٥٥) .

قال الزمخشري معلقًا على الآية: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، قال: كلام فصيح لما فيه من الغرابة وهو أن القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جُعل مكانًا وظرفًا للحياة.. وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل [١].

■ قوله تعالى: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١]. مع قوله سبحانه: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء: ٣١]، يظن الناظر في الآيتين الكريمتين لأول وهلة أنه لا فرق في المعنى بينهما، وعند التأمل يظهر الفرق، وهو أن الآية الأولى ذكرت النهي عن قتل الأولاد لأجل الفقر عند الآباء، وبيّنت أن الله يرزق الآباء والأولاد، وقدّمت ذكر رزق الآباء على الأولاد، وفي الآية الثانية تقدّم ذكر رزق الأولاد على الآباء لخشيتهم الفقر المتوقع، والسرّ في ذلك أن الآية الأولى تتحدث عن الآباء الفقراء؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ مِّنْ إِمْلاقٍ ﴾ أي من فقر؛ لذا طمأنهم سبحانه بأنه سيرزقهم وسيرزق الأولاد أيضًا، بينما الآية الثانية تتحدث عن آباء أغنياء في الحالة الراهنة، ولكنهم يخشون الفقر بسبب الأولاد؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ ، فبدأ سبحانه بإخبارهم أن رزق الأولاد الذين بسببهم يُخشَى الفقر سيكون عليه سبحانه، فقد ذكرهم طمأنةً لآبائهم، وأخبرهم بأنه سيرزق الآباء أيضًا، والله أعلم.

■ قوله تعالى حكاية عن الجن زمن بعثة النبيّ ﷺ: ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ ﴾ [الجن: ١٠] حيث ذكر فاعل الرشد وهو الله سبحانه، ولم يصرح بمريد الشر، وهذا من الأدب مع الله سبحانه.

وكذلك في قوله سبحانه عن إبراهيم عليه السلام، وهو يتحدث عن ربه سبحانه: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ

(١) بواسطة المرجع السابق (ص١٥٤).

﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨١]، تأمل كيف قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾ فنسب المرض إلى نفسه، والشفاء إلى الله عز وجل.

■ قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٦]. لما كان التعبير عن أخف أنواع العذاب الذي يُثمر الندم الكبير عند الكافرين جاء التعبير عنه بدلالات كاشفة عن ذلك، فقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن ﴾: اللام للقسم لتوكيد الجملة التي ستُذكر، وإن: للاحتمال، أي إن مستهم نفحة.

وقال سبحانه: ﴿ مَّسَّتْهُمْ ﴾: والمس من أدنى درجات الإصابة، ولم يقل: أصابهم، وقال: ﴿ نَفْحَةٌ ﴾: أي شيء يسير من العذاب، وهي منوّنة للدلالة على التقليل، وقال: ﴿ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ و﴿ مِّنْ ﴾ للتبعيض، ولم يقل كل عذاب ربك.

فهذا بيان لغاية الضعف البشري أمام أدنى درجات العذاب الإلهي بأسلوب غاية في البلاغة (١).

سر فصاحة القرآن وبلاغته:

لقد كان القرآن العظيم غاية في الفصاحة والبلاغة؛ لأنه كلام الله الذي يحمل العلم الإلهي، وينمّ عن العظمة والصفات الإلهية التي لا تُحَدُّ بحدٍّ، فأعجز الفصحاء والبلغاء، فلم يجدوا إلاَّ أن يقولوا: إنه سحر، كما حكى الله عنهم قوله: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المدثر: ٢٤].

ومن وجوه فصاحته وبلاغته ما يأتي:

(أ) **تضمنه أصح المعلومات وأدقها وأكملها**، وأصدق المعاني وأوضحها، وأحسن الكلام والتعبير بأفصح المفردات والتراكيب وأبلغها وأعذبها، وسريان ذلك فيه من أوله إلى آخره، وإنه ليستحيل على بشر أن يصل إلى

(١) من محاضرات د. طارق السويدان في إعجاز القرآن.

هذا السمو، فإنه إن راعى دقة المعلومة فاته رونق اللفظ وعذوبته غالبًا، وإن أراد تنميق الألفاظ وتزيينها لم يصل إلى مراده في دقة المعلومة التي يوردها، وإنك لتلاحظ عذوبة ألفاظه حتى في المواضع العقدية والتشريعية التي تستلزم البعد عن اللفظ البديع غالبًا.

(ب) **جمعه بين صفتي العذوبة والجزالة** [١] مع كونهما كالصفتين المتضادتين لا تكادان تجتمعان في الكلام.

(ج) **إرواؤه لمطلب العقل والعاطفة معًا**: بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر.

(د) **قصده في اللفظ مع الوفاء بحق المعنى**: فإنه يجلي المعنى كاملاً واضحًا في كلمات وعبارات قاصدة ليست بالطويلة المملة، أما البشر فإنه إن أراد الاقتصاد في اللفظ قصر في التعبير عن المعنى المطلوب، وإن أحبّ تجلية المعنى قاده ذلك إلى التطويل في العبارة، وإن قُدّر أنه ضبط اللفظ مع المعنى في جملة أو جملتين، فإن الكلال والإعياء سيلحقه بعد ذلك في بقية الكلام، وندر أن يصادفه هذا التوفيق مرة ثانية إلاّ الفينة بعد الفينة.

(هـ) **جودة سبكه وإحكام سرده**: مع أنه حوى موضوعات كثيرة مختلفة شاملة لحاجات البشر في الدنيا والآخرة من تشريع وقصص ومواعظ وبراهين عقلية ووجدانية ومناقشات وأمثال وحِكَم وغير ذلك، فقد سبك هذه الموضوعات جميعًا وغيرها سبكًا حكيمًا؛ فتراه مترابطًا ترابط الجسم الواحد والروح الواحدة.

(و) **إشباعه العامة والخاصة على السواء**: فالجميع يتذوق حلاوته ويجد فيه من بغيته ما يمتع عقله وقلبه، فالعامة يلتذون به ويفهمون منه على قدر استعدادهم، وما تبلغه عقولهم وقلوبهم، والخاصة يجدون حلاوته

---

(١) **العذوبة**: هي رقة اللفظ وسلاسته، **والجزالة**: قوته ومتانته.

ويفهمون منه أكثر مما تفهم منه العامة، بخلاف غيره من كلام البشر، فتجد منه ما يرضي العامة لسهولته، ولكن الخاصة تمجّه لكونه دون مستواهم، وإن أرضى الخاصة لارتفاع مستواه لم يُرضِ العامة لكونهم لا يفهمونه.

(ز) **مسحته اللفظية المميزة**: فهي مسحة خلابة عجيبة، تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي، فأما نظامه الصوتي فإنك تجده متّسقًا مؤتلفًا في حركاته وسكناته ومدوده وغنّاته، واتصالاته وسكتاته، اتساقًا عجيبًا وائتلافًا رائعًا، يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور، فجرسه الصوتي يجذب السامع له ويلفت انتباهه، حتى لو كان أعجميًا لا يعرف اللغة العربية، ولعلّ هذا هو الذي حمل بعض العرب في عهد النبوة أن يقولوا: إنه شعر، ثم عادوا إلى أنفسهم، فعلموا أنه فوق الشعر وأنه لا يسير على منهج الشعر ومنواله، فقالوا: هو سحر.

وأما جماله اللغوي فهو ما امتاز به في رصف حروفه وترتيب كلماته ترتيبًا بديعًا، بحيث أنك تجد لذةً حين تسمع حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة، فحرف يَصْفُر وآخر يَنْقُر، وهذا يُخْفىٰ وذاك يُظْهَر، وهذا يُهْمس وذاك يُجْهر، فخرج للناس بمجموعة مختلفة مؤتلفة، جامعة بين اللين والشِّدّة، والخشونة والرقة، والجهر والخُفْية على وجه دقيق محكم، وَضَعَ كلاً من الحروف المتقابلة في موضعه بميزان، حتى تألّف من مجموع ذلك قالب لفظيّ مدهش بلغ جماله اللغوي قمة الإعجاز، بحيث لو أدخل في القرآن شيء من كلام الناس لاعتلّ مذاقه في أفواه قارئيه، واختلّ نظامه في آذان سامعيه [١].

---

(١) «مناهل العرفان» (٢ / ٣٣١ - ٣٣٥) بتصرف، وانظر كتاب «النبأ العظيم» لمحمد عبد الله دراز؛ لزيادة التوضيح والتفصيل في إعجاز القرآن وروعته اللغوية.

(ح) **إحكام ترابطه وكمال تناسقه**: مع كونه قد نزل مُفَرّقًا حسب الحوادث في ثلاث وعشرين عامًا، بينما البشر يعجزون أن يصنفوا كلامًا مترابطًا كترابط القرآن إذا كان قد قيل في مناسبات مختلفة وفي أزمنة متباعدة.

وقال الخطابي - رحمه الله - : القرآن صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، متضمنًا أصح المعاني.. [١].

اعتراف العرب الفصحاء ببلاغة القرآن وفصاحته:

وقد اعترف العرب الفصحاء بعظيم نظم القرآن وبلاغته وأسلوبه من خلال تأثرهم به، حتى كانوا يُحذِّرون مَنْ قَدمَ إلى مكّة من سماع القرآن خشية أن يتأثر به فيُسلم، بل تواصوا فيما بينهم باللغو عند سماع القرآن؛ حتى لا يتأثر به السامع، قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)** ﴾ [فصلت: ٢٦].

قال مجاهد: الغوا فيه بالمكاء [٢] والتصدية [٣]، والتخليط في الكلام حتى يصير لغوًا. قال الشوكاني: عَارضُوه باللغو الباطل، أو ارفَعُوا أصواتكم ليتشوش القارئ له [٤].

ولما جاء الطُّفَيل بن عمرو إلى مكة لم يزلْ به الكفار يحذرونه من سماع القرآن، حتى وضع في أذنيه قُطنًا؛ خشية أن يسمع شيئًا من القرآن، وأبى الله سبحانه إلاَّ أن يُسْمِعَه شيئًا منه مع وجود ذلك القطن، فهدى الله قلبه لسماع القرآن، ومن ثَمَّ شرح الله صدره للإسلام [٥].

ولما سمع الوليد بن المغيرة القرآن فكأنّه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه

---

(١) «بيان إعجاز القرآن» (ص٢٧).
(٢) **المكاء**: الصفير.
(٣) **التصدية**: التصفيق.
(٤) انظر تفسير الشوكاني.
(٥) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٢٦ - ٢٢٧).

فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك، فإنك أتيت محمداً لتعرّض[١] لما قبَله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً! قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، قال: وماذا أقول؟! فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا أعلم برَجَزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إنّ لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمُثْمرٌ أعلاه، مُغدق أسفله، وإنه ليَعْلو وما يُعلى، وإنه ليَحْطمُ ما تحته!!.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه!! قال: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره !! فنزلت الآيات في الوليد، قال تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) ﴾ [المدثر: ١١ – ٢٦][٢].

فقال الوليد: «إن القرآن سحر». يُبيّن عميق التأثير الذي أحدثه القرآن في نفسه.

وقال الزهري: حُدِّثْتُ أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة؛ ليسمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يُصلي بالليل في بيته، وأخذ كل رجل منهم مجلسًا ليستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فلمّا طلع الفجر تفرّقوا فجمعتهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا.

---

(١) أي: أتيت محمداً تريد شيئًا من العطاء من جهته.

(٢) أخرج هذه الحادثة الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٠) وقال: صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، و عن الحاكم أخرجها البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٥٦ – ١٥٧).

حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألاَّ نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سَمِعتَ من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعتُ أشياء ما عَرِفتُ معناها، ولا ما يُراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك.

قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعتَ من محمد؟ فقال: ماذا سمعت! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا (١) على الركب، وكُنَّا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه! والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه (٢) .

فحرصهم على الحضور ليلاً لسماعه مما يدل على تأثرهم به، وتعجبهم منه؛ لكونه ليس ككلامهم، ولكن العناد والمكابرة حملهم على تركه كما قال أبو جهل.

ومما يدل على تميز القرآن الذاتي عن كلام العرب ما شهد به أنيس بن جنادة الغفاري قبل إسلامه، حيث سأله أخوه أبو ذر عما يقول الناس في النّبيّ ﷺ فقال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر – وكان أنيس أحد الشعراء – قال أنيس: لقد سمعتُ قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعتُ قوله على أقراء (٣) الشعر

(١) **تجاذينا**: مأخوذ من قولهم: جذا الرجل إذا جلس على ركبتيه.
(٢) سيرة ابن هشام (١ / ٣٣٧ – ٣٣٨) .
(٣) **أقراء الشعر**: طرائقه وأنواعه.

فما يلتئم على لسان أحد أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون . . » [١] .

وقدم جُبير بن مطعم رضي الله عنه إلى المدينة قبل إسلامه في فداء أسارى بدر فسمع النبيّ ﷺ يقرأ في صلاة المغرب بسورة الطور [٢] قال: فكأنما صدع قلبي حين سمعتُ القرآن [٣] وفي رواية: وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي [٤]. فهؤلاء من قريش أفصح العرب يشهدون ببلاغة القرآن وفصاحته من خلال تأثرهم به [٥].

وما أحسن ما سطره الرافعي في تصويره تأثير القرآن في العرب الذين كانت الفصاحة والبلاغة من أبرز مفاخرهم، وأنه لولا فصاحة ألفاظه التي بلغت حد الإعجاز لما استطاع التأثير فيهم؛ لأنه قد قامت فيهم بالفصاحة « دولة الكلام ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن » [٦].

تحدي الكافرين أن يأتوا بمثله:

قال تعالى مبينًا عجز الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بمثل القرآن الكريم: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء: ٨٨].

---

(١) مسلم كتاب « فضائل الصحابة » باب من فضائل أبي ذر. وأحمد في مسند الأنصار من حديث أبي ذر الغفاري.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب فداء المشركين، ومسلم كتاب الصلاة باب القراءة في الصبح.

(٣) أخرجه أحمد في أول مسند المدنيين من حديث جبير بن مطعم، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٤٤٤)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٢١١ - ٢١٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١١٦) والصغير (٢/ ٢٦٥) وغيرهم، وذكره الحافظ في فتح الباري (٢/ ٤٩٢).

(٤) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب شهود الملائكة بدرًا.

(٥) بل إن بعض نصارى العرب المتأخرين ممن لهم تضلع في اللغة العربية وآدابها قد اعترفوا بذلك، ومنهم الكاتب البليغ: إبراهيم اليازجي، وكذلك الشاعر المعروف خليل مطران، كما نقله عنهما الرافعي - رحمه الله - في وحي القلم وكذلك الأستاذ جبر ضومط مدرس علوم البلاغة في الجامعة الأمريكانية في كتاب الخواطر الحسان، كما نقله عنه الأستاذ: محمد رشيد رضا - رحمه الله -. انظر علوم القرآن الكريم للدكتور نور الدين عتر (ص٢٠١).

(٦) إعجاز القرآن (١٥٧ - ١٦٠).

وهذه الآية مكية، نزلت في وقت قلة عدد المؤمنين وضعفهم، وإقْدامُ النَّبيّ ﷺ على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة أنهم لا يقدرون على الإتيان بمثل القرآن، بل يعجزون عنه، لا يقدم عليه وهو يدعو الناس لتصديقه إلاَّ وهو واثق أن الأمر كذلك، ولا يُقْدم عاقل على مثل هذا الخبر وهو يشك فيه، في مثل ظرف النبيّ ﷺ في ذلك الوقت، ولم يكن هذا اليقين حاصلاً للنبيّ، إلاَّ بإعلام الله سبحانه له [١] .

وقد تحدَّى الله الكفار أن يأتوا بمثله إن ظنوا أنه من قول محمد ﷺ، قال سبحانه: ﴿ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)** ﴾ [الطور: ٣٤]، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فقال سبحانه: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣)** ﴾ [هود: ١٣].

ثم تحداهم الله سبحانه أن يأتوا بسورة من مثله، فلم يقدروا، وأخبرهم أنهم لن يفعلوا قال سبحانه: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)** ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

ولو كان القرآن من كلام الرسول ﷺ لما جزم بعدم استطاعة أحد أن يأتي بمثله، وتحقُّق هذا الجزم بعد ذلك دليلٌ على أن القرآن كلام الله المعجز، وكان بإمكانهم أن يكذبوا القرآن لو استجابوا للتحدي وأتوا بسورة مثل القرآن، ولما رأينا أنهم تركوا الاستجابة للتحدي مع أنه أمر لا يكلفهم كثيراً من التبعات، واختاروا الطريق الوعر لمواجهة الرسول وهو الحرب وإزهاق الأنفس وإهدار الأموال علمنا علمًا يقينيًا عجزهم عن الإتيان بمثله مع كونهم أساطين الفصاحة والبلاغة.

ولو قدّرنا أن رجلاً ألّف كتابًا، أو قال شعرًا ثم تحدَّى الكتاب والشعراء،

---

(١) انظر «شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٥٥)، والجواب الصحيح لابن تيمية (٥/ ٤٠٩).

فقال: عارضوني، وإن لم تعارضوني فأنتم كفار مأواكم النار، ودماؤكم لي حلال!! فمن المستحيل أن يُحجم الجميع عن معارضته لإنقاذ أنفسهم من القتل، ولدفع وعيده لهم بدخول النار، فإذا لم يعارضوه رغم توافر الدواعي لمعارضته كان ذلك من أبلغ العجائب الخارقة للعادة الدالة على صدقه في تحديه [١].

وهذه البيِّنة (المعجزة) قائمة دائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها [٢].

---

(١) انظر «الجواب الصحيح» لابن تيمية (٥/ ٤٣٠).

(٢) قال بعض الناس (يحكى ذلك عن النظام من المعتزلة وآخرين): إن وجه الإعجاز في القرآن هو أن الله صرف همم الكفار عن معارضته، لا لأن نظمه معجز في ذاته، بمعنى أنهم كانوا يقدرون على الإتيان بمثل نظمه لولا أن الله صرف هممهم عن ذلك، وهذا القول غير صحيح لأسباب:

أولاً: أنه مصادم للنص القرآني الذي يُبيّن أن الخلق لا يستطيعون الإتيان بمثله ولو تعاونوا على ذلك، فيلزم القائلين بالصرفة، أن الخلق يستطيعون الإتيان بمثله لولا أن الله صرفهم عن ذلك.

ثانيًا: أنه قول لا برهان له ولا دليل عليه، لا من النص ولا من الواقع فلم يشعروا أنهم فقدوا قدرتهم على البلاغة.

ثالثًا: أنه مخالف لإجماع العلماء قبله على أن القرآن معجز في ذاته.

رابعًا: أن حروف القرآن وألفاظه وجمله وتراكيبه قد نزلت بعلم الله، فكانت قرآنًا معجزًا، والادّعاء بأن في قدرة الإنسان أن يأتي بمثله هو ادعاء بأن علم الإنسان في صياغة الكلام كعلم الله، وهذا محال.

خامسًا: أن القول بالصرفة يبطل الحكمة من تحدي القرآن للكافرين والذي لا يكون إلاّ مع تمام الحرية لهم في الاستجابة للتحدي والصرفة تتعارض مع ذلك لإظهار العجز المقصود من التحدي.

السادس: أنه قد حصلت فعلاً محاولات فاشلة للمعارضة، كما صنع مسيلمة وغيره وهذا مما يبطل القول بالصرفة، ولكن هذه المعارضة باءت بالفشل، بل كانت خزيًا لصاحبها ودليلاً على كذبه، وافترائه بما فيها من السماجة والركاكة، وذكر ابن كثير من سخافات مسيلمة ما كان يزعمه قرآنًا قوله: يا ضفدع بنت الضفدعين، نقّي لكم تنقّين، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين، رأسك في الماء، وذنبك في الطين. ويقول: والفيل وما أدراك ما الفيل له زلوم طويل.. وأشياء من هذا الكلام السخيف الركيك، انظر البداية والنهاية (٦/ ٣٣١)، وانظر الجواب الصحيح (٥/ ٤٢٩ - ٤٣١).

علامات إلهية في القرآن

هناك علامات واضحة بيّنة في القرآن تدل قارئه وسامعه أنه من عند الله عز وجل، ويستحيل أن يكون من عند غيره ومنها:

(١) الجدة الدائمة:

يلمس القارئ أثرًا من آثار إعجاز القرآن حين يقرأ القرآن العظيم، فكلما قرأه وجده جديدًا، ولايزال يشعر بأنه جديد لا يبلى مهما تكرر على اللسان والسمع، وكم كرر المسلمون ويكررون سورة الفاتحة وقصار السور كل يوم، يُجمعون كلهم على أن القرآن الكريم لايزال جديدًا على ألسنتهم، وهذه علامة تخضع للممارسة من كل قارئ للقرآن في أي زمان وفي أي مكان، كما أنها علامة إلهية في كل سورة، ولقد نطق أحد كبار المستشرقين بهذه الحقيقة، وهو المستشرق «ليون» فقال: حسب القرآن جلالة ومجدًا أن الأربعة عشر قرنًا التي مرّت عليه لم تستطع أن تُخفف ولو بعض الشيء من أسلوبه الذي لا يزال غضًا كأن عهده بالوجود أمس.

(٢) كونه روحًا من أمر الله:

يكون الكلام انعكاسًا لشخصية المتكلم وعلمه وخبرته وصفاته، وقارئ القرآن يقع في نفسه شعور بأن المتكلم إليه هو الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، فهناك سر خاص وسلطان يحمله القرآن إلى قارئه يدله على أنه كلام الله.

(٣) أنه كلام فريد:

كلام البشر درجات وطبقات متقاربة، ويمكن دمج كلام بعضهم ببعض، لكن القرآن يُمثل درجة متميزة، وطبقة من الكلام خاصة، تتميز عن سائر كلام

البشر، فإذا تكلم الخطيب أو كتب الكاتب، واستشهد بآيات من كتاب الله تحس بالفارق الجليّ بين مستوى كلام الله وكلام البشر، يشعر به السامع والقارئ، بينما كل كلام للبشر يمكن دمجه بغيره دون الإحساس بفارق [١] .

(٤) قوة تأثيره والروعة والهيبة التي تلحق قارئه وسامعه:

فإذا قرأ القارئ ما شاء من كلام البشر في موضوع ما، ثم قرأ من كتاب الله آيات في نفس الموضوع، فيستشعر بالفرق الكبير في التأثير بين كلام الله وكلام البشر.

وانظر الفرق بين أثر ما تسمعه من وعظ الواعظ بكلام الله، وبين وعظه بكلامه، بل جرب أن تعظ الناس بكلامك، ثم تعظهم بكلام الله، ثم انظر الفرق في وجوه المستمعين وفي نفسك، بشرط شرحك للألفاظ القرآنية التي لا يعرفها العامة في هذا الزمان.

ولقد أدرك المستشرق (س.ل) هذه العلامة الإلهية كما أدركها غيره، فقال: «إن أسلوب القرآن جميل وفياض، ومن العجب أنه يأسر بأسلوبه أذهان المسيحيين، يجذبهم إلى تلاوته، سواء في ذلك الذين آمنوا به، أو لم يؤمنوا به وعارضوه» ، وقد ذكرنا مدى تأثيره في كفار قريش، ويكفي المتأمل ما أحدثه من تأثير هائل في حياة العرب الأُمِّيِّين حتى جعل منهم خير أمة أخرجت للناس قادت البشرية بالعلم والعدل والحق، وصهرت الشعوب في بوتقتها، رغم اختلاف أجناسها وألوانها.

تجربة في تأثير القرآن على التوتر العصبي:

أجرى د. أحمد القاضي تجربة لقياس أثر القرآن على من لديهم توتر عصبي،

(١) قال ابن تيمية : نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع، ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأتِ أحد بنظير هذا الأسلوب، فإنه ليس من جنس الشعر ولا الرجز ولا الخطابة ولا الرسائل، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم. اهـ. «الجواب الصحيح» (٥/ ٤٣٣) .

فكان يعرض هؤلاء المتوترين على تجارب متعددة، فكان يجرب أثر السكون والموسيقى والقرآن عليهم. فوجد أن الذين استمعوا للقرآن وهم لا يعرفون اللغة العربية انخفض التوتر لديهم إلى نسبة تصل إلى ستين في المائة، وأن الذين كانوا يفهمون اللغة العربية ويعرفون معاني الآيات انخفض توترهم إلى تسعين في المائة، بينما كان تأثير السكون والموسيقى في درجات متدنية.

وقد ذكر لي أحد كبار المسئولين في اليمن أنه إذا أوقظ من نومه في الليل يأتيه أرق يمنعه من النوم ثانية؛ فيلجأ إلى سماع القرآن لإذهاب ما أصابه من توتر والعودة إلى النوم، ويمكن لكل شخص يقع في مثل هذه الحالة أن يعالج نفسه بنفس العلاج، وأن كثيراً من المجهدين بالتوتر العصبي إذا استمعوا إلى كلام الله ارتخت أعصابهم ورأيت النعاس يداعب أجفانهم، إن هذه القوة المؤثرة في الأعصاب تدل على مصدرها الإلهي العظيم، قال تعالى: ﴿ **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨].

تأثر الشاعر المعاصر نقولا حنًّا، حيث كان نصرانيًا، ثم أعلن إيمانه بالقرآن وبالرسول ﷺ قال: قرأت القرآن فأذهلني، وتعمّقتُ به ففتنني، ثم أعدت القراءة فآمنت.. آمنت بالقرآن الإلهي العظيم، وبالرسول مَنْ حَمَله، النَّبيّ العربي الكريم.. إلى أن يقول: وكيف لا أومن ومعجزة القرآن بين يديّ أنظرها وأحسها كل حين؟! هي معجزة لا كبقية المعجزات.. معجزة إلهية خالدة تدل بنفسها عن نفسها، وليست بحاجة لمن يحدث عنها أو يبشر بها.

وقال: وكم احتاجت وتحتاج الأديان السابقة إلى علماء ومبشرين، وشواهد وحجج وبراهين؛ لحض الخلق على اعتناقها، إذ ليس لديها ما هو منظور محسوس يُثبت أصولها في القلوب.. أما الإسلام فقد غني عن كل ذلك بالقرآن فهو أعلم مُعلِّم وأهدى مبشر، وهو أصدق شاهداً وأبلغ حجة وأدمغ برهانًا .. هو المعجزة الخالدة خلود الواحد الأزلي المنظورة المحسوسة في كل زمان.

ثم نظم قصيدة يُبيّن فيها إعجاز القرآن وعظمته [١] .

(٥) خلوه من التناقض والاضطراب :

للناس آراء ومقررات في حالات الضعف أو الخوف أو الضيق أو الفقر أو القلة أو نقص المعلومات، وترى تلك الآراء والمقررات تتغير إذا تبدّل حال الإنسان إلى العكس مما سبق، وترى هذا في كل عمل بشري، لكن لا تجد أثرًا لشيء من هذا الاختلاف في كتاب الله؛ لأنه من كلام الذي لا تغيره الأحوال سبحانه، ولا يشوب علمه النقص، قال تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** (٨٢) ﴾ [النساء: ٨٢] .

مع أن القرآن كتاب ضَمَّ طوال السور وقصارها، ونزل في فترات متقطعه، وفي ظروف مختلفة وشمل علومًا متعددة، وتحدث عن آفاق واسعة، تجده يصدق بعضه بعضًا ويُكمل بعضه بعضًا، ويكمل آخره أوله [٢] .

(٦) علومه الواسعة:

اشتمل القرآن على علوم ومعارف تهدي البشر إلى طريق الحق والصواب والسعادة في جميع شؤونهم في حياتهم الدنيا والآخرة، وتجنبهم الشر بحذافيره، في كل زمان ومكان، وقد بلغت هذه العلوم من دقة المعلومات، وصحة الأخبار، ونبالة القصد، ونصاعة الحجة، وحسن الأثر، وعموم النفع مبلغًا يستحيل على

---

(١) « علوم القرآن الكريم »، د. نور الدين عتر (ص٢٠١ – ٢٠٢) وذكر من ضمن أبيات قصيدته :

يقولون: ما آياته؟ ضلَّ سعيهم ... وآياته – ليست تُعدُّ – عظامُ
كفي معجزُ الفرقان للناس آية ... علا وسما كالنجم ليس يُرامُ
فكلٌّ بليغ عنده ظلَّ صامتًا ... كأنّ على الأفواه صُرَّ كمامُ
وشاء إله العرش بالناس رحمة ... وأن يتلاشى حقْدهم وخصامُ
ففرّق ما بين الضلالة والهدى ... بفرقان نور لم يَشُبْه قتامُ

(٢) انظر كتاب « دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب » للشيخ محمد الأمين الشنقيطي للردّ على من توهم وجود تعارض في الآيات القرآنية.

محمد ﷺ – وهو رجل أمي نشأ بين أميين – أن يأتي بها من عند نفسه، بل يستحيل على أهل الأرض جميعًا من علماء وأدباء وفلاسفة وأخلاقيين أن يأتوا بمثلها من تلقاء أنفسهم ولو تظاهروا على ذلك [١] ؛ فالعلوم التي في القرآن تدل كل عاقل ومُنصف على أنه من عند الله، ولا يمكن أن تكون من عند غيره، ونضرب لك ثلاثة أمثلة مما احتوى عليه من العلوم:

(أ) إخباره بالغيب الماضي والحاضر والمستقبل [٢] :

فمن إخباره بالغيب الماضي: إخباره بقصص الأمم السابقة التي لم يشهدها محمد ﷺ أو قومه، مثل قصة نبيّ الله نوح عليه السلام مع أمته التي كانت من أقدم الأمم على الأرض؛ فقد دعا نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله سبحانه وترك عبادة غيره، واستمر على ذلك مدةً طويلة بلغت ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا، ومع ذلك لم يستجب له إلاَّ قليل من الناس، فدعا ربه أن ينصره على من عاداه، فأنزل الله مطرًا غزيرًا من السماء وفجّر الأرض عيونًا فأغرق الكافرين، ونجى الله المؤمنين على سفينةٍ مع نوح عليه السلام.

وأخبر الله سبحانه نبيه في القرآن بعد أن ذكر قصة نوح عليه السلام مع قومه في سورة هود أن هذه القصة من أخبار الغيب التي لم يكن محمد ﷺ يعلمها ولا قومه، وإنما ساقها الله عبرةً وتسلية لنبيه محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** (٤٩) ﴾ [هود: ٤٩].

ولو أن الكفار في عهد النبيّ ﷺ كانوا يعلمون شيئًا من ذلك لكانت فرصة لتكذيب النبيّ ﷺ، ولكنهم لاذوا بالصمت.

---

(١) انظر «مناهل العرفان في علوم القرآن» للزرقاني (٢ / ٣٦٦) .

(٢) وقد ذكرنا أمثلة لذلك في الجزء الأول .

قصة هامان:

ورد ذكر « هامان » ست مرات في القرآن الكريم، كما ورد اسمه متصلاً باسم فرعون كشخص من المقربين إليه ويُسند فرعون إليه أعمال البناء، حيث أمره ببناء صرح عالٍ يصعد عليه، قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧)** ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

فهاتان الآيتان تُثبتان وجود شخص اسمه هامان مقرّب إلى فرعون، ويُكلفه بعمل البناء، بينما لم يرد ذكر لهامان في التوراة، ولم يرد ذكره في أيٍ من المقاطع (الروايات) التي تحكي حياة نبيّ الله موسى عليه السلام، لكن ورد اسم « هامان » في أحد كتب العهد القديم [١] .

لكن هذا الكتاب ذكر أن « هامان » شخص مساعد لملك بابل، وبابل في العراق، وأنه أوقع الكثير من الضرر بالإسرائيليين، ولكن هذه الأحداث كانت بعد نبيّ الله موسى بمدة طويلة تبلغ (١١٠٠) عام.

ويدّعي بعض الطاعنين في الإسلام [٢] أن محمداً ﷺ هو الذي كتب القرآن، وأنه نسخ قصص الأمم السابقة من التوراة والإنجيل، فأخطأ في شخصية هامان، فذكر أنه وزير فرعون، بينما هو – حسب دعواهم – مساعد ملك بابل.

---

(١) العهد القديم يشمل التوراة بالإضافة إلى بعض الكتب المقدسة الأخرى عند اليهود، ومنها زبور نبيّ الله داود عليه السلام .

(2) Ludwing Marroccio (Confessor to the Pope Innocent XI) Alcoranus Textus Universus : 1698, Published at Paduae, Italy .

B Lewis, V L Menage, Ch. Pellat and J Schacht (Editors), Encyclopaedia of Islam (New Edition): 1971, Volume III, E J Brill (Leiden) & Luzac & Co. (London) , eP. 110 .

Arthur Jeffery, The Foreign Vocabulary of the Quran: 1938, Oriental Institute, Baroda, pp. 284.

وجاءت الكشوف الحديثة في علم الآثار لتُظهر صدق ما جاء في القرآن الكريم وبطلان تلك الدعاوى المزعومة بعد أن حلت رموز وحروف الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة، التي ورد فيها ذكر شخصية هامان وطبيعة عمله.

وتوجد الإشارة إلى هذا في نصب في متحف هوف في ڤيينا [١]، كما ظهر في كتاب بعنوان: (In the new Kingdom People) [٢] (في شعب المملكة الجديدة) الذي تمّ إعداده استنادًا إلى مجموعة من النقوش كما ظهرت في هذه النقوش وظيفة عمل هامان وهو أنه كان «رئيس عمال الحجارة» ورد الاسم مذكرًا، من المملكة الجديدة، وترجمت المهنة إلى اللغة الألمانية بمعنى رئيس أو مراقب العمال في مقالع الحجر [٣].

وهذا كله يُثبت حقيقة ما جاء في القرآن من أنّ هامان كان في مصر، وأنه كان مسؤولاً عن أعمال البناء، وهذه المعلومات لم تكن متوفرة في عهد نبوة محمد ﷺ؛ لأن الكتابة الهيروغليفية قد تُركت منذ زمن قديم حيث يرجع آخر مثال معروف لاستخدامها إلى عام (٣٩٤) بعد الميلاد [٤]، ثم نسيت هذه اللغة، ولم يكن هناك أحد يستطيع أن يحل رموزها أو يفهمها إلى حوالي (٢٠٠) سنة مضت، في عام (١٧٩٩م) تمَّ اكتشاف «حجر رشيد» (Rosetta Stone) التي يرجع تاريخها إلى (١٩٦) قبل الميلاد، بواسطتها تمّ حل شفرة

---

(1) Walter Wreszinski, Aegyptische Inschriften aus dem K.K. Hof Museum in Wien: 1906, J C Hinrichs, Sche Buchhandlung, Leipzig.

(2) Hermann Ruanke, Die gyptischen Personennamen, Verzeichnis der Namen, Verlag Von JJ Augustin in Gluckstadt, Band I (1935).

(3) The name is listed as masculine, from the New Kingdom, The profession translated into German reads Vorsteher der Steinbruch arbeiter The Chief / Overseer of the workers in the stone quarries, (Aegyptische Inschriften, 134, p. 130).

(4) Encyclopdia Briannica.

الكتابة المصرية القديمة، ومن خلالها توفرت المعلومات عن الحضارة المصرية القديمة وجوانبها الدينية والاقتصادية والتاريخية وغيرها، ومن ذلك معرفة شخصية «هامان» وطبيعة عمله، كما ذكر ذلك في القرآن الكريم، فمن أين لمحمد ﷺ هذا العلم الذي خفي على البشرية في وقته وإلى عصرنا الحاضر حتى قبل (٢٠٠) سنة تقريباً، إن الإخبار باسم شخص كان يعيش مع فرعون، والإخبار عن وظيفته عند فرعون. مع أن هذا الاسم قد سقط عند أهل الكتب المقدسة ونسي من ذاكرة التاريخ، ولم يُعثر على هذا الاسم إلاَّ بعد نزول القرآن باثني عشر قرناً بعد أن تمّ اكتشاف حجر رشيد التي تمكّن بها علماء الآثار من فك رموز لغة الفراعنة (الهيروغليفية) فوجدوا اسم هامان يذكر في النقوش الفرعونية وأنه وزير فرعون للبناء تماماً كما أخبر القرآن، إنّ ذلك يدل على أن مصدر هذا الخبر الغيبي قد نزل في القرآن من علم الله، إنه من الله العليم بكل شيء [١].

غيب في زمن النبي ﷺ:

وكما أخبر القرآن بالغيب الماضي فقد أخبر ببعض الحوادث التي لم يشهدها رسول الله ﷺ – وهي في زمنه فكانت غيباً بالنسبة له – فأطلعه الله عليها، ومن ذلك:

أن النّبيّ ﷺ أسرَّ إلى بعض أزواجه أنه قد حرم على نفسه شرب العسل الذي عند بعض نسائه لما ظنّ أن فيه رائحة غير مستحسنة [٢]، وأمرها أن لا تُخبر بذلك أحداً، فأخبرت بعض نسائه بذلك، فأطلعه الله سبحانه على ذلك وأخبرها به، فسألته عمن أخبره بذلك الغيب فأخبرها أنه الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ

---

(١) هذه الخلاصة في اسم هامان من مقال للدكتور / باسم طارق جمال في مجلة الإعجاز العلمي، العدد (١٤) لعام (١٤٢٣هـ).

(٢) وقيل: إن السر هو تحريم مارية القبطية على نفسه، قال الشوكاني: والجمع بينهما ممكن بوقوع القصتين، قصة العسل وقصة مارية. انظر «فتح القدير» عند تفسير الآيات المذكورة من سورة التحريم.

النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ [١] عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ [٢] فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [التحريم: ٣].

ومن أمثلته كذلك: ما كان يُخفيه المنافقون من بغضهم للإسلام وطعنهم فيه، فيطلع الله عليه نبيه، وكان المنافقون يعلمون ذلك ويخشون أن ينزل القرآن ببيان ما أسروا في قلوبهم، قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [التوبة: ٦٤].

كما قال تعالى مُبيِّنًا كذب المنافقين في اعتذارهم في التخلف عن الجهاد: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ [التوبة: ٩٤] [٣].

وقد قال أحدهم في النبيّ ﷺ كلمةً كفر بها، حيث كان النَّبيّ ﷺ يخطب فقال المنافق: إن كان هذا صادقًا لنحن شر من الحمير، فقال زيد بن أرقم: هو والله صادق وأنت شر من الحمار، ولما نُقلت كلمته إلى النّبي ﷺ جحدها؛ فنزل القرآن الكريم بإثبات تلك الكلمة عليه، قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٤] [٤].

وهكذا كان الوحي يكشف للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما يدور بعيدًا عنه مما يحاك حوله وما يدور في خفايا النفوس.

---

(١) أطلعه الله عليه.

(٢) يعني ذكر لها بعض ما أخبرت به، وسكت عن البعض الآخر تكرمًا.

(٣) سُمِّيت سورة التوبة الفاضحة لكونها تفضح المنافقين، قال الشوكاني: وتُسمى البحوث؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين، وكذلك المبعثرة، والبعثرة: البحث والمخزية لكونها أخزتهم، والمُثيرة: لكونها تُثير أسرارهم وغير ذلك من الأسماء. انظر مقدمة «تفسير سورة التوبة من فتح القدير».

(٤) انظر «تفسير الشوكاني» وقد روي في سبب نزولها غير ذلك، والله أعلم.

غيب المستقبل:

وهناك نوع آخر من الغيب كشفه الوحي لرسول الله ﷺ، وهو الغيب المكنون في المستقبل الذي لا سبيل لأحد من البشر أن يعرفه، ومن أمثلته ما وعد الله به المؤمنين من الاستخلاف في الأرض مع أنهم كانوا قلة مستضعفة، قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** ﴾ [النور: ٥٥].

وقد تحقق ذلك الوعد فخلال قرن من الزمان انتصر المؤمنون على الدولتين العظيمتين في ذلك الوقت وفتحوا الأرض شرقًا وغربًا، ودانت لهم شعوبها بالإسلام ودخلوا في دين الله أفواجًا.

ومن أمثلة الإخبار بغيب المستقبل أن يقرر القرآن أن أشخاصًا معينين بأسمائهم لن يُسلموا وأنهم سيموتون على الكفر، وكان بإمكانهم أن يكذبوا القرآن ولو تظاهروا بالإسلام تظاهرًا، ولكنهم لم يخرجوا عما قرره القرآن في حقهم، بالرغم من إسلام الأعداد الكثيرة ممن كانوا أشد الناس عداوةً له، ومن ذلك ما ذكره سبحانه عن أبي لهب أنه من أهل النار. قال تعالى: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣** ﴾ [المسد: ١ – ٣]. وكذلك إخباره عن الوليد بن المغيرة أنه سيصلى النار، قال تعالى: ﴿ **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦** ﴾ [المدثر: ٢٦]، وكان الأمر كذلك فمات أبو لهب كافرًا، ومات الوليد كافرًا، إلى غير ذلك من الأمثلة [١].

(ب) الشريعة العظيمة التي احتوى عليها:

لا يستطيع أحد أن يُنظم بدقةٍ وإحاطةٍ أمر مصنوع من المصنوعات إلاَّ إذا كان على علم بأسرار ذلك المصنوع، فتأتي إرشاداته وتوجيهاته محققة للسير الصحيح، ومن تأمل في أحوال البشرية وجدها في اضطراب وفساد على الدوام،

(١) انظر مزيداً من الأمثلة على إخبار القرآن بالغيب في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٦/ ٧٠ – ٧٩).

لكنها عندما طبقت شريعة الله التي جاء بها رسله استقر أمرها وصلح حالها، وختم الله الشرائع بشريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي شُيّدت عليها أثبت الحضارات التي عرفها البشر خلال التاريخ الإنساني، وسعدت البشرية في ظل تلك الشريعة التي وحّدت بين الأجناس المختلفة والبيئات المتباينة والعصور المتعاقبة، وشهد بذلك الدارسون من أهل الاختصاص مما يدل على أن هذه الشريعة من قبل خالق الإنسان، الذي يعلم أسرار خلقته وفطرته.

ولقد تميّزت هذه الشريعة بمزايا عديدة منها:

[١] **شمولها ووفائها بحاجات البشر ومطالبهم:**

فإلى جانب ما احتوى عليه القرآن من الهدى والنور في جانب الاعتقاد والإيمان الذي نزل من أجله، فقد اشتمل على أفضل وأرقى التشريعات التي تكفل سعادة الفرد والمجتمع، بل والعالم بأكمله في جميع شؤون حياتهم في جوانب السياسة والقضاء والحكم وإقامة العدل، وفي جوانب الاقتصاد والمال والمعاملات، وفي جوانب الاجتماع والتكافل والأخلاق والآداب والفضائل، وفي جوانب الفكر والبحث والعلم، وفي جوانب الصحة وحماية الأعراض واستتباب الأمن، وفي جوانب العقل والبدن والأسرة والمرأة والمجتمع، وفي جوانب الحرب والسلم والعلاقات بين سائر بني الإنسان، وبيان الحقوق والواجبات، فلم يبقَ جانبًا من جوانب الحياة إلاّ وقد بيّن فيه سبيل الحق والهدى والصواب كما قال تعالى لرسوله ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [النحل: ٨٩].

ومن الأدلة على ذلك أن الأمة الإسلامية قد عاشت أكثر من ألف وأربعمائة عام غنية بما لديها من التشريعات، ولاتزال بعض الدول الإسلامية تتحاكم إليها في محاكمها، ولم تحتج في يوم من الأيام إلى قوانين مستوردة من خارج الشريعة الإسلامية؛ لأن الجهاز التشريعي الضخم قد أغناها عن الحاجة لغيرها.

[٢] **جمعها بين مطالب الروح والجسد والعقل والعاطفة معًا :**

فهي تعالج الكيان الإنساني كاملاً بجميع مقوماته وتكويناته، بينما تنحصر الشرائع الوضعية البشرية في محاولاتها المتبدلة القاصرة على الجوانب المادية، وتترك جوانب الروح والعاطفة والأخلاق والقيم جانبًا يتخبط فيها الناس لجهلهم بحقيقة الروح والعقل ومتطلباتهما .

[٣] **جمعها بين صفتي الثبات والمرونة :**

الشرائع البشرية التي توضع لضبط تفاصيل الحياة للمجتمعات لا يمكن لها أن تبقى ثابتة بسبب تغير صورة الحياة وتجدد أساليبها وتطورها مما يفرض التبدل عليها، فلا تقوى قوانينها على الثبات أكثر من بضعة عقود من الزمان .

كما تهب رياح التبديل على هذه الشرائع بسبب مجافاتها للفطرة وعدم معرفة واضعيها بحقيقة النفس الإنسانية ومفاجآت الزمان المستقبلية، لكن الشريعة الإسلامية قد اشتملت على قواعد كلية تستجيب بمرونة كاملة لتفاصيل الحياة المتجددة؛ لأنها من لدن الخالق الذي يعلم أسرار الفطرة البشرية ويُحيط علمًا بما سيكون، فتستوعب قواعدها بكفاءة بالغة كل تطور يجد على واقع الحياة .

كما أن قواعد الدين الإسلامي الثابتة قد جاءت هادية وموجّهة لسلوك الإنسان النابع من فطرته الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير على مرّ العصور، فتبقى جميع أنشطة البشرية مرتبطة بالفطرة البشرية الثابتة والدين الثابت من قبل فاطر الإنسان وخالقه قال تعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠)** ﴾ [الروم : ٣٠] .

ويقوم المجتهدون من العلماء باستنباط الأحكام الجزئية للحوادث المتجددة من تلك القواعد الكلية الشاملة التي تستوعب كل الصور المتجددة [١] ، كما قال

---

(١) انظر إلى كتب الشريعة المتعلقة بمقاصد الشريعة وقواعدها الفقهية .

تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣].

أما التفاصيل التعبدية والأخلاقية التي لا تتبدل فقد جاءت الشريعة بأحكام مفصلةٍ لها لا تتبدل.

محاورة مع سفير فرنسا:

في أثناء زيارة سفير فرنسا لي، سألني قائلاً: هل اكتملت الحياة وصورها؟

- فقلت: لا.

- فقال: وهل اكتمل الدين؟

- فقلت: نعم.

- فقال: فكيف يتسع الدين المحدود الذي اكتمل لحاجات الحضارة وصورها المتجددة؟!

- فقلت له: هل تركيب عينك هو نفس تركيب أعين من كانوا يعيشون في عصر محمد وفي عصر المسيح عليهما السلام؟

- فقال: التركيب واحد لم يتغير.

- فقلت له: هل تركيب أعضاء جسمك هو نفس تركيب أعضاء أجسام من كانوا يعيشون في عهد النبيّ محمد وفي عهد المسيح عليهما السلام؟

- فقال: نعم، تركيب أجسامنا لم يتغير ولم يتبدل.

- فقلت له: هل تحب، وتكره، وتخاف، وتطمع؟

- قال: نعم.

- قلت له: الذين كانوا يعيشون في عصر النبيّ محمد وفي عصر المسيح هل هم مثلنا يُحبون ويكرهون ويخافون ويطمعون؟

- قال: نعم.

– فقلت له: إذن التركيب النفسي لنا ولهم لم يتغير ولم يتبدل!.

– قال: نعم، هذا صحيح.

– فقلت له: التركيب النفسي والبدني لمن يعيشون اليوم هو نفس التركيب النفسي والبدني لمن كانوا يعيشون في عهد النبيّ محمد وفي عهد المسيح عليهما السلام.

– فقال: هذا صحيح.

– ثم قلت له: لو أن لدينا مليون سيارة مرسيدس، بتصميم هندسي واحد (موديل واحد)، قد صُنّعت طبقًا لخطة هندسية واحدة، ولها كتاب إرشاد (كتالوج) واحد، فهل يصلح كتاب الإرشاد (الكتالوج) الواحد لتسيير وتشغيل أي سيارة من هذه المليون السيارة؟!.

– فقال: طالما والموديل واحد والصنعة واحدة، فلابد أن يكون (الكتالوج) واحداً، والكتالوج الواحد يصلح لأي سيارة من هذه السيارات.

– فقلت له: ولو وزعناها على القارات في آسيا، وأوروبا، وأمريكا؟!

– فقال: ولو وضعت في أي مكان على الأرض، فإنها لا تعمل إلاَّ بنفس (الكتالوج) الذي صُنعت طبقًا له ما لم يتغير تركيبها.

– فقلت له: ولو أننا أخرجنا من مخزن السيارات مئة سيارة بعد عشر سنوات، فهل لا يزال (الكتالوج) يصلح لها؟!

– فقال: لايزال يصلح لها؛ لأنها لم يحدث لها أي تغيير في تركيبها.

– فقلت له: ولو أخرجناها بعد مائة سنة، فهل لايزال (الكتالوج) يصلح لها؟!

– فقال: يصلح لها مادام تركيبها لم يتغير.

– فقلت له: ولو أخرجناها بعد ألف وأربعمائة عام، فهل لا يزال (الكتالوج) نافعًا لها ويصلح لتشغيلها؟!

– فقال : نعم، لا يزال يصلح لها ما لم يتغير تركيبها !

– فقلت له : إذا كانت الإرشادات (الكتالوج) التي تقدمها مصانع السيارات تصلح لتشغيل تلك السيارات من نفس تلك الصنعة (الموديل) مهما اختلف الزمان والمكان، فكذلك الشريعة والدين الذي جاء من عند الله مُتعلقًا بفطرة الإنسان البدنية والنفسية التي لم تتبدل ولم تتغير بتغير الزمان والمكان، لايزال صالحًا لفطرة الإنسان التي خلق الله الناس عليها، وصالحاً للبشرية الموحدة في فطرتها وخلقتها كما قال تعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ [الروم : ٣٠] .

– ثم قلت له : والدين الذي جاءنا من عند الله جاء في صورة قواعد كلية هادية تستوعب كل الصور المتجددة لتطورات الحياة، ويقوم العلماء المجتهدون بتنزيل أحكام الدين على صوره المتجددة، كما يقوم الخياط الذي يفصل الملابس وفق قواعد الخياطة، فيجعلها متناسبة مع أحجام الناس ونوعية القماش، ومناسبة لفصول السنة وفقًا لقواعد التفصيل والخياطة، ولكنه يجعلها مناسبة للحجم المطلوب ونوع المادة التي صُنع منها القماش، والبيئة التي يعمل فيها الإنسان .

ولو قام المجتهدون بعملهم كاملاً لما قصرت الشريعة عن إيجاد حل لأي مشكلة تستجد للفطرة الإنسانية الثابتة .

وهكذا تعلقت الشريعة بالفطرة الثابتة التي لا تتغير وكانت مرنة بعمل المجتهدين الذين يستنبطون من قواعدها الأحكام المناسبة للصور المتجددة .

[٤] شهادة أهل الاختصاص من غير المسلمين لها :

وقد شهدت بعظمتها المجامع الدولية في عصرنا – مع مخالفتها لنا في العقيدة – ومن تلك الشهادات ما يلي :

■ يقول « هوكتنج » أستاذ القانون بجامعة هارفارد في كتابه « روح السياسة

العالمية » عام (١٩٣٢م) : « إن سبيل تقدم الممالك الإسلامية ليس في اتخاذ الأساليب الغربية، التي تدّعي أن الدين ليس له أن يقول شيئًا في حياة الفرد اليومية وإنما يجب أن يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم، وأحيانًا يتساءل البعض عمّا إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أحكام جديدة . وإصدار أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية، فالجواب عن هذه المسألة هو أن في نظامه كل استعداد داخلي للنمو، لا بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً من النظم المماثلة، والصعوبة لم تكن في انعدام وسائل النمو والنهضة في الشرع الإسلامي، وإنما في انعدام الميل إلى استخدامها، وإني أشعر بكوني على حق حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادئ اللازمة للنهوض » (١) .

■ أما الأستاذ « شبرل » عميد كلية الحقوق في جامعة ڤينا فقد أعلن في مؤتمر الحقوقيين (١٩٢٧م)، قوله : « إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها؛ إذْ أنه رغم أمِّيَّته استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريعٍ سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة » (٢) .

■ وأما المؤتمر الدولي القانوني المقارن الذي انعقد في « لاهاي » أيضًا في عام (١٣٢٦هـ – أغسطس ١٩٣٧م) فقد أعلن ما يأتي :

[١] اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام، أي أن الشريعة الإسلامية قد أصبحت مصدراً للمحاكم الدولية والقوانين الدولية، لا لقوة أهلها؛ ولكن لصلاحيتها هي، وقوتها الذاتية التي فرضت نفسها .

[٢] وأصدر المؤتمر إعلانًا بأن الشريعة الإسلامية قائمةٌ بذاتها ، ليست مأخوذة من غيرها .

---

(١) « روح التشريع الإسلامي » للأستاذ/ عفيف طبارة (ص ٢٥٦) بواسطة الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعية (١١١ – ١١٢) للدكتور محمد مصطفى شلبي . ط الدار الجامعية بيروت (١٩٨٢م) .

(٢) دولة القرآن (ص١٩٥) .

[٣] اعتبار الشريعة الإسلامية حيّةً صالحةً للتطور [١] .

■ أما أسبوع الفقه الإسلامي المنعقد في باريس، فقد وقف فيه نقيب المحامين في باريس، فقال : « أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يُحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامي، وعدم صلاحيته كأساس للتشريع يفي بحاجيات المجتمع العصري المتطور وبين ما نسمعه الآن في المحاضرات ومناقشاتها، مما يثبت خلاف ذلك تماماً ببراهين النصوص والمبادئ كما وقف غيره من رجال القانون الفرنسي، ورجال الاستشراق، وأشادوا بالفقه الإسلامي وأنه صالح لجميع الأزمنة والأمكنة.

وفي ختام المؤتمر، وضع المؤتمرين بالإجماع القرار الآتي : « . . نظراً لما ثبت للمؤتمرين من الفائدة المحققة التي أتاحتها المباحث التي عرضت من خلال أسبوع « الفقه الإسلامي » وما دار حول هذه المباحث من مناقشات أثبتت بجلاء أن « الفقه الإسلامي » يقوم على مبادئ ذات قيمة أكيدة لا مرية في نفعها، وأن اختلاف المبادئ في هذا الجهاز التشريعي الضخم ينطوي على ثروة من الآراء الفقهية، وعلى مجموعة من الأصول الفنية البديعة التي تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونة هائلة لجميع مطالب الحياة الحديثة، فإن أعضاء المؤتمر يُعلنون رغبتهم في أن يظل أسبوع الفقه الإسلامي يُتابع أعماله سنة فسنة . . » [٢] .

فليست هذه الشريعة الثابتة المرنة، التي لم تنل منها الأيام، والتي تحقق العدل والسعادة للإنسان في كل زمان ومكان، إلاَّ علامة وبيّنة إلهية تشهد أنها من عند الله الذي أحاط علماً بأمر الإنسان، وأن النَّبي الأمي ليس إلاَّ رسولاً يبلغ ما يوحى إليه من ربه.

---

(١) « المدخل إلى التشريع الإسلامي » د. كامل موسى (ص١٨٩ - ١٩٠) ط أولى. مؤسسة الرسالة عام (١٤١٠هـ) .

(٢) « دولة القرآن » (ص١٨٨) .

(ج) الإعجاز العلمي الذي احتوى عليه القرآن :

القرآن لا تنقضي عجائبه، فكلما مر الزمن اكتشفت البشرية وجهًا جديدًا من إعجازه، فما إن دخل الناس في عصر العلوم الكونية حتى وجدوا في كتاب الله نبأ صدق ما وعدهم، في قوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت : ٥٣]. وإذا بالوعد يتحقق [انظر فصل : البيّنة العلمية].

(٧) حفظه من التغيير والتبديل:

ومن العلامات الإلهية في القرآن كونه محفوظًا من التغيير والتبديل، مع مرور الأزمنة المتطاولة على نزوله، وكثرة المُعادين والحاقدين والخصوم المتربصين به وبأهله، ومع ذلك لم تنله يد التغيير والتبديل، وما حصل من محاولات التحريف باءت جميعها بالفشل.

فهو محفوظ على مستوى الحرف الواحد، بل على مستوى حركة الحرف الواحد، وإنك لتسمع القرآن اليوم يُذاع من إذاعات العالم المختلفة، ومن الدول المُعادية للإسلام [١]، فإذا هو القرآن المعروف الذي أُنزل على محمد ﷺ .

وهذا كله تصديق لوعد الله سبحانه الذي تكفّل بحفظه، فقال سبحانه: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ⑨ ﴾ [الحجر: ٩].

(٨) علامات أخرى:

وهناك علامات أخرى تدل المُنصف العاقل أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ ومن ذلك:

– **ما نزل من القرآن بعد طول انتظار:**

فقد حصلت في عهد النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حوادث مهمة وحرجة

---

(١) تُذيع هذه الدول القرآن تأليفًا لقلوب عامة المسلمين .

كانت تستدعي بيانًا سريعًا لها، وكان النَّبيّ ﷺ يقع في موقف حرجٍ فيها، ومع ذلك كان ينتظر حتى يأتيه الوحي والبيان من الله لتلك المواقف، ولو فرضنا أن القرآن كان من عنده ﷺ لأنقذ نفسه من الحرج دون حاجة إلى التأخير.

ولعلَّ أبرز الأمثلة على ذلك ما قاله أهل الإفك في زوجته السيدة الطاهرة عائشة أم المؤمنين، ومكثَ النَّبيُّ ﷺ قُرابة شهر وأهل الإفك يخوضون في باطلهم ومع ذلك لم يتبين له الأمر حتى نزل الوحي من السماء ببراءة أم المؤمنين رضي الله عنها قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (12) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) ﴾

[النور: ١١ - ١٨].

ولو كان القرآن من عنده صلى الله عليه وآله وسلم لأمكنه أن يتلو على الناس بعض الآيات فور ظهور مقالة أهل الإفك في مثل هذه الحادثة التي لا تستدعي أقل وقت للتأخير؛ وذلك ليبرئ ساحته وعرض أهله، ولكنه لم يفعل لأنه ما كان ليفتري الوحي من دون الله [١].

---

(١) ومن ذلك أنه ﷺ كان يتشوق للاتجاه إلى الكعبة في صلاته كما قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة: ١٤٤]، ومع ذلك لم يفعل ذلك حتى جاءه الوحي به، ومنه أنه سُئل عن الروح فلم يدر ما يقول، وتأخر عليه الوحي، ثم نزل قوله سبحانه: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85) ﴾ [الإسراء: ٨٥] ولو كان الوحي من عنده لأوجد لنفسه المخارج من مثل هذه المضايق. وانظر «مناهل العرفان» (٢/ ٤٢٥ - ٤٢٨).

آيات العتاب له ﷺ :

ولو كان لمحمد ﷺ تصرّف في القرآن لحجب آيات العتاب الإلهي له في بعض اجتهاداته ﷺ، ومن أمثلة هذا العتاب: أن النبيّ ﷺ أذن لبعض الناس في التخلف عن الجهاد نظرًا لما أبدوه من أعذار؛ فعاتبه الله سبحانه على ذلك مبينًا له أن بعض الذين استأذنوه كانوا غير صادقين، فلم يكن بنبغي أن يأذن لهم، قال تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) ﴾ [التوبة: ٤٣].

وقد عاتبه سبحانه عند قبوله الفداء في أسارى بدر مبينًا له أنه ما كان ينبغي له قبول الفداء منهم، والإسلام مازال في حالة ضعف. قال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وعاتبه ربه سبحانه عند إعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى لما جاءه ليتعلم منه؛ لكونه منشغلاً بدعوة بعض رؤساء قريش، قال سبحانه: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) ﴾ [عبس: ١- ٤].

وعاتبه ربه سبحانه عند تحريمه العسل على نفسه - كما مرّ معنا [١] - قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) ﴾ [التحريم: ١].

ولو كان القرآن من كلام محمد ﷺ لما سجّل على نفسه هذا العتاب، يتلوه الناس، بل ويتقربون إلى الله بتلاوته حتى يوم المآب.

- الآيات التي تجرد الرسول ﷺ من نسبة الوحي إليه :

إذا قرأتَ القرآن وجدتَ فيه الآيات التي تجرد النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من أن يكون له في القرآن مشاركة أو نصيب في تأليفه، بل يصفه القرآن بأنه

(١) انظر موضوع الإخبار بالغيب في حياة النّبيّ ﷺ.

كان قبل نزول القرآن لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، ويمتن عليه بأن الله آتاه الكتاب والحكمة، بل يذكر أنّه لم يكن له رجاء في نزول الوحي عليه.

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [القصص: ٨٦].

فلو كان القرآن العظيم بما احتوى عليه من معجزات بهرت البشر من تأليف محمد ﷺ لما تنصّل من نسبته إليه، بل لكان أعظم مفخرةٍ له أن ينسب إلى نفسه ما تفوّق به على جميع البشر، ولكنه لم يفعل، بل تلا على الناس ما أنزله الله عليه من أنه لو قال شيئًا من قبل نفسه ونسبه إلى الله سبحانه لعاقبه ربه سبحانه على ذلك أشد العقوبة، قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧] أي لو كان محمد ﷺ مفتريًا علينا كما يزعم الكافرون.. لأخذنا منه بيمينه، ثم لقطعنا منه العرق المتصل بالقلب (الوتين)، ولا يستطيع أحد من البشر عندئذ أن يدفع عنه [١].

فليتأمل المُنصِف أيَسرُّ أحدًا أن يقول هذا عن نفسه في كتاب هو من تأليفه وإنشائه.

واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس: ١٥، ١٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

والمعنى: إن هذا القرآن فوق طاقتي وليس من مقدوري وما أنا إلاَّ ناقلٌ له أتبع ما يوحى إليّ منه، وإني أخاف سطوة مُنزِّل هذا الكتاب إذا أنا تلاعبتُ بنصوصه أو غيّرتُ فيه؛ فالقرآن كلامه، ولو أراد ألاَّ أكون رسولاً بينه وبينكم ما تلوته عليكم، ولم تتمكنوا من درايته وفَهْمه، فقد نشأتُ بينكم وعرفتم حالي حضراً وسفراً مدة أربعين سنة قبل نزوله - وهو عمر طويل - وأنتم تعلمون أني لم أكن أقرأ ولا أكتب ولا تعلمتُ من أحدٍ مثله أو قريبًا منه، بل أنا أُمّي، لم تسمعوا مني مطلقًا مثل هذا الكلام المعجز، ولم تُجربوا عليَّ كذبةً واحدةً في حياتي، فكيف أفتري على الله سبحانه وأكذب عليه بعد هذا العمر الطويل، أفلا تعقلون[1].

وصدق الله القائل: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

---

(١) «مناهل العرفان» (٢ / ٤٣٢) و«بدائع التفسير من كلام ابن القيم» (٢ / ٣٩٥).

من بينات الرسالة
(خوارق العادات)

كما أيّد الله سبحانه رسوله محمداً صلّى الله عليه وآله وسلم بالقرآن الذي هو أعظم بيّناته، فقد أيده بمعجزات خارقة للعادة أجراها على يده وشاهدها المعاصرون له من أصحابه وأعدائه، فكانت دليلاً للجميع على صدقه صلى الله عليه وآله وسلم فيما بلّغ عن ربه، وعلى تأييد الله سبحانه له، كما أن هذه الحوادث الخارقة التي وقعت لاتزال دليلاً بينًا لكل عاقل في أيّ زمان ومكان على صحة نبوة محمد ﷺ؛ لأنها قد نُقلت إلينا نقلاً صحيحًا أمينًا، ووثقت توثيقًا بالغًا لا يوجد مثله في تاريخ الأمم قديمها وحديثها، فكان السامع لها يراها بين يديه آيةً بيّنةً تدل على صدق محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ لدقة توثيقها فيطمئن بها قلبُه وعقلُه.

دقّة توثيق أخبار المعجزات (خوارق العادات):

إن دلائل النبوة الخارقة للعادة قد سجّلت في القرآن الكريم، وفي كتب السنة النبويّة المطهرة، بأدق طرق التوثيق والنقل، فلننظر كيفية توثيقها في كليهما:

أولاً - توثيق المعجزات في القرآن الكريم:

كانت معجزات النبيّ ﷺ (الخارقة للعادة) تحصل فيراها العشرات والمئات، وربما الآلاف من أتباعه المؤمنين به ﷺ، ومن أعدائه المعاندين له، ثم ينزل القرآن العظيم ذاكرًا لهذه الخوارق والحوادث مستخلصًا العبر منها؛ لأنه كان ينزل منجمًا حسب الأحداث، وبعد نزول القرآن بذكر هذه الخوارق والحوادث صدّقها المؤمنون وازدادوا إيمانًا وثباتًا على دينهم، ولم يتطرق إليهم أدنى شك في وقوع هذه الخوارق التي شاهدوها.

ولم يملك أعداؤه صلى الله عليه وآله وسلم سوى الصمت تجاه ما يسمعون من آيات القرآن التي تذكر تلك الخوارق والحوادث.

ولو افترضنا جدلاً أنها لم تقع لكان أعداء النبيّ ﷺ أول المُشنّعين عليه بذلك، ولكانت فرصة سانحة ليثبتوا – حسب زعمهم – كذبه صلى الله عليه وآله وسلم (وحاشاه من ذلك) لا سيما مع حرصهم الشديد على تكذيبه وتوافر الدواعي لديهم لذلك، واجتماع هممهم للطعن في نبوته، والقدح في صدق رسالته، والتشكيك في أخباره، ولتشكك المسلمون في دينهم وارتدوا عنه.

لكن شيئًا من ذلك لم يقع، بل ازداد المؤمنون إيمانًا وثباتًا على دينهم وتصديقًا لما سجل في كتاب ربهم، وصمت الكفار أمام ما شاهدوا من خوارق وقعت، وسجّلها القرآن فدخلوا في دين الله أفواجًا؛ فعلمنا علمًا يقينًا وقوع تلك الخوارق والحوادث المؤيدة للنبوة والرسالة والشاهدة بصدق النبيّ ورسالته، وعلمنا أن أولئك العشرات أو المئات أو الآلاف الذين كانوا يشاهدون المعجزة هم الموقعون على محضر المعجزة، وهم الشهود المباشرون لها الشاهدون بصدق وقوعها.

محضر الخارقة المعجزة:

لقد كان ذكر القرآن الكريم لهذه الخوارق وتسجيله لها حين نزوله وسماع المئات والآلاف من المسلمين والكافرين لما ذكر فيه، بمثابة محضر أقرّه جميع الحاضرين من المؤمنين والكافرين المشاهدين لتلك الخوارق والحوادث، والسامعين لما سجل عنها في كتاب الله، فكان ثبات المؤمنين على إيمانهم بمثابة التوقيع منهم على صدق ما سجل في القرآن، كما كان سكوت الكافرين وعدم معارضتهم لما سجّل في القرآن، بل وتحول الكثير منهم إلى الإيمان بمثابة التوقيع أيضًا على مطابقة القرآن لما شاهدوه في الواقع.

مثال في العهد المكي : حادثة انشقاق القمر :

في العهد المكي طلب كفار قريش من النبيّ ﷺ أن يريهم آية (علامة على صحة نبوته) فشق الله له القمر نصفين، وذكر القرآن الكريم ذلك وسجّله، قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ ﴾ [القمر: ١].

فلو أن ذلك لم يحصل لتشكك المسلمون في دينهم وخرجوا منه، ولقال الكفار: إن محمداً يكذب علينا فما انشق القمر ولا رأينا شيئًا من ذلك، ولكن الذي حدث زاد المؤمنين إيمانًا، وتحيّر الكافرون أمام هذه المعجزة التي لم يملكوا سوى أن يفسروها بأنها سحر مستمر [١] !!.

قال تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝** ﴾ [القمر: ١ - ٣] [٢] .

مثال في العهد المدني: إرسال الرياح والجنود على الأحزاب:

اجتمع آلاف الكفار لغزو المدينة النبوية في معركة الأحزاب، فأرسل الله عليهم ريحًا باردةً أطفأت نيرانهم وكفأت قدورهم، واقتلعت خيامهم وهدمت أبنيتهم وشرّدت خيولهم وإبلهم، وأرسل الله عليهم جنوداً لا تُرى؛ لتُزلزلهم حتى اضطروا للعودة من حيث جاءوا، وفكّ الحصار عن المدينة النبوية، وأنزل الله تعالى ذكر هذه الحادثة ممتنًا على المؤمنين، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝** ﴾ [الأحزاب: ٩].

ولو كانت هذه المعجزة لم تقع لتشكك المسلمون في القرآن، وربما ارتدوا عن دينهم، وقالوا: كيف نصدق ما لم يقع؟! ولازداد الكفار عتوًّا ونفوراً ولقالوا: محمد يكذب علينا وعلى الناس!! ولكن شيئًا من ذلك لم يحصل، بل ازداد المؤمنون إيمانًا وثباتًا على دينهم، وصمت الكفار، ثم دخل معظمهم بعد ذلك في دين الله أفواجًا، وبهذا يكون القرآن السجل الصادق - الذي لا يتطرق إليه شك - لما وقع من الخوارق والمعجزات التي أيّد الله بها رسوله محمداً ﷺ .

---

(١) **مستمر** : أي قوي شديد يعلو كل سحر، كما قال الشوكاني، وقيل غير ذلك.

(٢) وقد كشف العلم الحديث آثار انشقاق القمر فهي مستقرة باقية إلى يومنا.

حفظ القرآن (السجل الصادق للمعجزات):

وعندما كان الوحي ينزل بالآيات القرآنية على رسول الله ﷺ كان يأمر بكتابتها فيتسابق المسلمون من أجل حفظها وكتابتها والتعبد بتلاوتها ونشرها بين الناس، وكان للنبيّ ﷺ كُتَّاب يكتبون له الوحي حتى اكتمل نزول القرآن وكتبه المسلمون في المصحف، ومن المصحف نُسخت مصاحف كثيرة ووزعت في الأقطار آنذاك، ثم في سائر أقطار العالم.

إن هؤلاء الصحابة الذين حفظ الله بهم القرآن ونقلوا هاتين الحادثتين ، حادثة انشقاق القمر، وهزيمة الأحزاب بالرياح، وغيرهما من خوارق العادات التي سجلها القرآن سواءً ممن كان مسلمًا وقت وقوع الحادثة أو أسلم بعد ذلك، كانوا يقرؤون القرآن صباح مساء، في صلاتهم ومجالسهم وحلق علمهم ويدونونه ويحفظونه ويتدارسونه فيما بينهم ويتخلقون بأخلاقه ويتحاكمون إلى شريعته، مقرين به ومصدقين له، وعلموه لأبنائهم وأهاليهم ومن تَبِعَهم، فمن المستحيل عقلاً أن يجتمعوا جميعًا على نقله وحفظه وهو لم يقع.

وقد حفظ الله القرآن في صدور هؤلاء الذين شاهدوا المعجزات وفي صُحُفهم، وفي صدور أبنائهم وما دونوه من صحف آبائهم، ونقله الآلاف وعشرات الآلاف، بل والملايين وعشرات الملايين عبر العصور المتلاحقة مصدقين به.

ولقد أجمعت أمة العرب على النص القرآني الذي تلقته عن النَّبيّ ﷺ، وجُمِعَ في عهد الخليفة الأول، ونقلت تلك النسخة من بيته إلى بيوت الخلفاء الراشدين الثاني والثالث، وعممت نسخته في زمن عثمان ﷺ على سائر الأمصار والبلدان التي دخلت في دين الإسلام، فتلقت الأمم في مشارق الأرض ومغاربها هذا المصحف عن أمة العرب، وكتبته برسمه العثماني، وتعلمت نطقه العربي جيلاً بعد جيل، على اختلاف لغات الشعوب الإسلامية التي شرحت القرآن بلغاتها المختلفة.

فترى المصحف الذي يقرؤه الصيني، أو الروسي، أو الأوروبي، أو الأمريكي، أو الفارسي، أو التركي، أو الأفريقي، أو العربي هو نفس المصحف الذي تذيعه إذاعة لندن، أو إذاعة إسرائيل، أو أي إذاعة أو محطة في العالم.

ولايزال الملايين من أبناء المسلمين يتلقون القرآن مشافهة وقراءة وفق الرسم العثماني بسند متصل إلى النبيّ ﷺ، عن أمين الوحي جبريل عليه السلام، عن رب العالمين سبحانه وتعالى.

وإذا أخذت نسخة من المصحف في أي زمان ومكان لوجدتها تحكي المعجزات كما هي؛ لأن الله سبحانه قد تعهد بحفظ القرآن كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]، ولا يزال المسلمون يحفظونه في الصدور والسطور، والملايين منهم يحفظون القرآن عن ظهر قلب وعلى مستوى الحرف الواحد منه، بل وعلى مستوى ضَبْط حركة الحرف الواحد، ولو فتحت أيّ مصحف على وجه الأرض سواء كان من المطبوع حديثًا أو من المخطوط قديمًا، وفتحت سورة الأحزاب لوجدت الآية التاسعة منه تحكي قصة الرياح والجنود التي نصر الله بها محمداً ﷺ، وبهذا تعلم ويعلم كل منصف أن القرآن الذي بين أيدينا هو الذي أنزل على محمد ﷺ وسجّل معجزاته، فكأنك تراها الآن رأي العين.

ثانيًا - توثيق هذه المعجزات في السنّة النّبويّة:

وقد حفظت لنا كتب السنة النبوية الموثقة كثيراً من تفاصيل المعجزات التي سجّلها القرآن، كما سجلت كثيراً من الخوارق والمعجزات التي لم تُذكَر في القرآن، وكان التوثيق في تلك الكتب بالغ الدقة، لا يقبل تشكيك مشكك، فكأنك ترى المعجزات المذكورة فيها رأي العين؛ وذلك لأن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان محط أنظار أصحابه، الذين أمرهم الله بالاقتداء به في قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١]، كما أمرهم الله بطاعته واتباع أمره واجتناب نهيه، قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧]. وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾ [النور : ٥٦]، ولا تتحقق الأسوة والطاعة إلاّ بتتبع أقواله وأفعاله وأحواله ﷺ .

وكان ﷺ يحثهم على الأخذ عنه ومراقبة أفعاله ومتابعتها، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**عليكم بسنتي**» [(١)]، وقوله : «**خذوا عني مناسككم**» [(٢)]، وقوله : «**صلوا كما رأيتموني أُصلي**» [(٣)]، ونحو ذلك من النصوص التي تحث على ملاحظة أقواله وأفعاله ﷺ ؛ ولذلك كانت أعماله ﷺ وأقواله وحركاته وسكناته ومعجزاته الشاهدة بصدق رسالته محل مراقبة من أصحابه؛ لأنها دين يُتلقّى ويتوقف دخولهم الجنة، ونجاتهم من النار على اتباعه.

ولما كان الصحابة ﷺ هم الشهود المباشرون لتلك المعجزات النبوية والناقلون لها، وجب علينا أن نعلم مكانتهم من الضبط والعدالة والتوثيق .

الصحابة حملة الدين الثقات :

(أ) شهادة القرآن والسُّنَّة لهم :

لقد قيّض الله لخاتم الأنبياء والمرسلين جيلاً من الصحابة الصادقين المؤهَّلين لحفظ الدين، وأخبر سبحانه أنّه قد أعدّ هؤلاء الصحابة إعدادًا إيمانيًا رفيعًا؛ ليكونوا أهلاً لشرف الصُّحْبة وحمل الرسالة، قال تعالى :﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب العلم باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، وأبو داود كتاب السنة باب في لزوم السنة، وابن ماجه كتاب المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، واللفظ له، وأحمد في مسند الشاميين من حديث العرباض بن سارية، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢ / ٣٤٢) وصحيح سنن ابن ماجه (١ / ١٣) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الحج باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا.. واللفظ له، والنسائي كتاب مناسك الحج باب الركوب إلى الجمار واستظلال المحرم، وأبو داود كتاب المناسك باب في رمي الجمار.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة، والدارمي كتاب الصلاة باب من أحق بالإمامة.

اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)﴾ [الحجرات: ٧].

وشهد الله عز وجل لهؤلاء الصحابة الكرام من مهاجرين وأنصار بصدق الإيمان فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)﴾ [الأنفال: ٧٤].

وأخبر سبحانه أنه قد رضي عنهم، فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى مبينًا فضل المهاجرين والأنصار ومُثنيًا عليهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)﴾ [الحشر: ٨، ٩].

وقال تعالى عن أهل بيعة الرضوان [١]: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨)﴾ [الفتح: ١٨]، أي فعلم ما في قلوبهم من صدق النية والوفاء بالبيعة، وقال النبيّ ﷺ لأصحابه حينذاك: «**أنتم خير أهل الأرض**» [٢].

واستخلفهم الله تعالى في الأرض لتمكين دينه ونشره بين الناس، كما قال تعالى مُخاطبًا نبيه وأصحابه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

---

(١) بيعة الرضوان: كانت في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة، بمكان يُسمى الحديبية حيث بايع الصحابة رسول الله ﷺ على مناجزة قريش الحرب وعلى أن لا يفروا ولا يولوهم الدبر، فرضي الله عنهم، فسُمّيت هذه البيعة بيعة الرضوان.

(٢) رواه البخاري كتاب التفسير في تفسير سورة الفتح. ومسلم في الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام الجيش.

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥].

كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤١].

وأثنى الله سبحانه عليهم فقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والخطاب في الآيات يدخل فيه الصحابة ﷺ دخولاً أوَّليًا؛ لأنهم أول من خُوطب بهذه الآيات الكريمات من الأمة المحمدية، ولتحقق التمكين لهم في الأرض كما وعدهم الله.

وجعل سبحانه الصحابة والأمة من بعدهم شهودًا على الأمم، وذلك لفضلهم وخيرتهم، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومعنى الوسطية هنا: كونهم عدولاً وأخيارًا، كما قال النبيّ ﷺ: «**يُجاء بنُوح يوم القيامة فَيُقال له: هل بَلَّغتَ؟ فيقول: نعم يا رب، فتُسْأَلُ أُمّته هَلْ بَلَّغكم فيقُولون ما جَاءَنا مِنْ نذير، فَيَقول: مَنْ شُهودُك؟ فَيَقول مُحمَّدٌ وأمّته، فيُجاء بكم فتَشْهدون**» ثمّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، قال: **عدلاً** ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] (١). والصحابة أول الأمة دخولاً في هذه الآية.

وقال النَّبيّ ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» (٢).

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الاعتصام بالسنة باب قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ والترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الشهادات باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم.

وقال ﷺ : « **لا تسُبُّوا أصحابي فلَوْ أنَّ أَحَدَكم أنْفَقَ مِثلَ أُحُد ذهبًا ما بَلَغَ مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفه** » (١) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن الصحابة : « .. كانوا خير هذه الأمة : أبرها قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ، ونقل دينه ، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم ؛ فهم أصحاب محمد ﷺ وكانوا على الهدى المستقيم » (٢) .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « إن الله نظر في قلوب العباد ؛ فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، فابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ؛ فجعلهم وزراء نبيّه يُقاتلون على دينه ، فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن ، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئ » (٣) .

(ب) شهادة الأمة بعدالة الصحابة :

قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي – رحمة الله عليه – : « وقد أثنى الله – تبارك وتعالى – على أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل (٤) ، وسبق لهم على لسان رسول الله ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم ، فرحمهم الله وهنّأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين ،

---

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل الصحابة باب قول النّبيّ ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً » ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم .

(٢) « حلية الأولياء » (١ / ٣٠٥ – ٣٠٦) بواسطة اعتقاد أهل السنة في الصحابة الكرام (١ / ٩٨) ط ٢٠٠ مكتبة الرشد (١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند وإسناده حسن كما في تحقيق المسند (٦ / ٨٤) .

(٤) يعني بذلك قوله تعالى ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح : ٢٩] .

أدَّوا إلينا سنن رسول الله ﷺ عامًّا وخاصًّا وعزمًا وإرشادًا، وعرفوا من سُنَنه ما عرفنا وجهلنا، وهم فَوقَنا في كل علم واجتهاد وورعٍ وعَقلٍ وأمرٍ [١] .

وقال ابن أبي حاتم - رحمه الله تعالى - :

فأما أصحاب رسول الله ﷺ فهم الذين شهدوا الوحي والتنزيل وعرفوا التفسير والتأويل، وهم الذين اختارهم الله - عز وجل - لصحبة نبيه ﷺ ونصرته وإقامة دينه وإظهار حقه، فرضيهم له صحابة، وجعلهم لنا أعلامًا وقدوة، فحفظوا عنه صلى الله عليه وآله وسلم ما بلغهم عن الله عز وجل، وما سنَّ وشَرَع وحَكَم وقضى ونَدَب وأَمَر ونَهى وحَظَر، ووعوه وأتقنوه، ففقهوا في الدين، وعلموا أمر الله ونهيه ومراده، بمعاينة رسول الله ﷺ ومشاهدتهم منه تفسير الكتاب وتأويله، وتلقفهم منه واستنباطهم عنه، فشرفهم الله عز وجل بما منّ عليهم وأكرمهم به من وَضْعِه إياهُم موضعَ القُدوة فنفى عنهم الشكَّ والكذب والغلط والرِّيبة والغَمْز، وسمّاهم عُدول الأمة، فقال عز وجل في محكم كتابه: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ففسر النَّبيّ ﷺ عن الله عز ذكره قوله: ﴿ **وَسَطًا** ﴾ قال: «**عدلاً**» [٢] فكانوا عدول الأمة وأئمة الهدى وحُجج الدين ونَقَلَة الكتاب والسنة، ونَدَبَ الله عز وجل إلى التمسك بهديهم والجَرْي على منهاجهم، والسلوك لسبيلهم، والاقتداء بهم، فقال: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)** ﴾ [النساء: ١١٥].

ووجدنا النَّبيّ ﷺ قد حضَّ على التبليغ في أخبار كثيرة، ووجدناه يُخاطب

---

(١) «مناقب الشافعي» للبيهقي (١/ ٤٤٢ - ٤٤٣)، «أعلام الموقعين» (١/ ٨٠) بواسطة اعتقاد أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام لناصر الشيخ (١/ ١٠٤).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الاعتصام بالسنة باب قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، والترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة البقرة.

أصحابه فيه منها: أن دعا لهم فقال: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتي فَحَفِظَها فَوَعَاها وَحَفِظَها وبَلَّغها؛ فَرُبَّ حامِلِ فقْه إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ منه**» (١) وقال ﷺ في خطبته: «**فليبلّغ الشَّاهد منْكم الغائب**» (٢) ، وقال ﷺ: «**بلّغوا عنِّي ولو آية..**» (٣) .

ثم تفرَّقت الصحابة ﷺ في النواحي والأمصار والثغور وفي فتوح البلدان والمغازي والإمارة والقضاء والأحكام، فبثَّ كل واحد منهم في ناحيته وبالبلد الذي هو به ما وعاه وحفظه عن رسول الله ﷺ، وحكموا بحكم الله عز وجل وأمضوا الأمور على ما سنَّ رسول الله ﷺ، وأفتوا فيما سئلوا عنه مما حضرهم من جواب رسول الله ﷺ عن نظائرها من المسائل، وجرَّدوا أنفسهم - مع تَقْدُمة حُسْن النيَّة والقربة إلى الله تَقدَّس اسمُه - لتعليم الناس الفرائض والأحكام والسنن والحلال والحرام، حتى قبضهم الله عز وجل رضوان الله ومغفرته ورحمته عليهم أجمعين (٤) .

(ج) شهادة الأمم:

ولقد شهدت البشرية شعوبًا وقبائل وأممًا - ممن احتك بهم الصحابة والتابعون - في شمال الأرض وجنوبها وشرقها وغربها بصدق ما أخبر به القرآن عن أولئك الصحابة الذين خَبَروهم (٥) في حال السلم والحرب.

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع واللفظ له، وأبو داود كتاب العلم باب فضل نشر العلم، وابن ماجه في المقدمة باب من بلغ علمًا وأحمد في باقي مسند المكثرين والدارمي في المقدمة باب الاقتداء بالعلماء، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٣٣٧ - ٣٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري كتاب الحج باب الخطبة أيام منى، ومسلم كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال.

(٣) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل، والترمذي كتاب العلم باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة مسند عبد الله بن عمرو ابن العاص.

(٤) مقدمة كتاب الجرح والتعديل (١/ ٧-٨) بتصرف يسير.

(٥) أي: عرفوهم معرفة حقيقية عن معايشة.

وبالرغم من أن الصحابة قد جاءوهم فاتحين مقاتلين، إلاَّ أنهم سرعان ما أحبوهم وتعلقت قلوبهم بهم، بعد أن رأوهم في الصورة المثلى للمؤمن الصادق، ونقلت هذه الشعوب إلى أهلها وأبنائها وذراريها من بعدها حب أولئك الأصحاب، فأنشأت علاقة الفتح في قلوب الأمم والشعوب والقبائل التي فتحت المحبة والمودة والتبجيل والثناء والتأسي الحسن بأولئك الأصحاب والتابعين الفاتحين. وهذا بعكس ما شهد ويشهد به تاريخ البشرية من العلاقة السَّيِّئة المملوءة بالحقد والكراهية والبغضاء التي تنشأ بين الشعوب المَغْزُوَّة والجيوش الغازية.

والسر في ذلك هو أن هؤلاء الفاتحين ما جاءوا يُريدون دنيا الناس، ولكن جاءوا ليخرجوا هذه الشعوب – بإذن الله – من الظلمات إلى النور، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام متمثلين قول الله تعالى: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)** ﴾ [القصص: ٨٣].

وقوله سبحانه: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهذا الجيل الصادق من الصحابة ومن بعدهم ممن تبعهم بإحسان هم الذين رووا لنا ما شاهدوا من البيِّنات والخوارق والمعجزات التي كانت سببًا في زيادة إيمانهم وتيقنهم من صدق الرسول ﷺ.

(د) دقة توثيق الصحابة:

لقد كانت أعين هؤلاء الصَّحب الكرام كعدسات الكاميرات، وآذانهم كأجهزة التسجيل الدقيقة التي تلتقط كل شيء؛ لأنهم يعلمون أنَّ دخولهم الجنة متوقف على تأسيهم بأفعاله وأحواله ﷺ، وطاعتهم لأقواله، فكانت أعينهم شديدة المراقبة لحركات الرسول وسكناته، وكانت آذانهم مرهفة السمع لأقواله، وكانت قلوبهم متلهفة ومتعطشة لسماع الحق والنور والهدى ومعرفته وقبوله،

فنقلوا لنا فيما نقلوا بيِّنات رسالته، وأحوال عبادته، وحديثه وهديه وسنّته، ودقائق أحواله الشخصية، وتصرفاته ﷺ، مع أصحابه وأهله وأعدائه، وتفاصيل عادته في يقظته ونومه وطعامه وشرابه وسائر شؤونه،وتصرفه في أحرج اللحظات التي مرّت به وكذا في أوج انتصاراته، وحين المكاره، وتفاصيل محاولات الكفار والمنافقين لخداعه ومساومتهم له، فكانت سيرته العطرة صلى الله عليه وآله وسلم نورًا مشاهدًا لمن حوله.

ثم نقل لنا هؤلاء الأصحاب ما رأوه وشاهدوه وسمعوه من معجزات نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم وأقواله وأفعاله، يحدوهم الشوق للأجر في تبليغ العلم والدين كقوله ﷺ: «**نضَّرَ اللهُ امْرأً سَمِعَ منَّا شيئًا فبلَّغه كما سمعه**» [(١)] وتحثّهم طاعتهم لرسولهم ﷺ إلى المسارعة في نشر العلم، فهو القائل: «**بلِّغوا عنِّي ولَوْ آية**» [(٢)] ويدفعهم القرآن إلى الحذر من كتمان العلم كقوله تعالى: ﴿**إنَّ الَّذينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا منَ الْبَيِّنَات وَالْهُدَىٰ من بَعْد مَا بَيَّنَّاهُ للنَّاس في الْكتَاب أُوْلَٰئكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعنُونَ (١٥٩) إلاَّ الَّذينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَٰئكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحيمُ (١٦٠)**﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

وكقوله ﷺ: «**من سُئل عن علم فكتمه أُلجِمَ يوم القيامة بلجام من نار**» [(٣)] .

(١) رواه أبو داود والترمذي كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، وابن حبان في المقدمة باب من بلغ علمًا، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤٠)، وهذا الحديث من الأحاديث المتواترة، ذكر الحافظ أبو القاسم بن منده أنه رواه عن النبيّ ﷺ أربعة وعشرون صحابي. ثم سرد أسماءهم وقد جمع طرقه الشيخ عبد المحسن العباد في جزء مفرد مطبوع.

(٢) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل، والترمذي كتاب العلم باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة مسند عبد الله بن عمرو ابن العاص.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وحسّنه وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي، ورواه الحاكم بنحوه وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٥٢).

وقد نقلوا ما نقلوه بدقة بالغة وأمانة عالية؛ لأنهم يعلمون حرمة الكذب في دين الإسلام عامة، وحرمته بشكل أشد على الرسول ﷺ، كيف وقد رووا عنه قوله ﷺ : «**من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**» (١) ، حتى كان بعضهم يتحرج من الرواية عنه ﷺ خشية أن يُخطئ فينقل ما لم يسمع (٢) مما يدلنا على مدى التوثيق البالغ لسُنَّة النَّبيّ ﷺ .

دقة توثيق التابعين:

وجاء الجيل الذي بعدهم وهم التابعون ناقلين لبيّنات رسول الله ﷺ ومعجزاته وأقواله وأفعاله، يدفعهم شوقهم للأجر الكبير في طلب العلم كقوله ﷺ : «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خيراً يُفقّهْهُ في الدين**» (٣) .

وقوله ﷺ : «**مَنْ سَلَكَ طريقًا يَلْتَمِسُ فيه علْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طريقًا إلى الجنَّة، وإنَّ الملائكة لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لطالب العلم**» (٤) .

فكان هؤلاء التابعون أرضًا صالحة طيّبة تتشرب نصوص السُّنَّة النّبويَّة وأخبارها، تُحفزهم دوافع التلقي نفسها التي كانت تحفز الصحابة على التلقي وأخذ الدين، ويحثهم على الضبط والإتقان ما كان يحث الصحابة الكرام على ذلك، وكانوا يعوضون ما فاتهم من مشاهدة الرسول ﷺ وسماعه بكثرة أسئلتهم

---

(١) أخرجه البخاري كتاب العلم باب إثم من كذب على النّبيّ ﷺ، ومسلم في المقدمة باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، قال المنذري: هذا الحديث قد روي عن غير واحد من الصحابة في الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها حتى بلغ مبلغ التواتر، صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤٢) .

(٢) ومنهم الزبير بن العوام ﷺ انظر صحيح البخاري كتاب العلم باب إثم من كذب على النّبيّ ﷺ مع شرحه من فتح الباري .

(٣) أخرجه البخاري كتاب العلم باب من يُرد الله به خيرًا يُفقهه في الدين ، ومسلم كتاب الزكاة باب النهي عن المسألة .

(٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ، وانظره في صحيح الجامع (٢/ ١٠٧٩) وقد أخرج منه مسلم الجزء الأول إلى قوله : الجنة . كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر والتوبة والاستغفار .

لشيوخهم من الصحابة ودقة حفظهم، فكانوا كأدق آلات التسجيل حفظًا، يخْشَوْنَ أي زيادة أو نقص في الدين، واستعانوا بالتدوين لحفظ ما سمعوا من أقوال وأفعال ومعجزات الرسول ﷺ، وهكذا من جاء بعدهم من تابعيهم ومن بعدهم إلى أن اكتمل تدوين علم الحديث النبويّ، ودونت معه المعجزات وبيناتُ الرسالة في الكتب المصنفة التي تناقلتها الآلاف المؤلفة من المسلمين جيلاً بعد جيل عن طريق الحفظ والكتابة معًا، بحيث يستحيل معه التشكيك فيها وفي نسبتها إلى مؤلفيها، وقد اشترط المحدثون للحديث الصحيح شروطًا بالغة الدقة كما سيأتي بيانه، ومنها أن يكون جميع رواة الحديث عُدولاً سالمين مما يقدح في دينهم، ضابطين لما نقلوه من العلم حفظًا وكتابة مما يبعث على الثقة في نقلهم.

هذا مع ما بذله حَمَلَة الحديث رحمهم الله من جهود عظيمة لجمع الحديث النبوي وتصنيفه وتأليفه، وحفظه عن ظهر قلب؛ فقد كانوا يسافرون المسافات الطويلة ويتحملون مشاق السفر والاغتراب لجمع الحديث النبوي، والبحث عن الأسانيد العالية (١) ولقاء أكابر العلماء ويبذلون في ذلك أموالهم وأوقاتهم وجهودهم رخيصةً في سبيل جمعه، ويسافر أحدهم الليالي والأيام لطلب الحديث الواحد (٢)، ويُقيمون المجالس العلمية لسماع الحديث النبوي وإملائه واختبار حفاظه، وإقامة المدارس لمدارسته وتعليمه للأبناء، مع ما يبذلون من جهود في تدوينه وترتيبه وتبويبه والفحص عن العلل التي قد تكون في إسناده أو متنه، والتحري في ألفاظه وجمع رواياته، والبحث في أحوال رواته وسيرتهم للتوثق من صحة ما ينقلونه من الحديث، حتى وجد في الأمة من يحفظ عشرات الآلاف من الأحاديث بأسانيدها عن ظهر قلب، وكل ذلك يعملون بنفوس راضية

---

(١) الإسناد العالي هو الأقرب صلة بالنبيّ ﷺ.

(٢) فقد رحل جابر بن عبد الله رضي الله عنه شهرًا لطلب حديث واحد، كما ذكره البخاري في صحيحه كتاب العلم، باب الخروج في طلب العلم، ورحل أحد التابعين من المدينة إلى دمشق للقاء أبي ذر لسماع حديث نبوي واحد، كما أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب فضل العلماء والحث على طلب العلم.

مطمئنة مستبشرة بما تناله من الأجر من الله سبحانه على ذلك؛ لأنه يُشَكِّل بالنسبة لهم دينهم الذي تقوم عليه سعادتهم في الدنيا والآخرة، ممتثلين أمر ربهم عز وجل القائل سبحانه: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر: ٧].

منهج نقد الرواية:

ولما ظهر بعد جيل الصحابة بعض من لا يُوثَق بروايته، قيَّض الله أئمة الحديث والجرح والتعديل الذين شيدوا علم الرجال والتاريخ والجرح والتعديل، الذي ضمَّ آلاف الرواة مبينًا حال كل راوٍ من حيث أنه معروف أو مجهول، ومن حيث مدى حفظه وضبطه وإتقانه وشيوخه وتلاميذه وسنة ولادته وسنة موته، وهل بقي حفظه كما هو أم تغيّر في آخر عمره لكِبَر سنِّه، أو لحادث أصابه، وما أشبه ذلك من مقاييس الجرح والتعديل، بل وصل الأمر إلى جمع روايات الثقات العدول ومقارنتها لمعرفة إن كان أحدهم قد وهم في لفظة أو جملة، إلى أن استقر الأمر عند علماء الحديث والسُّنَّة فوضعوا شروطًا للحديث الصحيح المقبول عن رسول الله ﷺ، وهي كون الحديث المروي:

[١] منقولاً بنقل العدول الضابطين (١).

[٢] متصل الإسناد بأن يكون كل راوٍ قد سمع الحديث من شيخه، فلا يكون منقطعًا.

[٣] سالمًا من الشذوذ (٢).

[٤] سالمًا من العلة القادحة (٣).

---

(١) **العدل**: السالم من الفسق وخوارم المروءة، والضبط نوعان، ضبط الصدر: وهو كون الراوي مُتقنًا ذاكرًا لما يحفظه تمامًا، وضبط الكتاب: وهو كون الراوي يصون كتابه لديه من حين سمع فيه وصححه إلى أن يؤدي منه.

(٢) **الشذوذ**: مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه.

(٣) **الحديث المُعلّ**: ما فيه علّة خفية قادحة في إسناده أو في متنه والعلة: سبب غامض خفي قادح في صحة الحديث مع أن الظاهر السلامة منه، ولا يعرف ذلك إلاَّ أئمة هذا العلم، انظر نزهة النظر (ص٨٣) وتدريب الراوي.

فاستبعد علماء الحديث – رحمهم الله – في تعريفهم الحديث الصحيح من كان مجروحًا من الرواة بأي سبب من أسباب الجرح، والتي لُخِّصت في عشرة أسباب:

[١] الكذب.

[٢] التهمة بالكذب.

[٣] الفسق.

[٤] البدعة.

[٥] الوهم.

[٦] الجهالة سواء كانت جهالة عين أو جهالة حال (١).

[٧] فُحش الغلط.

[٨] سوء الحفظ.

[٩] الغفلة.

[١٠] مخالفة الثقات (٢).

ومما يبين صحة منهج المحدثين – رحمهم الله – ومنهجيتهم العلمية الدقيقة: عدم قبولهم الخبر المكذوب الذي زَعِم واضعه أنه قصد بوضعه نصرة الدين الإسلامي أو الحث على بعض فضائل الأعمال، بل اعتبروا ذلك ضلالاً من فاعله وابتداعًا في الدين (٣).

وبهذا يظهر لنا تميز منهج النقد والتوثيق في الحديث النبوي، الذي يشترط الشروط الدقيقة في الرواية؛ حتّى يطمئن المحدِّث بأن كل من في سند الرواية عدل

---

(١) **جهالة العين**: أن لا يعرف من هو هذا الراوي، بأن لا يعرف إلاّ من رواية شخص واحد عنه ولم يوثقه معتبر، **وجهالة الحال**: أن تجهل عدالة الراوي، وإن كان شخصه معروفًا.

(٢) «نخبة الفكر» للحافظ ابن حجر مع شرحها نزهة النظر (ص١١٦ – ١١٧) تحقيق: علي الحلبي.

(٣) «تدريب الراوي» (١/ ٢٨٣) ونزهة النظر (١٢١ – ١٢٢).

أمين في روايته، ضابط دقيق في نقله، كأن عينه آلة تصوير، وأذنه آلة تسجيل، وذاكرته وكتابه شريط صافٍ سُجّلت عليه الكلمات، وبهذه الطريقة الأمينة الدقيقة نُقلت إلينا السُّنَّة النبوية، وأخبار المعجزات، ووجدنا المعجزة تروى من عدة طرق لرواتها عن الذين حضروها وشاهدوها، فتتكامل تلك الروايات ويُصدِّق بعضها بعضًا، وتلتقي مع ما ذكره القرآن أو أشار إليه.

وليس هناك شخص في التاريخ توفرت لأمته تلك الدوافع والحوافز وقواعد الضبط والتحري؛ لنقل أقواله وأفعاله غير محمد ﷺ؛ لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين الذي جعله الله حجة على العالمين وتكفّل بحفظ بيّناته ومعجزاته في سجلات صادقة موثوقة لتقوم بها الحجة على من يأتي بعده إلى قيام الساعة.

فهيّا بنا نستعرض ما تيسّر من تلك البيّنات الخارقة للعادة التي ذكرها الله سبحانه في كتابه الكريم، والتي رواها لنا حملة السنة الثقات، وسنُحاول عرضها حسب تسلسلها التاريخي ما أمكن.

أ - من دلائل النبوة الخارقة للعادة في العهد المكي

حادثة الفيل:

كانت هذه الحادثة المعجزة مقدمة لبعثة محمد ﷺ؛ فقد أراد نصارى الحبشة الذين كانوا باليمن هدم الكعبة؛ انتصاراً لكنيستهم التي كانت باليمن، عندما لطخها بعض العرب، فانطلقوا إلى مكة ومعهم فيل؛ لهدم الكعبة، فردّهم الله تعالى على أعقابهم خاسرين وأهلكهم، وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ.

وأنزل الله سبحانه سورةً في كتابه تذكر هذه الحادثة العجيبة التي أهلك الله فيها أصحاب الفيل بصورة غير متوقعة عند كل من يسمعها، حيث حبس الله الفيل عن دخول مكة [١]، وأرسل على المعتدين طيرًا تحمل حجارة من سجيل فأهلكهم، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)** ﴾[الفيل: ١ - ٥] [٢].

فكانت هذه الحادثة توطئة لنبوة محمد ﷺ قال ابن تيمية - رحمه الله -:

وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان، ودين النصارى خيرٌ من دينهم، فعُلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ، بل كانت لأجل البيت، أو لأجل النَّبيّ ﷺ الذي ولد في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما،

(١) ورد في الصحيحين أن النَّبيّ ﷺ قال: «**إن الله حبس الفيل عن دخول مكة**..» الحديث. وفي صحيح البخاري أن النَّبيّ ﷺ بركت ناقته القصواء يوم الحديبية، فقال الناس خلأت القصواء - أي وقفت حين طلب مشيها ورجعت القهقري - فقال النَّبيّ ﷺ: «**ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**» أخرجه البخاري كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة.. ومسلم كتاب الحج باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولغطها.

(٢) **أبابيل**: جماعات بعضها في إثر بعض، **سجيل**: طين متحجر، **العصف**: ورق الزرع بعد الحصاد كالتبن وقشر الحنطة، سمي بذلك لأن الريح تعصف به فتفرقه.

وأيٌّ ذلك كان، فهو من دلائل نبوته، وذلك أنه ليس من أهل الملل من يحج إلى هذا البيت، ويصلي إليه إلاّ أُمَّة محمد ﷺ، التي فرض الله عليها ذلك برسالة محمد ﷺ؛ ولذا أهلك الله النصارى أهل الكنائس الذين أرادوا هدم البيت، فتعين بذلك أن أمة محمد ﷺ خير من النصارى، وذلك يستلزم أنّ نبيهم ﷺ صادق فيما أتى به من ربه [1].

انشقاق القمر:

سأل كفار مكة النبيّ ﷺ أن يُريهم علامة تدل على صدق نبوّته، قال أنس رضي الله عنه : سأل أهلُ مكة رسولَ الله ﷺ أن يُريهم آية (أي علامة على صدق نبوته) فأراهم القمر شقّتين، حتي رأوا حراء [2] بينهما. [3].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : انشقَّ القَمرُ ونحن مع النَّبي ﷺ، فصار فِرْقَتين، فقال لنا: «**اشهدوا اشهدوا**» [4] وفي رواية عنه: أنهم كانوا وقت انشقاقه مع النَّبي ﷺ بمنى» [5].



(١) «الجواب الصحيح» (٦ / ٥٥ – ٥٦) بتصرف.

(٢) **حراء**: جبل مرتفع من جبال مكة.

(٣) رواه البخاري كتاب المناقب باب انشقاق القمر، ومسلم كتاب صفة القيامة باب انشقاق القمر وأحمد في المسند (٣ / ٢٠٧) وأبو يعلى في مسنده (٥ / ٤٢٤) والطبري في تفسيره (٢٧ / ٨٥).

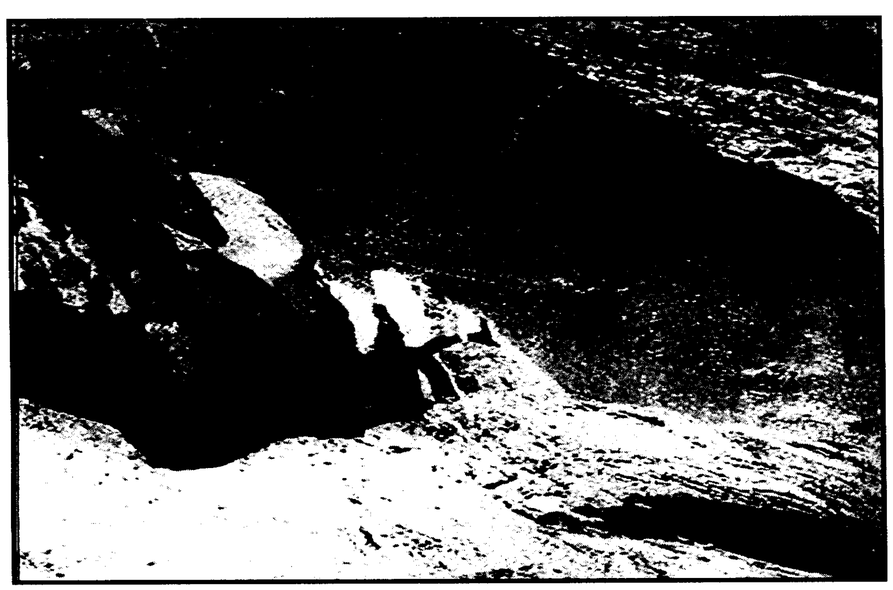
(٤) رواه البخاري كتاب التفسير باب «وانشق القمر» ونحوه عند مسلم كتاب صفة القيامة باب انشقاق القمر والترمذي كتاب التفسير باب ومن سورة القمر، والبزار في مسنده (٥ / ٢٠٢) وابن حبان في صحيحه (١٤ / ٤٢٠) وأحمد في المسند (١ / ٣٧٧) والطبراني في المعجم الكبير (١٠ / ٧٧) وغيرهم.

(٥) رواه البخاري كتاب المناقب باب انشقاق القمر ومسلم كتاب صفة القيامة باب انشقاق القمر.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «أن القمر انشقَّ في زمان النبي ﷺ» (١).

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «انفلق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**» (٢).

ونزل القرآن العظيم ذاكرًا هذه الحادثة العظيمة قال تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ①﴾ [القمر: ١]. ومع ذلك كذب الكفار هذه الآية العظيمة وزعموا أنها سحر (٣).



(١) البخاري كتاب المناقب، باب انشقاق القمر، مسلم كتاب صفة القيامة باب انشقاق القمر.

(٢) الترمذي كتاب الفتن باب ما جاء في انشقاق القمر، وذكر ذلك مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة باب انشقاق القمر والطيالسي في مسنده (١/٢٥٧).

(٣) وذكر الحافظ ابن حجر أن أبا نعيم أخرج في الدلائل: أن كفار قريش زعموا أن ذلك سحر فسألوا المسافرين عن ذلك فأخبروهم بوقوعه. «فتح الباري» شرح: كتاب مناقب الأنصار باب انشقاق القمر.

قال ابن حجر: وقد ورد انشقاق القمر من حديث عليّ وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وغيرهم.

وقال ابن عبد البر: قد روى هذا الحديث جماعة كبيرة من الصحابة ، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجَمُّ الغفير إلى أن انتهى إلينا، ويُؤيد ذلك بالآية الكريمة، فلم يبقَ لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر.

وقال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعْدلُها شيءٌ من آيات الأنبياء، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجًا من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صار البرهان به أظهر [١] [٢].

حماية الله لنبيه:

(أ) حراسة النبيّ ﷺ بالملائكة:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال أبو جَهْل: هل يُعَفِّرُ محمد وجْهَهُ بين أظْهُرِكُم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعُزَّى لئن رَأَيْتُهُ يَفْعلُ ذلك لأطأنَّ على رقبته، أو لأُعَفِّرَنَّ وجْهَهُ في التُّراب!، قال: فَأَتى رسول الله ﷺ وَهُوَ يُصلِّي، زَعَمَ ليطَأَ عَلَى رَقَبَته، قالَ: فَمَا فَجئَهُم مِنْهُ إلاَّ وَهُوَ يَنْكُصُ [٣] على عَقبَيْه وَيَتَّقي بيديه! قال: فَقيلَ لَهُ: ما لكَ؟ فَقَالَ: إنّ بَيْني وبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نارٍ، وَهَوْلاً وأجنحَةً!!

---

(١) «فتح الباري» المرجع السابق.

(٢) وقد أسلم الاقتصادي السياسي البريطاني: داوود موسى بيكوك وشكل حزبًا إسلاميًا في بريطانيا بعد إسلامه وهو الآن رئيس هذا الحزب، وكان سبب إسلامه ما ذكره ثلاثة من علماء الفضاء الأمريكان في وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) على شاشة التلفزيون البريطاني عندما قالوا أنهم اكتشفوا أن في القمر آثاراً دلتهم على أن القمر قد انشق نصفين وأنه عاد للالتئام مرة ثانية تاركًا آثار ذلك الشق واضحة ولما سأل المسلمين عن تاريخهم وهل سجل لديهم حادث انشقاق القمر وعرف منهم الجواب أعلن إسلامه.

(٣) **النكوص**: الرجوع إلى الخلف.

فقالَ رسُولُ الله ﷺ: «**لو دَنَا منِّي لاختطفته الملائكةُ عُضْوًا عُضْوًا**» وفي ذلك قوله تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب (١٩)** ﴾ [العلق: ٩ – ١٩] (١).

(ب) حماية الله لرسوله ممن أراد قتله:

ومما حصل من حماية الله له في العهد المدني ما رواه جابر بن عبد الله ﷺ أنَّهُ غَزَا مع رسول الله ﷺ قبَل نَجْد فَلَمَّا قَفَلَ (٢) رسول الله ﷺ قَفَلَ مَعَهُ فأدركَتْهُمُ القائلَةُ (٣) في وادٍ كَثيرِ العضاه (٤)، فَنَزَلَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم وتفرَّق الناسُ يسْتَظِلّون بالشَّجَر، فَنَزَل رسول الله ﷺ تَحْتَ سَمُرَة (٥) وعَلَّقَ بها سيفه وَنِمْنا نومَةً، فإذا رسول الله ﷺ يَدْعونا، وإذَا عندَهُ أعرابيٌّ، فقال: «**إنَّ هذا اخترطَ عَلَيَّ سَيْفي وأنا نَائمٌ، فاستيقظْتُ وهو في يده صَلْتًا** (٦) **فقال: مَنْ يَمْنَعُكَ منِّي؟ فقُلْتُ: اللهُ. ثلاثًا**» ولمْ يُعاقبه وَجَلسَ (٧).

وفي رواية (٨): فسَقَطَ السيفُ من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، فقال: «**من**

(١) أخرجه مسلم كتاب التوبة باب قوله تعالى: ﴿ **كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)** ﴾ وابن حبان في صحيحه (١٤ / ٥٣٣) والنسائي في السنن الكبرى (٦ / ٥١٨) وأبو يعلى في مسنده (١١ / ٧٠) والأصبهاني في دلائل النبوة (١ / ٦٥).

(٢) **قفل**: رجع.

(٣) **القائلة**: النوم في الظهيرة.

(٤) **العضاه**: كل شجر له شوك كبر أو صغر.

(٥) **السَّمر**: ضرب من شجر الطلح.

(٦) **صلتا**: مجردًا من غمده.

(٧) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب غزوة بني المصطلق ومسلم كتاب الفضائل باب توكله على الله وعصمة الله تعالى له من الناس وابن حبان في صحيحه (١٠ / ٤٠٠) والبيهقي في سننه الكبرى (٦ / ٣١٩) والنسائي في السنن الكبرى (٥ / ٢٣٦) وعبد بن حميد في مسنده (١ / ٣٢٧) من المنتخب.

(٨) رواه سعيد بن منصور وأبو يعلى والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

يَمْنَعك مني؟» فقال: كنْ خير آخذ. قال: «**أتشهد أن لا إله إلاَّ الله وأني رسول الله**» قال: لا، ولكني أُعاهدك أن لا أُقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلّى سبيله، فرجع فقال: جئتكم من عند خير الناس.

(ج) قصة الشاة المسمومة:

لما فتح النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم خيبر، أهدت له امرأة يهودية شاة، وجعلت فيها سُمًا؛ فقال النَّبي ﷺ: «**اجمعوا لي من كان هاهنا من يهود**» فجمعوا له، فقال: «**إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيَّ عنه؟**» فقالوا: نعم. قال لهم النَّبيّ ﷺ: «**من أبوكم؟**» قالوا: فلان. فقال: «**كذبتم، بل أبوكم فلان**» قالوا: صدقت. قال: «**فهل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألت عنه؟**» فقالوا: نعم، يا أبو القاسم وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم: «**من أهل النار**» قالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخْلفونا فيها. فقال النبيّ ﷺ: «**اخسؤوا فيها، والله لا نَخْلُفُكم فيها أبدًا**» ثم قال: «**هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟**» فقالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: «**هل جعلتم في هذه سُمًا؟**» قالوا: نعم. قال: «**ما حملكم على ذلك؟**» قالوا: إن كنت كاذبًا نستريح، وإن كنت نبيًا لم يضرك [(١)].

وكان النَّبيّ ﷺ قد أكل من الشاة، وأكل منها بشر بن البراء بن معرور، وقال النَّبيّ ﷺ: «**ارفعوا أيديكم؛ فإنها أخبرتني أنها مسمومة**» (يعني الشاة) ومات بشر بن البراء [(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجزية والموادعة باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم؟ ومسلم كتاب الطب باب السم، والبيهقي في السنن الكبرى (٨ / ٤٦) قال الحافظ ابن حجر: وفي الحديث إخباره ﷺ عن الغيب وتكليم الجماد له انظر فتح الباري (١٠ / ٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود في الديات باب فيمن سقى رجلاً سمًا أو أطعمه فمات أيُقاد منه؟ وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣ / ٨٥٥): حسن صحيح.

حادثة الإسراء والمعراج:

قال الله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء: ١].

أسرى [١] الله بنبيِّه محمد ﷺ في ليلة واحدة من مكة إلى بيت المقدس، ثم عرج به إلى السماء، ثم عاد فأصبح في مكة المكرمة، ولم يكن من الممكن لأحد في ذلك الزمان قطع هذه المسافة من مكة إلى بيت المقدس إلاَّ في نحو شهر من الزمان ذهابًا، وشهر إيابًا، وقد اختبرت قريش النَّبيّ ﷺ في هذه الحادثة فعن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لمَّا كذَّبَتْني قُريش قُمْتُ في الحِجْر، فجلا اللهُ لي بيت المقدس فطَفِقْتُ أُخْبِرُهُم عن آياته وأنا أنْظُرُ إليه**» [٢] وفي رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنهم بعد أن نعت ووصف المسجد الأقصى لهم، قالوا: أمّا النعْت فوَالله لقد أصاب [٣].

تأييد الله لرسوله أثناء هجرته:

خرج النَّبيّ ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق مهاجرين إلى المدينة النبويّة، واختفيا في غار ثور ثلاثة أيام، وصعد المشركون إلى الغار بحثًا عن النّبيّ ﷺ وأبي بكر، فحمى الله نبيه وأبا بكر منهم.

قال أبو بكر: قلتُ للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ونحن في الغار: لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال النَّبيّ ﷺ: «**يا أبا بكر، ما ظنُّكَ باثنين اللهُ ثالثهما**» [٤]. وأشار القرآن إلى ذلك فقال تعالى: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ**

---

(١) **أسري به**: سار به ليلاً ونقله، والسُّرى: السير بالليل.

(٢) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب حديث الإسراء، ومسلم كتاب الإيمان باب ذكر المسيح بن مريم والترمذي في السنن كتاب التفسير باب ومن سورة بني إسرائيل، وأحمد في المسند (٣/٣٧٧) وابن حبان في صحيحه (١/٢٥٢) وغيرهم.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/٣٠٩) وابن أبي شيبة في المصنف (٦/٣١٢) والحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في زوائده للهيثمي، والطبراني في الكبير (١٢/١٦٧) والأوسط (٣/٥٢) والمقدسي في المختارة (١٠/٣٩ - ٤٢) والأصبهاني في دلائل النبوة (١/٨٤) وقال الهيثمي في المجمع (١/٦٥): رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح، وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما في تحقيق المسند (٥/٢٩).

(٤) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب مناقب المهاجرين وفضلهم، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أبي بكر الصديق، والترمذي كتاب التفسير باب ومن سورة التوبة، وابن حبان في صحيحه (١٤/١٨١) وأحمد في المسند (١/٤) وغيرهم.

فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ (١) **عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)** ﴾ [التوبة: ٤٠].

وفي طريقهما إلى المدينة لحقهما سراقة بن مالك على فرس له، حتى كاد أن يصل إليهما، وسمع قراءة النَّبيّ ﷺ، وكان رسول الله ﷺ لا يلتفت، وأبو بكر رضي الله عنه يُكثر الالتفات، فدعا عليه النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فعثرت به فرسه، وخَرَّ عَنْها، ثمَّ قام وركب عليها، فساخت (٢) يدا الفرس في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخرَّ عنها، ثم زجرها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمةً إذا لأثر يديها عُثان (٣) ساطع في السماء مثل الدخان، فعندئذ ناداهما بالأمان، فوقفا له، قال سراقة: ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله، وعرضتُ عليهما الزاد والمتاع، فلم يرزآني (٤)، ولم يسألاني إلاَّ أن قال: «**أخف عنَّا**» فرجع سراقة يردُّ من يريد اللحاق بالنبي ﷺ وأبي بكر، ويقول: قد كُفيتم ما هنا، فلا يلقى أحداً إلاَّ رده (٥).



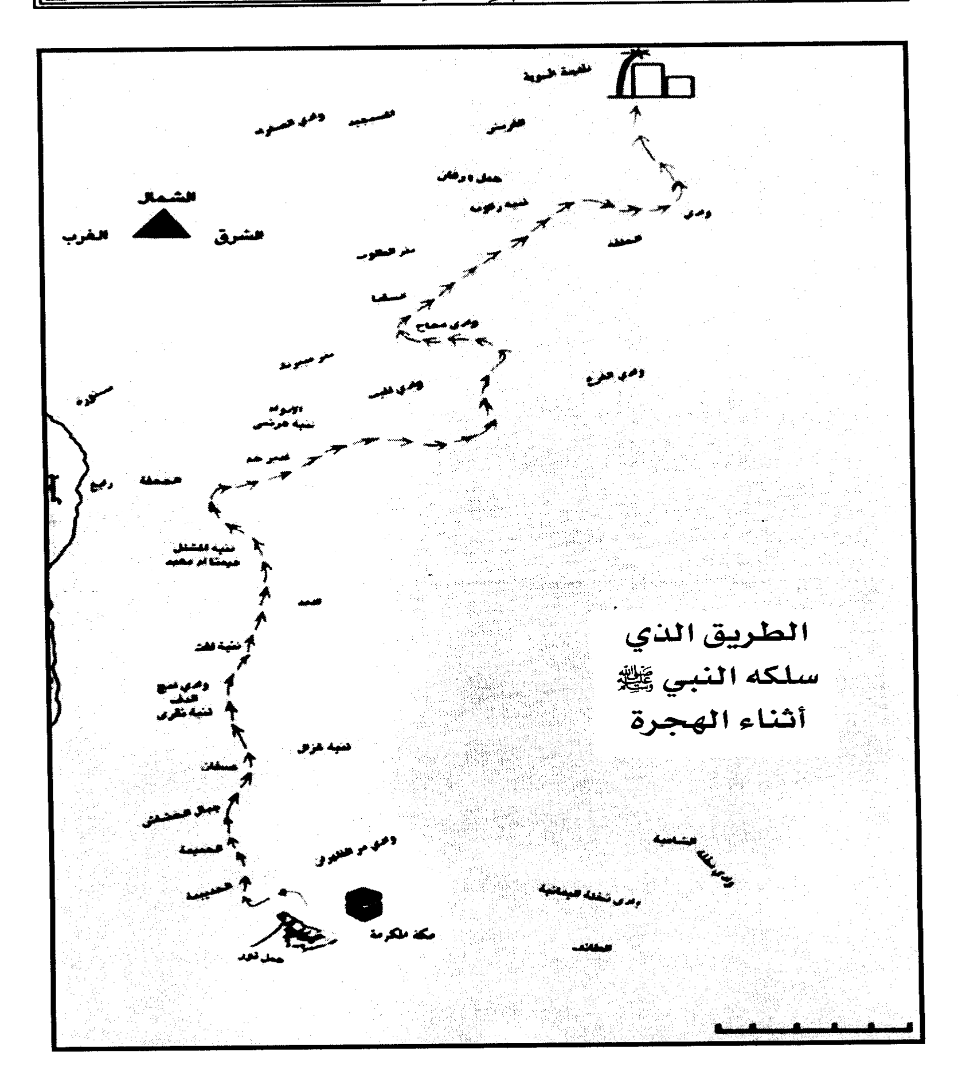
(١) قال ابن كثير: هي النصر والتأييد.

(٢) **ساخت**: غاصت.

(٣) **العثان**: الدخان من غير نار، قيل: شبّه الغبار بالدخان، انظر فتح الباري.

(٤) أي لم ينقصا عليّ شيئًا، وذلك لأنهما لم يأخذا منه شيئًا.

(٥) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب هجرة النَّبيّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ومسلم كتاب الزهد والرقائق باب في حديث الهجرة، وأحمد في المسند (٤/١٧٥) وابن حبان (١٤/١٨٦) بنحوه، والحاكم في المستدرك (٣/٧) وغيرهم.


الشمال
الغرب
الشرق
الطريق الذي
سلكه النبي ﷺ
أثناء الهجرة

ب - من دلائل النبوة الخارقة للعادة في العهد المدني

معجزات في غزوة بدر:

بعد أن أخرج الكفار المسلمين من ديارهم وأموالهم، كانت وقعة بدر أول لقاء مُسلح كبير بين الكفر والإيمان، حيث خرج كفار قريش في بطر ورياء وغطرسة لحماية قافلتهم التجارية من هجوم المسلمين.

استعد النَّبيُّ ﷺ وأصحابه لقتال حراس القافلة ذوي العدد المحدود، وكان المشركون قد استعدوا للحرب، فبلغ عددهم ما يقرب من الألف، ومعهم سبعون فارسًا، والجيش الإسلامي لا يتعدى ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً تقريبًا، ومعهم فارسان فقط، ولما كان الجيشان غير متكافئين، واللقاء حتمي بينهما، أيّدَ اللهُ جيش الإسلام والنبوة بآيات خارقة للسنن المعروفة، ومن ذلك:

(أ) إنزال المطر عليهم:

حيث أنزل الله سبحانه من السماء ماءً كان رحمة على المؤمنين، قال تعالى: **﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) ﴾** [الأنفال: ١١]. فذكرَ سبحانه أنه أنزل المطر على المؤمنين لأربعة أسباب: للتطهير من الحدث، ولإذهاب وسوسة الشيطان، ولتثبيت القلوب، ولتلبيد الأرض الرملية في بدر؛ لتثبت عليها أقدام المؤمنين في سيرهم.

قال مجاهد: أنزل الله المطر فأطفأ الغبار وتلبدت الأرض وطابت نفوسهم وثبتت أقدامهم (١).

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنه: بعث الله السماء وكان الوادي دهسًا (٢)، فأصاب

---

(١) التفسير الصحيح (٢/٣٨٧).
(٢) **دهسًا**: أي تربته سهلة لينة.

رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبّد [(١)] لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا أن يرحلوا معه [(٢)] .

وكان نزول المطر سببًا في إذهاب وسوسة الشيطان الذي أراد به تثبيط المؤمنين عن القتال بعد احتلامهم بالليل، حيث كانوا يصلوا مجنبين، فحين نزول المطر وجد الماء الذي اغتسلوا به من الجنابة، وأذهب الله بذلك رجز الشيطان [(٣)] .

ولقد أثبت العلم الحديث أن عضلات القلب عبارة عن ألياف عضلية في شكل خيوط طولية وعرضية تلفّ القلب، فإذا أفرزت مادة (الأدرينالين) عملت على ارتخاء عضلات القلب، وبالتالي ترتخي تلك الألياف والحبال العضلية، كما تعمل على ارتعاش الأطراف، وقد وجد أن من أسرع الوسائل لتخفيض مادة (الأدرينالين) هو أن يرش الجسم بالماء فيربط على القلب بتلك الحبال العضلية بانقباض العضلات، ويزول الارتخاء، كما تثبت الأقدام من ارتعاشها، وصدق الله القائل: ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال: ١١] .

(ب) تقليل عدد كل فريق في نظر الفريق الآخر :

ومن آيات الله في هذه المعركة أن جعل كل فريق يرى عدد الفريق الآخر قليلاً؛ وذلك لحكمة أرادها الله تعالى وهي أن تتم هذه المعركة وينتصر الحق على الباطل، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾ [الأنفال: ٤٤] .

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين [(٤)] .

---

(١) **ما لبّد الأرض:** أي جعلها متماسكة .

(٢) أخرجه ابن إسحاق كما ذكر ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره .

(٣) أخرجه بمعناه الطبري بسند حسن عن ابن عباس، انظر التفسير الصحيح (٢ / ٣٨٨) وذكره السيوطي في الدر المنثور عند الآية المذكورة .

(٤) انظر فتح القدير للشوكاني عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ .

(ج) إنزال الملائكة للقتال مع المؤمنين:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النَّبيّ ﷺ نظر إلى المشركين يوم بدر وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، فدعا الله سبحانه مادًا يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، أن ينصره على المشركين قائلاً: «**اللهم إني أُنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعْبَد بعد اليوم أبدًا**» [١] وأتاه أبو بكر، وقال: يا نبيّ الله، كفاك مناشدتك ربَّك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله سبحانه قوله: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٩]، فخرج النَّبيُّ ﷺ وهو يثب في الدرع ويقول: «**سيُهزم الجمع ويولّون الدبر**» [٢].

بل إنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يحدد مواضع قتل المشركين، فيقول: «**هذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى غدًا**»، ويضع يده على الأرض «**وهذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى غدًا**» ويضع يده على الأرض فكان الأمر كما قال ﷺ [٣].

وأمدَّ الله سبحانه المسلمين في تلك الغزوة بألفٍ من الملائكة الكرام وأمرهم بالقتال مع المؤمنين، وأوحى إليهم أن يُثَبِّتوا المؤمنين، ووعد سبحانه أنه سيُلقي الرعب في قلوب الكافرين، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب الإمداد بالملائكة، والترمذي كتاب التفسير، باب ومن سورة الأنفال وابن حبان في صحيحه (١١/١١٤)، وأحمد في المسند (١/٣٠) وأبو عوانة في مسنده (٤/٢٥٥) وابن أبي شيبة في المصنف (٧/٣٥٧) وغيرهم وأخرج البخاري منه جملة الدعاء كتاب التفسير باب «بل الساعة موعدهم».

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير، باب «بل الساعة موعدهم»، وأحمد في المسند (١/٣٢٩) والنسائي في السنن الكبرى (٦/٤٧٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٤٦) وغيرهم.

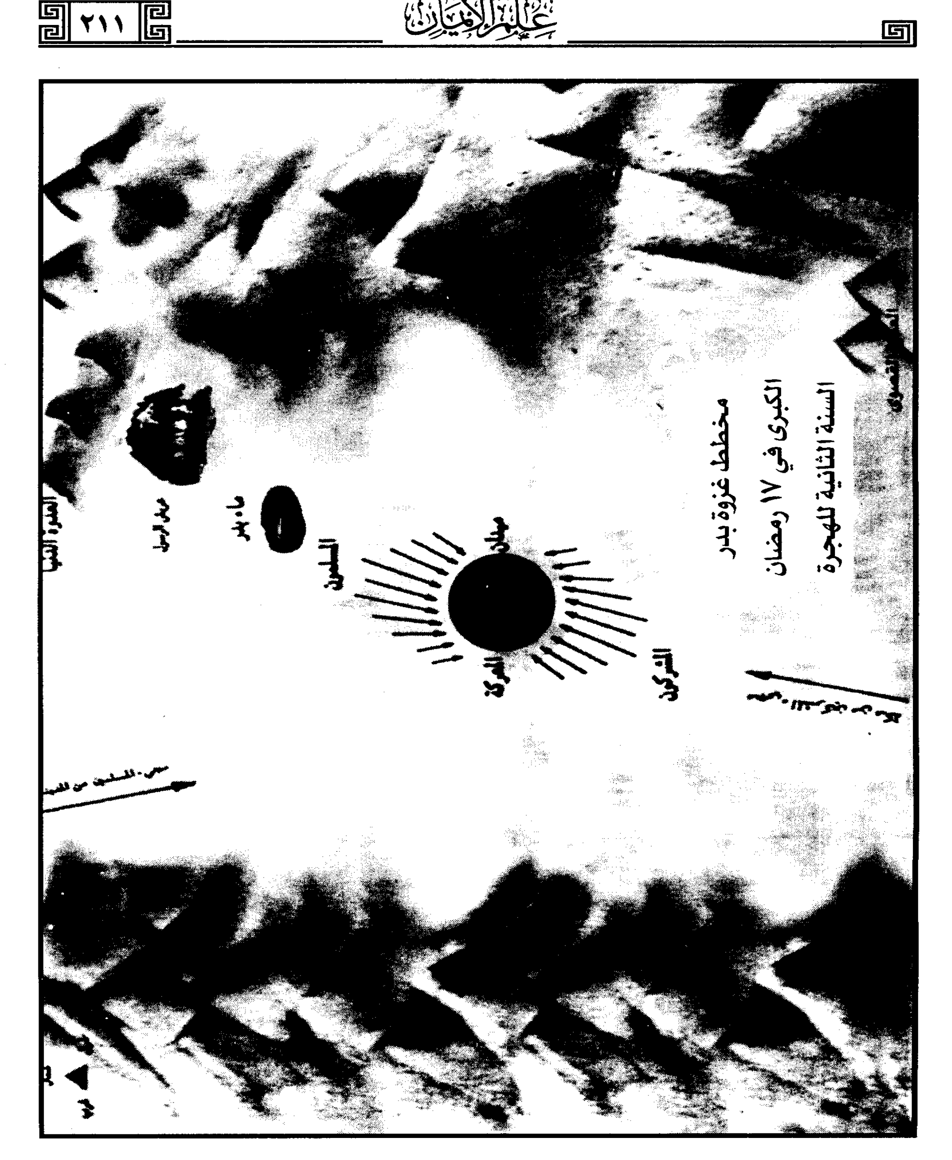
(٣) أخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة بدر، وفي كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وأبو داود كتاب الجهاد باب في الأسير ينال منه الضرب، والنسائي كتاب الجنائز باب أرواح المؤمنين، و أحمد في المسند (١/٢٦) وابن حبان في صحيحه (١١/٢٥) وغيرهم.

بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال: ١٢]. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: إن النّبي ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**» (١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذْ سمع ضربةً بالسوط من فوقه، وصوت الفارس فوقه يقول: أقدم حيزوم، إذْ نظر إلى المشرك أمامه مستلقيًا، فنظر إليه، فإذا هو قد خُطِمَ أنفه (٢)، وشُقَّ وجهه، كضربة السوط، فاخْضَرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدّث ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**صدقتَ، ذلك من مدد السماء الثالثة**» (٣).



(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب شهود الملائكة بدرًا والطبراني في المعجم الكبير (١١/٣٤٢).
(٢) **خطم أنفه**: أُصيب أنفه وضُرب.
(٣) أخرجه مسلم كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وابن حبان في صحيحه (١١/١١٥) والبزار في مسنده (١/٣٠٦) وعبد بن حميد في مسنده (١/٤١) من المنتخب والأصبهاني في دلائل النبوة (١/١١٩).


مخطط غزوة بدر
الكبرى في ١٧ رمضان
السنة الثانية للهجرة

وقال أبو داود المازني: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذْ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنَّه قد قتله غيري [١].

وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيرًا، فقال العباس: إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح [٢] من أحسن الناس وجهًا، على فرس أبلق [٣] ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله[٤].

وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم، بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سِمَة النار قد أُحرق به [٥].

وانتهت المعركة بهزيمة المشركين فقتل منهم سبعون، وأُسِرَ كذلك سبعون في وقت وجيز، ولله الحمد والمنة، وقال جبريل للنبي ﷺ: «**ما تعدُّونَ أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين** – أو كلمة نحوها – قال: **وكذلك من شَهِدَ بدراً من الملائكة**» [٦].

(د) إلقاء النُّعاس على المؤمنين:

كان الصحابة على وجلٍ من قلتهم وكثرة عدوهم، فألقى الله عليهم النعاس أمنةً منه، قال تعالى: ﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ**﴾ [الأنفال: ١١]. وكذلك حصل في معركة أُحُد، فقد قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أُحُد،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥ / ٤٥٠) وابن هشام في السيرة وسنده حسن، وأخرجه ابن جرير في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة﴾ .

(٢) الأجلح : من انحسر شعره عن جانبي رأسه.

(٣) الأبلق: ما فيه سواد وبياض .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١ / ١١٧) و (٤ / ٢٨٣) وابن أبي شيبة في المصنف (٧ / ٣٥٧) والطبري في تفسيره (٤ / ٧٨) وفي تاريخه (٢ / ٤٠) قال في مجمع الزوائد (٦ / ٧٦) : رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة، وإسناده صحيح كما في تحقيق المسند (٢ / ٢٦١) .

(٥) أخرجه البيهقي ويونس بن بكير في زيادات المغازي كما قال الحافظ في الفتح (٧ / ٣١٢) .

(٦) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب شهود الملائكة بدراً .

ولقد سقط السيف من يدي مراراً، يسقط وآخذه [١]. قال ابن كثير -رحمه الله-: وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ [الشرح: ٥، ٦].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان [٢].

قتال الملائكة مع النَّبيِّ ﷺ في معركة أُحُد:

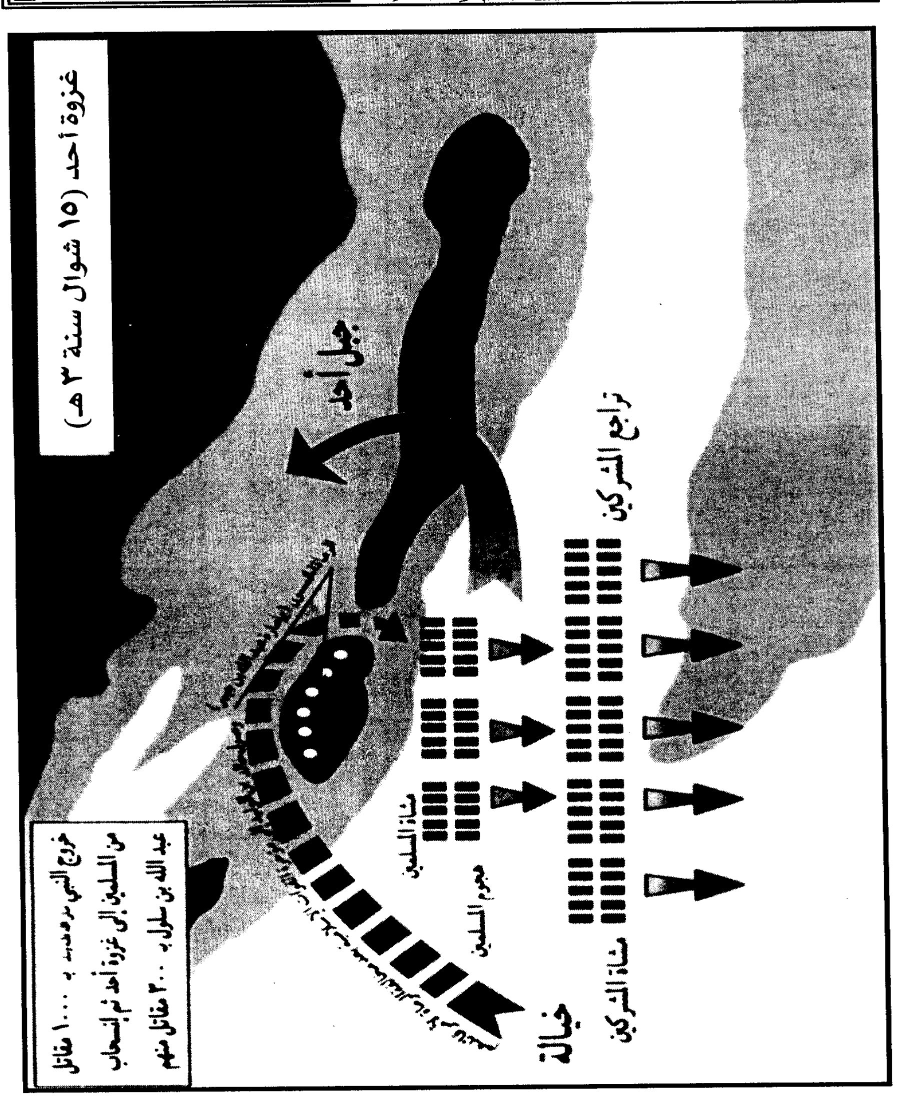
عن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أُحُد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام [٣].


ساحة معركة أحد

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب «ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً..» والنسائي في السنن الكبرى (٦/٣٤٩) وابن أبي شيبة في المصنف (٧/٣٧٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/١٤١) وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (١/٤١٩) وسنده صحيح، انظر التفسير الصحيح (٢/٣٨٨).

(٣) مسلم كتاب الفضائل، باب في قتال جبريل وميكائيل مع النّبيّ ﷺ يوم أُحُد، والبخاري مختصراً كتاب المغازي، باب: «إذا همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما»، وأحمد في مسنده (١/١٧١) والشاشي في مسنده (١/١٨٥).


غزوة أحد (١٥ شوال سنة ٣ هـ)
جبل أحد
خروج النبي بـ ١٠٠٠ مقاتل
من المسلمين إلى غزوة أحد ثم انسحاب
عبد الله بن سلول بـ ٣٠٠ مقاتل منهم
مشاة المسلمين
هجوم المسلمين
تراجع المشركين
مشاة المشركين
خيالة

نصرة الله لرسوله بالريح والملائكة في غزوة الأحزاب:

تجمع الأحزاب من الكفار لقتال النّبيّ ﷺ، وكان عددهم نحواً من عشرة آلاف، وتمالئوا مع اليهود القاطنين في شرق المدينة على حرب النَّبيّ ﷺ وأصحابه، واشتد الحال على المسلمين الذين حفروا خندقًا بينهم وبين الكفار، واستمر الكفار قريبًا من شهر وهم يحاصرون المدينة، فدعا النَّبي ﷺ ربه أن ينصره على المتمالئين على الإسلام، فقال: «**اللهم مُنزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**» [1].

فاستجاب الله دعاء رسوله ﷺ وأرسل على الأحزاب ريحًا شديدةً قضَّت مضاجعهم، وجنودًا زلزلتهم مع ما ألقى الله بينهم من التخاذل، فأجمعوا أمرهم على الرحيل وترك المدينة النبوية.

قال حذيفة رضي الله عنه: لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقَرّ [2]، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا رجل يأتيني بخبر القوم يكون معي يوم القيامة**» فلم يُجبه منّا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة [يعني من شدة الخوف والبرد والجوع] ثم قال: «**يا حذيفة، قمْ فأتنا بخبر القوم، ولا تُذعرهم عليّ**»[3].

قال حُذيفة: فلم أجد بُدًّا إذْ دعاني باسمي أن أقوم، فمضيتُ وأنا من أشد الناس فزعًا وأشدهم قرًا، فدعا له الرسول ﷺ، فذهب عنه الخوف والبرد، قال حذيفة: فكأني أمشي في حمّام [4]، حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يُصْلي [5] ظهره بالنار، فوضعت سهمًا في كبد قوسي، وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: «**لا تُذعرهم عليّ**»، ولو رميته لأصبته، وهو يقول: الرحيل الرحيل، ثم إني شجّعت نفسي، فدخلتُ العسكر،فإذا أدنى الناس مني بنو عامر،

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب غزوة الخندق، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو والترمذي كتاب الجهاد باب ما جاء في الدعاء عند القتال، وغيرهم.

(٢) **القرّ**: البرد.

(٣) **يعني**: ولا تهيجهم عليّ.

(٤) **الحمام**: المكان الذي يغتسل فيه بالماء الحميم، أي :الحار.

(٥) **يُصلي**: يُدفئ.

يقولون: يا آلَ عامر، الرحيلَ الرحيلَ، لا مُقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تُجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم، الريح تضرب بها، ثم إني خرجت نحو رسول الله ﷺ، فلما انتصف بي الطريق أو نحو من ذلك، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله قد كفاه، فأتيتُ رسول الله ﷺ، كأنما أمشي في حمام فأصابني البرد حين رجعتُ وقَرَرْتُ، فأخبرت رسول الله ﷺ خبر القوم وأني تركتهم يرحلون، وألبسني من فضل عباءةٍ كانت عليه يصلي فيها، وكان إذا حَزَبه [١] أمر صلَّى [٢].

وأنزل الله تعالى في كتابه ذكر هذه الحادثة، وذكر حال المؤمنين والمنافقين وأهل الكتاب فيها، وكيف تمّ النصر، فقال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣)** ﴾ [الأحزاب: ٩ – ١٣].

وقال سبحانه: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ**

---

(١) **حزبه أمر**: أي نابه واشتدَّ عليه.

(٢) القصة صحيحة مركبة من رواية مسلم، كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب والحاكم (٣/ ٣٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، و أبو عوانة في مسنده (٤/ ٣١٩ – ٣٢١) والقصة رواها أيضًا ابن حبان في صحيح (١٦/ ٦٧) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٥٤) وانظر فقه السيرة للغزالي بتخريج الألباني.

ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾ [الأحزاب: ٢٢ – ٢٧].

والريح التي أرسلها الله على الأحزاب: قال مجاهد: هي ريح الصَّبَا، والجنود هم الملائكة [١]، وفي الصحيح قال النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**نُصرتُ بالصَّبا** [٢] **وأُهلكت عاد بالدَّبور** [٣]» [٤].

أي صرف الله عنهم عدوهم بالريح التي أرسلها عليهم، والجنود من الملائكة وغيرهم التي بعثها الله عليهم ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] أي لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم، بل صرفهم القويّ العزيز بحوله وقوّته.

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**لا إله إلاَّ الله وحده، أعزَّ جُنده، ونَصرَ عبْدَه، وغَلَبَ الأحزاب وحده، فلا شيء بعده**» [٥].

قال سليمان بن صرد رضي الله عنه: سمعتُ النَّبيّ ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**» [٦].

وقد تحقّق ذلك فلم تُغْزَ المدينة بعد ذلك، بل غزا النَّبيّ ﷺ كفار قريش وفتح مكة فيكون هذا الخبر أيضًا من دلائل النبوة؛ لأنه إخبار بغيب المستقبل.

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

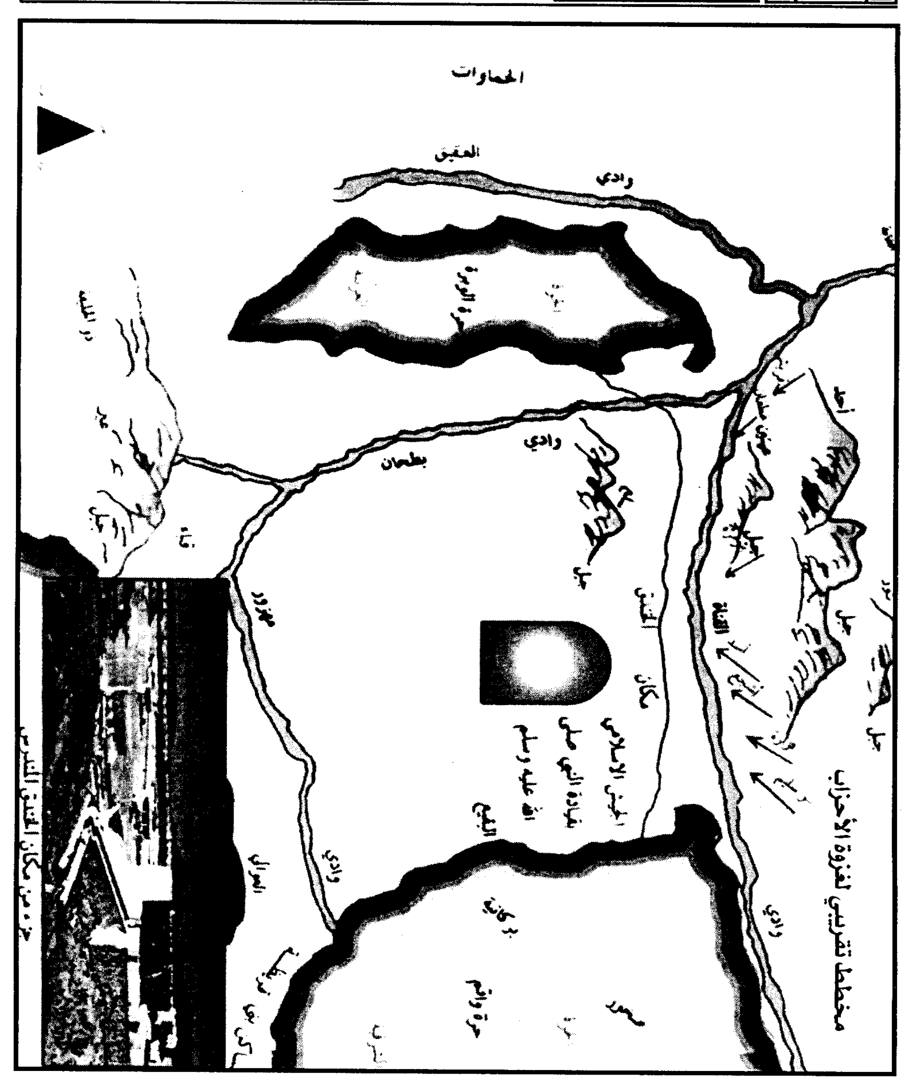
(٢) **الصَّبا**: ريح مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار.

(٣) **الدَّبُور**: ريح تهب من المغرب تُقابل القبول وهي ريح الصبا.

(٤) رواه البخاري كتاب الاستسقاء باب قول النَّبيّ ﷺ: «نُصرت بالصبا» ومسلم كتاب صلاة الاستسقاء باب في ريح الصبا والدبور وابن حبان في صحيحه (١٤ / ٣٣١) وأحمد في المسند (١ /٢٢٣) وغيرهم.

(٥) البخاري كتاب المغازي باب غزوة الخندق ومسلم كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل.

(٦) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب غزوة الخندق وأحمد في مسنده (٤ / ٢٦٢) دون قوله نحن نسير إليهم وكذلك الطيالسي في مسنده (١ / ١٨٢) والطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ٩٨).


مخطط تقريبي لغزوة الأحزاب
وادي العقيق
وادي بطحان
مكان الخندق
الجيش الإسلامي بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم
حرة واقم

خوارق ازدياد الطعام والماء

بُعث النبيُّ ﷺ في بيئة قليلة الغذاء والماء، وكان هو وأصحابه يتعرضون لحالات من الشدة يقل فيها الطعام والماء أو يكاد ينعدم، فكان مما أيده الله به من المعجزات تكثير القليل من الطعام والماء على يديه، فيتغلب هو وأصحابه بقدرة الله تعالى بهذه المعجزات والخوارق على ظروف البيئة الصحراوية القاسية، التي يحتاجون فيها للطعام والشراب، إلى جانب حاجتهم للماء من أجل الطهارة للعبادة، وأصبح ذلك من معجزاته التي رآها العشرات والمئات، بل والآلاف من أصحابه، وتناقلها الناس في عهده، ثم نُقلت إلينا بأصح طرق الرواية، وإليك طرفًا من هذه المعجزات:

خوارق ازدياد الطعام:

فمن معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم الخارقة للعادة، أن يُكثر الله الطعام القليل الذي لا يكفي إلاَّ الأفراد، فإذا به بعد نزول البركة فيه بفضل دعائه صلى الله عليه وآله وسلم يكفي العشرات أو المئات أو الآلاف وقد وقع ذلك في مواقف متعددة، منها ما حدث عند حفر الخندق.

[١] قصة وليمة جابر :

قال جابر ﵁ : إنَّا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدْيَة [١] شديدة فجاءوا النّبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق فقال: «**أنا نازل**» ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النَّبي ﷺ المِعْول [٢] فضرب في الكدية فعاد كثيبًا أهيل، أو أهيم [٣] فقلت: يا رسول الله، ائذن لي

---

(١) **كدية** : أرض صلبة .

(٢) **المعول** : آلة من حديد ينقر بها الصخر .

(٣) **أهيم** : غير متماسك رملاً .

إلى البيت، فقلت لامرأتي هل عندك شيء فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصًا (١) شديدًا فأخرجت إليّ جرابًا فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن (٢) ذبحتها وطحنت الشعير ففرغت إلى فراغي وقطعتها في بُرمتها ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه، فجئته فساررته فقلت: يا رسول الله، ذبحنا بهيمة لنا وطحنّا صاعًا من شعير كان عندنا، فتعالَ أنت ونفر معك، فصاح النّبيّ ﷺ فقال: «**يا أهل الخندق، إن جابرًا قد صنع سُورًا (٣) فحيّ هلا بكم**» فقام المهاجرون والأنصار وقال رسول الله ﷺ: «**لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينتكم حتى أجيء**» فجئتُ وجَاء رسولُ الله ﷺ يَقْدُمُ الناس حتى جئتُ امرأتي فقلتُ: ويحكِ جاء النبيّ ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهما!! فقالت: بك وبك فقلت: قد فعلت الذي قلت، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فأخرجت له عجينًا، فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا، فبصق وبارك ثم قال: «**ادعُ خابزة، فلتخبز معي واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها**» وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط (٤) كما هي وإن عجيننا ليخبز كما هو، قال: كُلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة (٥).

[٢] تكثير الطعام في غزوة تبوك:

ومن خوارق تكثير الطعام القليل ليكفي الآلاف من أتباعه ﷺ ما حدث في غزوة تبوك، حيث أصابَ المسلمين فيها مَجَاعَةٌ، فقال الصحابة: يا رسول الله، لو

---

(١) **خمصًا**: جوعًا، يُقال: رجل خمصان إذا كان ضامر البطن.

(٢) **الداجن من الحيوان والطير**: ما ألفَ البيوت وأقام بها.

(٣) **سُورا**: طعامًا للضيافة.

(٤) **لتغط**: تغلي فيسمع غليانها.

(٥) لفظ القصة من مجموع روايتين للإمام البخاري في صحيحه كتاب المغازي باب غزوة الخندق، وروى القصة أيضًا الإمام مسلم في صحيحه كتاب الأشربة باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه، وأحمد في مسنده (٣/٣٧٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/٢٧٤) والدارمي في سننه (١/٣٣) وأبو عوانة في مسنده (٥/١٧٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٦/٣١٤) والفريابي في دلائل النبوة (ص٥٣) والأصبهاني في دلائل النبوة أيضًا (١/٢٠٨).

أذنت لنا فنَحَرْنا نواضحنا(١) فأكلنا وادَّهَنَّا. فقال رسول الله ﷺ: «**افعلوا**». قال: فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إن فَعَلْتَ قلَّ الظَّهْرُ، ولكن ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أزوادهم، ثمَّ ادعُ اللهَ لهم عليها بالبركة؛ لعلَّ الله أن يجْعل في ذلك (٢). فقال رسول الله ﷺ: «**نعَمْ**» قال: فدعا بنِطْعٍ فبسطه، ثمَّ دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرَّجُلُ يجيء بِكَفِّ ذُرَة، قال: ويجيء الآخر بكفِّ تمرٍ، قال: ويجيء الآخر بكسرة حتَّى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير. قال: فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: «**خُذُوا في أوعيتكم**»، قال: فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلاَّ ملئوه، قال: فأكلوا حتّى شبعوا، وفَضَلَتْ فضلَةٌ، فقال رسول الله ﷺ: «**أشهدُ أن لا إله إلاَّ الله، وأني رسول الله، لا يَلْقَى الله بهما عَبْدٌ غيْرَ شاكٍّ، فيُحْجَبَ عَن الجنَّة**» (٣).

وقد روى سلمة بن الأكوع مثل هذه القصة، فعن إياس بن سَلَمَة عَنْ أبيه، قال: خرجنا مَعَ رسول الله ﷺ في غَزْوَةٍ فَأصابنا جَهْدٌ حتَّى هَمَمْنَا أن نَنْحَرَ بعْضَ ظَهْرنا (٤) فأمَرَ نَبيُّ الله ﷺ، فَجَمَعْنا مَزَاوِدَنا، فَبَسَطْنا لَهُ نطَعًا، فاجتمع زادُ القوم على النِّطَعِ، قال: فتطاولْتُ لأحْزِرَهُ كَمْ هُوَ، فَحَزَرْتُهُ كَرَبضة العَنْزِ (٥)، ونَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مئةً، قَالَ: فَأكَلْنا حتّى شَبِعْنا جميعًا، ثُمَّ حَشَوْنا جُرُبَنَا (٦).

---

(١) **نواضحنا**: الناضح هو الدابة التي يستقي عليها والمقصود هنا الإبل.

(٢) **قال النووي**: فيه محذوف تقديره يجعل في ذلك بركة أو خيراً أو نحو ذلك، شرح صحيح مسلم (١/١٧٢).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، وابن حبان في صحيحه (١٤/٤٦٥) وأحمد في المسند (٣/١١) وأبو يعلى في مسنده (٢/٤١٢) وابن منده في الإيمان (١/١٧٨) والفريابي في دلائل النبوة (ص٣٣).

(٤) **ظهرنا**: أي بعض إبلنا التي نركب على ظهورها.

(٥) أي كمبركها أو كقدرها وهي رابضة.

(٦) أخرجه مسلم كتاب اللقطة باب استحباب خلط الأزواد إذا قَلَّت والمواساة فيها.

[٣] قصة تكثير تمر جابر ﵁ :

قال جابر بن عبد الله ﵄ : إنّ أباه توفي وترك عليه ثلاثين وسقًا [١] لرجل من اليهود فاستنظره جابر فأبى أن يُنظِرَه، فكلَّم جابرُ رسولَ الله ﷺ ليشفع له إليه، فجاء رسول الله ﷺ ، وكلَّم اليهودي ليأخذ ثمر نخله بالذي له، فأبى اليهودي – وكان ثمر جابر لا يكفي لقضاء الدَّين – فدخل رسول الله ﷺ النخل فمشى فيها، ثم قال لجابر: «**جُدَّ له** [٢] **فأوف له الذي له**». فجدَّه بعدما رجع رسول الله ﷺ ، فأوفاه ثلاثين وسقًا، وفضلت له سبعة عشر وسقًا، فجاء جابر رسول الله ﷺ ؛ ليخبره بالذي كان، فوجده يُصلي العصر، فلما انصرف بشّره، فقال النَّبيّ ﷺ : «**أشهد أني رسول الله**»، وقال: «**أخبر بذلك ابن الخطاب**»، فذهب جابر إلى عمر فأخبره، فقال: له عمر: لقد علمت حين مشى فيها رسول الله ﷺ ليُباركنَّ فيها [٣] .

قال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث قد روي من طرق متعددة عن جابر بألفاظ كثيرة، وحاصلها أنه ببركة رسول الله ﷺ ، ودعائه له، ومشيه في حائطه وجلوسه على تمره، وفَّى الله دَيْنَ أبيه، وكان قد قُتل بأُحُد، وجابر ﵁ كان لا يرجو وفاءه في ذلك العام، ولا ما بعده، ومع هذا فضل له من التمر أكثر وفوق ما كان يؤمله ويرجوه، ولله الحمد والمنة [٤] .

---

(١) **وسقًا** : الوسق مقدار معلوم من الكيل يساوي ستين صاعًا، والصاع يساوي أربعة أمداد، والمد ملء اليدين من الرجل المعتدل الكف .

(٢) **جُدْ له** : اقطع له، والجدُّ هنا بمعنى القطع .

(٣) أخرجه البخاري كتاب الاستقراض وأداء الديون باب إذا قاص أو جازفه في الدين تمرًا بتمر، وابن ماجه كتاب الصدقات باب أداء الدين عن الميت، وأبو عوانه في مسنده (٣ / ٤٠٦) والطبراني في المعجم الأوسط (٩ / ٦٨) والفريابي في دلائل النبوة (ص٨٣) ، والأصبهاني في دلائل النبوة (١ / ٣٥) وقول النّبيّ ﷺ : «**أشهد أني رسول الله**» أخرجه البخاري كتاب الأطعمة باب الرطب والتمر. وانظر فتح الباري لمعرفة بعض ألفاظ الروايات المتعددة (٦ / ٥٩٤) .

(٤) «البداية والنهاية» (٦ / ١٢١) .

[٤] إطعامه ﷺ مائة وثلاثين رجلاً من شاة :

عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أن رسول الله أطعم مائة وثلاثين رجلاً من شاة وصاع طعام، وأعطى كل واحد منهم قطعة من سواد بطنها (الكبد) فشبعوا جميعًا، وحملوا ما بقي من الطعام معهم (١) .

قال النووي : في هذا الحديث معجزتان ظاهرتان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إحداهما : تكثير سواد البطن حتى وسع هذا العدد، والأخرى : تكثير الصاع ولحم الشاة حتى أشبعهم أجمعين، وفضلت منه فضلة حملوها لعدم حاجة أحد إليها (٢) .

[٥] البركة في حَيْسة (٣) أم سُليم :

أطعم الرسول ﷺ عند زواجه بزينب زهاء (٤) ثلاث مئة رجل من حيسة صنعتها له أم سليم، وعندما رفع أنس الحيسة بعد أن أكلوا جميعًا . قال : فما أدري حين وُضِعت كان أكثر أم حين رُفعت؟ (٥) .

[٦] إطعامه سبعين أو ثمانين رجلاً من أقراص أم سليم :

فتَّتت أم سليم رضي الله عنها أقراصًا قليلة من شعير وَأَدَمَته بسمن، فدعا رسول الله

---

(١) البخاري كتاب الهبة باب قبول الهدية من المشركين ومسلم كتاب الأشربة باب إكرام الضيف وفضل إيثاره وأبو عوانه في مسنده (٥ / ٢٠٤ - ٢٠٥) ، وأحمد في مسنده (١ / ١٩٧) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩ / ٢١٥) .

(٢) شرح صحيح مسلم (١٤ / ١٦) .

(٣) **الحيس**: تمر وأقط وسمن تخلط وتُعجن .

(٤) **زهاء** : قدر .

(٥) أخرجه البخاري كتاب النكاح، باب الهدية للعروس، ومسلم كتاب النكاح باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب، واللفظ له، والترمذي كتاب التفسير باب ومن سورة الأحزاب، والنسائي كتاب النكاح باب الهدية لمن عرس، وأحمد في مسنده (٣ / ١٦٣) وأبو يعلى في مسنده باختصار (٧ / ٣١٥) والطبراني في المعجم الكبير (٢٤ / ٤٦) .

ﷺ بالبركة، وأكل من هذه الأقراص سبعون أو ثمانون رجلاً حتى شبعوا [١] .

[٧] تكثير شطر وسق [٢] شعير ببركته ﷺ :

عن جابر رضي الله عنه أن رجلاً أتى النَّبيَّ ﷺ يستطعمُهُ فَأَطْعَمَهُ شَطْرَ وَسْق شعيرٍ، فما زالَ الرَّجُلُ يأكُلُ منْهُ وامرأَتُهُ وضَيْفُهُما حتَّى كَالَه، فأتى النَّبيَّ ﷺ، فقال ﷺ : **«لَوْ لمْ تَكِلْهُ لأَكَلْتم منْهُ، ولَقامَ لَكُمْ»** [٣] .

[٨] ظهور بركته في شطر شعير لزوجته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها :

عن عائشَةَ رضي الله عنها قالتْ: تُوُفِّيَ رسولُ الله ﷺ، وما في بَيْتي من شَيْءٍ يَأْكُلُه ذُو كَبِدٍ إلاَّ شَطْرُ شَعِيرٍ في رَفٍّ لي فأَكَلْتُ مِنْهُ حتَّى طَالَ عليَّ فَكِلْتُهُ فَفَنِي [٤] .

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام، ومسلم كتاب الأشربة باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه، والترمذي في سننه كتاب المناقب باب في آيات إثبات نبوة النّبيّ ﷺ وما خصه به، وابن حبان في صحيحه (١٤ / ٤٦٩) وأبو عوانه في مسنده (٥ / ١٧٨) ومالك في الموطأ (٢ / ٩٢٧) وعبد بن حميد في مسنده (١ / ٣٧١) من المنتخب، وغيرهم، وإليك القصة كاملة: قال أنس بن مالك: قال أبو طلحة لأم سليم لقد سمعتُ صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء قالت: نعم فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخرجت خمارًا لها فلفّت الخُبْز ببعضه ثم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ قال: فذهبتُ به فوجدتُ رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس فقمت عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ : «آرسلك أبو طلحة؟» فقلتُ: نعم، قال: «بطعام» فقلت : نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «قوموا » فانطلق وانطلقتُ بين أيديهم حتى جئتُ أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سُليم، قد جاء رسول الله ﷺ بالنّاس وليس عندنا ما نُطعمهم فقالت: الله ورسوله أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ : «هلمّي يا أم سُليم ما عندك» فأتت بذلك الخُبز فأمر به رسول الله ﷺ ففُتَّ وعَصَرَت أم سُليم عُكَّة فأدمَتْهُ، ثم قال ائذن لعشرة، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً .

(٢) **الوسق**: مكيلة معلومة تساوي ستون صاعًا، والصاعة أربعة أمداد، والمد ملء كفي الرجل المعتدل الكف.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الفضائل باب في معجزات النبيّ ﷺ، وأحمد (٣ / ٣٤٧) .

(٤) أخرجه البخاري كتاب الرقاق، باب فضل الفقر، ومسلم كتاب الزهد والرقائق، وابن ماجه كتاب الأطعمة باب خبز الشعير، وأحمد في مسنده (٦ / ١٠٨) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٧ / ٤٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٧ / ١٣٢) .

[٩] قصة تمرات أبي هريرة رضي الله عنه :

عَنْ أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه قال: أُتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ بتَمَرَاتٍ فقُلْتُ: يا رسول الله، ادعُ الله فيهنَّ بالبَرَكة، فَضَمَّهُنَّ ثُمَّ دَعَا لي فيهنَّ بالبَرَكة، فقال: «**خُذْهُنَّ واجعَلْهُنَّ في مزْوَدِكَ هذا** - أو في هذا المِزْوَد (١) - **كُلَّما أردْتَ أنْ تَأخُذَ منه شيْئًا، فَأدْخِلْ فيه يَدَكَ، فَخُذْهُ، ولا تنثره نثْرًا**»، فَقَدْ حَمَلْتُ مِنْ ذلك التَّمر كذا وكَذَا مِنْ وَسْقٍ في سبيل الله، فكُنَّا نأكُلُ منه ونُطْعِم، وكان لا يُفارق حِقْوي حتى كان يومُ قَتْلِ عُثمان، فإنّه انْقَطَعَ (٢) .

[١٠] قصعة الثريد التي كانت تمد:

عَنْ سَمُرَةَ بن جُنْدُبٍ قال: بينا نحن عند النّبيّ ﷺ إذْ أُتيَ بقَصْعَةٍ فيها ثَريدٌ(٣) قال: فأكل وأكل القوم فلم يزل يتداولونها إلى قريب من الظهر، يأكل كلُّ قومٍ، ثم يقُومون، ويَجِيءُ قومٌ فيَتَعاقَبونَه، قال: فقال له رجُلٌ: هل كانت تُمَدُّ بطعامٍ قال: أما من الأرض فلا، إلاَّ أن تكون كانت تُمدُّ من السَّماء (٤) .

[١١] إطعام عمر رضي الله عنه أربعمائة من مزينة من تمر قليل:

عن النُّعمان بن مُقرّن قال: قدِمْنا على رسول الله ﷺ في أربعمائة من مُزَيْنَة،

---

(١) **المزود**: وعاء الزاد .

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، مناقب أبي هريرة وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ٢٣٥) : حسن الإسناد، قال الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول (١١/ ٣٦٤) : وهو حديث حسن، وأخرجه أحمد (٢/ ٣٥٢) ، والبيهقي في الدلائل (٦/ ١٠٩) ، وأبو نعيم مجموعًا من روايتين (٢/ ٥٨٨ - ٥٨٩) وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٤٦٧) وإسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٧٥) .

(٣) **الثريد**: الخبز يفت ثم يبل بالمرق وربما كان معه لحم.

(٤) أحمد في المسند (٥/ ١٢) والترمذي في المناقب باب ما جاء في آيات نبوة النّبيّ ﷺ وقال: حديث حسن صحيح، قال الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول (١١/ ٣٦٣) ، وهو كما قال، والنسائي في السنن الكبرى (٤/ ١٧٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٧٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الدلائل بإسنادين، قال في أحدهما: هذا إسناد صحيح (٦/ ٩٣) وأبو نعيم في الدلائل (٢/ ٥٥١) والدارمي (١/ ٤٣) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٩٢) والطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٢٣٢) وابن حبان كما في موارد الظمآن (ص٥٢٧) .

فأمرنا رسولُ الله ﷺ بأمره فقال بعضُ القومِ: يا رسول الله، ما لنا طَعَامٌ نَتَزَوَّدُهُ، فقال النَّبيُّ ﷺ لعُمَرَ: «زَوِّدْهُم» فقال: ما عندي إلاَّ فاضلةٌ من تمر (١) وما أُراها تُغني عنهم شيئًا، فقال: «انطلق، فزوِّدهم» فانطلق بنا إلى عُلِّيَّةٍ (٢) له، فإذا فيها تمرٌ مثل البَكْرِ الأوْرق (٣) فقال: «خُذُوا» فأخذ القوم حاجتَهُم. قال: وكنتُ أنا في آخر القوم، قال: فالتفَتُّ وما أفقدُ موضعَ تَمْرَةٍ، وقد احتمل منه أربعمائة رجل(٤).

[١٢] درّ لبن شاة بيده وهي لا تُحلب :

عن عبد الله بن مسعود قال: كُنْتُ أرعى غَنَمًا لعُقبة بن أبي مُعيط، فمرَّ بي رسُولُ الله ﷺ وأبو بكر، فقال: يا غُلام، هل من لبن؟ قال: قلت: نعم، ولكنِّي مُؤتمن. قال: فهل من شاة لم يَنْزِ عليها الفحل (٥). فأتيتُهُ بشاة، فمسح ضرعها، فنزل لبنٌ، فحَلَبه في إناءٍ، فشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: «**اقلصْ**، **فقَلَص**»(٦) وروى قيس بن النعمان مثل هذه القصة، وفيها أن الراعي عبد (٧).

[١٣] تكثير اللبن (قصة أبي هريرة) :

أصاب أبا هريرة ؓ جوعٌ شديد، فمرَّ به النَّبيّ ﷺ فدعاه إلى بيته، حيث وجد قدحًا من لبن فأمر أبا هريرة فدعا أهل الصفة (٨) فأخذوا مجالسهم من

---

(١) **الفضل من الشيء**: ما بقي منه.

(٢) **عُلِّية**: غرفة في الطبقة الثانية من الدار، أو الثالثة أو ما فوقها.

(٣) **البَكْر الأورق**: الجمل الذي في لونه بياض إلى سواد.

(٤) أحمد (٥/٤٤٥) وأبو نعيم في الدلائل (٢/٥٤٨ - ٥٤٩) وابن حبان في صحيحه (١٤/٤٦٢) وقال الهيثمي في المجمع (٨/٣٠٤) رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح وروى أبو داود طرفًا منه ولفظه: أتينا النَّبيّ ﷺ فسألناه الطعام، فقال: يا عمر، اذهب فأطعمهم، فارتقى بنا إلى علية فأخذ المفتاح من حجزته ففتح. انظر صحيح سنن أبي داود للألباني (٣/٩٨٣) وقال أبو عبد الله المقدسي: وإسناده على شرط الصحيح انظر الجواب الصحيح (٦/٢٥٤).

(٥) يعني لم تحمل، فالشاة لا تدر لبنا إلاَّ بعد أن تحمل وتلد.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (١/٣٩٧، ٤٦٢) وابن حبان في صحيحه (١٤/٤٣٣) وأبو داود الطيالسي (١/٤٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٦/٣٢٧) وأبو يعلى في مسنده (٨/٤٠٣) والطبراني في المعجم الكبير (٩/٧٨) وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٦/١٩٠).

(٧) الحاكم في المستدرك (٣/٩) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٨) **أهل الصفة**: طائفة من الصحابة فقراء كانوا يتّخذون من المسجد سكنًا لهم.

البيت، ثم أمره فسقاهم جميعًا حتى رَوَوا من ذلك القدح، ثم أمره النَّبيّ ﷺ فشرب، فمازال يقول له: «**اشرب**»، حتى قال أبو هريرة، لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا، فأخذ رسول الله ﷺ منه القدح، وسَمَّىٰ وشرب الفضلة (١).

قال الحافظ ابن حجر: وفيه معجزة عظيمة، وقد تقدَّم لها نظائر في علامات النبوة من تكثير الطعام والشراب ببركته ﷺ (٢).

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب كيف كان عيش النّبيّ ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا والترمذي في السنن كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وابن حبان في صحيحه (١٤/٤٧٢) وأحمد في المسند (٢/٥١٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/٤٤٦) وهناد في الزهد (٢/٣٩٤) وإليك القصة كاملة: قال مجاهد إن أبا هريرة كان يقول: ألله الذي لا إله إلاَّ هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه فمرّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلاَّ ليُشبعني فمرَّ ولم يفعل، ثم مر بي عُمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلاَّ ليُشبعني فمر فلم يفعل، ثم مرّ بي أبو القاسم ﷺ فتبسّم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: «يا أبا هرٍّ» قلتُ: لبيك يا رسول الله، قال: «الحَقْ» ومضى فتبعته فدخل فاستأذن، فأذن لي فدخل فوجد لبنًا في قدح، فقال: «من أين هذا اللبن» قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: «أبا هرّ» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الحق إلى أهل الصُفّة، فادعهم لي» قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة، كنت أحقُّ أنا أن أُصيب من هذا اللبن شربة أتقوّى بها فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بُدٌّ، فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا، فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: يا أبا هر، قلتُ: لبيك يا رسول الله، قال: «خُذْ فأعطهم» قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليّ القدح فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليّ القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد عليّ القدح، حتى انتهيت إلى النّبيّ ﷺ، وقد روي القومُ كُلُّهم فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إليّ فتبسّم، فقال: «يا أبا هر» قلتُ لبيك يا رسول الله، قال: «بقيت أنا وأنت» قلت: صدقتَ يا رسول الله، قال: «اقعد فاشرب»، فقعدت فشربتُ فقال: «اشرب» فشربت، فمازال يقول اشرب حتّى قلت لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا، قال: «فأرني» فأعطيته القدح، فحمد الله وسمّى وشرب الفضلة.

(٢) «فتح الباري» (١١/٢٨٨).

[١٤] تكثير اللبن (قصة المقداد وصاحبيه):

وقريب من قصة أبي هريرة قصة الرسول ﷺ مع المقداد، إلاّ أنّ البركة في قصة المقداد نزلت على ضروع الغنم، فامتلأت باللبن الكثير في غير وقت حلبها[١].

[١٥] تكثير السمن لأم مالك:

عَن جابر أنَّ أمَّ مالك كانت تُهْدي للنَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم في عُكَّة[٢] لها سَمْنًا فيأتيها بَنوها فيسألون الأدْمَ وليس عندهم شيءٌ، فتَعْمدُ إلى

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الأشربة باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، وأحمد في المسند (٦/٢)، والترمذي مختصرًا كتاب الاستئذان باب كيف السلام وكذلك البيهقي في السنن الكبرى (٦/٨٨) وكذا النسائي في عمل اليوم والليلة (ص٢٨٣) وأخرجه البزار في مسنده (٦/٤٢) والأصبهاني في «دلائل النبوة» (١/١٣٤) وإليك القصة كاملة: عن المقداد قال: أقبلتُ أنا وصاحبان لي وقد ذهبتْ أسماعنا وأبصارنا من الجهد فجعلنا نعرضُ أنفسنا على أصحاب رسول الله ﷺ، فليس أحدٌ منهم يقبلنا فأتينا النّبيّ ﷺ فانطلق بنا إلى أهله فإذا ثلاثة أعنُز، فقال النّبيّ ﷺ: «احتلبوا هذا اللبن بيننا» قال: فكنّا نحتلب فيشرب كلُّ إنسان منّا نصيبه ونرفع للنّبيّ ﷺ نصيبه قال: فيجيء من الليل فيُسلّم تسليمًا لا يُوقظ نائمًا ويُسمع اليقظان قال: ثم يأتي المسجد فيُصلّي ثم يأتي شرابه فيشربُ فأتاني الشّيطان ذات ليلة وقد شربتُ نصيبي فقال: مُحمد يأتي الأنصار فيُتحفُونَهُ ويُصيب عندهم ما به حاجة إلى هذه الجرعة فأتيتها فشربتها فلما أن وغلت في بطني وعلمتُ أنه ليس إليها سبيل قال: ندّمني الشيطان، فقال: ويحك ما صنعت أشربتَ شراب محمد فيجيء فلا يجده فيدعو عليك فتهلك فتذهب دنياك وآخرتك!! وعليَّ شملة إذا وضعتها على قدميّ خرج رأسي وإذا وضعتها على رأسي خرج قدماي وجعل لا يجيئُني وجعل لا يجيئني النّومُ وأمّا صاحباي فَنَامَا ولم يصنعا ما صَنَعتُ، قال: فجاء النّبيّ ﷺ فسلّم كما كان يُسلّم ثم أتى المسجد فصَلّى ثُمّ أتى شرابه فكشف عنه فلم يجد فيه شيئًا فرفع رأسه إلى السّماء فقلت الآن يدعو عليّ فأهلك، فقال: اللهم أطعم من أطعمني واسقِ من أسقاني قال: فعمدتُ إلى الشّملة فشددتها عليّ وأخذت الشّفرة، فانطلقت إلى الأعنز أيها أسمن فأذبحها لرسول الله ﷺ فإذا هي حافلة وإذا هُنّ حُفّلٌ كُلُّهن فعمدت إلى إناء لآل محمد ﷺ ما كانوا يطمعون أن يحتلبوا فيه قال فحلبت فيه حتى علَتْهُ رغوة فجئتُ إلى رسول الله ﷺ فقال أشربتم شرابكم الليلة قال: قلت: يا رسول الله، اشرب، فشرب ثم ناولني فقلت يا رسول الله، اشرب، فشرب، ثُمّ ناولني فلمّا عرفت أن النّبيّ ﷺ قد روي وأصبت دعوته ضحكت حتى ألقيت إلى الأرض، قال: فقال النّبيُّ ﷺ: «إحدى سوآتك يا مقداد» فقلت: يا رسول الله، كان من أمري كذا وكذا، وفعلت كذا، فقال النّبيّ ﷺ: «ما هذه إلاّ رحمة من الله، أفلا كنت آذنتني فنُوقظ صاحبينا فيُصيبان منها» قال: فقلتُ: والذي بعثك بالحق ما أبالي إذا أصبتها وأصبتُها معك من أصابها من الناس.

(٢) **العكة**: إناء صغير للسمن.

الذي كانت تُهْدي فيه للنبي ﷺ فتجدُ فيه سَمْنًا، فمازال يُقيم لها أُدْمَ بيتها حتّى عصرَتْهُ، فأتت النَّبيَّ ﷺ فقال: «**عصرتيها؟**» قالت: نعم. قال: «**لو تركتيها مازال قائمًا**» [١] .

معجزات الرسول ﷺ في تكثير الماء القليل:

بُعث الرسول ﷺ في بيئة صحراوية جافة، وكان هو وأصحابه يخرجون كثيرًا للغزوات دفاعًا عن الدين، وكانوا يتعرضون لقلة الماء أو فقده، فيعطشون ويحتاجون الماء أيضًا للطهارة للعبادة، فكان الله سبحانه يُري الصحابة خوارق تكثير الماء القليل على يد النّبيّ ﷺ، ونسوق إليك طرفًا من هذه الحوادث التي سجّلتها كتب السُّنّة من أوثق مصادرها.

[١] فوران الماء من بين أصابع النّبيّ ﷺ في غزوة الحديبية:

فعن جابر ﷺ قال: عَطِشَ النَّاسُ يوم الحُديبيّة ورسولُ الله ﷺ بين يَدَيْه ركْوَةٌ[٢] فتوضأ منها، ثُمَّ أقبلَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما لكم؟**» قالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ماء نتوضأُ به ولا نشرب إلاَّ ما في ركوتك، قال: فوضع النَّبيُّ ﷺ يده في الرَّكْوَة، فجعل الماءُ يفور من بين أصابعه كأمثال العُيون، قال: فَشَرِبْنا وتَوَضّأنا، فقُلْتُ لجابرٍ: كَمْ كنتم يومئذ؟ قال: لو كَنّا مائة ألف لكفانا، كُنَّا خمسَ عشْرَةَ مائة [٣]. وقد روى سلمة بن الأكوع مثل هذه القصة [٤] .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الفضائل باب في معجزات النّبيّ ﷺ، وأحمد في مسنده (٣/٣٤٠) .

(٢) **ركوة**: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء .

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب غزوة الحديبية. ومسلم مختصرًا كتاب الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال وابن خزيمة في صحيحه (١/٦٥) وابن حبان في صحيحه أيضًا (١٤/٤٨٠) وأبو عوانه في مسنده (٤/٤٢٨) والدارمي في سننه (١/٢٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٧/٣٨٧) وأحمد في المسند (٣/٣٢٩) والطيالسي في مسنده (١/٢٣٩) والفريابي في دلائل النبوة (ص٧٠) والأصبهاني في دلائل النبوة أيضًا (١/٤٨) وغيرهم .

(٤) أخرجه مسلم كتاب المغازي باب استحباب خلط الأزواد إذا قلّت، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/١١٨، ١١٩) .

[٢] تكثير ماء بئر الحُديبية :

وعن البراء ﷺ قال : كُنَّا يوم الحُديبية أربَعَ عَشْرَةَ مائة، والحُديبية بئرٌ فنزحناها حتّى لم نترك فيها قَطْرةً، فجَلَسَ النَّبيُّ ﷺ على شفير البئر، فدَعَا بماءٍ، فَمَضْمَضَ ومَجَّ في البئر، فَمَكَثْنَا غَيْرَ بعيدٍ، ثمَّ استقينا حتى روينا وَرَوَتْ أو صَدَرَت ركَائبنا (١). وروى هذه الحادثة أيضًا سلمة بن الأكوع ﷺ (٢) .

[٣] معجزة دغفقة الماء من الإناء :

مرَّ بنا في معجزة تكثير الطعام حديث سلمة كيف بارك الله في طعام قليل كربضة العنز، فكفى ألفًا وأربع مئة من الصحابة - رضوان الله عليهم - وفي تمامه قال سلمة : فقال نبيّ الله ﷺ : «**فهل من وضوء؟**» قال : فجاء رجل بإداوة له فيها نُطْفة، فأفرغها في قدح، فتوضّأنا كلّنا نُدغْفِقه دغفقة (٣) (أي نصبه صبًا شديدًا) .

ومن معجزاته ﷺ في تكثير الماء القليل:

[٤] وضوء سبعين أو ثمانين رجلاً من الماء النابع من بين أصابعه ﷺ وهي في الإناء :

عن أنس أنَّ النَّبيّ ﷺ دعا بإناءٍ من ماءٍ فأُتي بقدَحٍ رَحْراحٍ (٤) فيه شيءٌ من ماءٍ فَوَضَعَ أَصابعَهُ فيه، قالَ أنَسٌ: فَجَعَلْتُ أنظرُ إلى الماء ينْبُعُ من بين أصابعه. قال أنس : فَحَزَرْتُ مَنْ تَوَضَّأَ ما بينَ السَّبعين إلى الثَّمانين (٥) .

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام، والبيهقي في دلائل النبوة (٤ / ١١٠-١١١) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة ذي قَرَدْ وغيرها، والبيهقي في دلائل النبوة (٤ / ١١١) .

(٣) رواه مسلم كتاب المغازي باب استحباب خلط الأزواد إذا قلّت .

(٤) **الرحراح**: القريب القعر مع سعة فيه. انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير .

(٥) أخرجه البخاري كتاب الوضوء باب الوضوء من التور، ومسلم كتاب الفضائل، باب في معجزات النّبيّ ﷺ، وابن خزيمة في صحيحه (١ / ٦٥) وابن حبان في صحيحه (١٤ / ٤٨١) ، وأحمد في المسند (٣ / ١٤٧) وأبو يعلى في مسنده (٦ / ٧٢) وعبد بن حميد في مسنده (١ / ٤٠٣) والبيهقي في دلائل النبوة (٤ / ١٢٢) .

[٥] وضوء ثلاثمائة من ماء نابع من بين أصابعه ﷺ :

عن أنس ﷺ قـال : أُتيَ النَّبيُّ ﷺ بإناء وهو بالزَّوراء [١] فوَضَعَ يدَهُ في الإناء، فجعَلَ الماءُ ينْبُعُ من بين أصابعه، فتوضَّأ القومُ. قال قتادة : قلتُ لأنسٍ : كم كنتم؟ قال : ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة [٢].

قال الحافظ ابن حجر : في هاتين القصّتين اللتين رواهما أنس ﷺ، وظهر لي من مجموع الروايات أنهما قصتان في موطنين، للتغاير في عدد من حضر، وهي مغايرة واضحة يبعد الجمع فيها، وكذلك تعيين المكان الذي وقع ذلك فيه[٣].

قال عياض : هذه القصة رواها الثقات من العدد الكثير عن الجم الغفير عن الكافة متصلة بالصحابة، وكان ذلك في مواطن اجتماع الكثير منهم في المحافل، ومجمع العساكر، ولم يردْ عن أحد منهم إنكار على راوي ذلك، فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته.

وقال القرطبي : قضية نبع الماء من بين أصابعه ﷺ تكررت منه في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة يُفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي [٤] ... قال : ولم يُسمعْ بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا ﷺ [٥].

---

(١)موضع بالمدينة .

(٢)أخرجه البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام، ومسلم كتاب الفضائل باب في معجزات النّبيّ ﷺ وابن حبان في صحيحه (١٤ / ٤٨٤) وأحمد في مسنده (٣ / ٢٨٩) والفريابي في دلائل النبوة (ص٥٦) والأصبهاني في دلائل النبوة أيضا (١ / ١٢١) وكذلك البيهقي في دلائل النبوة (٤ / ١٢٤ - ١٢٥) .

(٣)«فتح الباري» (٧ / ٢٨٣) ط. دار الفكر (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م) .

(٤)**التواتر المعنوي** : هو أن يروي الجمع الذي يستحيل تواطؤه على الكذب حادثة معيّنة لا بلفظ واحد ولكن بمعنى واحد وألفاظ مختلفة .

(٥)قال الحافظ : وحديث نبع الماء جاء من رواية أنس عند الشيخين وأحمد وغيرهم من خمسة طرق وعن جابر بن عبد الله من أربعة طرق وعن ابن مسعود عند البخاري والترمذي وعن ابن عباس عند أحمد والطبراني من طريقين وعن ابن أبي ليلى والد عبد الرحمن عند الطبراني وأما تكثير الماء بأن يلمسه بيده أو يتفل فيه أو يأمر بوضع شيء فيه كسهمٍ من كنانته، فجاء في حديث عمران بن حصين في الصحيحين، وعن البراء بن عازب عند البخاري وأحمد من طريقين وعن أبي قتادة عند مسلم وعن أنس عند البيهقي في الدلائل وعن زياد بن الحارث الصدائي عنده وعن حبان بن الصنابح الصدائي .

وقد روى عبد الله بن مسعود ﷺ مثل قصة أنس: فعنه ﷺ قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ، فقلَّ الماءُ، فقال: «**اطلبوا فضلَةً من ماءٍ**» فجاءوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليل، فأدْخلَ يَدَهُ في الإناء، ثُمَّ قال: «**حيَّ على الطَّهور المُبارك**» والبركة من الله، فلقد رأيتُ الماء ينبعُ من بين أصابع رسول الله ﷺ [١].

[٦] قصة تكثير ماء المزادتين:

عَنْ عِمْرانَ قالَ: كُنَّا في سَفَرٍ مع النَّبيّ ﷺ - فذكر الحديث إلى قوله - : فاشتكى إليه النَّاسُ من العَطَشِ، فَنَزَلَ فَدَعَا رجلاً من أصحابه، ودعا عليًّا، فقالَ: «**اذهبا فابتغيا الماء**» فانطلقا، فتلقّيا امرأةً بين مَزادَتَيْن أو سطيحَتَيْن [٢] من ماءٍ على بعير لها، فقالا لها: أين الماءُ؟ قالت: عهدي بالماء أمسِ هذه الساعة، ونَفَرُنا خُلُوف[٣] قالا لها: انطلقي إذًا، قالت: إلىٰ أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ. قالت: الذي يُقال له الصَّابئُ؟ قالا: هو الذي تعنين فانطلقي. فجاءا بها إلى النَّبيّ ﷺ وحَدَّثاه الحديث، قال: «**فاستنزلوها عن بعيرها**» ودعا النَّبيُّ ﷺ بإناءٍ فَفَرَّغَ فيه من أفواه المزادَتين أو سطيحَتين وأوكأ [٤] أفواهَهُما، وأطلق العَزَالي [٥] ونُودي في النَّاس: اسقُوا واستقوا، فسقى من شاء واستقى من شاء.. وهي قائمة تنظُرُ إلى ما يُفعلُ بمائها، وأيمُ الله، لقد أُقلعَ عنها، وإنه ليُخيّل إلينا أنّها أشدُّ ملأةً منها حين ابتدأ فيها، فقال النبيُّ ﷺ: «**اجمعوا لها**» فجمعوا لها مِنْ بين عَجْوَةٍ ودقيقةٍ وسَوِيقَةٍ[٦] حتى جمعوا لها طعامًا، فجعلوه في ثوب وحَملُوها على

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام، وأحمد في المسند (١/٤٦٠) والدارمي في مسنده (١/٢٨) والبزار في مسنده (٤/٣٠١) والشاشي في مسنده (١/٣٥٩)، وأبو يعلى في مسنده (٩/٢٥٣) والبيهقي في دلائل النبوة (٤/١٢٩ - ١٣٠) وغيرهم.

(٢) **المزداة**: وعاء يحمل فيه الماء في السفر، والسطيحة هي المزادة تكون من جلدين لا غير.

(٣) **خلوف**: غائبون.

(٤) **وأوكأ**: شد أفواههما بخيط.

(٥) **العَزَالي**: جمع عزلاء، والعزلاء: فم القربة الأسفل.

(٦) **السويق**: طعام يتخذ من مدقوقة الحنطة والشعير.

بعيرها، ووضعوا الثَّوب بين يديها، قال لها: «**تعلمين ما رزئنا** [١] **من مائك شيئًا، ولكنَّ الله هو الذي أسقانا**» – وفي صحيح مسلم قال الراوي عمران بن حصين رضي الله عنه فشربنا ونحن أربعون رجلاً عطاشى حتى روينا وملأنا كل قربة معنا وإداوة – فأتت أهلها وقد احتبست عنهم، قالوا: ما حبسك يا فلانة؟ قالت: العَجَب، لقيني رجُلان، فذهبا بي إلى هذا الذي يُقال له الصّابئ؟ ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه، وقالت: بإصْبَعَيْها الوسطى والسَّبَّابة، فرفعتْهُما إلى السَّماء (تعني السماء والأرض) أو إنه لرسول الله حقًا، فكان المُسلمون بعد ذلك يُغيرون على من حولها من المشركين ولا يُصيبون الصِّرم [٢] الذي هي منه، فقالت يومًا لقومها: ما أُرَى [٣] أنَّ هؤلاء القوم يدعونكم عمدًا، فهل لكم في الإسلام؟ فأطاعوها فدخلوا في الإسلام [٤].

[٧] تكثير الماء في جفنة فارغة:

اشتدَّت حاجة المسلمين للماء، فكلَّف الرسول ﷺ جابرًا رضي الله عنه أن يبحث عن بقية ماء، فوجد قليلاً من الماء في سقاء بالي، قال جابر: فأتَيْتُهُ به، فأَخَذَهُ بيده، فجَعَل يتكلَّم بشيء لا أدري ما هو، ويَغْمِزُهُ بيديه، ثم أعطانيه، فقال: «**يا جابر، نادِ بجفنةٍ**»، فقُلْتُ: يا جَفْنَةَ الرَّكْب، فأُتيتُ بها تُحْمَلُ فَوَضعْتُها بين يديه، فقال رسول الله ﷺ بيده في الجَفْنَة هكذا فبسطها، وفرَّقَ بين أصابعه، ثُمَّ وضَعَها في قَعْر الجَفْنة، وقال: «**خُذْ يا جابرُ فصُبَّ عليَّ وقل: باسم الله**»، فصبَبْتُ عليه

---

(١) **ما رزئنا**: ما نقصنا.

(٢) **الصِّرْم**: القوم التي هي منهم.

(٣) **ما أُرى**: أي الذي أرى وأعتقده.

(٤) أخرجه البخاري كتاب التيمم باب الصعيد الطيب وضوء المسلم، ومسلم كتاب المساجد باب قضاء الصلاة الفائتة وابن خزيمة في صحيحه (١ / ٥٩) مختصرًا، وابن حبان في صحيحه (٤ / ١٢٢) وأحمد في المسند (٤ / ٤٣٤) والبزار في مسنده (٩ / ٥٩) والطبراني في المعجم الكبير (١٨ / ١٣٣) وابن أبي شيبة في المصنف (٦ / ٣١٧) والأصبهاني في دلائل النبوة (١ / ٣٧) والبيهقي في دلائل النبوة (٤ / ٢٧٧).

وقُلْتُ: باسم الله، فرأيتُ الماء يفُورُ من بين أصابع رسول الله ﷺ، ثُمَّ فارت الجَفْنَةُ ودارت حتّى امتلأت، فقال: «**يا جابرُ، ناد مَنْ كان له حاجةٌ بماء**» قال: فأتى الناسُ فاستَقَوا حتّى رَووا، قال: فقُلْتُ: هل بَقيَ أَحَدٌ له حاجةٌ، فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملأى، وشكا النَّاسُ إلى رسول الله ﷺ الجُوعَ، فقال: عسى اللهُ أن يُطعمَكُم فأتينا سيف البَحْرِ (١) فزخر البحرُ زخرةً (٢) فألقى دابَّةً، فأَوْرَينا (٣) على شقِّها النَّارَ، فاطَّبَخْنا واشتوينا وأكلنا حتى شبعنا، قال جابرٌ: فدَخَلْتُ أنا وفُلانٌ وفُلانٌ حتى عدَّ خمسةً في حجَاج عيْنها (٤) ما يرانا أحدٌ حتى خرجنا، فأخذنا ضلَعًا من أضلاعه فقَوَّسْناهُ، ثُمَّ دَعَوْنا بأعظم رَجُلٍ في الرَّكْب، وأعظم جَمَلٍ في الرَّكْب، وأعظم كِفلٍ (٥) في الرَّكْب، فدَخَل تَحْته ما يُطأطئ رأسه(٦).

[٨] قصة ميضأة (٧) أبي قتادة ﷺ :

عن أبي قتادة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء إن شاء الله غداً**»، فانطلق الناس لا يلوي أحدٌ على أحدٍ (٨) ثمَّ إنَّ النَّبيَّ ﷺ دعا بميضأة كانت معي فيها شيء من ماء قال: فتوضَّأ منها وضوءاً دون وضوء (٩) قال: وبقي فيها شيء من ماء، ثم قال لأبي قتادة: «**احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ ...**» قال فانتهينا إلى الناس حين امتدَّ النهار

(١) **سيف البحر**: ساحل البحر.
(٢) **زخرة**: فاض.
(٣) **فأورينا**: فأوقدنا.
(٤) **حجاج عينها**: عظمها المستدير بها.
(٥) **المراد بالكفل هنا**: الكساء الذي يحويه راكب البعير على سنامه لئلا يسقط، قاله النووي في شرح صحيح مسلم (١٨/٣٤٨).
(٦) أخرجه مسلم كتاب الزهد باب حديث جابر الطويل وابن حبان في صحيحه بنحوه (١٤/٤٥٧) والأصبهاني في دلائل النبوة (١/٥٦).
(٧) **الميضأة**: إناء صغير يحمل فيه الماء للوضوء.
(٨) أي لا ينتظر أحد أحداً.
(٩) قال النووي: وضوءاً خفيفاً.

وحمي كل شيء وهم يقولون: يا رسول الله، هلكنا عطشًا، فقال: «**لا هلك عليكم**» ثم قال: «**أطلقوا لي غُمري**» [١] قال: ودعا بالميضأة فجعل رسول الله ﷺ يصب، وأبو قتادة يسقيهم، فلم يعد أن رأى الناس ماء في الميضأة تكابّوا[٢] عليها، فقال رسول الله ﷺ: «**أحسنوا الملأ كلكم سَيُروَى**» قال: ففعلوا، فجعل رسول الله ﷺ يصب وأسقيَهم حتى ما بقى غيري وغير رسول الله ﷺ، قال: ثمَّ صبَّ رسول الله ﷺ فقال لي: اشربْ، فقلتُ: لا أشرب حتى تشرب يا رسول الله. قال: «**إنَّ ساقي القوم آخرهم شربًا**» قال: فشربتُ وشرب رسول الله ﷺ، قال: فأتى الناسُ الماء جامِّين رِواء [٣] وكانوا ثلاثمائة [٤].

[٩] قصة تكثير الماء في غزوة تبوك:

قال معاذ بن جبل ﷺ: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك... ثم قال: «**إنّكم ستأتون غدًا إنْ شاء الله عينَ تبوك، وإنّكم لن تأتوها حتّى يُضْحي النّهارُ.. والعين مثلُ الشِّراك تَبِضُّ** [٥] **بشيء من ماء..**» ثُمَّ غَرَفوا بأيديهم من العَيْن قليلاً قليلاً حتَّى اجتمع الماء في شيء، قال: وَغَسَلَ رسولُ الله ﷺ فيه يديه ووَجْهَهُ ثُمَّ أعاده فيها، فجَرَت العينُ بماءٍ مُنْهَمِرٍ أو قال: غَزير، قال: حتى استقى الناسُ، ثُمَّ قال: يوشك يا مُعاذ إن طالت بك حياةٌ أنَ ترى ما هاهُنا قد مُلئ جِنانًا[٦].

---

(١) **الغمر**: القدح الصغير أو أصغر الأقداح.

(٢) **تكابوا**: تزاحموا.

(٣) **جامين رواء**: مستريحين قد رووا من الماء، و الحديث أخرجه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها وأحمد في مسنده (٥/٣٠٢)، وأبو يعلى في مسنده بنحوه (٧/٢٣٤ - ٢٣٥) وابن الجعد في مسنده (ص٤٥٠) والفريابي في دلائل النبوة (ص٦٢ - ٦٧) والأصبهاني في دلائل النبوة أيضًا (١/٨٨) وغيرهم.

(٤) أحمد في مسنده (٥/٢٩٨) وإسناده صحيح على شرط مسلم كما في تحقيق المسند (٣٧/٢٣٨).

(٥) **تبض**: تقطر وتسيل، والشراك هو سير النعل من الجلد، ومعناه ماء قليل جدًا قاله النووي.

(٦) أخرجه مسلم كتاب الفضائل باب في معجزات النبي ﷺ وابن خزيمة في صحيحه (٢/٨٢) وابن حبان في صحيحه (٤/٤٦٩ - ٤٧٠) وعبد الرزاق في المصنف (٢/٥٤٥ - ٥٤٦) وأحمد في المسند (٥/٢٣٧) والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/٥٧) والفريابي في دلائل النبوة (ص٥٩).

معجزات شفاء المرضى وخوارقها

كان أصحاب النَّبيّ ﷺ يتعرضون لأنواع من المرض والجراح أثناء غزواتهم، فيأتيه بعضهم فيدعوا الله لهم، فيُكرمه الله بشفاء من دعا له على الفور أمام أعين المشاهدين، وقد سجّلت السُّنَّة الصحيحة عدداً من هذه المعجزات، نذكر منها ما يلي:

[١] شفاء عليّ رضي الله عنه من رمده في غزوة خيبر:

عن سَهْل بن سعد رضي الله عنه سمعَ النَّبيَّ ﷺ يقول يوم خيبر: «**لأُعطينّ الراية رجُلاً يفتح اللهُ على يديه**»، فقاموا يرجون لذلك أيُّهم يُعطى، فغدوا وراحوا وكلهم يرجو أن يُعطى، فقال: «**أين عليٌّ؟**» فقيل: يشتكي عينيه، فأمر فدُعي له فبصق في عينيه، فَبَرَأَ مكانه، حتىَّ كأنه لم يكن به شيءٌ، فقال: نُقاتلهم حتّى يكونوا مثلنا. فقال: «**على رِسْلك حتَّى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يُهدى بك رجل واحد خيرٌ لك من حُمْر النَّعْم**»[١].

[٢] شفاء ساق سلمة بن الأكوع رضي الله عنه:

عن يزيد بن أبي عُبيدٍ، قال: رأيتُ أثر ضربة في ساق سلمة، فقلت: يا أبا مسلم، ما هذه الضربة؟ فقال: هذه ضربة أصابتني يوم خيبر، فقال الناس: أُصيب سلمة! فأتيتُ النَّبيَّ ﷺ فَنَفَثَ فيه ثلاث نفثات، فما اشتكيتُها حتّى السَّاعة[٢].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النَّبيّ ﷺ إلى الإسلام والنبوة، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عليّ بن أبي طالب، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٣٧٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٠٦) والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٤٦) وسعيد بن منصور في السنن (٢/ ٢١٥).

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب غزوة خيبر، وأبو داود في السنن كتاب الطب باب كيف الرقى، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٤٣٩)، وأحمد في مسنده (٤/ ٤٨).

[٣] شفاء ساق عبد الله بن عتيك :

عن البراء بن عازبٍ قال : بَعَثَ رسول الله ﷺ إلى أبي رافعٍ اليهودي رجالاً من الأنصار، فأمّر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يُؤذي رسول الله ﷺ ويُعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز (وذكر قصة قتله) ثم قال : فعَرَفْتُ أنِّي قَتَلتُهُ، فجعلتُ أفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهيتُ إلى درجة له، فوضعتُ رجلي وأنا أُرَى أنِّي قد انتهيتُ إلى الأرض، فوقعتُ في ليلةٍ مُقْمِرة فانكسرتْ ساقي، فعصبتُها بعمامة، ثُمَّ انطلقْتُ حتىَّ جلستُ على البابِ، فقُلْتُ : لا أخرج الليلة حتَّى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الدِّيك قام النَّاعي على السُّور فقال : أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز ! فانطلقتُ إلى أصحابي، فقلت : النَّجاء! فقد قَتَلَ اللهُ أبا رافعٍ! فانتهيتُ إلى النَّبيِّ ﷺ فحدَّثْتُهُ، فقال : ابسُطْ رجلك، فبسطتُ رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط [١] .

[٤] ظهور أثر بركته في مَسحه رأس حنظلة بن حذْيَم :

مسح النَّبيّ ﷺ رأس حنظلة بن حَذيم وقال : «**بارك الله فيك**» أو «**بورك فيه**» فكان حنظلة بعد ذلك إذا أُتي بإنسان متورِّم الوجه أو بهيمة وارمة الضرع، يتفل على يديه، ثم يضع يده على رأسه على الموضع الذي مسحه رسول الله ﷺ، ثم يمسح مكان الورم فيذهب الورم [٢] .

هذا وقد علَّم النّبيُّ ﷺ الصحابة والمسلمين من بعدهم أدعية يدعون بها لكشف المرض فيجدون الشفاء المستمر، وهذا موجود إلى يومنا هذا، وخاصة عند مراعاتهم لآداب الدعاء المشروع [٣] ، ويدخل ذلك في تصديق الله لرسوله بإجابة دعاء أتباعه الصادقين.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب قتل أبي رافع والبيهقي في السنن الكبرى (٩ / ٨٠) والروياني في مسنده (١ / ٢١٥) والأصبهاني في دلائل النبوة (١ / ١٢٥) والطبري في تاريخه (٢ / ٥٥-٥٦) .

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥ / ٦٧) وقال في مجمع الزوائد (٤ / ٢١١) :- ورجاله ثقات ورواه أيضاً الطبراني في المعجم الكبير (٤ / ٦ وَ ٤ / ١٣) وفي المعجم الأوسط (٣ / ١٩١) وابن قانع في معجم الصحابة (١ / ٢٠٣) وذكره البخاري في التاريخ الكبير ٣ / ٣٧ وابن حجر في الإصابة (٢ / ١٣٣)، وذكر أن الحسن بن سفيان رواه في مسنده ، وإسناده صحيح كما في تحقيق المسند (٣٤ / ٢٦٣) .

(٣) انظر كتاب : "الأذكار" للحافظ النووي ، وكتاب : الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية لجيلان العروسي .

ما ظهر من معجزات خوارق العادة في غزوة حنين

أُعجب المسلمون بكثرتهم في غزوة حنين، فلم يُغْنِ عنهم ذلك شيئًا عندما باغتهم العدو بالهجوم، فانهزموا وضاقت عليهم الأرض بما رحُبت، ولم يثبت إلاَّ النَّبيّ ﷺ مع قلة من الصحابة، قال سلمة بن الأكوع: ومررتُ على رسول الله ﷺ مُنهزمًا (١) وهو على بغلته الشَّهباء، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد رأى بنُ الأكوع فزعًا**» فلمَّا غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة (وفي رواية أنه دعا حينئذ واستنصر، وقال: اللهم نزل نصرك) (٢) ثُمَّ قبض قبضة من تُراب من الأرض، ثُمَّ استقبل به وجوههم فقال: شاهت (٣) الوجوه، فما خلق الله منهم إنسانًا إلاَّ ملأ عينيه ترابًا بتلك القبضة، فولَّوا مدبرين، فهزمهم اللهُ عزَّ وجل، وقسَّمَ رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين (٤) وفي رواية أنَّه أخذ حصيات فرمى بهنَّ وجوه الكفار، ثم قال: «**انهزموا وربِّ محمد**» فوالله ما هو إلاَّ أن رماهم بحصياته، فمازلتُ أرى حدَّهم كليلاً وأمرهم مدبرًا (٥).

وقد سجَّل القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ**

---

(١) منهزماً: يعني سلمة، فالكلمة حال لسلمة ﷺ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثبت كما تقدم.

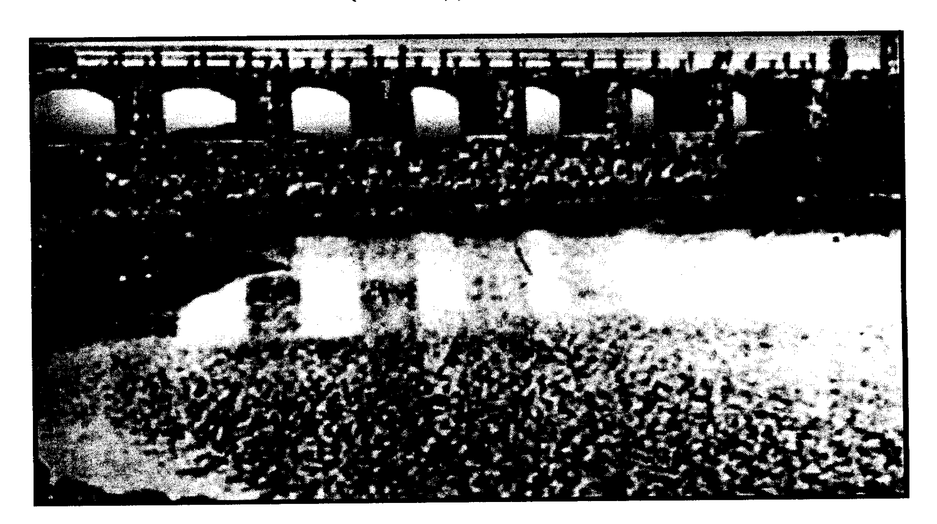
(٢) رواه مسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة حنين.

(٣) قبحت.

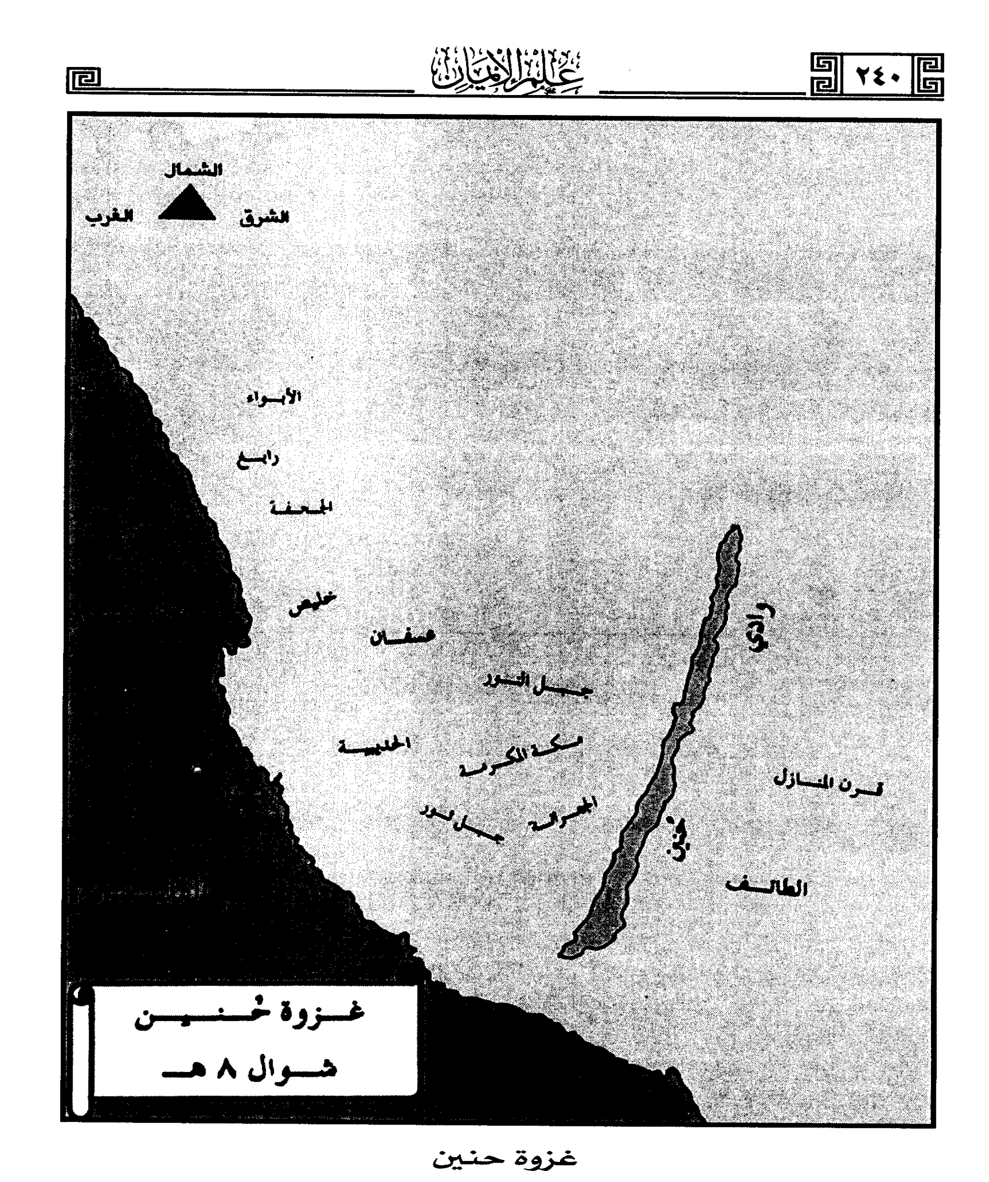
(٤) أخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب في غزوة حنين وابن حبان في صحيحه (١٤ / ٤٥١) وأبو عوانه في مسنده بنحوه (٤ / ٢٧٨-٢٧٩) والدارمي في السنن بنحوه (٢ / ٢٨٩) وابن أبي شيبة في المصنف بنحوه (٧ / ٤١٩) والروياني في مسنده (٢ / ٢٥٣) وغيرهم.

(٥) أخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب في غزوة حنين والحاكم في المستدرك ٣/٣٧٠ وأبو عوانة في مسنده (٤ / ٢٧٨-٢٧٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٥ / ١٩٧) وعبدالرزاق في المصنف (٥ / ٣٨٠) وأحمد في المسند (١ / ٢٠٧) وغيرهم.

ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].



سد عكرمة بالطائف حيث حارب الرسول ﷺ عنده قبيلة ثقيف


الشمال
الشرق
الغرب
الأبواء
رابغ
الجحفة
خليص
عسفان
جبل النور
الحديبية
مكة المكرمة
الجعرانة
جبل ثور
وادي
حنين
قرن المنازل
الطائف
غزوة حنين
شوال ٨ هـ

غزوة حنين

شهادة الشجر برسالة النّبيّ ﷺ

حيث شهد الشجر له بصدق الرسالة، وتحرَّك الشجر يشق الأرض شقًا، ونزل عذق النخلة امتثالاً لأمره ﷺ، وسمع الصحابة حنين جذع النخلة حين فارقه حتى رجع فسكّنه كما يسكن الصبي، وهذه من الخوارق التي لا تجري إلاّ على يد رسول صادق مؤيّد من الله سبحانه.

[١] نزول العذْق (١) :

عن ابن عباس ﭭ : أنَّ أعرابيًا جاء إلى النبيّ ﷺ فقال : بم أعرف أنك نبيّ؟! قال : «**إنْ دعوتُ هذا العذْقَ من هذه النخلة تشهد أني رسول الله؟**» فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النّبيّ ﷺ ثم قال : «**ارجع**» فعاد فأسلم الأعرابي (٢).

[٢] السلمة (٣) التي مشت :

عن ابن عمر ﭭ قال : كُنَّا مع رسول الله ﷺ في سَفَرٍ فأقبل أعرابيٌّ فلمَّا دنا منْهُ، قال له رسول الله ﷺ : «**أين تُريد؟**» قال : إلى أهلي، قال : «**هل لك في خَيْرٍ؟**» قال : وما هو؟ قال : «**تشهدُ أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله**» قال : ومن يشهد على ما تقول؟ قال : «**هذه السَّلَمَةُ!**» فدعاها

---

(١) العذق في النخلة : غصنها الذي يكون فيه الرطب ، كعنقود العنب .

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب الباب التاسع ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣ / ١٩٣) وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك (٢ / ٦٧٦) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، قال ابن كثير في البداية والنهاية (٦ / ١٣١) : وهذا إسناد جيد وأخرجه أيضاً المقدسي في المختارة (٩ / ٥٣٩) والبيهقي في الاعتقاد ص٤٨ ، وأخرج القصة بلفظ آخر وفيه أن الأعرابي من بني عامر ، وأحمد في المسند (١ / ٢٢٣) واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤ / ٨٠٧) والأصبهاني في دلائل النبوة (١ / ٥١) والمقدسي في المختارة (٩ / ٥٥٥) وذكره في مجمع الزوائد بنحوه (٩ / ١٠) وقال : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن الحجاج الشامي وهو ثقة وأخرجه كذلك الطبري في تاريخه (١ / ٥٣٠) .

(٣) السلمة : نوع من الشجر .

رسول الله ﷺ – وهي بشاطئ الوادي – فأقبلت تَخُدُّ الأرض خداً [١] حتَّى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثًا، فشهدت ثلاثًا أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابيُّ إلى قومه، وقال: إن اتّبعوني أتيتك بهم، وإلاَّ رجعتُ فكُنْتُ معك [٢].

[٣] انقياد شجرتين له ﷺ :

عن عُبادة بن الوليد بن عُبادة بن الصامت، قال: خرجتُ أنا وأبي نطلبُ العلْمَ في هذا الحيِّ من الأنصار.. فذكر حديثًا عن جابر ﷺ إلى قوله: سرْنا مع رسول الله ﷺ حتَّى نزلنا واديًا أَفْيَحَ [٣] فذَهَب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فاتّبعتُهُ بإداوةٍ [٤] من ماء، فنَظَرَ رسول الله ﷺ فلمْ يرَ شيئًا يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغُصنٍ من أغصانها فقال: انقادي عليَّ بإذن الله، فانقادت معه كالبعير المَخْشوش [٥] الذي يُصَانِعُ قَائِدَهُ، حتَّى أتى الشَّجرة الأُخرى فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «**انقادي عليَّ بإذن الله**» فانقادت معه كذلك حتّى إذا كان بالمنصَف مما بينهما لأم بينهُما – يعني جمعهما – فقال: «**التئما عليَّ بإذن الله**» فالتأمتا.

قال جابرٌ: فخرجتُ أُحضر [٦] مخافة أن يُحسَّ رسول الله ﷺ بقربي

---

(١) أي: تشق الأرض شقاً.

(٢) أخرجه الدارمي (١ / ٢٢) وأبو يعلى في مسنده (١٠ / ٣٤) وابن حبان في صحيحه (١٤ / ٤٣٤) والطبراني في المعجم الكبير (١٢ / ٤٣١) والفاكهي في أخبار مكة (٤ / ٢٩) وقال في مجمع الزوائد (٨ / ٢٩٢): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى أيضاً والبزار وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٦ / ١٣٠) من رواية الحاكم قال: وهذا إسناد جيّد وقال الذهبي: إسناده جيد ص٣٤٤ من السيرة النبوية.

(٣) أفيح: متسعاً.

(٤) الإداوة: إناء صغير يحمل فيه الماء.

(٥) المخشوش: الذي في أنفه خشاش وهو عود يجعل في أنف البعير يشد به الزمام ليكون أسرع لانقياده.

(٦) الحضر: السرعة في الجري.

فيبتعد، فجلسْتُ أُحدِّث نفسي، فَحَانَت منّي لفتةٌ، فإذا أنا برسول الله ﷺ مُقبلاً، وإذا الشَّجرتان قد افترقتا، فقامت كُلٌّ واحدة منهما على ساقٍ [١] أي كما كانت.

[٤] حنين الجذع شوقًا إليه ﷺ :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنَّ النَّبيّ ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل: يا رسول الله ، ألا نجعل لك منبرًا؟ قال: «**إن شئتم**» فجعلوا له منبرًا، فلما كان يوم الجمعة دفعَ [٢] إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النَّبيّ ﷺ فضمها إليه تئنُّ أنين الصبيّ الذي يُسَكَّن، قال: «**كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها**» [٣] .

قال الحافظ ابن كثير: وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة تُفيد القطع عند أئمة هذا الشأن [٤] .

---

(١) أخرجه مسلم في آخر صحيحه كتاب الزهد والرقائق باب حديث جابر الطويل وابن حبان في صحيحه (١٤ / ٤٥٥-٤٥٦) والأصبهاني في دلائل النبوة (١ / ٥٣-٥٥) والبيهقي في السنن الكبرى (١ / ٩٤) ورواه ابن عبد البر في التمهيد (١ / ٢٢٢) ورواه من حديث يعلى بن سيابة، أحمد في مسنده (٤ / ١٧٢) وابن قانع في معجم الصحابة (٣ / ٢٢١) وغيرهما قال ابن عبدالبر في التمهيد (١ / ٢٢٢): وروي عن يعلى من وجوه. ونسبه في مجمع الزوائد (٩ / ٦، ٧) إلى أحمد والطبراني بنحوه وحسّن إسناده وانظر البداية والنهاية لابن كثير (٦ / ١٤٥-١٤٨).

(٢) دفع إلى المنبر : أي اتجه إلى المنبر .

(٣) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء في بدء شأن المنبر والترمذي كتاب المناقب باب في آيات إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأحمد في مسنده (٣ / ٣٠٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٣ / ١٩٥) وابن حبان في صحيحه (١٤ / ٤٣٥-٤٣٨)، والمقدسي في المختارة (٤ / ٣٥٦) والدارمي في السنن (١ / ٢٩) واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤ / ٧٩٧-٨٠٢) وذكر له طرقاً عن جماعة من الصحابة، والأصبهاني في دلائل النبوة (١ / ٤٦) وأبو يعلى في مسنده (٥ / ١٤٢) وابن الجعد في مسنده (ص٤٦٦) وابن المبارك في الزهد (ص٣٦٢) وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٦ / ١٣١-١٣٨) من رواية الشافعي والبزار في مسنده وأبي بكر بن أبي شيبة وعبد بن حميد الليثي أيضاً. ونسبه اللالكائي في كتابه المذكور آنفاً إلى ابن خزيمة.

(٤) البداية والنهاية (٦ / ١٣١)، وذكر الحديث من رواية أبي وأنس وجابر وسهل بن سعد وابن عباس وابن عمر وأبي سعيد وعائشة وأم سلمة رضي الله عنهم جميعاً .

معجزات خارقة في شهادة الحيوان وانقياده

[١] شهادة الذئب بنبوّته ﷺ :

عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: عدا الذِّئبُ على شاةٍ فأخذها، فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فأقعى [(١)] الذِّئبُ على ذَنَبه، قال: ألاَ تَتَّقي اللهَ؟! تنزعُ منِّي رِزقًا ساقه الله إليَّ؟! فقال: يا عجبي! ذئبٌ مُقْعٍ على ذنبه يُكلمني كلام الإنس!! فقال الذئبُ: ألا أُخبرك بأعجب من ذلك؟ محمدٌ ﷺ بيثرب يُخبر الناسَ بأنباء ما قد سبق!. قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتَّى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ فَنُوديَ: الصَّلاةُ جامعةٌ، ثُمَّ خرج، فقال للرَّاعي: «**أخبرهم**» فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: «**صدق، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتّى يُكلم السِّباع الإنس ويُكلّم الرجل عَذَبَةُ** [(٢)] **سوطه، وشِراك نعله** [(٣)] **ويُخبره فخذه بما أحدث أهله بعده**» [(٤)] .

وذكر الحافظ ابن عدي عن أبن أبي داود أن ذرية هذا الراعي في مدينة مرو، وأنَّه يُقال لهم: بنو مكلم الذئب [(٥)]، واستدلَّ البيهقي بذلك على اشتهار القصة وقوة الحديث [(٦)] .

---

(١) أقعى : جلس مفترشاً رجليه ناصباً يديه .

(٢) عذبة السوط : طرفه .

(٣) الشراك هو سير النعل الذي على ظهر القدم .

(٤) القصة وردت من رواية أبي سعيد الخدري ومن رواية أبي هريرة وقد أخرجها الإمام أحمد في المسند (٢ / ٣٠٦ وَ ٣ / ٨٣ ، ٨٨) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٦ / ١٥٠) : وهذا إسناد على شرط الصحيح . وابن حبان في صحيحه (١٤ / ٤١٩) والحاكم في المستدرك (٤ / ٥١٤) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وعبد بن حميد في مسنده (١ / ٢٧٧) وإسحاق بن راهوية في مسنده (١ / ٣٥٧) ومعمر بن راشد في الجامع (١١ / ٣٨٣) والأصبهاني في دلائل النبوة (١ / ١٢–١١٣) والبيهقي في دلائل النبوة (٦ / ٤١–٤٢) وقال : هذا إسناد صحيح .

(٥) الكامل لابن عدي (٢ / ١٥٠).

(٦) دلائل النبوة للبيهقي (٦ / ٤٤)، وعنه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٦ / ١٥٢)، وانظر الإصابة لابن حجر لمعرفة اسم مكلم الذئب (١ / ١٤١).

[٢] شكوى جمل له من صاحبه :

عن عبد الله بن جعفر قال : أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم . . فدخل حائطًا لرجل من الأنصار ، فإذا جملٌ فلمّا رأى النَّبيَّ ﷺ حَنَّ وذَرَفَتْ عيناه ، فأتاه النَّبيُّ ﷺ ، فمسح ذِفْراهُ (١) فسكتَ ، فقال : «**مَنْ ربُّ هذا الجمل ؟ ، لمن هذا الجمل ؟**» فجاء فتىً من الأنصار ، فقال : لي يا رسول الله . فقال : «**أفلا تتّقي الله في هذه البهيمة التي ملّكك اللهُ إيّاها ، فإنَّه شكا إليَّ أنَّك تُجيعُهُ وتُدئبُهُ**» (٢) .

[٣] استجابة جمل استصعب على أهله :

عن أنس بن مالكٍ قال : كان أهلُ بيت من الأنصار لهم جمَلٌ يَسْنونَ (٣) عليه ، وإنَّ الجمل استُصعب عليهم ، فَمَنَعَهُم ظَهْرَهُ ، وإنَّ الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إنه كان لنا جملٌ نُسني عليه ، وإنَّه استُصعب علينا ، ومنَعَنا ظهره ، وقد عطِش الزّرعُ والنَّخلُ ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : «**قوموا**» فقاموا ، فدخل الحائط - والجمل في ناحية - فمشى النَّبيّ ﷺ نَحْوَهُ ، فقالت الأنصار : يا نبيَّ الله ، إنه قد صار مثل الكَلْب الكَلِبِ (٤) وإنَّا نخاف عليك صولَتَهُ ، فقال : «**ليس عليَّ منه بأسٌ**» فلمَّا نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتَّى خرَّ ساجداً بين يديه ، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذلَّ ما كانت قطُّ حتّى أدخله في

---

(١) الذفرى : العظم الشاخص خلف الأذن .

(٢) وتدئبه : أي تديم عليه العمل فيتعب ، والحديث أخرجه أبو داود كتاب الجهاد باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم والحاكم في المستدرك ٢ / ١٠٩ وقال : صحيح الإسناد والمقدسي في الأحاديث المختارة ١٥٨ / ٩ وأبو عوانة في مسنده ١ / ١٦٨ والبيهقي في السنن الكبرى ٨ / ١٣ وابن أبي شيبة في المصنف ٦ / ٣٢٢ وأحمد في المسند ١ / ٢٠٤ وأبو يعلى في مسنده ١٢ / ١٥٩ والأصبهاني في دلائل النبوة ١ / ١٥٩ قال الذهبي في تاريخ الإسلام : أخرج مسلم منه إلى قوله : حائش نخل ، وباقية على شرط مسلم ص٣٤٨ من السيرة النبوية ، وصححه الألباني أيضاً في صحيح سنن أبي داود ٢ / ٤٨٤ .

(٣) يسنون عليه : أي : يسقون عليه .

(٤) الكلب الكَلِبْ : الذي أصابه داءُ الكلب ، وهو مرض معدٍ ينتقل فيروسه في اللعاب بالعض من الفصيلة الكلبية إلى الإنسان وغيره.

العمل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، هذه بهيمة لا تعقلُ تسجُدُ لك، ونحن نعقل، فنحن أحقُّ أن نسجُدَ لك، فقال: «**لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلَحَ لبشر أن يسجد لبشَر لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها من عِظَم حقِّه عليها**»(١).

قال أبو نعيم في ما تضمنته هذه الحادثة وأمثالها: إما أن يكون النَّبيّ ﷺ أُعطي علمًا بمنطق هذه البهائم، فذلك له آية كما كان لسليمان عليه السلام آية بعلم منطق الطير، أو أنه علم ذلك بالوحي، وأيُّ ذلك كان ففيه أعجوبة وآية معجزة(٢).

[٤] تأدب الوحش معه ﷺ :

قالت عائشة رضي الله عنها : كان لآل رسول الله ﷺ وحش (٣) فإذا خرج رسول الله ﷺ لَعبَ واشتدَّ وأقبل وأدبر، فإذا أحسَّ برسول الله ﷺ قدْ دَخَلَ رَبَضَ فلم يترمْرم (٤) مادام رسول الله ﷺ في البيت كراهية أن يُؤذيه (٥) .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣ / ١٥٨) وجوّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣ / ٣٥) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٦ / ١٤٢): هذا إسناد جيد ، وقد روى النسائي بعضه. وأخرجه المقدسي في الأحاديث المختارة (٥ / ٢٦٦) وحسن إسناده قال في مجمع الزوائد (٩ / ٤): رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح غير حفص ابن أخي أنس وهو ثقة وذكر له الحافظ ابن كثير شواهد في البداية والنهاية (٦ / ١٤٢) وما بعدها ، والهيثمي في المجمع (٩ / ٤) وما بعدها. وذكر نحوه الذهبي في تاريخ الإسلام (ص٣٤٨) من السيرة النبوية، وفيه: ما سجد لي ، ولكن سخره الله لي ، وانظر تحقيق المسند (٢٠ / ٦٥-٦٦).

(٢) دلائل النبوة (٢ / ٤٩٩).

(٣) الوحش : حيوان البر الوحشي مثل حمار الوحش وبقر الوحش .

(٤) يترمرم : أي سكن ولم يتحرك .

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٦ / ١١٢ وَ ٦ / ١٥٠) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٣ / ٦١٧) وأبو يعلى في مسنده ٧ / ٤١٨ والطحاوي في شرح معاني الآثار(٤ / ١٩٥)، والطبراني في المعجم الأوسط (٦ / ٣٤٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٤): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح. وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٦ / ١٥٤) عن إسناد أحمد: على شرط الصحيح ، وقال الذهبي عن الحديث في تاريخ الإسلام : صحيح (ص٣٤٩) من السيرة النبوية .

[٥] ظهور البركة في فرس أبي طلحة :

عن أنس بن مالك ﷺ أنَّ أهل المدينة فزِعوا مرّةً فركبَ النَّبيُّ ﷺ فرسًا لأبي طلحة كان يقطِفُ أو كان فيه قطاف [١] فلمَّا رجع قال : وجدْنا فرَسَكُم هذا بَحْرًا [٢] فكان بعد ذلكَ لا يُجارى [٣] .

[٦] ظهور أثر البركة في بعير جابر :

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : كُنتُ مع النَّبيِّ ﷺ في غزاة فأبطأ بي جملي وأعْيَا، فأتى عليَّ النَّبيُّ ﷺ فقال : «**جابرٌ !**» فقلتُ : نعم . قال : «**ما شأنُك ؟**» قلت : أبطَأَ عليَّ جملي وأعيا، فتخلَّفتُ، فنزل يَحْجُنُه بمحْجَنه [٤]، ثُمَّ قال : اركبْ فركَبْتُ، فلَقَد رأيتُهُ أكُفُّه عن رسول الله ﷺ [٥] .

---

(١) قطاف أي : بطء في السير .

(٢) البحر من الخيل : الواسع الجري الشديد العدو .

(٣) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب الفرس القطوف ومسلم كتاب الفضائل باب في شجاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتقدمه للحرب والترمذي كتاب الجهاد باب ما جاء في الخروج عند الفزع وابن ماجه كتاب الجهاد باب الخروج في النفير والنسائي في السنن الكبرى (٦ / ٢٦٣) وأحمد في المسند (٣ / ٢٦١) وابن حبان في صحيحه (١٤ / ٢٨٤) وغيرهم .

(٤) بمحجنه يعني : يغمزه بالمحجن ، والمحجن : العصا المعوجة ، وكُلُّ معوج الرأس .

(٥) أخرجه البخاري كتاب البيوع باب شراء الدواب والحمير ومسلم كتاب المساقاة باب بيع البعير واستثناء ركوبه والنسائي كتاب البيوع باب البيع يكون فيه الشرط الفاسد وأحمد في المسند (٣ / ٣٨٥) وابن حبان في صحيحه (١٤ / ٤٥٠) وأبو عوانة في مسنده (٣ / ٢٤٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٤ / ٤٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥ / ٣٣٧) .

معجزات خارقة متفرقة

[١] تسبيح الطعام :

قال عبد الله بن مسعود – وهو يتكلم عن المعجزات في عهد النَّبيّ ﷺ –: «وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ» (١).

[٢] معرفته بلحم شاة أُخذت بغير إذن أهلها :

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وأصحابه مروا بامرأة فذبحت لهم شاةً واتَّخذت لهم طعامًا، فلمَّا رجع قالت: يا رسول الله، إنَّا اتّخذنا لكم طعامًا فادخلوا فكلوا، فدخل رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا لا يبدءون حتّى يبتدئ النَّبيُّ ﷺ فأخذَ النَّبيُّ ﷺ لُقمةً فلم يستطع أن يُسيغها، فقال النَّبيّ ﷺ: «**هذه شاةٌ ذُبحت بغير إذن أهلها**» فقالت المرأة: يا رسول الله، إنَّا لا نحتشم (٢) من آل سعد بن معاذ ولا يحتشمون منَّا، نأخذ منهم، ويأخذون منّا (٣).

[٣] تكثير المال ببركته ﷺ :

وكان على سلمان الفارسي رضي الله عنه مال، فأعطاه النَّبيّ ﷺ (قطعة من الذهب)

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة ، والترمذي كتاب المناقب باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ وابن خزيمة في صحيحه (١ / ١٠٢) والدارمي في السنن (١ / ٢٨) والشاشي في مسنده (١ / ٣٥٩) وأحمد في المسند (١ / ٤٦٠) وأبو يعلى في مسنده (٩ / ٢٥٣) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٤ / ٨٠٣) وأبو الشيخ الأصبهاني بنحوه في العظمة (٥ / ١٧٢٥) واللالكائي في كرامات الأولياء (١ / ١٣٤) والفريابي في دلائل النبوة (ص٦٨) والأصبهاني في دلائل النبوة أيضاً (١ / ١٢٠) وغيرهم .

(٢) لا نحتشم : لا نستحي .

(٣) أخرجه أبو داود كتاب البيوع باب في اجتناب الشبهات وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢ / ٦٤١) والأرناؤوط في تخريجه جامع الأصول (١١ / ٣٩٢) والحاكم في المستدرك (٤ / ٢٦٢) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأحمد في مسنده (٣ / ٣٥١) واللفظ له والبيهقي في السنن الكبرى (٥ / ٣٣٥) والدراقطني في سننه (٤ / ٢٨٦–٢٨٥).

فاستقلّها سلمان وقال: وأين تقعُ هذه من الذي عليَّ يا رسول الله؟ قال: «**خذها، فإنَّ الله سيؤدي بها عنك**» فأخذتها فوزنت لهم منها - والذي نفس سلمان بيده- أربعين أوقية [١] .

[٤] حصول الضوء في العصا لبعض أصحابه:

عن أنس بن مالك: أن عبّاد بن بشر وأُسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة ظلماء حِنْدِس [٢] فكان مع كل واحد منهما عصا، فأضاءت عصا أحدهما كأشد شيء، فلما تفرقا أضاءت عصا كل واحد منهما، حتى وصل إلى أهله [٣] .

[٥] الذاكرة الخارقة لأبي هريرة ﷺ :

كان أبو هريرة ﷺ يشتكي أنه ينسى كثيرًا من أحاديث النَّبيّ ﷺ، ثم إنَّ النَّبيّ ﷺ قال ذات يوم: «**من يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي، فلن ينسى شيئًا يسمعه مني**» قال أبو هريرة: فبسطت بُردةً كانت عليَّ، فوالذي بعثه بالحق ما نسيت شيئًا سمعته منه [٤] .

---

(١) الأوقية وزن معين يساوي من الذهب أربعة دنانير، والدينار يساوي أربعة جرامات وربعاً من الذهب تقريباً، والحديث أخرجه أحمد في المسند (٥ / ٤٤٤) وإسناده حسن كما في تحقيق المسند (٣٩ / ١٤٧).

(٢) حنْدس: شديدة الظلمة.

(٣) أخرجه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب منقبة أسيد بن حضير وعباد بن بشر وابن حبان في صحيحه (٥ / ٣٧٨) واللفظ له، عدا جملة: حتى وصل إلى أهله، فهي في البخاري بمعناها والنسائي في السنن الكبرى (٥ / ٦٨) والطيالسي في مسنده (١ / ٢٧١) والبيهقي في الاعتقاد (ص٣١٠) ومعمر بن راشد في الجامع (١١ / ٢٨٠) وأحمد في مسنده (٣ / ١٣٧) وعبد بن حميد في مسنده (١ / ٣٧٢) من المنتخب وغيرهم وانظر فتح الباري (٧ / ١٢٥).

(٤) أخرجه البخاري كتاب العلم باب حفظ العلم ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أبي هريرة والترمذي كتاب المناقب باب مناقب لأبي هريرة والنسائي في السنن الكبرى (٣ / ٤٣٩) والحميدي في مسنده (٢ / ٤٨٣)، والطبراني في الأوسط (١ / ٢٤٧) بنحوه وقد أخرج الحديث غير هؤلاء فانظر للتوسع في تخريجه الإصابة للحافظ ابن حجر (٧ / ٤٣٦-٤٣٨).

وهذا الحديث من علامات النبوة؛ لأن أبا هريرة كان أحفظ الناس بعد ذلك للأحاديث النبوية في عصره، وقد أجمع أهل الحديث على أنه أكثر الصحابة حديثًا.

قال الشافعي: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره، قال أبو الزعيزعة كاتب مروان: أرسل مروان إلى أبي هريرة، فجعل يحدثه - وكان أجلسني خلف السرير أكتب ما يحدث به - حتى إذا كان في رأس الحول أرسل إليه فسأله وأمرني أن أنظر فما غير حرفًا عن حرف [١].

[٦] إسماعُ الله الصحابة صوت النَّبيّ ﷺ وهم في منازلهم:

قال عبد الرحمن بن معاذ التيمي ﷺ: خطبنا رسول الله ﷺ بمنى، ففُتحت أسماعنا حتى كنّا نسمع ما يقول ونحن في منازلنا، فطفق يعلمهم مناسكهم .. الحديث [٢].

[٧] عاقبة النصراني المستهزئ:

روى أنس ﷺ قال: كان رجلٌ نصرانيًا، فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنّبيّ ﷺ، فعاد نصرانيًا ولحق بأهل الكتاب فأُعجبوا به ورفعوه، فكان يقول: ما يدري محمد إلاّ ما كتبْتُ له!! فأماته الله فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فِعْلُ محمد وأصحابه، لمّا هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه!، فحفروا له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، نبشوا عن صاحبنا لمّا هرب منهم فألقوه! فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض؛ فعلِموا أنه ليس من الناس فألقوه، و تركوه منبوذًا [٣].

---

(١) انظر الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر (٧ / ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٨).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب المناسك باب ما يذكر الإمام في خطبته بمنى والنسائي كتاب مناسك الحج باب ما ذكر في منى وأحمد في المسند (٤ / ٦١) والبيهقي في السنن الكبرى (٥ / ١٢٧) وابن قانع في معجم الصحابة (٢ / ١٥١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١ / ٣٦٩).

(٣) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ومسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم وأبو يعلى في مسنده (٧ / ٢٢) وأحمد في مسنده (٣ / ٢٢٢) وعبد بن حميد في مسنده (١ / ٣٨١) من المنتخب وانظر فتح الباري (٦ / ٦٢٥).

[٨] خاتم النبوة :

ويلحق بالخوارق ما وجد من علامة على ظهره الشريف ﷺ تدل على نبوته، وقد كان أهل الكتاب يعلمون هذه العلامة، وذكر أحد علمائهم ذلك لسلمان الفارسي ﷺ؛ ليعرف بها رسول الله ﷺ، ولما ذهب سلمان إلى المدينة النبوية تحقق من ذلك، فرأى الخاتم، ورأى الخاتم أيضًا جماعة من الصحابة، فعن السَّائب بن يزيد يقول: ذهبتْ بي خالتي إلى النَّبيّ ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إنّ ابن أُختي وجعٌ، فمسح رأسي ودعا لي بالبركة، ثُمّ توضّأ فشربتُ من وضوئه، ثُمَّ قُمْتُ خلف ظهره، فنظرتُ إلى خاتم النُّبُوّة بين كتفيه مثل زرِّ الحَجَلة [١] .

وقد رأى خاتم النّبوّة من الصحابة أيضًا: جابر بن سمرة [٢]، وأبو زيد الأنصاري[٣] ، وعبد الله بن سرجس [٤] .. وغيرهم [٥] ﷺ أجمعين.

ووجود هذه العلامة الخلقية المطابقة لما ورد في كتب أهل الكتاب أمر لا يقدر عليه إلاّ الخلاّق سبحانه.

استجابة الله عزّوجل لدعائه ﷺ:

ومن علامات تصديق الله لنبيه ﷺ أن يُجيب دعاءه إذا دعاه في عظيم المطالب وما دونها، وقد كان هذا ظاهراً في علاقة الرسول ﷺ بربه، فما كان

---

(١)أخرجه البخاري كتاب المرضى باب من ذهب بالصبي المريض ليدعى له ومسلم كتاب الفضائل باب إثبات خاتم النبوة وصفته ومحله من جسده صلى الله عليه وآله وسلم والترمذي كتاب المناقب باب في خاتم النبوة .

(٢)أخرجه مسلم كتاب الفضائل باب إثبات خاتم النبوة ...

(٣)أحمد في المسند (٥ / ٧٧) والحاكم في المستدرك (٢ / ٦٦٣) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤)مسلم كتاب الفضائل باب إثبات خاتم النبوة .

(٥)للإطلاع على عدد من الروايات في وصف خاتم النبوة ، انظر دلائل النبوة للبيهقي (١ / ٢٥٩- ٢٦٧) وروى فيه أن رجلاً يهودياً أراد الإطلاع على ذلك الخاتم ، قال : وإنما كانوا يبحثون عن ذلك لأنه مكتوب عندهم بصفته.

يُخيّب دعوته، وما كان الله ليستجيب دعاء من يدّعي النبوّة كذبًا وزورًا، بل لقد أكرم الله أتباعه ﷺ بإجابة دعائهم، وإن كانت دعوات غيره منها ما يُستجاب له، ومنها ما لا يستجاب له.

وكرامات أتباعه شهادة من الله له بصدق رسالته، وإن كان فضل الله وكرمه يشمل جميع المضطرين من عباده كما قال تعالى: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ** ﴾ [النمل: ٦٢]؛ لأن المضطر قد علم أن لا ملجأ له إلاَّ إلى الله فيجيبه بعظيم كرمه، لكن ذلك لا يكون بصفة متكررة للكافرين ولا بصفة دائمة للمؤمنين.

(أ) استجابة دعائه في الاستسقاء:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رجلاً دخل يوم الجمعة من باب كان وِجاه المنبر، ورسول الله ﷺ قائمٌ يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا، فقال: يا رسول الله، هلكت المواشي وانقطعت السُّبُل، فادعُ الله يُغيثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «**اللهم اسقنا، اللهم اسقنا**» قال أنس: ولا والله ما نرى في السّماء من سحاب ولا قزعةً [(١)] ، ولا شيئًا وما بيننا وبين سَلْعٍ [(٢)] من بيت ولا دار، قال: فطلعت من وَرائه سحابةٌ مثلُ التُّرْسِ، فلمَّا توسّطت السَّماء انتشرت ثُمَّ أمطرت، قال: والله ما رأينا الشَّمس ستًّا، ثُمَّ دخل رَجُلٌ من ذلك الباب في الجُمُعة المُقبلة، ورسول الله ﷺ قائمٌ يخطُبُ فاستقبَلَهُ قائمًا، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السُّبُل، فادعُ الله يُمسكها قال: فرفَعَ رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «**اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام**[(٣)] **والجبال والآجام**[(٤)] **والظِّراب**[(٥)] **والأودية ومنابت الشَّجر**» قال: فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس [(٦)] .

---

(١) ولا قزعة : قطعة من الغيم .
(٢) سَلْع : جبل في المدينة .
(٣) الآكام : جمع أكمة وهي الراعية .
(٤) الآجام : جمع أجم وهو الحصن .
(٥) الضراب : الجبال الصغار .
(٦) أخرجه البخاري كتاب الاستسقاء باب الاستسقاء في المسجد الجامع. واللفظ له ، ومسلم كتاب صلاة الاستسقاء باب الدعاء في الاستسقاء .

ومن يملك تكوين المطر في الجو الجاف وإنزاله إلاَّ الله سبحانه وتعالى وعلى إثر دعاء رسوله عطاءً وإمساكًا، وتلك الاستجابة الإلهية لا تكون لمن يدعي النبوة ويفتري على الكذب.

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك أيضًا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم ينزل عن منبره حتى وقعت قطرات من المطر على لحيته، وأنه عندما دعا الله أن يُمسك المطر بقيت المدينة محاطة بالسحاب في مثل الإكليل، ولم يأتِ أحدٌ من جهة من الجهات إلاَّ حَدَّث بالمطر الغزير وسال وادي قناة [١] شهرًا [٢].

وقال عمر رضي الله عنه: خرجنا إلى تبوك في قيظ [٣] شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل ينحر بعيره، فيعصر فَرْثَه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عوّدك في الدعاء خيرًا، فادعُ لنا. فقال: أتُحب ذلك؟ قال: نعم. فرفع يده فلم يرجعهما حتى قالت السماء [٤] فأظلمت ثم سكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت العسكر [٥].

(ب) استجابة دعائه ﷺ فيما دعا فيه:

لقد كان رسول الله ﷺ مُستجاب الدعوة فيما يدعو فيه ربه من قضاء الحوائج وتفريج الكرب وشفاء المرض وتحقيق المطالب وحلول البركة، حتى تواتر هذا الأمر عنه، فكان ذلك شاهداً من حاله بتصديق الله له بإجابة دعائه، وحوادث إجابة دعائه صلى الله عليه وآله وسلم كثيرة:

---

(١) أحد وديان المدينة.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الاستسقاء باب من تمطر حتى يتحادر المطر على لحيته، وانظر باب الدعاء إذا كثر المطر: حوالينا ولا علينا.

(٣) القيظ: الحر الشديد.

(٤) يعني تحرك السحاب فيها فاظلمت.

(٥) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١ / ٥٣).

منها: أنه لما قدم المدينة كانت من أوبأ أرض الله كما قالت عائشة ﵂، فدعا الله أن ينقل حُمَّى المدينة إلى الجحفة [١] وأن يجعل المدينة صحيحة، فكان ذلك [٢] .

ودعا الله لأم أبي هريرة أن تسلم، فلما رجع أبو هريرة إلى البيت أعلنت إسلامها [٣] .

ودعا لعبد الله بن عباس بالفقه في الدين [٤] فأصبح أحد علماء الأمة، حتى لقب بحبر الأمة وترجمان القرآن.

ودعا لأنس بن مالك بالمال والولد والبركة في ذلك، فكان من أكثر الأنصار مالاً وولدًا [٥] .

ودعا للسائب بن يزيد بالبركة، فبلغ أربعًا وتسعين سنة وهو جلد معتدل يتمتع بسمعه وبصره [٦] .

ودعا لقبيلة دوس بالهداية [٧] ، فهداهم الله بعد أن أبوا الإسلام [٨] .

---

(١) الجحفة : قرية بين مكة والمدينة .

(٢) أخرجه البخاري كتاب الدعوات باب الدعاء يرفع الوباء والوجع وفي الحج باب كراهية النبي أن تعرى المدينة ، ومسلم كتاب الحج باب الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها .

(٣) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أبي هريرة ، وأحمد باقي مسند المكثرين .

(٤) أخرجه البخاري كتاب الوضوء باب وضع الماءعند الخلاء ، وأحمد في مسند بني هاشم بداية مسند عبدالله بن العباس .

(٥) أخرجه البخاري كتاب الصوم باب من زار قوماً فلم يفطر عندهم ، وأحمد في باقي مسند المكثرين مسند أنس بن مالك ، قال أنس:– فإني لمن أكثر الأنصار مالاً ، وحدثتني ابنتي أمينة أنه دفن لصلبي مقدم حجاج البصرة بضع وعشرون ومائة ، انظر صحيح البخاري كتاب الصوم باب من زار قوماً فلم يفطر عندهم .

(٦) أخرجه البخاري كتاب الوضوء باب استعمال فضل وضوء الناس ، ومسلم كتاب الفضائل باب إثبات خاتم النبوة وصفته ومحله من جسده .

(٧) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم .

(٨) قال الحافظ ابن حجر : وقع مصداق ذلك (يعني الدعوة لهم بالهداية) ، فذكر ابن الكلبي أن حبيب بن عمرو بن حثمة الدوسي كان حاكماً على دوس ، وكان يقول : إني لأعلم أن للخلق خالقاً لكني لا أدري من هو ؟ فلما سمع النبي ﷺ خرج إليه ومعه خمسة وسبعون رجلا من قومه فأسلم وأسلموا ، فتح الباري (٨ / ١٠٢) بتصرف .

ودعا لأم خالد بنت خالد بن سعيد بطول العمر وهي صبية، فبقيت حتى ذكر من بقائها (١) .

ودعا لأبي زيد بن أخطب ومسح على وجهه، فعاش مائة وعشرين سنة وليس في رأسه إلاَّ شعرات بيض (٢) .

ودعا لعروة البارقي بالبركة في صفقة يمينه، فكان كثير الربح (٣) وكذلك عبد الله بن جعفر (٤) .

واشتكى إليه جرير بن عبد الله أنه لا يثبت على فرسه، فدعا الله له فلم يسقط عن فرس بعد ذلك (٥) .

واشتكى إليه عليّ بن أبي طالب ضعف الخبرة في القضاء، فدعا له بالبصيرة في القضاء، قال عليّ: فما شككت في قضاء بعد هذا (٦) .

ودعا له أيضًا بالشفاء من مرض ألمَّ به، قال عليّ: فما اشتكيت ذلك الوجع بعد (٧) .

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب من تكلم بالفارسية والرطانة ، وأبو داود كتاب اللباس باب فيما يدعى لمن لبس ثوب جديداً ، وأحمد في باقي مسند الأنصار حديث أم خالد بن خالد بن سعيد بن العاص .

(٢) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب في آيات إثبات نبوة النبي وما قد خصه الله عزوجل ، وذكره الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣ / ١٩٣ .

(٣) أخرجه أبو داود كتاب البيوع باب في المضارب يخالف ، وأحمد في المسند ٤ / ٣٧٦ وإسناده صحيح على شرط البخاري كما في تحقيق المسند ٣٢ / ١٠٠-١٠٢ وانظر الكلام على اسناده هنالك .

(٤) مسند أحمد ١ / ٢٠٤ ، وابن سعد ٤ / ٣٦-٣٧ والنسائي في الكبرى (٨٦٠٤) وَ أبوداود مختصراً وإسناد أحمد على شرط مسلم ، انظر تحقيق المسند ٣ / ٢٧٩ .

(٥) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب غزوة ذي الخلقية ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل جرير بن عبدالله .

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣ / ١٤٥ وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأحمد في المسند ، وهو حديث صحيح كما في تحقيق المسند ٢ / ٣٥٦،٦٨ .

(٧) مسند أحمد ١ / ٨٣ ، وصححه ابن حجر كما في تحقيق المسند ٢ / ٦٩ .

واستأذنه شاب في الزنا فصرفه عن ذلك بأسلوب حكيم [١]، ثم دعا له بتحصين فرجه، فكان ذلك الفتى لا يلتفت إلى شيء [٢] .

ودعا لطفل صغير بالهداية عندما خُيّر بين أبيه المسلم، وأمه الكافرة فاختار أباه المسلم [٣] .

ودعا الله عزّ وجل أن يعز الإسلام إمّا بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام، فاستجاب الله له وهدى عمر بن الخطاب في اليوم الثاني [٤] .

ودعا لقبيلة ثقيف بالهداية [٥]، فأقبلوا مهتدين بعد أن حاربوا المسلمين[٦].

ودعا لأصحابه يوم بدر بالرزق ففتح الله عليهم بعد ذلك [٧] .

ودعا لجُعيل الأشجعي بالبركة في فرسه وكانت عجفاء ضعيفة، فأصبحت تُسابق الناس وباع مما أنتجته بمال كثير [٨] .

ودعا لأم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها بأن يُذهب الله غيرتها [٩] فاستجاب الله سبحانه له [١٠] .

---

(١) حيث قال له :– أدنه ، فدنا منه قريباً، فقال: أتحبه لأمك قال: لا والله جعلني فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ثم سأله هل يحبه لابنته أو أخته أو عمته أو خالته فأجاب بالنفي، فأعلمه أن الناس كذلك لا يحبونه لبناتهم ولا لأخواتهم ولا لعماتهم ولا لخالاتهم ثم وضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وحَصّن فرجه، فكان الفتى لا يلتفت إلى شيء .

(٢) مسند أحمد (٥ / ٢٥٦–٢٥٧) والطبراني في الكبير وإسناده صحيح كما في تحقيق المسند (٣٦ / ٥٤٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه كتاب الأحكام باب تخيير الصبي بين أبويه ، وأحمد في باقي مسند الأنصار من حديث أبي سلمة الأنصاري ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢ / ٤١).

(٤) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب في مناقب عمر بن الخطاب ، وابن ماجه كتاب المقدمة باب فضل عمر ، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة والحاكم في المستدرك (٣ / ٥٧٤)، وصححه الألباني في سنن الترمذي (٣ / ٢٠٤).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٦ / ٤٢٣).

(٦) البخاري كتاب المغازي باب قوله تعالى: (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ..) .

(٧) المستدرك (٢ / ١٤٤) وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأحمد وأبو داود والبيهقي.

(٨) النسائي في السنن الكبرى (٥ / ٢٥٣)، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في الإصابة (١ / ٤٩٠).

(٩) النسائي في السنن الكبرى (٣ / ٢٨٦).

(١٠) ففي مسند أبي يعلى (١٢ / ٣٣٨): فكانت في النساء كأنها ليست منهن لا تجد ما يجدن من الغيرة .

ودعا الله أن يُعين أصحابه الذين توجّهوا لقتل كعب بن الأشرف الذي آذى المسلمين فنجحوا في مهمّتهم، رغم تحصّنه وصعوبة النيل منه (١) .

إلى غير ذلك من أنواع الدعوات لمن دعا لهم (٢) .



(ج) استجابة دعائه ﷺ على من دعا عليهم:

وقد حصل ذلك في حوادث متعددة، فمن ذلك أنه دعا على الكفار حين رأى منهم إدبارًا عن الحق، فقال: «**اللهم سبع كسبع يوسف**»، فأخذتهم سنَة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان من الجوع (٣) .

ودعا على سبعة من قريش كانوا يهزءون به وبالإسلام، فقال عبد الله بن مسعود: إنه رآهم صرعى في قليب بدر (٤) .

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب قتل كعب بن الأشرف، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود .

(٢) للاستزادة انظر دلائل النبوة لسعيد باشنفر (١ / ٣٥٥–٤٨٠، ٢ / ٥٣٦–٤٩٧).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الجمعة باب دعاء النبي اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب الدخان، ورؤيتهم الدخان إما من بخار حرارة الأرض، أو لتخيلهم ذلك من شدة الجوع كما ذكره الحافظ ابن حجر في شرح الحديث .

(٤) أخرجه البخاري كتاب الوضوء باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب ما لقي النبي من أذى المشركين. والسبعة الذين دعا عليهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هم: عمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد .

ودعا على عامر بن الطفيل [١] عندما هدّد بغزو المدينة، فأصابته غدة [٢] ومات على ظهر فرسه [٣] .

ودعا على رجل تكبّر وأبى أن يأكل بيمينه زاعمًا أنه لا يستطيع، فقال: « لا استطعت » فما رفعها إلى فيه [٤].

وكان ابن أبي لهب يسب النّبيّ ﷺ فدعا عليه النّبيّ ﷺ قائلاً: «**اللهم سلّط عليه كلبك**» فخرج إلى الشام تاجرًا فنزل منزلاً، فقال: إني أخاف دعوة محمد، فطمأنه رفاقه، وناموا حوله وجعلوه وسطهم، فجاء الأسد ودخل إليه قاصداً إياه فافترسه [٥] .

إلى غير ذلك من دعواته صلى الله عليه وآله وسلم على من دعا عليهم [٦] .

وإجابة دعواته على من كفر به شهادة من الله على صدق رسالته، وعلى أن الكفر به جريمة يستحق صاحبها العقوبة.

ولقد شهد المؤمنون والكافرون إجابة الله لدعاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في خرق السّنن المعتادة له، وفي إكرام من دعا لهم، وفي الانتقام ممن دعا عليهم، وكان ذلك سببًا في قوة إيمان المؤمنين وفي إقناع المتشككين والكافرين برسالته، وحفظ جيل الصحابة تلك الوقائع بأسماء أصحابها وأماكنها وظروفها وأبلغوها إلى التابعين، وحملها التابعون عنهم إلى من بعدهم بتوثيق دقيق كما سبق بيانه، ويستحيل أن يتحقق ذلك التأييد من الله لمن يدّعي الكذب عليه ويفتري دعوى الرسالة وليس بمرسل.

---

(١) المستدرك (٤ / ٩٢).

(٢) الغدة: العقدة في الجسم يطيف بها الشحم.

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان ...

(٤) أخرجه مسلم كتاب الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامها، وأحمد في أول مسند المدنيين أجمعين من حديث سلمة بن الأكوع، والدارمي كتاب الأطعمة باب الأكل باليمين.

(٥) الحاكم في المستدرك (٢ / ٥٨٨)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه الحافظ في الفتح (٤ / ٣٩).

(٦) للاستزادة انظر دلائل النبوة لسعيد باشنفر (١ / ٣٥٥-٤٨٠، ٢ / ٥٣٦-٤٩٧).

خاتمة

وهكذا تشهد الخوارق للعادات والسّنن الكونية التي جاء ذكرها في كتاب الله بأنَّ محمداً هو رسول الله ﷺ المصدق من الله بخرق السنن تأييداً له، كانشقاق القمر وحادثة الإسراء، ونصره له أثناء الهجرة، وفي غزوة بدر بإنزال المطر وإلقاء النعاس على أتباعه، وإنزال الملائكة للقتال معهم، وإرسال الريح على أعدائه والجنود التي لا ترى كما في غزوة الأحزاب، وغيرها من الحوادث.

ولقد استفاضت الأخبار في زمن الصحابة بوقائع تأييد الله لرسوله ﷺ بخرق العادات والسُّنن الكونية بما يعد شهادة من الله له وتصديقًا لرسالته، وقد حفظ المسلمون هذه الوقائع في كتب الحديث بأدق مقاييس الحفظ والتوثيق التي لا تعرف البشرية لها مثيلاً، مما جاء مفصلاً لما ذكره القرآن من المعجزات أو التي انفردت بها السُّنّة من الحوادث الكثيرة التي وقعت للرسول وأصحابه كحوادث تكثير الطعام القليل؛ حتى يكفي حاجة المجموعات أو المئات أو الآلاف من أصحاب رسول الله ﷺ في إقامتهم أو أثناء رحلاتهم وغزواتهم أو تعرض بعضهم لقلّة الطعام.

وكحوادث نبع الماء من إناء صغير من بين أصابعه حين يضع يده فيه حتى يسقي منه جيش بأكمله، أو مباركة الماء في أوعيته أو منابعه.

وكحوادث حفظ الله له من المتآمرين عليه لقتله أو تسميمه، وشفاء الله لمن يدعو له من المرضى أو المصابين.

وكحوادث استجابة الشجر لأمره، وحنين الجذع حزنًا على فراقه، وشهادة الحيوان بنبوّته، وتخاطب الحيوانات معه، وتسبيح الطعام بين يديه، وإضاءة العصا لبعض أصحابه، واستجابة الله لدعائه دون أن يخيبه، وتغيير الكثير من السّنن له إجابة لدعوته ولمن دعا لهم أو دعا عليهم.

وهذه الدلائل وأمثالها هي التي كانت سببًا لزيادة الإيمان واليقين عند المسلمين كما كانت سببًا في تحوّل الكفار من العداء الشديد والكراهية المستحكمة لرسول الله ﷺ إلى الإيمان به والحب له أكثر من حب الآباء والأبناء، وحملتهم على تقديم الأرواح والمهج للذَّبِّ عنه ونشر دينه الذي بُعث به.



الفصل الخامس

البينة العلمية

مقدمة

لقد أرسل الله محمداً ﷺ إلى الناس كافة على اختلاف عصورهم وثقافاتهم ومداركهم، وأيده ببينات متنوعة تتناسب مع جميع من أُرسلَ إليهم إلى يوم القيامة، وكما رأينا معجزة الفصاحة في كتاب الله التي أخضعت فصحاء العرب، ومعجزة البشارات التي أقامت الدليل لأهل الكتاب على صدق رسول الله ﷺ، ومعجزات الخوارق التي أرغمت الكافرين المعاندين وأوضحت لهم حجة النبيّ ﷺ الساطعة، ومعجزة الإخبار بالغيب التي تجلت ولاتزال تتجلى وتتحقق على مر القرون والعصور.

فهيا لنرى بعض الأبحاث من معجزة وعد بها القرآن وتجلت في عصرنا وشاهد حقائقها أهل الاختصاصات الكونية العلمية الدقيقة في عصرنا، كعلم الفلك وعلوم الأرض والأرصاد والنبات والحيوان وعلوم الطب المختلفة وعلوم البحار وغيرها من العلوم الكونية، ليكون ذلك دليلاً لكل عاقل في عصرنا أن هذا القرآن من عند الله، وأن العلامة الإلهية الشاهدة بأنه من الله هي العلم الذي تحمله الآيات وتجليه الاكتشافات العلمية الدقيقة بعد رحلة طويلة من البحث والدراسة، وباستخدام أدق الآلات التي لم تصنع إلا في عصر الثورة الصناعية الحاضرة، ولقد أشار القرآن إلى هذا النوع من الإعجاز ووعد بإظهاره في قوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** (٥٣) ﴾ [فصلت: ٥٣].

ويقوم هذا الإعجاز على مشاهدة البشر للعلم الذي أخبر به القرآن من حقائق في آفاق الأنفس والأكوان، كما قال تعالى: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** (٨٧) **وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** (٨٨) ﴾ [ص: ٨٧-٨٨] وبين أن ذلك الحين هو حين القدرة على مشاهدة

أسرار ما تضمنته آيات القرآن . قال تعالى : ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** (٩٣) ﴾ [النمل:٩٣] فتتحقق بذلك المعجزة عندما يعلم الناس أن هذا القرآن نزل بعلم الله كما قال تعالى : ﴿ **لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا** (١٦٦) ﴾ [النساء: ١٦٦] أي أنزله وفيه علمه مصدقاً لرسالة الرسول ﷺ .

١ - وأنزلنا الحديد

قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

تتحدث هذه الآية عن وجود الحديد في الأرض وأنه وُجد فيها بعملية إنزال من السماء، وهذا يسوقنا إلى دراسة كيفية تكوين الحديد في الكون .

وقد درس العلماء المتخصصون هذا الأمر فوجدوا أن ٩٨٪ من الكون يتكون من الهيدروجين والهيليوم وهما أخف العناصر[١] وأن الـ٢٪ الباقية تشكل العناصر الأثقل وعددها مائة وخمسة عنصر، مما حمل الدارسين على استنباط حقيقة تكون المواد الأثقل وزناً ذرياً من المواد الأخف، وأن ذلك يتم عن طريق الاندماج النووي [٢] الذي تصحبه طاقة هائلة، ووجد الباحثون أن هناك نجوماً تصل درجة حرارتها من ٣٠٠ ألف مليون درجة إلى ٤٠٠ ألف مليون درجة مئوية[٣] تسمح بأن يتكون الحديد بداخلها . فإذا وصلت كمية الحديد إلى ٥٠٪ من كتلة النجم وأصبح قلب النجم كله حديداً تتوقف العملية بالكامل وعندئذ ينفجر النجم، وإذا انفجر تناثرت أشلاؤه في صفحة الكون ودخلت بقدر الله في مجال جاذبية أجرام سماوية أخرى تحتاج إلى هذا الحديد، ونرى ذلك يحدث الآن كما نرى نيازك حديدية تصل إلى الأرض مثل ما حدث في جنوب السودان حين نزل في مدينة جوبا نيزك كتلته (٩٠ طناً) . وأغلب النيزك يحترق باحتكاكه بالغلاف الغازي، ووصول (٩٠ طناً) من الحديد الصافي يعني أن كتلة هذا النيزك كانت أكبر من ذلك بأضعاف كثيرة .

---

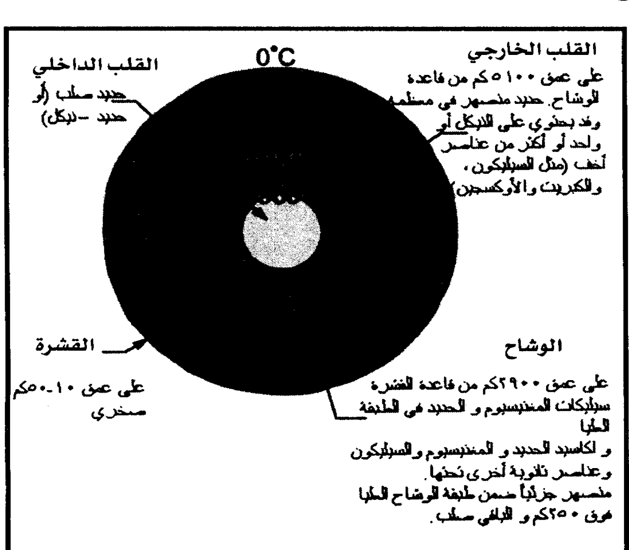
(١) يكون غاز الهيدروجين وحده وهو أخف العناصر أكثر من ٧٤٪ من مادة الكون، يليه في الكثرة غاز الهيليوم، ثاني أخف العناصر ، الذي يكون أكثر من ٢٤٪من مادة الكون)

(٢) إن التفاعل الأساسي الذي يولد كميات الطاقة الهائلة التي تشعها الشمس ومعظم النجوم الأخرى سببه الاندماج النووي لعنصر الهيدروجين وتحوله إلى هيليوم، الذي تندمج ذراته بدورها مكونة عناصر أثقل وصولاً إلى عنصر الحديد .

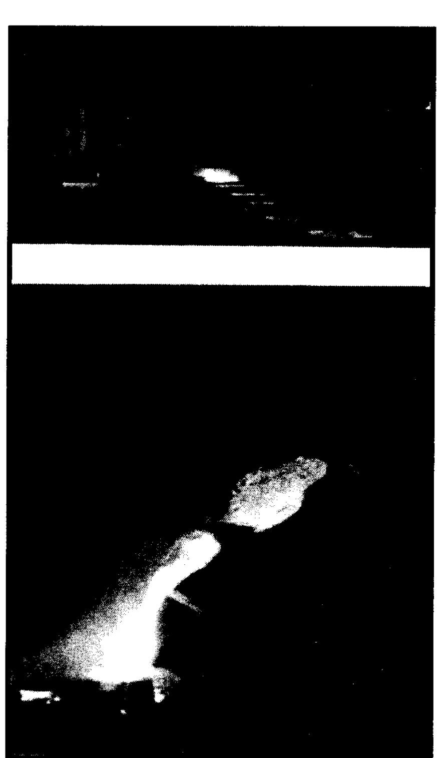
(٣) بينما لا تزيد درجة حرارة الشمس عن ٦٠٠ ألف درجة على سطحها و ٢٠ مليون في باطنها .

ونحن نرى النيازك الحديدية تصل إلى الأرض وتصل إلى القمر وإلى المجموعات الأخرى، مما دفع العلماء إلى تصور أن الأرض حينما انفصلت عن الشمس لم تكن سوى كومة من الرماد.

ويقول المختصون إن الأرض تشكلت قبل أربعة بلايين ونصف بليون عام وكانت النيازك والمذنبات تقصفها بشدة وعنف بحيث كانت الحرارة المنبعثة من هذا التصادم والقصف الفائق السرعة كافيه لإذابة الكوكب بأكمله، ثم بدأت تبرد بعد ذلك واستمرت تبرد إلى اليوم، وأخذت المواد الأكثر كثافة مثل الحديد والقادمة من تلك النيازك طريقها إلى قلب ومركز الأرض، بينما صعدت السيليكات الأخف وزناً وكذلك مركبات الأوكسجين الأخرى والماء القادم من المذنبات إلى قرب السطح. ويكون الحديد أكثر من ٣٥٪ من كتلة الأرض حيث تتكون الأرض من قلب صلب من الحديد ثم يليه قلب منصهر أغلبه من الحديد، ثم أربعة أوشحة متمايزة يشكل الحديد فيها نسبة عالية ثم الغلاف الصخري للأرض وفيه نسبة جيدة من الحديد، ويوضح الشكل الآتي تركز المعادن في طبقات الأرض المختلفة.



ونلاحظ أن القلب الداخلي يتكون في معظمه من الحديد في حالته الصلبة بينما يتكون القلب الخارجي الذي يحيط به من الحديد و ١٠٪ من الكبريت، وبهذا يكون الحديد عنصراً مهماً من مكونات طبقات الأرض السبع.

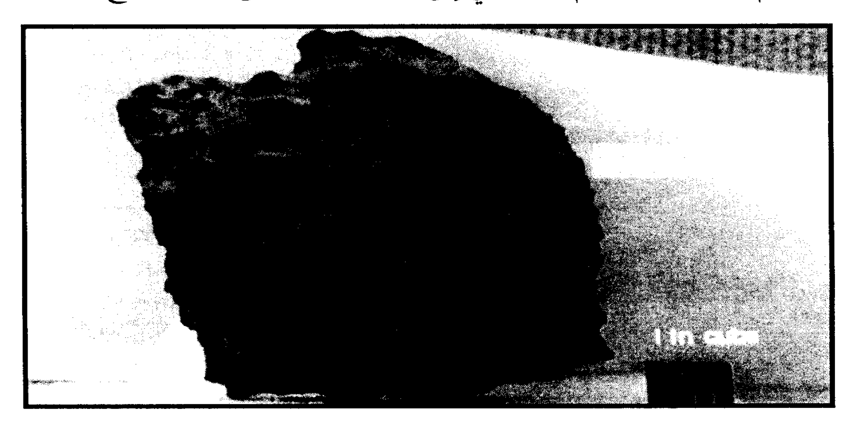


وقال البرفسور آرمسترونج[1] أحد مشاهير علم الفلك في أمريكا والذي يعمل في وكالة الفضاء الأمريكية ناسا حين سألناه كيف تكون الحديد: (سأحدثكم كيف تكونت كل العناصر على الأرض. لقد اكتشفناها، بل لقد أقمت عدداً من التجارب لإثبات ما أقول لكم. إن العناصر المختلفة تجتمع فيها الجسيمات المختلفة من إلكترونات وبروتونات وغيرها، لكي تتحد هذه الجسيمات في ذرة كل عنصر تحتاج إلى طاقة. وعند حسابنا للطاقة اللازمة لتكوين ذرة الحديد وجدنا أن الطاقة اللازمة يجب أن تكون كطاقة المجموعة الشمسية أربع مرات، ولذلك يعتقد العلماء أن الحديد عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها.

وعند سؤاله متى اكتشف العلماء التجريبيون حقيقة إنزال الحديد إلى الأرض؟ قال: (بأنها لم تعرف عن العلماء التجريبيين إلا في الربع الأخير من

(١) انظر كتاب إنه الحق، الشيخ عبدالمجيد الزنداني (ص٦٧) مطابع المحرابي.

القرن العشرين وأنه لم يُشِر أحد من العلماء المتخصصين والباحثين إلى شيء من ذلك، ولم تُشر كتب العلم التجريبي إلى هذه الحقيقة قبل هذا التاريخ) .



إن علماء الفيزياء قد تمكنوا من أن يوجدوا عناصر أثقل من عناصر أخف[١] . واستطاعوا أن يحسبوا الطاقة اللازمة لتكوين كل عنصر من هذه العناصر وقد وجدوا أن الطاقة اللازمة لتكوين ذرة واحدة من الحديد تحتاج إلى أربعة أضعاف الطاقة الموجودة في المجموعة الشمسية مما جعلهم يجزمون بأن الحديد لا يمكن أن يكون قد خُلِقَ في الأرض أو في المجموعة الشمسية بل لابد أن يكون قد خُلِقَ في نجم خارج المجموعة الشمسية ونزل إلى الأرض في صورة حديد .

أقوال المفسرين :

وهيا لنرى ما قاله علماء التفسير في هذه الآية :

لقد انقسم المفسرون إلى فريقين :

فمنهم من فسر اللفظ على ظاهره فقالوا : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ بمعنى أن الله

---

(١) وأن وراء كل اكتشاف من هذه الاكتشافات جائزة نوبل .

أنزل الحديد كما أنزل آدم من السماء إلى الأرض، وهو قول ابن عباس وعكرمة وإليه ذهب الطبري والقرطبي والواحدي.

ومنهم من اضطر إلى تأويل اللفظ عن ظاهره لاستبعاد إمكانية تصور نزول الحديد إلى الأرض من السماء ولِما يشاهدونه في أزمنتهم وبيئاتهم من استخراج الحديد من باطن الأرض فقالوا: ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ** ﴾ بمعنى أنشأناه وخلقناه وهو قول الحسن وإليه ذهب ابن كثير والثعالبي والشوكاني.

ونرى من أقوالهم أنهم أَوَّلُوا لفظ أنزلنا إلى خلقنا وجعلنا، وفرقٌ بين الإنزال والخلق والجعل لكنها المعارف البشرية المحدودة في تلك الأزمنة التي كانت تحمل المفسرين على صرف اللفظ عن ظاهره.

وجه الإعجاز:

لم يتمكن الإنسان من معرفة حقيقة أن الحديد نزل من السماء إلى الأرض إلا بعد أن امتلك من الوسائل العلمية ما تمكَّن به من معرفة ما جرى ويجري في أعماق النجوم البعيدة لتكوين مادة الحديد، وبعد أن تمكن من تحويل بعض العناصر الخفيفة إلى عناصر ثقيلة وحساب ما يحتاج إليه ذلك من طاقة، وعجزه عن تكوين مادة الحديد من مواد أخف منه إذ يتطلب ذلك طاقة تساوى أربعة أضعاف طاقة المجموعة الشمسية. كما أن استخراج البشر للحديد من مناجمه في باطن الأرض جعلهم لا يتوقعون أن يكون الحديد قد نزل من السماء إلى الأرض وحملهم على الاعتقاد بأنه خلق مع سائر العناصر الأرضية. لذلك خلت العلوم التجريبية من أي إشارة إلى هذه الحقيقة قبل الربع الأخير من القرن العشرين. وكذلك اضطر كثير من المفسرين إلى تأويل اللفظ القرآني ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ** ﴾ إلى معنى لا يحتمله اللفظ بما فيهم مفسرون معاصرون عاشوا في القرن العشرين. فمن أخبر محمداً ﷺ بهذه الحقيقة التي لم تعرفها البشرية إلا في

الربع الأخير من القرن العشرين والتي خفيت عن كل البشر حتى هذا التاريخ، من؟ إلا الذي أنزل الحديد وأنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً القائل: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)** ﴾ [الحديد: ٢٥][١].

---

(١) أشكل على بعض العلماء قوله تعالى (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) فلم يتصوروا إمكانية نزول الأنعام من السماء وقد دلت الكثير من البحوث المتعلقة بالحياة على عجز علماء الحياة أن يخلقوا مادة حية من مكونات الأرض فقرروا أن الحياة قد جاءت من خارج الأرض وقد قرر القرآن أن آدم نزل من الجنة إلى الأرض فما الذي يمنع أن يكون الله قد أنزل هذه الحيوانات من مكان في السماء إلى الأرض بطريقة يعلمها الله .

٢- أو كظلمات في بحر لجي

لقد كانت البحار عالماً مجهولاً إلى القرن الثامن عشر الميلادي، كما كانت الخرافات والأساطير المتعلقة بالبحار تسود الحضارات القديمة، وكان الرومان يعتقدون بأن قمم الأمواج جياد بيضاء تجر عربة الإله (نبتون)[١] بزعمهم، وكانوا يقومون بالطقوس والاحتفالات لإرضاء هذه الآلهة، وكانوا يعتقدون بوجود أسماك مصاصة لها تأثيرات سحرية على إيقاف السفن، وكان لليونانيين مثل هذه الاعتقادات كما كان بحارتهم يعزون سبب الدوامات البحرية إلى وجود وحش يسمونه كاربيدس يمتص الماء ثم يقذفه[٢] ، ولم يكن بمقدور الإنسان معرفة أعماق الشواطئ الضحلة والمياه الراكدة ناهيك عن معرفة البحار العميقة والحركات الداخلية في هذه المياه، كما لم يكن بإمكان الإنسان الغوص في هذه الشواطئ إلا في حدود عشرين متراً ولثواني معدودة ليعاود التنفس من الهواء الجوي، وحتى بعد ابتكار أجهزة التنفس للغواصين لم يتمكن الإنسان من الغوص أكثر من ثلاثين متراً نظراً لازدياد ضغط الماء على جسم الغواص مع زيادة العمق والذي يعادل عند عمق ثلاثين متراً أربعة أضعاف الضغط الجوي على سطح الأرض[٣] وعندئذٍ يذوب غاز النتروجين في دم الغواص ويؤثر على عمل مخه فيفقده السيطرة على حركاته[٤] ويصاب الغواصون نتيجة لذلك بأمراض تعرف في الطب بأمراض الغواصين، أما إذا نزل الغواص إلى أعماق بعيدة فإن ضغط الماء يكفي لهرس جسمه.

---

(١) أسرار المحيطات ، دار الكتاب العربي ، ١٩٩٦م .

(٢) Wikipedia, the Free Ency clopedig.

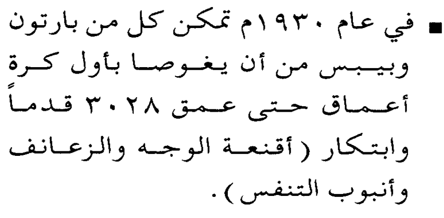
(٣) يزداد ضغط الماء على الغواص بمقدار ضغط جوي واحد كلما نزل على عمق عشرة أمتار .

(٤) عند نزول الغواص إلى هذه الأعماق فإن غاز النتروجين يذوب في الدماء تحت الضغط العالي فإذا ما ارتفع الغواص فجاءة نتيجة لفقدان السيطرة على حركته فإن الضغط يخف ويخرج غاز النتروجين فائراً كما تخرج الغازات الذائبة في قارورة المياه الغازية عند رجها .

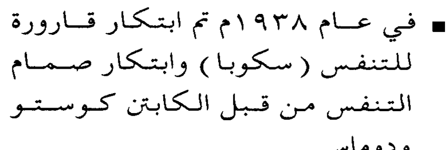
التسلسل الزمني لاكتشاف أعماق البحار:

- في عام١٣٠٠ م استخدم صيادو اللؤلؤ أول نظارات واقية مصنوعة من صدف السلاحف(١).
- في عام ١٨٦٠م تم اكتشاف أحياء في قاع البحر المتوسط باستخدام حبل حديدي (كيبل).
- في عام ١٨٦٥م تم ابتكار مجموعة غطس مستقلة بواسطة كل من (روكايرول ودينايروز).
- في عام ١٨٩٣م تمكن بوتان من إلتقاط صور تحت الماء(٢).
- في عام ١٩٢٠م تم استخدام طريقة السبر بالصدى (صدى الموجات الصوتية) لمعرفة الأعماق.





- في عام ١٩٣٠م تمكن كل من بارتون وبيبس من أن يغوصا بأول كرة أعماق حتى عمق ٣٠٢٨ قدماً وابتكار (أقنعة الوجه والزعانف وأنبوب التنفس).



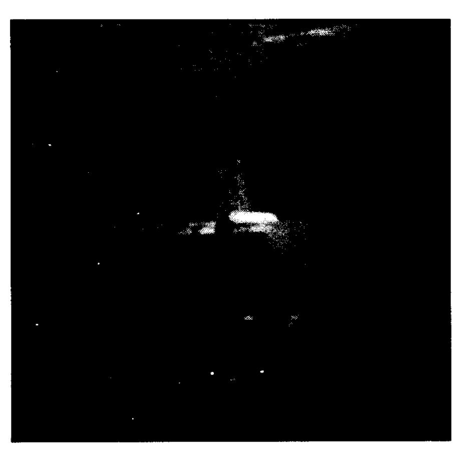
- في عام ١٩٣٨م تم ابتكار قارورة للتنفس (سكوبا) وابتكار صمام التنفس من قبل الكابتن كوستو ودوماس.

---

(١) في عام١٥٢٠م استطاع ماجلان أن يعبر المحيط الهادي بمساعدة ملك البرتغال وفي عام ١٥٢٢م تمكنت هذه السفن من أن تبحر حول العالم.

(٢) في عام ١٨٧٢م تم إبحار السفينة ـ تشالنجر ـ في رحلة بحث علمية لدراسة البحار، مما ساعد على توفير معلومات علمية عن البحار.

■ في عام ١٩٥٨م تم إجراء تجارب الاختبارات على غواصة الأعماق (الستينيات) وابتكار (ابرس) غلاصم[١] للتنفس تحت الماء وتجربتها لأول مرة .



■ وتمكن الإنسان من الغوص إلى أعمق بقعة في المحيط الهادي[٢]، كما تمكن من البقاء في أعماق البحر لعدة أيام[٣]، واكتشف الإنسان وجود فوهات في أعماق البحر[٤]، وصنع الإنسان الغواصة الصفراء[٥] والغواصات النووية[٦].

---

(١) تشبه الخياشيم .

(٢) في عام ١٩٦٠م وفي الثالث والعشرين من يناير نزلت الغواصة (تريستا) وهي عبارة عن كرة من الصلب جدارها يبلغ سمكه ٩ سنتمترات وبإمكانها الهبوط والصعود فقط وعلى متنها كلاً من : دونالد والش وجاكوى بيكارد وبعد أربع ساعات من الهبوط لمسافة ١١كلم تم الوصول لأعمق منطقة في المحيط الهادي (خانق مريانا) واكتشف الإنسان لأول مرة بواسطة هذه الغواصة وجود براكين تحت الماء وعيون ماء حارة وكثير من الأحياء المائية .

(٣) في عام ١٩٦٢م تمكن غواصون من البقاء لمدة أسبوع في أول غرفة تشبع "كونشلف Ia" وهي بيوت مائية للغواصين .

(٤) في عام ١٩٧٧م تم اكتشاف وجود حياة في فوهات أعماق البحار وعثرت مركبة (نوتايل) على فوهات في أعماق البحر قرب المكسيك يتدفق منها الماء وهو في درجة ٣٥٠°م وحين يرتفع ماءها فوق الصخور يتفاعل مع المعادن ليتحول إلى اللون الأسود ويصبح شبيهاً بالمدخنة ، كما تم صناعة غواصة الأبحاث الأمريكية (ألفين) القادرة على الغوص إلى عمق ٣٦٥٠متر .

(٥) في عام ١٩٩٥م صمم البريطاني روبرت ليدز غواصة صفراء تشبه الصحن الطائر معدة للاستخدام التجاري ويمكن بها مراقبة الأسماك على عمق يصل إلى خمسين متراً .

(٦) صناعة الغواصات النووية : لم يكن باستطاعة الغواصات الصغيرة التي تعمل بالبطاريات من البقاء مغمورة في الماء أكثر من بضعة أيام فقام الإنسان بصناعة الغواصات التي تعمل بالطاقة النووية والتي يمكنها البقاء لأكثر من سنتين وهي كبيرة الحجم وتحمل طاقماً كبيراً، وتعتبر الغواصة الروسية (تايفون) من أكبر الغواصات حيث تزن أكثر من ٢٥ألف طن وطولها ١٧٢متراً ، والغواصة الروسية كورست التي غرقت في أغسطس ٢٠٠٠م وهي تزن ١٨ ألف طن وعلى متنها ١١٨فرداً في بحر بارتنس.

معلومات حديثة في علم البحار:

لم تبدأ الدراسات المتصلة بعلوم البحار وأعماقها على وجه التحديد إلا في بداية القرن الثامن عشر عندما توفرت الأجهزة المناسبة والتقنيات وصولاً إلى ابتكار الغواصات المتطورة. وبعد عام ١٩٥٨م أي بعد ثلاثة قرون من البحوث والدراسات العلمية وعلى أيدي أجيال متعاقبة من علماء البحار توصل الإنسان إلى حقائق مدهشة منها :

[١] **ينقسم البحر إلى قسمين كبيرين :**

(أ) البحر السطحي الذي تتخلله طاقة الشمس وأشعتها.

(ب) البحر العميق الذي تتلاشى فيه طاقة الشمس وأشعتها.

[٢] يختلف البحر العميق عن البحر السطحي في الحرارة والكثافة والضغط ودرجة الإضاءة الشمسية، والكائنات التي تعيش في كل منهما ، ويفصل بينهما موج داخلي.





[٣] الأمواج البحرية الداخلية :

تغطي الأمواج الداخلية البحر العميق وتمثل حداً فاصلاً بين البحر العميق والبحر السطحي، كما يغطي الموج السطحي سطح البحر ويمثل حداً فاصلاً بين الماء والهواء ولم تكتشف الأمواج الداخلية إلا في عام ١٩٠٤م(١). ويتراوح طول الأمواج الداخلية ما بين عشرات إلى مئات الكيلومترات كما يتراوح ارتفاع معدل هذه الأمواج ما بين ١٠ إلى ١٠٠متر تقريباً.

[٤] اشتداد الظلام في البحر العميق مع ازدياد عمق البحر حتى يسيطر الظلام الدامس الذي يبدأ من عمق (٢٠٠متر) تقريباً ويبدأ عند هذا العمق المنحدر الحراري الذي يفصل بين المياه السطحية الدافئة ومياه الأعماق الباردة،كما توجد فيه الأمواج الداخلية التي تغطي المياه الباردة في أعماق البحر، وينعدم الضوء تماماً على عمق ١٠٠٠متر تقريباً.

---

(١) يعود أول تفسير علمي لظاهرة الأمواج الداخلية للدكتور (ف.و. ايكمان V.W Ekman) في عام (١٣٢٢هـ- ١٩٠٤م) الذي فسر ظاهرة المياه الراكدة في الخلجان النرويجية حين تفقد السفن التي تبحر قدرتها على التقدم فتقف ساكنة في هذه المياه الراكدة ، كما لاحظ عالم المحيطات النرويجي (فريتوف نانسن Nansen) تعرض سفينته (فرام Fram) لهذه الظاهرة شمال جزيرة (تايمير) خلال عملية استكشاف القطب الشمالي ما بين (١٣١١هـ-١٨٩٣م) و (١٣١٤هـ-١٨٩٦م) عند محاولة اجتياز منطقة القطب .

لذلك فقد قام نانسن بتشجيع ايكمان على البحث عن تفسير ظاهرة المياه الراكدة فكان رأي ايكمان على أنها تنجم عن الأمواج الداخلية التي تتولد في السطح الفاصل بين المياه السطحية والمياه العميقة للمحيط ، وبعد زمن غير طويل وصف (أوتو باترسون Otto petterson) تأثير الأمواج الداخلية الطويلة التي تحدث في أعماق البحار على هجرة الأسماك من نوع (هيرنغ Herring) بالقرب من سواحل جوتلاند (Jutland) بالقرب من الساحل الغربي للسويد في فصل الصيف .

ويكون مرور الأمواج الداخلية محسوساً من سفن التنقيب عن النفط عندما يتغير ثقل المعوم المربوط بين سفينة الحفر وفتحة البئر الكائنة في قاع البحر بصورة مفاجئة وتم التعرف على هذه الأمواج الداخلية بتأثيرها على حركة الغواصات .

أما فيما يتعلق بانتشار الظلمات في أعماق البحار فقد أدرك صيادوا الأسماك أن الضوء يمتص حتى في المياه الصافية وأن قاع البحر المنحدر ذا الرمال البيضاء يتغير لونه بصورة تدريجية حتى يختفي تماماً مع تزايد العمق وأن نفاذ الضوء يتناسب عكسياً مع ازدياد العمق. وأبسط جهاز علمي لقياس عمق نفاذ الضوء في مياه المحيط هو (قرص سيتشى The Secchi Disk)[١] ولكن على الرغم من كونه وسيلة سهلة لقياس اختراق الضوء للماء بدرجة تقريبية وعلى الرغم من استعماله على نطاق واسع فإن قياس الظلمات في ماء البحر بصورة دقيقة لم يتحقق إلا بعد استخدام الوسائل التصويرية في نهاية القرن الماضي[٢] ثم بتطوير وسائل قياس شدة الضوء التي استخدمت الخلايا الكهرو ضوئية خلال الثلاثينيات، وبعد اختراع الإنسان أجهزة مكنته من الغوص إلى هذه الأعماق البعيدة.

وفي الهامش[٣] معلومات عن شدة الضوء عند أعماق مختلفة من المحيط.

أما البحار العميقة فالضياء منعدم فيها، والظلمات متراكمة، وتعتمد

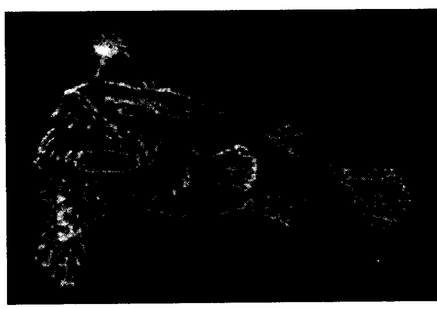
---

(١) أول من وصفه في الكتب العلمية كلاً من سيلادى وسيشنى Ciladi and Secchi في عام ١٢٨١هـ-١٨٦٥م وهو عبارة عن قرص أبيض ذى قطر معين يتم إنزاله في الماء ليسجل العمق الذي تتعذر رؤيته كنقطة قياسية ولايزال هذا القرص قيد الاستعمال حيث يكفى لتحديد قياس تقريبي لشفافية الماء.

(٢) Fol, H. and Sarasin, E. 1884, Sur la penetration de la lumiere du jour dans les eaux du lacde Ge-neve: Com-ptes Rendus des seances do des Sciences. pp 624 - 627.

(٣) من المعروف الآن أن كمية الضوء التي تنفذ إلى أعماق البحار تتناقص تناقصاً رأسياً وفقاً لما يراه (جيرلوف Jerlov) فينخفض مستوى الإضاءة في مياه المحيط المكشوفة إلى نسبة ١٠٪عند عمق ٣٥م من السطح وتنخفض إلى ١٪ عند عمق ٨٥متر وإلى ١٪ عند عمق ١٣٥ م، وإلى ٠١ ,٪ عند عمق ١٩٠م وإن أفاد بعض الذين قاموا بالدراسة والمراقبة من الغواصات لمدد طويلة أنهم تمكنوا من رؤية الضوء في أعماق تزيد على ذلك ويرى كلاً من (كلارك) و (دنتون) أن الإنسان يستطيع أن يرى الضوء المنتشر على عمق ٨٥٠م، ومن الواضح أن الأسماك التي تعيش في أعماق البحار ترى أفضل من ذلك إلى حد ما، وهي قادرة على اكتشاف الضوء المنتشر حتى عمق ١٠٠٠متر مع أن شدة الضوء عند هذا العمق تبلغ [١×١٠-١٣ من شدته عند السطح].

الكائنات الحية والأسماك التي تعيش فيها على الطاقة الكيميائية لتوليد الضوء الذي تستشعر به طريقها، وهناك أنواع منها عمياء تستخدم وسائل أخرى غير الرؤية لتلمس ما حولها.



وتبدأ هذه الظلمات على عمق ٢٠٠متر تقريباً وتختفي جميع أشعة الضوء على عمق ١٠٠٠متر تقريباً حيث ينعدم الضوء تماماً، كما أن أغلب تركيب الأسماك في الأعماق يتكون من الماء لمواجهة الضغوط الهائلة.

ظلمات بعضها فوق بعض :

إن الظلام الدامس الذي يشتد من خمسمائة متر إلى ألف متر يتكون في أعماق البحار نتيجة لظلمات بعضها فوق بعض، وتنشأ لسببين رئيسين :

(١) ظلمات الأعماق :

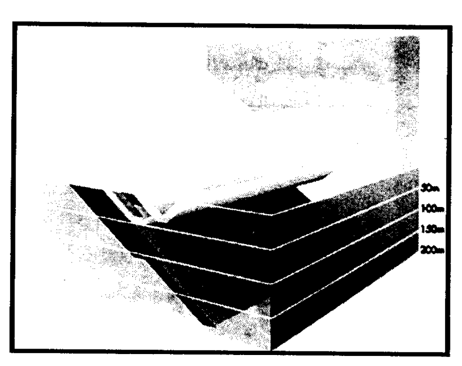
يتكون شعاع الشمس من سبعة ألوان (الأحمر، البرتقالي، الأصفر، الأخضر، النيلي، البنفسجي، الأزرق) ولكل لون طول موجي خاص به[١] وتتوقف قدرة اختراق الشعاع الضوئي للماء على طول موجته فكلما قصر طول الموجة زادت قدرة اختراق الشعاع للماء، لذلك فإن شعاع اللون الأحمر يمتص على عمق

---

(١) الأطوال الموجية :

اللون		التردد		الطول الموجي	
بنفسجي	Violet	$x10^{-14}$	7.69-6.59	$x10^{-7}$	3.90-4.55
أزرق	Blue	$x10^{-14}$	6.59-6.10	$x10^{-7}$	4.55-4.92
أخضر	Green	$x10^{-14}$	6.10-5.20	$x10^{-7}$	4.92-5.77
أصفر	Yellow	$x10^{-14}$	5.20-5.03	$x10^{-7}$	5.77-5.97
برتقالي	Orange	$x10^{-14}$	5.03-4.82	$x10^{-7}$	5.97-6.22
أحمر	Red	$x10^{-14}$	4.82-3.84	$x10^{-7}$	6.22-7.80

٢٠متراً تقريباً ويختفي وجوده بعد ذلك، وينشأ عن ذلك ظلمة اللون الأحمر، فلو جرح غواص على عمق ٢٥متراً تقريباً وأراد أن يرى الدم النازف فسيراه بلون أسود، بسبب انعدام شعاع اللون الأحمر، ويمتص الشعاع البرتقالي على عمق ثلاثين متراً تقريباً فتنشأ ظلمة أخرى تحت ظلمة اللون الأحمر هي ظلمة اللون البرتقالي، وعلى عمق ٥٠ متراً تقريباً يمتص اللون الأصفر، وعلى عمق ١٠٠ متر تقريباً يمتص اللون الأخضر، وعلى عمق ١٢٥متر تقريباً يمتص اللون البنفسجي والنيلي، وآخر الألوان امتصاصاً هو اللون الأزرق على بعد ٢٠٠متر تقريباً من سطح البحر. وهكذا تتكون ظلمات الألوان لشعاع الشمس بعضها فوق بعض، بسبب عمق الماء الذي تمتص فيه الألوان بأعماق مختلفة.

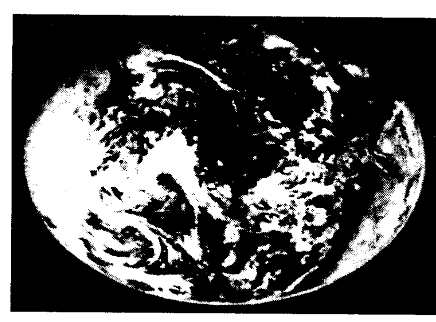


(٢) ظلمات الحوائل :

وتشترك ظلمات الحوائل مع ظلمات الأعماق في تكوين الظلمات الدامسة في البحار العميقة، وتتمثل ظلمات الحوائل فيما يأتي:

(أ) ظلمة السحب :

غالباً ما تغطي السحب أسطح البحار العميقة نتيجة تبخير الماء، وتمثل حائلاً نسبياً لأشعة الشمس[١]، فتحدث الظلمة الأولى للحوائل والتي نراها ظلالاً لتلك السحب على سطح الأرض والبحار.



---

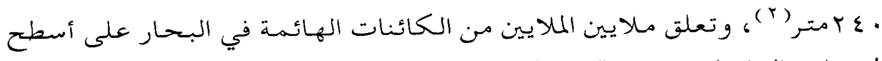
(١) تقوم السحب بامتصاص جزء من الأشعة وتشتيت جزء آخر والسماح بنفاذ بقية الأشعة .

(ب) ظلمة الأمواج السطحية :

تمثل الأسطح المائلة للأمواج السطحية في البحار سطحاً عاكساً لأشعة الشمس، ويشاهد المراقب على الساحل مقدار لمعان الأشعة التي عكستها هذه الأسطح[١] المائلة للأمواج السطحية.

(ج) ظلمة الأمواج الداخلية :

توجد أمواج داخلية تغشى البحر العميق وتغطيه، وتبدأ من عمق ٧٠ متر إلى



٢٤٠ متر[٢]، وتعلق ملايين الملايين من الكائنات الهائمة في البحار على أسطح الموجات الداخلية، وقد تمتد الموجة الداخلية إلى سطح البحر فتبدو تلك الكائنات الهائمة كأوساخ متجمعة على سطح البحر، مما يجعلها تمثل مع ميل الموج الداخلي حائلاً لنفاذ الأشعة إلى البحر العميق فتنشأ بذلك الظلمة الثالثة تحت ظلمتي السحب والموج السطحي.



ويتبين مما سبق أن الظلمات التي تراكمت في البحار العميقة عشر ظلمات وهي:

(أ) ظلمات الأعماق : وهي سبع ظلمات بعضها فوق بعض تنشأ من التلاشي التدريجي لألوان الطيف السبعة.

---

(١) إذا أحدثت موجات في إناء ماء كبير فإنك سترى ظلاً لتلك الأمواج في قاع الإناء.

(٢) في مقابلة مع الدكتور/ فاروق الباز.

(ب) ظلمات الحوائل الثلاثة :

١ – السحب. ٢ – الموج السطحي. ٣ – الموج الداخلي.

وهي أيضاً ظلمات بعضها فوق بعض.

الاكتشافات العلمية المتعلقة بالآية :

مما سبق يتبين أن العلم التجريبي قد اكتشف في فترة طويلة، خلال القرون الثلاثة الماضية، وبعد توفر الأجهزة الدقيقة، وبتضافر جهود أعداد كبيرة من الباحثين وعلماء البحار، الحقائق الآتية :

- وجود ظلمات في البحار العميقة.
- وأن هذه الظلمات بعضها فوق بعض.
- تزداد هذه الظلمات بالتدريج مع زيادة العمق حتى تنعدم الرؤية تماماً.
- وجود أمواج داخلية تغشى البحر العميق.
- تعمل الأمواج الداخلية بما عليها من الكائنات الهائمة على حجب الضوء.
- عدد الظلمات المتراكمة في البحار العميقة عشر ظلمات، سبع منها بسبب عمق الماء وثلاث بسبب الحوائل الثلاثة: السحاب، الموج السطحي، الموج العميق.

تنقسم مياه البحر إلى قسمين :

(أ) مياه البحر السطحي حيث توجد فيها طاقة الضوء.

(ب) مياه البحر العميق التي تراكمت عليها الظلمات.

وصف القرآن لهذه الأسرار والحقائق البحرية :

قال تعالى: ﴿ **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)** ﴾ [النور: ٤٠].

أثبت القرآن وجود ظلمات في البحر العميق، وقيد وصف البحر بلفظ (لجي) ليعلم قارئ القرآن أن هذه الظلمات لاتكون إلا في بحر لجي أي عميق، ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ ويخرج بهذا القيد البحر السطحي الذي لا توجد فيه هذه الظلمات.

وقد بين أهل اللغة والتفسير معنى لفظ (لجي)، فقال قتادة وصاحب تفسير الجلالين: لجي هو العميق، وقال الزمخشري: اللُّجي العميق الكثير الماء، وقال الطبري: ونسب البحر إلى اللُّجة بأنه عميق كثير الماء، وقال البشيري: هو الذي لا يدرك قعره واللجة معظم الماء، والجمع لجج، والتج البحر إذا تلاطمت أمواجه.

وهذه الظلمات تتكون بسبب العمق في البحر اللجي، وهي ظلمات الأعماق التي سبق الإشارة إليها. قال تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾. قال الزمخشري: « بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب »، وقال الخازن: « كظلمات في بحر لجي أي عميق كثير الماء .... معناه أن البحر اللجي يكون قعره مظلماً جداً بسبب غمورة الماء ». وقال المراغي: « فإن البحر يكون مظلم القعر جداً بسبب غور الماء ... ».

وذكر القرآن أن للبحر العميق موج يغشاه من أعلاه. قال تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾

وذكرت الآية وجود موج آخر فوق الموج الأول قال تعالى: ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ وهذه صفة للبحر وهي: وجود موجين في وقت واحد أحدهما فوق الآخر، وليست أمواجاً متتابعة على مكان واحد بل هي موجودة في وقت واحد، والموج الثاني فوق الموج الأول.

وتشير الآية إلى أن فوقية الموج الثاني على الموج الأول كفوقية السحاب على الموج الثاني. قال تعالى: ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾

ذكرت الآية وجود موج يغشى البحر العميق ويغطيه كما ذكرت وجود موج ثان فوق الموج الأول، وهذا يستلزم وجود بحر فوق (الموج الأول والبحر العميق) وهو البحر السطحي الذي يغشاه الموج الثاني الذي فوقه السحاب .

وأثبت القرآن دور هذه الحوائل الثلاثة في تكوين الظلمات في البحار العميقة وأن بعضها فوق بعض كما قال تعالى : ﴿ **يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ** ﴾[النور : ٤٠] وهو ما فهمه بعض المفسرين : قال الإمام البغوي في تفسيره لهذه الآية : « ظلمة الموج الأول على ظلمة البحر، وظلمة الموج الثاني فوق الموج الأول وظلمة السحاب على ظلمة الموج الثاني » . وقال الإمام ابن الجوزي في تفسيره : « ظلمات يعني ظلمة البحر وظلمة الموج الأول، وظلمة الموج الذي فوق الموج، وظلمة السحاب » .

اشتملت الآية على ذكر ظلمات الأعماق (السبعة) في أولها وظلمات الحوائل (الثلاثة) في آخرها ﴿ **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ** ﴾ .

وذكرت الآية أن هذه الظلمات التي سبق ذكرها بسبب الأعماق أو الحوائل بعضها فوق بعض، واستعمل القرآن لفظ ظلمات الذي تستعمله العرب للدلالة على جمع القلة، من الثلاثة إلى العشرة، فقبلها تقول ظلمة وظلمتان، وبعدها تقول إحدى عشرة ظلمة، ومن ثلاث إلى عشر تقول ظلمات كما هي في الآية، وهذا ما كشفه العلم كما سبق بيانه : سبع ظلمات للألوان متعلقة بالأعماق وثلاث ظلمات متعلقة بالحوائل (الموج الداخلي، والموج السطحي، والسحاب) .

وبينت الآية التدرج في اشتداد الظلام في البحار العميقة باستعمال فعل من أفعال المقاربة وهو (كاد) وجعلته منفياً . قال تعالى : ﴿ **إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا** ﴾ فدل هذا الاستعمال الدقيق على معنيين :

الأول –أن الذي يُخرِج يده في هذه الأعماق ليراها لايراها إلا بصعوبة بالغة، كما فهم ذلك بعض المفسرين، ومنهم المبرد والطبري.

الثاني –أن الذي يُخرِج يده في هذه الأعماق ليراها لايراها البتة، لأن فعل المقاربة كاد جاء منفياً، فإذا نفيت مقاربة الرؤية دلت على تمام نفي الرؤية، وهذا ما ذهب إليه بعض المفسرين، أمثال الزجّاج وأبو عبيدة والفرّاء والنيسابوري. والآية استعملت تعبيراً يدل على المعنيين معاً، فتكون الرؤية بصعوبة في الأعماق القريبة، وتنتفي الرؤية تماماً في الأعماق البعيدة، على عمق ١٠٠٠متر تقريباً كما مر بنا.

فتأمل كيف جاء التعبير القرآني الموجز دالاً على المعاني الصحيحة المتعددة.

وجه الإعجاز:

لقد ذكر القرآن الكريم معلومات دقيقة عن وجود ظلمات في البحار العميقة، وأشار إلى سبب تكوينها، ووصفها بأن بعضها فوق بعض، ولم يتمكن الإنسان من معرفة هذه الظلمات إلا بعد عام ١٩٣٠م. وأخبر القرآن عن وجود موج داخلي في البحار لم يعرفه الإنسان إلا بعد عام ١٩٠٠م، كما أخبر بأن هذا الموج الداخلي يغطي البحر العميق، الأمر الذي لم يعرف إلا بعد صناعة الغواصات بعد الثلاثينيات من القرن العشرين، كما أخبر القرآن عن دور الموج السطحي، والموج الداخلي في تكوين ظلمات في البحار العميقة، وهو أمر لم يعرف إلا بعد تقدم العلم في القرون الأخيرة. وما سبق من المعلومات لم يكتشفه الإنسان إلا بعد أن ابتكر أجهزة للبحث العلمي تمكنه من الوصول إلى هذه الأعماق، ودراسة هذه الظواهر، وبعد أن استغرق البحث فترة طويلة امتدت لثلاثة قرون من الزمن، واحتشد لها مئات الباحثين والدارسين حتى تمكنوا من معرفة تلك الحقائق. فمن أخبر محمداً ﷺ بهذه الأسرار في أعماق البحار في وقتٍ كانت وسائل البحث

العلمي فيه معدومة، والخرافة والأسطورة هي الغالبة على سكان الأرض في ذلك الزمان، وبخاصة في مجال البحار ؟

كيف جاءه هذا العلم الدقيق بهذه الأسرار، وهو الرجل الأمي في أمة أمية وبيئة صحراوية، ولم يتيسر له ركوب البحر طوال حياته ؟

وحين عرضت هذه الحقائق على البرفسور (راو) وسُئِلَ عن تفسيره لظاهرة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة وكيف أُخبر محمد ﷺ بهذه الحقائق منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام أجاب : « من الصعب أن نفترض أن هذا النوع من المعرفة العلمية كان موجوداً في ذلك الوقت منذ ألف وأربعمائة عام ولكن بعض الأشياء تتناول فكرة عامة ولكن وصف هذه الأشياء بتفصيل كبير أمر صعب جداً، ولذلك فمن المؤكد أن هذا ليس علماً بشرياً بسيطاً. لا يستطيع الإنسان العادي أن يشرح هذه الظواهر بذلك القدر من التفصيل ولذلك فقد فكرت في قوة خارقة للطبيعة خارج الإنسان، لقد جاءت المعلومات من مصدر خارق للطبيعية »[(١)].

إنه لدليل قاطع على أن هذا العلم الذي حملته هذه الآية قد أنزله الله الذي يعلم السر في السموات والأرض، كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً** ⦗٦⦘ ﴾ [الفرقان : ٦] وكما قال تعالى : ﴿ **لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً** ⦗١٦٦⦘ ﴾ [النساء : ١٦٦] والقائل : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ⦗٥٣⦘ ﴾ [فصلت : ٥٣].

---

(١) إنه الحق ص٧٨ ، للشيخ / عبدالمجيد الزنداني .

فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت

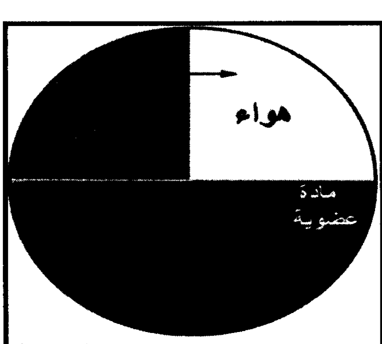
قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ﴾ [الحج: ٥] وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ [فصلت: ٣٩]، بين الله تبارك وتعالى في هاتين الآيتين أثر الماء وأهميته، لحياة الأرض وإنباتها من كل زوج بهيج، وسنبين وجه الإعجاز في ربط القرآن الكريم بين نزول الماء واهتزاز التربة، وربوها، وإنباتها من كل زوج بهيج، فالماء مذيب عام للمعادن التي تحتويها التربة، ووسط تدخل من خلاله المواد المذابة إلى النبات وتتحرك خلال أنسجته.

وتتكون الأرض من ثلاثة مكونات هي:

[١] مادة التربة الصلبة المكونة من المواد المعدنية والعضوية.

[٢] محلول التربة المكون من مواد التربة الذائبة في الماء.

[٣] الهواء المتخلل لحبيبات التربة ومساماتها.



شكل(١) رسم تخطيطي لمكونات التربة متوسطة القوام عند حالة مثلى لنمو النبات. لاحظ أن المادة الصلبة تحتل ٥٠% من حجم التربة وحيز المسامات (الهواء) ٥٠% من حجم التربة، مع تقسيم الأخير بين الماء والهواء. و الأسهم تشير إلى أن هذه المكونات يمكن أن تختلف كثيرا ، وبخاصة أن الماء والهواء لهما علاقة عكسية بحيث أن الزيادة في أحدهما تكون مصحوبة بنقصان في الآخر.

وتشتمل المادة الصلبة للتربة على حبيبات ذات أحجام متباينة تتدرج من حبيبات خشنة ذات قطر ٢مم إلى حبيبات ناعمة جداً يصل قطرها إلى أقل من ميكرون[1].

---

(١) الميكرون: ٠,٠٠١ من المليمتر.

وهذه الحبيبات تتكون من صفائح معدنية متراصة بعضها فوق بعض[١].

ملتصقة في حالة سكونها، وهي ما عبر عنه القرآن بقوله سبحانه: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ وفي قوله (خاشعة). كما يوجد بين هذه الحبيبات فراغات هوائية. وتحمل الحبيبة على سطحها شحنات كهربائية سالبة[٢].



شكل(٢): مثلث القوام، موضحاً عليه نسب الطين (أقل من ٠,٠٠٢مم)، السلت (٠,٠٠٢-٠,٠٥مم)، والرمل (٠,٠٥-٢,٠مم) في أصناف القوام الرئيسية.

شكل (3)

وحدات طين (الإيلايت) أكبر حجماً من مجموعة المنتموريللونايت وترتبط مع بعضها بأيونات البوتاسيوم فلا تحدث تمدد بين الوحدات إلا قليلاً قياساً بالمنتموريللونايت.

شكل (4)

ترتيب صفائح السلكا والألمنيوم في حبيبات طين المنتموريللونايت لاحظ أن دخول الماء بين الصفائح بسبب انتفاخ حبيبات التربة

أولاً - الاهتزاز:

إذا نزل ماء المطر على التربة يحدث فيها الاهتزاز الدقيق الذي أشار إليه القرآن بقوله: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ وذلك بسبب ما يأتي:

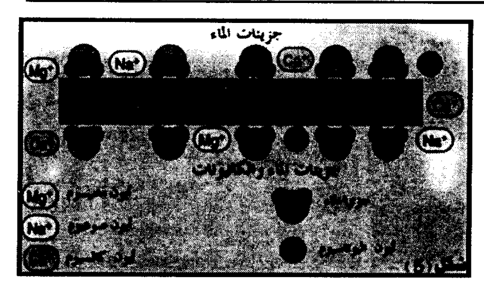
(أ) تساقط قطرات المطر على حبيبات التربة، فتنشأ فيها حركة آلية (ميكانيكية).

(ب) حركة جزئيات الماء «الحركة البراونية» إذ أن حبيبات التربة الموجودة في الوسط المائي تهتز بسبب حركة جزيئات الماء، وهذا

---

(١) يمكن الكشف عنها باستخدام الميكروسكوب الإلكتروني.

(٢) نتيجة إحلال أو استبدال السلكون الرباعي الشحنة بالألمنيوم الثلاثي الشحنة أو إحلال المغنسيوم الثنائي الشحنة أو الحديد الثنائي الشحنة محل الألمنيوم وهذا الاستبدال يغير حالة التوازن فينتج عن ذلك شحنات سالبة غير معادلة، والمصدر الآخر للشحنة هو التكافؤات الناقصة عند الحافات المحطمة لصفائح السلكا والألمنيوم

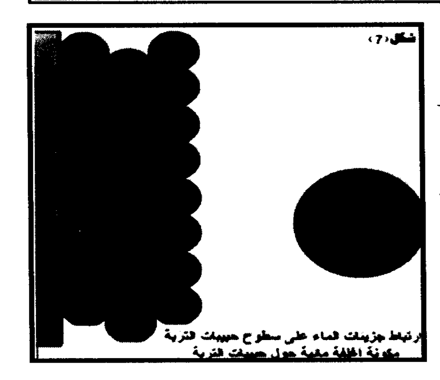


الاهتزاز عملية خفية لا يمكن مشاهدتها بالعين المجردة. وعلى الرغم من أن الميكروسكوب أُخترع عام ١٥٩٠م فإن ظاهرة اهتزاز الجزيئات في الوسط المائي لم تشاهد إلا في عام ١٨٢٧م على يد عالم النبات الاسكتلندي روبرت براون، وكان يعتقد في بداية الأمر أن الحركة الإهتزازية الذبذبية مقتصرة على حبوب اللقاح الحية في النبات إذا وضعت في وسط مائي، ثم وجد بعد ذلك أن هذه الحركة نفسها تحصل لحبوب اللقاح الميتة. ومع تقدم العلم ثبت أن هذه الاهتزازات تحصل للجسيمات الدقيقة العالقة في الماء ولو كانت جسيمات من الزجاج أو الجرانيت أو الدخان أو غيرها كحبيبات التربة، وأنها تحصل بسبب اهتزاز جزيئات الماء(١).

(ج) طرد الماء للهواء الموجود في الفراغات بين تلك الحبيبات، فيحدث اهتزازاً في حبيبات التربة، وكلما كانت الحبيبات دقيقة كانت الفراغات بينها أدق تعجز العين المجردة عن إدراكها وإدراك حركة الماء خلالها وما يحدثه الماء من اهتزاز لتلك الحبيبات.

---

(١) انظر الموسوعة البريطانية (قرص مدمج)، موسوعة إنكارتا ميكروسوفت ٢٠٠٢ (قرص مدمج). انظر أيضاً «مدخل إلى فلسفة العلوم العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي» د. محمد عابد الجابري ص٣٢٣.


شكل (7)
ارتباط جزيئات الماء على سطوح حبيبات التربة مكونة أغلفة مائية حول حبيبات التربة

(د) ظهور الشحنة الكهربائية على سطوح الحبيبات بسبب نزول المطر والذي يسبب عدم استقرارها، وحدوث حركات اهتزازية لا يمكن سكونها إلا بعد تعادل هذه الشحنات بأخرى.

ثانياً - الربو[١] :

فعندما تهتز الصفائح الصغيرة الرقيقة المكونة لحبيبات التربة فإنها تتيح الفرصة لدخول الماء وأيونات[٢] العناصر الذائبة فيه إلى الشقوق المسطحة بين الصفائح الرقيقة فتتباعد الصفائح وتربوا الحبيبات وتنتفخ[٣] بسبب خزن الماء بين صفائح الحبيبات. كما تحاط الحبيبة بأغلفة مائية ممسوكة بقوى الجذب «الكهروستاتيكي»[٤] وهكذا تمتلئ الفراغات بين الحبيبات وبهذا تصبح حبيبات التربة خزانات مائية صغيرة تكون سبباً في انتفاخ التربة[٥] وزيادة حجمها وإمداد جذور النباتات بالماء بعد انقطاع المطر.

ثالثاً - إنبات النبات :

وبنزول ماء المطر وخزنه بين صفائح حبيبات التربة وعلى أسطح الحبيبات نفسها يستفيد النبات من ذلك الماء خلال الفترة التي تلي نزول المطر فتبدأ البذور

---

(١) ربت الأرض ربواً : عظمت وانتفخت .

(٢) أيونات : مفردها أيون ، وهو ذرة أو مجموعة من الذرات فقدت أو اكتسبت إلكترون أو أكثر .

(٣) راجع كتاب أساسيات فيزياء التربة للدكتور/ دانيل هليل ـ الطبعة العربية ص١٠٤ .

(٤) الكهرباء الساكنة .

(٥) ينبغي التفريق بين تشبع التربة وانتفاخها فالتشبع يعني امتلاء الفراغات بين حبيبات التربة بالماء وهذا يمكن أن يحصل في وقت قصير أما الانتفاخ فسببه تغلغل الماء في أجزاء حبيبة التربة المفردة وهذه عملية بطيئة وخاصة في التربة الطينية الأمر الذي يتطلب غمر بعض أنواع التربة بالماء مدة طويلة لتنتفخ. انظر الموقع: www.extension.umn.edu تحت عنوان : How to run apercolation test- University of Minnesota 1992



شكل (8) التبادل الأيوني بين جذور النبات ومعدن الطين

الجافة الموجودة في التربة بامتصاص الماء والمواد المعدنية من الوسط المحيط بها وتتحرك العمليات الكيميائية الحيوية في البذور فتنبت وتنمو الدرنات والأبصال وتصبح مساحة سطحية كبيرة من الشعيرات الجذرية للنباتات معرضة لمحلول التربة مما يسهل عليها عملية امتصاص الماء والعناصر الغذائية.

كما تنشط ملايين الكائنات الحية الموجودة في التربة، فالفطريات والبكتريا تحوِّل بقايا النباتات والحيوانات إلى مواد معدنية تمتصها النباتات عبر الجذور وتقوم ديدان الأرض بحفر الأنفاق عبر التربة مفسحة المجال لدخول الهواء والماء خلال التربة فتصبح الأرض مخضرة بإنباتها من كل زوج بهيج.

وقد وصف القرآن هذه الحركة الدقيقة لحبيبات التربة والتي لم تشاهد إلا بالمجهر كما وصف ما يحدث من نمو (ربو) لحبيبات التربة الصغيرة بسبب دخول الماء بين الصفائح المكونة لها، ودخوله بين الحبيبات وما ينتج عن ذلك من خزن طويل للماء فيكون سبباً لاستمرار إنبات النبات ونموه في وقت انقطاع المطر.

قال تعالى : ﴿ **وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ۝ ﴾[الحج: ٥].

المعاني اللغوية :

قوله تعالى : ﴿ **هَامِدَةً** ﴾. يقال في اللغة : « همد » الهاء والميم والدال : أصل يدل على خمود شيء[١].

---

(١) معجم المقاييس في اللغة .

وأرض هامدة : لا نبات بها[١] .

والهمود : الموت[٢] .

قوله تعالى : ﴿ خَاشِعَةً ﴾ : يقال في اللغة (خشع) : الخاء والشين والعين أصل واحد يدل على التطامن .

و« بلدة خاشعة » :- مغبرة[٣] .

والخشوع : السكون والتذلل[٤] .

و« خشعت الأرض » : يبست لعدم المطر[٥] .

والهمود في الأرض : أن لا يكون فيها حياة ولا عود ولا نبت ولا أصابها مطر، وترى الأرض (هامدة) أي جافة ذات تراب[٦] .

قوله تعالى : ﴿ اهْتَزَّتْ ﴾ : يقال في اللغة « هزّ » : الهاء والزاء أصل يدل على اضطراب في شئ وحركة[٧] .

اهتز الشيء : تحرك، واهتز النبات : نما وتحرك وطال، والهَزُّ تحريك الشيء[٨] .

قوله تعالى (وربت) الربو : الزيادة والنماء . وربت : انتفخت وعلت .

وَربى الشيء : زاد ونما [٩] .

---

(١) معجم المقاييس في اللغة ، تاج العروس ، القاموس المحيط .

(٢) القاموس المحيط .

(٣) معجم المقاييس في اللغة ، تاج العروس .

(٤) تاج العروس ، المعجم الوسيط .

(٥) تاج العروس ، المعجم الوسيط .

(٦) تاج العروس ، ترتيب القاموس المحيط .

(٧) معجم المقاييس في اللغة .

(٨) لسان العرب ، والمعجم الوسيط .

(٩) لسان العرب لابن منظور ، وترتيب القاموس المحيط ، معجم المقاييس في اللغة .

أقوال المفسرين :

﴿ **هَامِدَةً** ﴾(أ) يابسة لا تنبت شيئاً[١].

(ب) جافة ذات تراب[٢].

(ج) غبراء متهشمة[٣].

(د) ميتة[٤].

﴿ **خَاشِعَةً** ﴾(أ) يابسة جدبة[٥].

(ب) غبراء متهشمة[٦].

(ج) هامدة لا نبات فيها بل هي ميتة[٧].

﴿ **اهْتَزَّتْ** ﴾ : (أ) يعني بالنبات[٨] لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة خفيفة فسماه اهتزازاً مجازاً.

وقال المبرد : المعنى اهتز نباتها فحذف المضاف.

والاهتزاز في النبات أظهر منه في الأرض[٩].

---

(١)القرطبي (١٢ / ١٣) ، ابن كثير (٣ / ٢٣٤) ، الألوسي (٩ / ١١٤).

(٢)القرطبي (١٢ / ١٣).

(٣)ابن كثير (٣ / ٢٣٤).

(٤)ابن كثير (٣ / ٢٣٤).

(٥)القرطبي (١٥ / ٣٦٥) ، الألوسي (١٢ / ٣٧٧).

(٦)الطبري (٢٤ / ١٢٢).

(٧)ابن كثير (٤ / ١٠٣).

(٨)البخاري الجزء الخاص بالتفسير (٤ / ١٨١٧) القرطبي (١٢ / ١٣) الصنعاني (٤ / ٣٨٠) البيضاوي (٤ / ١١٥) مجاهد (٢ / ٥٧١) الواحدي (٢ / ٨٢٨) أبو السعود (٦ / ٩٥) الدر المنثور (٧ / ٣٣٠)، الطبري (١٧ / ١١٩) ، ابن كثير (٣ / ٢٠٩)، الثعالبي (٣ / ٧٢)، القاسمي (١٢ / ٩) البغوي (٣ / ٢٧٥)، النسفي (٣ / ٩٦)، زاد المسير (٧ / ٢٦٠)، روح المعاني (٢٤ / ١٢٦).

(٩)فتح القدير (٣ / ٥١٧) القرطبي (١٢ / ١٣) البغوي (٣ / ٢٧٥)

(ب) تحركت لإخراج النبات[١]

(ج) اهتزاز الأرض هو حركتها بالنبات وغير ذلك مما يعتريها بالماء[٢].

ونلاحظ من كلام المفسرين أنهم عزوا الإهتزاز للنبات، وأولوا الآية على غير ظاهرها، وقال بعضهم الإهتزاز في النبات أظهر منه في الأرض، وذلك بسبب نقص المعلومات في زمنهم ولأن الاهتزاز على مستوى التربة وحبيباتها خفي لا تراه العيون المجردة مع أن الآية الكريمة صريحة في نسبة الإهتزاز إلى التربة نفسها بعد إنزال الله المطر عليها.

﴿رَبَتْ﴾ : (أ) انتفخت وزادت.[٣]

(ب) ارتعشت قبل أن تنبت.[٤]

(ج) ارتفعت قبل أن تنبت.[٥]

(د) انتفخت وعلت لما يتداخلها من الماء ويعلوها من نبات.[٦]

(هـ) انتفخت وعلت ثم تصدعت عن النبات.[٧]

﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ : تفرق الغيث في سبختها وربوها.[٨]

وجه الإعجاز :

ذكر القرآن اهتزاز التربة وربوها بعد نزول الماء عليها، وهما عمليتان دقيقتان غير مشاهدتين ولا محسوستين ولا يمكن إدراكهما إلا من خلال استخدام المجهر.

---

(١) التبيان في تفسير غريب القرآن (١ / ٣٠١).

(٢) الثعالبي (٣ / ٧٢).

(٣) التبيان في تفسير غريب القرآن (١ / ٣٠١) البيضاوي (٥ / ١١٦) القرطبي (١٢ / ١٣) الصنعاني (٤ / ٣٨٠) أبو السعود (٦ / ٩٥ و ٨ / ١٥) ، الطبري (٢٤ / ١٢٢).

(٤) الدر المنثور (٧ / ٣٣٠).

(٥) تفسير مجاهد (٢ / ٥٧١)، ابن كثير (٣ / ٢٠٩) الثعالبي (٣ / ٧٢)، زاد المسير (٥ / ٤٠٨).

(٦) روح المعاني (٩ / ١١٥)، القاسمي (١٢ / ٩).

(٧) الواحدي (٢ / ٩٥٧).

(٨) الدر المنثور (٦ / ١١)، الطبري (٧ / ١١٩).

وعملية الاهتزاز والربو لحبيبات التربة يحصل بنزول المطر، وهذا الاهتزاز يمكن الماء بإذن الله من التخلل بين الصفائح المكونة للتربة والفراغات بين الحبيبات. فتنتفخ الحبيبات ويزداد حجمها وتصبح مخازن للماء يستفيد منها النبات. حيث تتشرب البذور الموجودة في التربة الماء وتنبت، وتمتصه الشعيرات الجذرية للنباتات فتنمو برحمة الله.

وتفاصيل العلاقة بين اهتزاز حبيبات التربة وربْوها وإنبات الأرض خفية لم يدركها الإنسان إلا بعد تقدم علم التربة وتطور أدواته المعملية.

فأول ملاحظة للاهتزاز كانت في عام ١٨٢٧م على الرغم من أن الميكروسكوب الضوئي، وهو الأداة التي لوحظ من خلالها الاهتزاز، قد اخترع[١] عام ١٥٩٠م، كما أن الميكروسكوب الإلكتروني الماسح والذي يمكن استعماله في فحص الاتحادات البنائية المكونة لحبيبات التربة لم يخترع إلا في عام ١٩٥٢م.[٢]



الميكروسكوب الإلكتروني الماسح

ويتجلى السبق العلمي للقرآن بصورة أكثر عندما نستعرض أقوال

---

(١) اخترع الميكروسوكب الضوئي على يد «زكاريا جانسن» في هولندا. راجع موسوعة اكسفورد المجلد ٩ ص١٠٥.

(٢) اخترع على يد المهندس الانجليزي "Sir Charles Oatley" أما الميكروسكوب الالكتروني الناقل والذي يمكن استخدامه أيضاً في فحص الوحدات البنائية للطين فقد اخترع في عام ١٩٣٢م على يد المهندسين الألمانيين "ماكس نول" و"ايرنست رسكا". انظر موسوعة إنكارتا ميكروسوفت ٢٠٠٢ (قرص مدمج)، أساسيات فيزياء التربة ص١٤٤ لمؤلفه دانيل هليل، قسم علوم النبات والتربة جامعة ماسيشيو سيتز أميرست ـ ماسيشيو شتز، الولايات المتحدة الأمريكية.

المفسرين الذين لم تسعفهم علوم عصرهم في فهم ظاهر الآية الكريمة فاضطر أكثرهم إلى تأويلها وحملها على المجاز.

وإخبار القرآن بكل وضوح عن هذه الأسرار دليل على أنه منزل ممن يعلم السر في السموات والأرض القائل: ﴿ **قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً** ⦗٦⦘ ﴾ [الفرقان: ٦] والذي وعدنا في كتابه أنه سيرينا آياته. بقوله سبحانه: ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا** ﴾ [النمل: ٩٣].

آية اللبن (من بين فرث ودم)

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) ﴾

مقدمة:

لقد أدرك البشر منذ زمن بعيد العلاقة بين إدرار اللبن وما يتناوله الحيوان من غذاء، وأن الحيوان يهلك إذا ما حرم من الغذاء، ولكنهم لم يعرفوا العملية التي يتم بها تحول هذا الغذاء إلى لبن أو لحم أو عظم أو أي مادة أخرى.

وجاء العلم الحديث ليبين لنا المراحل التي توصلنا إلى تكوين اللبن خالصاً سائغاً للشاربين فيكشف لنا من آيات الله اللطيف الخبير ما جاء مطابقاً لما أخبرنا به القرآن عن أسرار تكون اللبن في بطون الأنعام، ويظهر عظمة إنعام الخالق المنعم على عباده.

التدرج التاريخي للاكتشافات العلمية:

لم يتمكن الإنسان من معرفة كيف يتكون اللبن في بطون الأنعام إلا بعد أن تمكن من اكتشاف أسرار الجهاز الهضمي ومعرفة وظائف أعضائه، وبعد اكتشاف الدورة الدموية وعلاقتها بعملية امتصاص المواد الغذائية من الأمعاء ودخولها في الدم، وقد استغرق ذلك فترة من الزمن لتطوير الأجهزة واكتشاف الأسرار استمرت قرابة خمسة قرون.

(أ) تطور الأجهزة وأدوات البحث:

سلك العلم التجريبي طرقاً دقيقة لمعرفة وظائف أعضاء الجهاز الهضمي بعد أن اخترعت الآلات التي تم بها إجراء التجارب والأبحاث لتحقيق النتائج الدقيقة. ولم يحصل هذا إلا في وقت متأخر، فقد كان علماء الأحياء والأطباء في القرنين الرابع

عشر والخامس عشر الميلادي عاجزين عن ترجمة ملاحظاتهم العلمية إلى رسوم وصور، كما كانوا أكثر عجزاً عن نشرها بين الطلاب لعدم توافر إمكانيات النشر.

وسار التقدم في الأجهزة العلمية التي استعملت في معرفة أسرار عملية الهضم بخطوات متتالية حتى انكشف للباحثين الكثير من أسرار الهضم[١].

(ب) تاريخ معرفة وظائف أعضاء الجهاز الهضمي :

تتابعت الاكتشافات العلمية[٢] في معرفة وظائف أعضاء الجهاز الهضمي

---

(١) ففي حوالي ١٨٦٦م صنع جهاز تقطيع الأنسجة المكون من سكينين متوازيين من قبل هيس (His) ليتم تحضير الأنسجة كشرائح تحت عدسة المجهر. (تاريخ العلوم العام – العلم المعاصر ـ القرن التاسع عشر، ص٤٠٠) وكان ميير Meyer في عام ١٨٨٣م أول من ألصق الشرائح فوق الشفرات بواسطة زلال البيض. (تاريخ العلوم العام – العلم المعاصر ـ القرن التاسع عشر، ص٤٠٠). وفي عام ١٩٠٢م صنع (ف. أ. ايفس) (Ives) مجهراً ثنائي العينية، ثم طور هذا المجهر حتى عام ١٩٣٨م وبواسطته تم فحص خلية حية في ظروف جيدة جداً. (تاريخ العلوم العام ـ العلم المعاصر ـ القرن العشرين ص٧٠٤-٧٠٥). أما الثورة العلمية الكبرى في القرن العشرين فكانت في اختراع المجهر الإلكتروني الذي بواسطته زاد تكبير المجهريات من ٢٥٠٠ إلى (٥٠أو٧٠) ألف مرة وبين عامي (١٩٥٢-١٩٥٣م) وخلال القرن العشرين أيضاً درست العضويات الخلوية. وهي الأعضاء التي تتكون منها الخلية والتي تم اكتشافها في نهاية القرن التاسع عشر من حيث التركيب والوظيفة. (المرجع السابق ص٧٠٥). كما تم توضيح آليات الهضم بصورة تدريجية وبصورة خاصة من خلال فيزيولوجيا الأنسجة والكيمياء الحيوية. (تاريخ العلوم العام ـ القرن العشرين ص٦٨٢)

(٢) في عام ١٨٣٣م قام (واو. بومونت) بتقديم الملاحظات حول مكونات المعدة والإفرازات المعدية. استكشف (كلود برنار) فيزيولوجيا العصائر الهضمية في البداية، ثم اللعاب (١٨٤٧م) والعصارة المعدية(١٨٤٣م) وعصارة البنكرياس، .. الخ. وأثبت دور البنكرياس في هضم الشحوم، وحلل هضم السكر مما قاده إلى اكتشاف مهم وهو وظيفة الكبد الجليكوجنية (١٨٤٨م) ثم استطاع عزل مادة الجليكوجن: (المادة الكاربوهيدراتية الرئيسة التي تخزن في الكبد والعضلات المستقرة وهي سكر متعدد ويتكون من سلسلة طويلة من وحدات الجلوكوز التي تتحلل إليها عندما تقوم الحاجة إلى الطاقة) في عام ١٨٥٥م. (تاريخ العلوم العام ـ القرن التاسع عشر ص٤٧٤). وفي عام ١٨٥٠م أنجز (ف. شولز) اختباراً للسليلور: (المكون التركيبي الأساسي لجدران الخلايا النباتية ويدخل في صناعة الأخشاب والورق والمنتجات الليفية وتستخدم مشتقاته في صناعة اللدائن وأفلام التصوير الفوتوغرافي والمتفجرات والأغذية) (من الموسوعة البريطانية). وفي عام ١٨٦٥م استخدم (ماكس شلتز) أوكسيد دويميوم لتلوين المواد الدهنية في الأنسجة الحيوانية وبه تم معرفة الدهون في الأنسجة الحيوانية. وابتكر بافلو في عام (١٨٩٠م) تقنية فيزيولوجية لدراسة (إفراز المعدة).

من عام ١٨٣٣م إلى أن تم التوصل في القرن العشرين إلى توضيح الأعمال المتتالية لعملية الهضم من تفكك بروتيد البروتينات بواسطة السلاسل الأنزيمية المعدية والمعوية. كما تم توضيح تركيب وتأثير أهم العصائر الهضمية، والتثبت من إنزيمات عديدة ذات دور كبير في عملية هضم الطعام، مثل :اللاكتاز، والليبار والبروتيداز وغيرها، كما اكتشف مفعول الهرمونات المختلفة العاملة في مختلف مراحل عملية الهضم[١].

وفي عام ١٩٠٢ اشترك بايليس (Bayliss) وستارلنغ (Starling) في اكتشاف هرمون السكرتين[٢].

وفي عام ١٩١١م أوضح (و.ب. كانون) العوامل الميكانيكية في الهضم وأوضح (ر. غلينارد) (١٩١٣م) الدراسة السينمائية التسجيلية لحركات الأمعاء[٣].

(ج) تاريخ معرفة الدورة الدموية :

اكتشف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى وكان يقال قبل ذلك إن الدم ينقى ضمن تجويف في القلب. وقد ترجم اندريا الباغو (Andrea Alpago) عمل ابن النفيس في مطلع القرن السادس عشر إلى اللاتينية ونشرت الترجمة في البندقية سنة ١٥٤٧م.[٤]

وجاءت بعد ذلك بحوث هارفي حول الدورة الدموية وكانت من أبرز البحوث قبل القرن التاسع عشر.[٥]

(١) تاريخ العلوم العام ــ العلم المعاصر ــ القرن العشرين ــ ص٦٨٢ .

(٢) هرمون معوي يحث البنكرياس والكبد على الإفراز، وهو أول هرمون نموذجي بالمعنى الدقيق للكلمة التي اخترعها ستارلنغ عام ١٩٠٥م . (تاريخ العلوم العام ــ العلم المعاصر ــ القرن التاسع عشر ص٤٨١)

(٣) تاريخ العلوم العام ــ العلم المعاصر ــ القرن العشرين ص٦٨٣ .

(٤) تاريخ العلوم العام ــ العلم القديم والوسيط ص٥١٣ .

(٥) تاريخ العلوم العام ــ القرن التاسع عشر ص٤٧١ .

وفي عام ١٨٧٧م أثبت كلود برنار أن مقدار سكر الجلوكوز في الدم ثابت وإن اختلال هذا التوازن يسبب مرض السكر[١]، وصحح (كلود برنار) مفهوم (لافوازية) و(لا بلاس) بأن الرئتين مركز الاحتراق بقوله أن الاحتراق يتم في الأنسجة المختلفة[٢].

وعمل ماري (Marey) (١٨٣٠ - ١٩٠٤م) على تحسين التقنيات الخاصة بدراسة عمل القلب والرئتين. كما تناولت أبحاث وأعمال ماري دورة الدم (١٨٦٣، ١٨٨١) وفيزيولوجيا الحركة أو الانتقال[٣].

أما فيزيولوجيا دوران الدم فإنه منذ القرن التاسع عشر جرى التعرف على الأعصاب المعدّلة والمسرعة للقلب وعلى التحرك الوعائي وعلى بعض الظواهر التي تتدخل في الضغط الشرياني، وقد بحثت بتوسع في القرن العشرين.

وبعد استعمال النظائر المشعة تم معرفة المبادلات التي تحدث عند مستوى الشعيرات الدموية بصورة أفضل.

وبعد أن اكتشف الإنسان أسرار الهضم ومراحله ووظائف أعضاء الجهاز الهضمي والدورة الدموية ووظيفة القلب والأوعية الدموية، وسيرها في الجسم وعلاقتها بالجهاز الهضمي وسائر أجزاء الجسم بما فيها ضروع اللبن والغدد اللبنية في الأنعام تمكن الإنسان من معرفة طريقة تكون اللبن من الغذاء الذي تأكله الأنعام.

---

(١) المرجع السابق ص٤٧٤ .
(٢) المرجع السابق ص٤٧٦ .
(٣) المرجع السابق ص٤٨٢ .

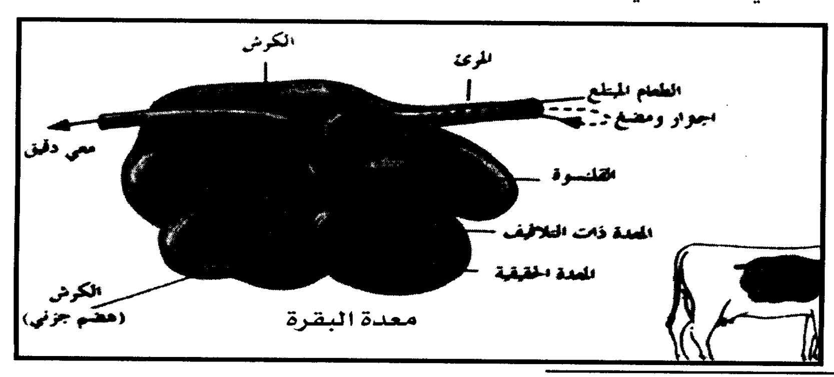
مراحل تكوين اللبن الخالص السائغ

يتم تكوين اللبن في الأنعام بالتنسيق المحكم والتدرج الدقيق بين الجهاز الهضمي والجهاز الدوري والجهاز التناسلي عن طريق الغدد اللبنية في الضروع وغيرها من الأجهزة حيث جعل الله لكل جهاز وظيفة وأعمالاً خاصة يقوم بها ليتكون – في نهاية المطاف – اللبن الخالص السائغ للشاربين. ويمكن أن نجمل مراحل تكون اللبن كالآتي :

(١) الهضم (Digestion):

يتم الهضم على عدة أشكال فمنه الهضم (الحركي) والهضم الكيماوي والهضم الميكروبي بواسطة (خمائر) الميكروبات الموجودة في كرش الأنعام.

تبدأ عملية الهضم في الفم بنوعيها : الهضم (الحركي) و (الخمائري) حيث يتم تقطيع مواد العلف بالمضغ وخلطها باللعاب الذي يحتوي على أنزيم (الأميليز) الذي يقوم بهضم مبدئي ثم في المعدة المركبة [١] حيث يتم هضم ميكانيكي وميكروبي وكيماوي.



معدة البقرة

(١) التي تتكون في الحيوانات المجترة من أربع ردهات.

ثم يتم اجترار الكتلة الغذائية من الكرش إلى الفم ليعاد مضغها وخلطها باللعاب ثم إعادة بلعها لتعمل عليها بكتريا الكرش فتحلل (السكريات)[١] و(البروتينات)[٢] ثم يحدث الهضم (الخمائري) في المعدة الحقيقية (بالببسين والرنين) . وبعمليات الهضم هذه يتحول العلف إلى فرث . وبانتقال الفرث إلى الأمعاء الدقيقة تستمر عملية الهضم فيتعرض الفرث للإنزيمات الهاضمة [٣] في الأمعاء والبنكرياس والعصارة الصفراء في الكبد .

وبهذا يتم تحليل الأطعمة المحتوية على الجزيئات المعقدة جداً إلى جزيئات بسيطة، فالنشاء والسكريات المعقدة تتحول إلى سكريات بسيطة، والدهون تتحول إلى أحماض دهنية، والبروتينات تتحول إلى أحماض أمينية وببتيدات، أما الفيتامينات والأملاح والماء فلا تحتاج إلى هضم قبل امتصاصها . ويتحول الفرث الصلب بعد هضمه في الأمعاء إلى فرث رائق[٤] .

(٢) الاستخلاص من بين الفرث :

تقوم الخملات[٥] في الأمعاء الدقيقة بامتصاص المواد الغذائية المحللة بعدة

---

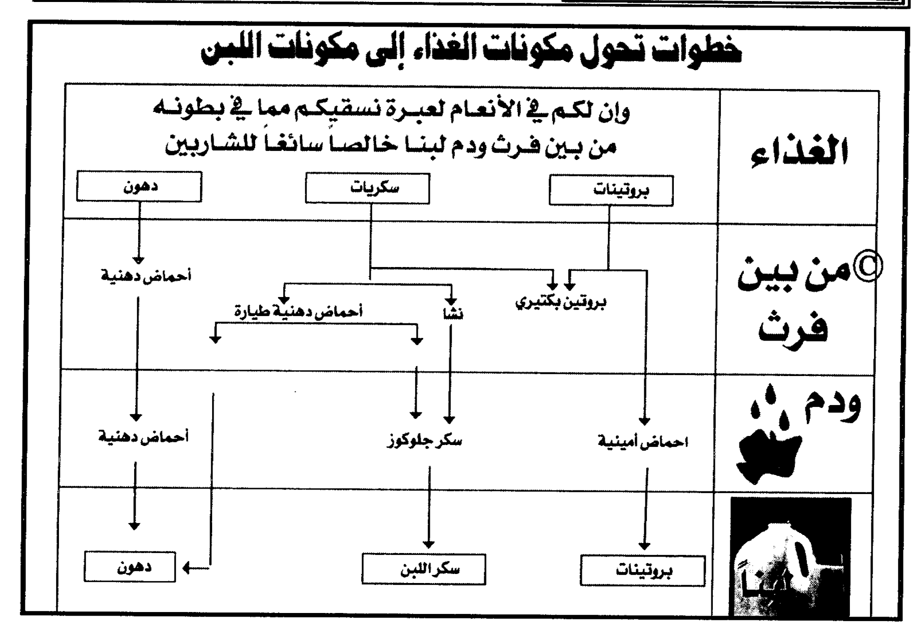
(١) هي منتجة أحماض دهنية طيارة كالخليك والبروبيونيك واليبوتريك علاوة على اللاكتيك وثاني أكسيد الكربون والمبتمان .

(٢) منتجة بيبتيدات وأحماض أمينية في الدم أو تدخل في بناء البروتين البكتيري .

(٣) كالتربين ، كيموتربين ، أميليز ، ليبز ، يتيديز، مالتيز .

(٤) يمكن تحريكه داخل الأمعاء بسهولة كما يفعل الجزار عند تخلصه من فرث الأمعاء ويمكن امتصاص المواد الغذائية التي تحولت إلى جزيئات بسيطة بواسطة الخملات .

(٥) وهي عبارة عن بروزات أو نتوءات تغطي سطح بطانة غشاء الأمعاء الدقيقة لكي تزيد من سطح الامتصاص، حيث تبلغ هذه المساحة في الأبقار حوالي ١٧م٢ (رعاية الحيوان ص١٤٢) .



طرق[١]. وتصل هذه المواد إلى داخل الأوعية الدموية الصغيرة الواقعة تحت النسيج الطلائي، ومنها إلى الأوعية الدموية الأكبر فتدخل في تيار الدورة الدموية.

(٣) الاستخلاص من بين الدم :

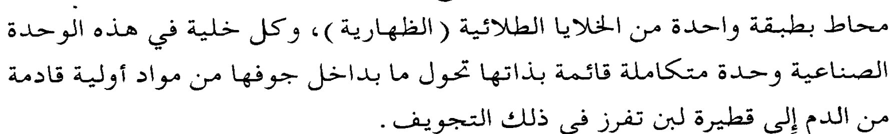
ثم يقوم الدم بنقل هذه المواد الغذائية إلى جميع خلايا الجسم والتي منها خلايا الضروع التي يتم فيها امتصاص مكونات الحليب من بين الدم.

---

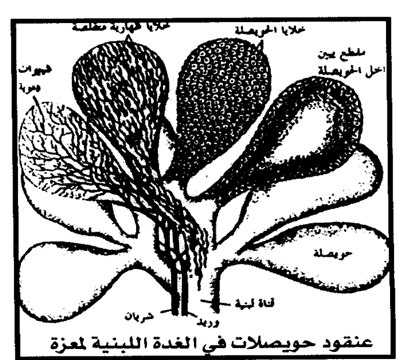
(١) منها : - الأسموزية أو الانتشار .
- النفاذية لاختلاف الشحنات الكهربية .
- بالفعل الحيوي للأنسجة الطلائية أي بالاختيارية .

(٤) تصنيع اللبن في الضرع :

والضــرع مــدينة صناعـيــة يتكون من فـصــوص، وكل فص يتكون من عـدد من الفصيصات، وكل فصيص يحتوي ما بين ١٥٠-٢٢٠ حويصلة مجهرية، والحويصلة المجهرية عبارة عن تركيب يشبه الكيس حيث يصنع اللبن ويفرز. وكل حويصلة تعد وحدة صناعية مستقلة متكونة من تجويف لجمع اللبن محاط بطبقة واحدة من الخلايا الطلائية (الظهارية)، وكل خلية في هذه الوحدة الصناعية وحدة متكاملة قائمة بذاتها تحول ما بداخل جوفها من مواد أولية قادمة من الدم إلى قطيرة لبن تفرز في ذلك التجويف.



إن الخلية الطلائية (الظهارية) اللبنية هي التي يجعل الله داخلها جميع عمليات تصنيع اللبن بمكوناته المختلفة، فتصل المكونات الأساسية للبن إلى الغشاء القاعدي للخلية اللبنية فيأخذ كل مكون طريقه عبرها ليصل إلى القسم المناسب داخل الخلية حيث تجري عليه العمليات التي قدرها عالم السر وأخفى سبحانه فيخرج من الجهة العليا للخلية مادة جديدة تشكل مع المواد الأخرى الناتجة لبناً سائغاً للشاربين.

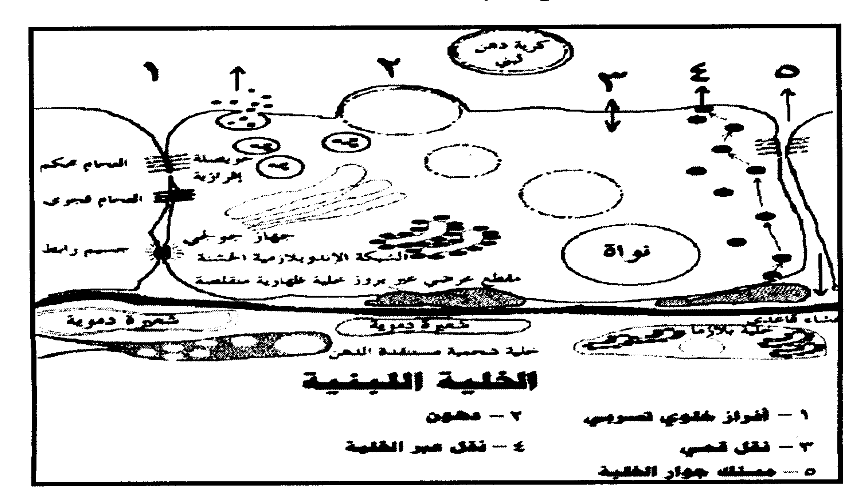


عنقود حويصلات في الغدة اللبنية لمعزة

فتعال معنا نتتبع مسار كل مادة وردت من الدم وما يحصل لها في رحلتها عبر الخلية اللبنية.

يبين الشكل آليات انتقال مكونات اللبن من الشعيرات الدموية عبر الخلية اللبنية إلى تجويف الحويصلة بعد تعرض قسم منها إلى معالجات تحولها إلى مواد مناسبة لتركيب اللبن وانتقال قسم آخر دون تغيير عبر الخلية أو عبر مسالك يبين الخلايا اللبنية.

[١] **الأحماض الأمينية**: تنطلق الأحماض الأمينية التي جاءت من الدم وتتوجه إلى القسم المناسب من المصنع وهو الرايبوسومات المتعددة المنتشرة على الشبكة الإندوبلازمية الخشنة، كما في الشكل. وهناك ترتبط تساهمياً لتكوين البروتينات، التي تنتقل بعدها إلى جهاز جولجي حيث تتم معالجتها قبل انتقالها إلى خارج الخلية عبر حويصلات إفرازية تتبرعم من جهاز جولجي. وعند الغشاء العلوي للخلية تلتحم الحويصلة الإفرازية بالسطح الداخلي للغشاء العلوي الأمر الذي يؤدي إلى إحداث فتحة تفرغ الحويصلة عبرها محتوياتها من البروتينات في تجويف الحويصلة. وهكذا توفرت مكونات اللبن من البروتينات.



الخلية اللبنية

[٢] **سكر اللبن (اللاكتوز)** : ثمة مادة مهمة أخرى من مكونات اللبن وهي اللاكتوز أو سكر اللبن، الذي يجعل اللبن سائغاً للشاربين بإذن الله تعالى. يدخل سكر الجلوكوز القادم من الدم الخلية عبر غشائها القاعدي الجانبي فيتحول بعضه إلى جالاكتوز ويدخلان معاً جهاز جولجي ليتعرضا لتفاعلات تؤدي إلى تكوين (سكر اللبن) (اللاكتوز)، مما يؤدي إلى سحب الماء إلى داخل الخلية وداخل جهاز جولجي فيكون جزءاً من اللبن[١] . وينضم سكر اللبن والماء إلى البروتينات بانتظار مكونات أخرى مهمة ومنها الدهون.

[٣] **الدهون** : تستقبل الخلايا الطلائية الخلات والزبدات والأحماض الدهنية الجاهزة والجليسيرول، القادمة من الدم عبر الغشاء القاعدي الجانبي لتشكل مادة دهنية في الشبكه الأندوبلازمية التي يخرج منها الدهن عندئذ في صورة قطيرات دهنية صغيرة تتجمع لتشكل قطيرة أكبر فأكبر تتجه نحو الغشاء العلوي للخلية حتى إذا ما وصلته هداها ربها للاندفاع بقوة للإلتحاق بمكونات اللبن السابقة التي حطت رحالها في تجويف الحويصلة ولكن هذه القطيرة بعد أن سارت عبر الخلية دون غشاء تجرف معها جزءاً من غشاء الخلية لتحيط نفسها به فيتم تغليف الحبيبة - بإذن الله - وهي في تجويف الحويصلة، وعندئذ تسمى كرية دهنية لبنية بعد أن كانت مجرد قطيرة دهنية.

[٤] **الأجسام المضادة** : تأتي الأجسام المضادة من الدم عبر الغشاء القاعدي الجانبي للخلية اللبنية فتتسلمها مستقبلات موجودة على السطح القاعدي الجانبي للخلية ثم تحملها حويصلات النقل (ناقلات) عبر الخلية لتصل

---

(١) «لاحظ أن جهاز جولجي يسهم في معالجة بروتينات اللبن وصناعة اللاكتوز والسحب الاسموزي للماء» ويفرز سكر اللبن ومعظم الماء عبر حويصلات الإفراز مع بروتينات اللبن .

إلى السطح الداخلي للغشاء العلوي للخلية فتطرح هذه الأجسام المضادة المناعية في تجويف الحويصلة دون أن تتعرض هذه الأجسام لشيء مما تعرضت له المكونات الأخرى من معالجة وتغيير.

[٥] **مكونات أخرى**: يشق الماء وكرات الدم البيضاء وبعض الأيونات والأملاح طريقها إلى تجويف الحويصلة عبر مسالك ضيقة بين الخلايا.

وهكذا تنتهي الرحلة المقدرة بأمر الله لمكونات اللبن. وليس بمقدور مخلوق من البشر مهما أوتي من علم وإمكانيات أن يحاكي خلية لبنية واحدة تصنع اللبن. ولكن الله القدير العليم جعل من هذه الخلية التي لا ترى إلا بالمجهر مجمعاً صناعياً متكاملاً يصنع اللبن على مدار الساعة عند الكائنات التي رزقها الله تعالى ذرية تحتاج إلى ذلك اللبن وجعل جزءاً كبيراً منه رزقاً للعباد وامتن عليهم بقوله: ﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ** (٦٦) ﴾ [النحل: ٦٦].



تفسير الآية

المعنى اللغوي:

الفرث هو ما في الكرش[١]. وقيل: هو السرجين ما دام في الكرش[٢].

أقوال المفسرين:

اختلف المفسرون في معنى الآية الكريمة بسبب اختلافهم في فهم مدلولات بعض الألفاظ فتصور البعض أن عبارة «من بين» جاءت للتبعيض أي من بعض الفرث أو من بعض الدم، بينما رأى آخرون أنها مكانية أي من مكان بين الدم والفرث ونجمل فيما يأتي حصيلة ما قاله المفسرون رحمهم الله تعالى.

[١] وردت رواية ضعيفة عن ابن عباس رضي الله عنهما مفادها: «أن الدابة تأكل العلف فإذا استقر في كرشها طحنته فكان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً». وقد أورد هذا الحديث كثير من المفسرين، منهم البيضاوي والقرطبي وأبو السعود والشوكاني وابن الجوزي في زاد المسير والآلوسي في روح المعاني وغيرهم. وقد علق بعض هؤلاء المفسرين على القول المنسوب لابن عباس رضي الله عنهما بعد أن لاحظوا أنه يخالف الواقع المشهود، فقال كل من أبو السعود والبيضاوي والألوسي أن اللبن والدم لا يتكونان في الكرش. ففي روح المعاني يقول الألوسي: «وتعقب ذلك أي قول ابن عباس الرازي بقوله ولقائل أن يقول اللبن والدم لا يتولدان في الكرش والدليل عليه الحس، فإن الحيوانات تذبح دائماً ولا يرى في كرشها شيء من ذلك ولو كان تولد ما ذكر فيه لوجب أن يشاهد في بعض الأحوال والشيء الذي دلت المشاهدة على فساده لم يجز المصير إليه».

---

(١) في القاموس المحيط.

(٢) الفيروزأبادي/ وابن منظور في لسان العرب.

[٢] ذكر بعض المفسرين أن الفرث هو مصدر الدم واللبن أي يخرج الدم من الفرث ويخرج اللبن من الفرث كذلك. قال بهذا البيضاوي عندما أول الكلام المنسوب لابن عباس بقوله : إن صح فالمراد أن أوسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم لأنهما لا يتكونان في الكرش وقال به الشوكاني (فتح القدير).

[٣] وذكر كثير من المفسرين ما يتفق مع ما جاء به العلم الحديث من أن مكونات اللبن تُستخلص من الفرث ثم تُستخلص من الدم. وممن قال بذلك القرطبي وأبو السعود وصاحب معاني القرآن، وفي زاد المسير لابن الجوزي في قوله: الفرث ما في الكرش والمعنى أن اللبن كان طعاماً فخلص من ذلك الطعام دم وبقي فرث في الكرش وخلص من ذلك الدم﴿ **لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّارِبِينَ** ﴾ . وهكذا نلاحظ اختلاف المفسرين في هذه المسألة بسبب عدم توافر المعرفة العلمية في زمانهم، ومع ذلك فقد هدى الله تعالى بعض المفسرين إلى الفهم الصحيح لمعنى «من بين» وأنها تعنى من بعض الفرث ثم من بعض الدم، على الرغم من عدم معرفتهم للكيفية التي لم يطلع عليها البشر إلا بعد قرون من نزول هذه الآية الكريمة.

[٤] أن لفظ «خالصاً» في الآية دليل آخر على أن مواد اللبن تخلص من بين الدم بعد أن خلصت من الفرث، وقد ألمح إلى هذا المعنى الطبري بقوله: خلص من مخالطة الدم والفرث فلم يختلطا به. إلا أن المفسرين رحمهم الله لم يشيروا إلى هذا المعنى الظاهر وإنما اقتصروا على القول بأن «خالصاً» تعنى أن اللبن لا يستصحب لون الدم ولا رائحة الفرث كما قاله البيضاوي والبغوي؛ أو حمرة الدم وقذارة الفرث كما قاله القرطبي والشوكاني؛ أو خالصاً عن شائبة ما في الدم والفرث من الأوصاف كما قاله أبو السعود وصاحبا تفسير الجلالين.

وجه الإعجاز:

ما كان أحد يعلم قبل اكتشاف أجهزة التشريح في القرنين الماضيين أسرار ما يجري في الجهاز الهضمي عند الحيوان والإنسان ووظائف ذلك الجهاز المعقد وعلاقته بالدورة الدموية ومراحل تكون اللبن في بطون الأنعام.

فلما تكاملت صناعة الأجهزة والتجارب العلمية عبر قرون عرف الإنسان أن مكونات اللبن تستخلص بعد هضم الطعام من بين الفرث وتجري مع مجرى الدم لتصل إلى الغدد اللبنية في ضروع الأناث التي تقوم باستخلاص مكونات اللبن من بين الدم دون أن يبقى أي آثار في اللبن من الفرث أو الدم وتضاف إليه في حويصلات اللبن مادة سكر اللبن التي تجعله سائغاً للشاربين.

هذه الأسرار كانت محجوبة عن البشر فلم يكتشفوها إلا بعد رحلة طويلة من التجارب والبحوث العلمية التي استغرقت قروناً واستُعملَت فيها أجهزة صُنعَت لأول مرة على أيدي الباحثين لم يكن لها وجود عند البشر قبل ذلك. ولكن القرآن الكريم كشفها أمام قارئيه بأجمل عبارة وأوجز لفظ قبل ألف وأربعمائة عام. فمن علم محمداً ﷺ من بين سائر البشر في ذلك الزمن أسرار الجهاز الهضمي والجهاز الدوري ودقائق ما يجري في غدد اللبن إلا الذي يعلم السر في الأرض والسماء ويعلم أسرار ما خلق من الكائنات، فيكون ذلك شاهداً على أن القرآن نزل بعلم الله وأن محمداً رسول الله. قال تعالى: ﴿ **لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً** (١٦٦) ﴾

[النساء: ١٦٦].



الفصل السادس

الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة عليهم السلام

توطئة:

الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان ولا يصح الإيمان إلا به ويتضمن الإيمان بوجودهم، وما لهم من الصفات الخلقية والخُلقية التي يتناسب مع مكانتهم ووظائفهم، وأنهم في عبادة دائبة لربهم، ولهم مقامات مختلفة، وهم درجات عند ربهم، ولكل منهم مقام معلوم، ويقومون بتدبير أمر الخلائق بأمر ربهم، ومنهم حملة الوحي الإلهي إلى الرسل من البشر عليهم السلام، ولهم صلات حميمة مع عباد الله المؤمنين، كما يسلطهم الله على الكافرين لينزل بهم ما شاء من عقوبات، وهم جند الله في أحداث الساعة، ومنهم خزنة الجنة والنار.

ما الملائكة ؟

الملائكة : عباد مكرمون، خلقهم الله من نور، قالت عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**خُلِقَتْ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**»(١). وهم في تسبيح دائم ويدبرون شئون الكون بأمر ربهم وهم لا يفرطون .

قال تعالى: ﴿**يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ** (٣٨)﴾ [فصلت: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** (٦)﴾

[التحريم: ٦] .

حكم الإيمان بالملائكة :

الإيمان بالملائكة واجب، وهو ركن من أركان الإيمان. قال تعالى: ﴿**آمَنَ**

(١) أخرجه مسلم ك/ الزهد والرقائق ب/ في أحاديث متفرقة واللفظ له والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٣) وأحمد (٦ / ١٥٣).

الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وفي حديث جبريل عليه السلام أنه قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**فأخبرني عن الإيمان قال: أن تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ صَدَقْتَ**»(١) .

وإنكار وجودهم كفر. قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١٣٦) ﴾ [النساء : ١٣٦] .

---

(١) أخرجه البخاري ك/ الإيمان ب/ سؤال جبريل للنبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ، ومسلم ك/ الإيمان ب/ بيان الإيمان والإسلام والإحسان وجوب الإيمان ، واللفظ له .

صفات الملائكة

الملائكة عالم غيبي، لا يدخل في عالم المشاهدة، والوحي هو طريقنا للعلم والإيمان بهم، وقد أخبرنا الله ورسوله عن شأن الملائكة وصفاتهم الخِلقية والخُلقية ومن ذلك ما يأتي:

أولاً - صفاتهم الخَلْقيَّة:

[١] **أولو أجنحة**: ذكر القرآن الكريم أنَّ للملائكة أجنحة. قال تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (١) ﴾ [فاطر: ١]، وممن زاد الله في عدد أجنحته جبريل عليه السلام، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: « رَأَى محمد صلى الله عليه وآله وسلم جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ »[١].

[٢] **قدرتهم على التمثل بالبشر**: وهب الله سبحانه وتعالى ملائكته القدرة على التمثل بصور البشر. فقال عن جبريل عليه السلام في قصة مريم العذراء: ﴿ **فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا** (١٧) ﴾ [مريم: ١٧] وقال في قصة ضيف إبراهيم من الملائكة عليهم السلام الذين جآءوه على صورة بشر: ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ** (٢٤) ﴾ [الذاريات: ٢٤]. وكان جبريل عليه السلام يتمثل في صورة دحية الكلبي. فقد جاء جبريل إلى النبي ﷺ وعنده أم سلمة فجعل يحدث، فلما قام قال النبي ﷺ لأم سلمة: من هذا؟ قالت: دِحْيَةُ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: أيْمُ الله مَا حَسِبْتُهُ إِلاَّ إِيَّاهُ، حَتَّى سَمِعْتُ خُطْبَةَ النبي ﷺ بخبر جبريل[٢]. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ** عليه السلام **فَإِذَا**

---

(١) أخرجه البخاري ك/ بدء الخلق ب/ إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومسلم ك/ الإيمان ب/ في قوله تعالى : (ولقد رآه نزلة أخرى) .

(٢) أخرجه البخاري ك/ المناقب ب/ علامات النبوة ، ومسلم ك/ فضائل الصحابة رضي الله عنهم ب/ من فضائل أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها .

أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا دَحْيَةُ»(١)، يعني أنه يشبهه حين يتمثل في صورته الآدمية. وقد جاء جبريل عليه السلام في صورة رجل حسن المظهر والمنظر كما في حديث عمر رضي الله عنه حيث قال: «بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ....»(٢).

[٣] **لا ينالهم سأم ولا عجز ولا فتور في عبادتهم**: قال تعالى: ﴿ **فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ** ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصلت:٣٨]. وقال تعالى: ﴿ **لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ**(٣) ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنبياء:١٩]. وقال تعالى: ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ**(٤) ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٠].

[٤] **قدراتهم العظيمة**: لقد خلق الله الملائكة بقدرات عظيمة تتناسب مع ما كلفهم به من أعمال، مثل: تدبير أمر الخلائق، وحراسة السماء، وإهلاك الظالمين، ونفخ الأرواح وقبضها، ونفخ الصور، والقيام بأعمال خزانة الجنة والنار كما سيأتي تفصيله.

[٥] **تأذيهم مما يتأذى منه بنو آدم**: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ**»(٥).

[٦] **لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون**: قدم إبراهيم لضيفه من الملائكة عجلاً حنيذا وقال لهم (ألا تأكلون)؟! وعندما رأى أيديهم لا تصل إلى

---

(١) أخرجه مسلم ك/ الإيمان ب/ الإسراء برسول الله إلى السموات وفرض الصلاة.

(٢) أخرجه البخاري ك/ الإيمان ب/ سؤال جبريل للنبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، ومسلم ك/ الإيمان ب/ بيان الإيمان والإسلام والإحسان وجوب الإيمان، واللفظ له.

(٣) لا يستحسرون: أي لا يتعبون ولا يملون. انظر المعجم الوسيط ١٧٢ مادة حسر.

(٤) لا يفترون: أي لا يضعفون.

(٥) أخرجه البخاري ك/ الأذان ب/ ما جاء في الثوم النيئ والبصل والكراث، ومسلم ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوهما، واللفظ له.

الطعام أوجس منهم خيفة. قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠)** ﴾[هود: ٧٠] فمن صفاتهم التي اتفق العلماء عليها كما ذكره السيوطي «أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون»[١].

[٧] **نفي الأنوثة عنهم**: أنكر القرآن الكريم أشد الإنكار على المشركين الذين وصفوا الملائكة بالأنوثة فقال تعالى: ﴿ **وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)** ﴾[الزخرف: ١٩].

[٨] **قابليتهم للفناء والموت**: ويجوز في حق الملائكة الفزع والفناء والموت لقوله تعالى: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)** ﴾ [القصص: ٨٨]. ولقوله تعالى: ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨)** ﴾ [الزمر: ٦٨]. والملائكة ممن تشملهم الآية لأنهم من ساكني السماء.

[٩] **كثرة عددهم**: قال تعالى في سياق الحديث عن الملائكة: ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ** ﴾[المدثر: ٣١] قال قتادة: أي من كثرتهم[٢]، وقد ورد في حديث الإسراء أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، وورد أن ما في السماء من موضع أربع أصابع إلا وعليها ملك يعبد الله، إلى غير ذلك مما ورد في كثرتهم[٣].

ثانياً - الصفات الخُلُقِيَّة:

[١] **أدبهم مع خالقهم سبحانه وتعالى**: فلا يقولون شيئاً حتى يقوله سبحانه أو يأمرهم به. قال سبحانه وتعالى: ﴿ **لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧)** ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

---

(١) الحبائك في أخبار الملائك ص: ٢٦٤.

(٢) التفسير الصحيح (٤ / ٥٦١).

(٣) انظر تفسير ابن كثير عند قوله تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو ...).

[٢] **لا يستنكفون**(١) **عن عبادة ربهم ولا يستكبرون** : قال تعالى : ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا** (١٧٢) ﴾ [النساء : ١٧٢]

[٣ ، ٤] **الكرم والبر** : قال تعالى : ﴿ **كِرَامٍ بَرَرَةٍ** (١٦) ﴾ [عبس : ١٦]، قال ابن كثير : « أي خلقهم كريم حسن شريف وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة »(٢). وقال الشوكاني : « قال الحسن : كرام عن المعاصي وقيل يتكرمون أن لايكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته أو قضى حاجته، وقيل يؤثرون منافع الناس على منافعهم، وقيل يتكرمون على المؤمنين بالاستغفار لهم. والبررة جمع بار .. أي أتقياء مطيعون لربهم صادقون في إيمانهم »(٣).

[٥] **الحياء** : قال صلى الله عليه وآله وسلم عن مناقب عثمان ﷺ : « **أَلاَ أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلاَئِكَةُ** »(٤).

[٦] **التعفف عن أماكن المعصية** : نهى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن اقتناء الكلاب في البيوت(٥) كما حرم اقتناء التماثيل التي تُعبَد أو تُعظَّم(٦) صيانة للتوحيد وتجنباً للتشبه بالوثنيين، والملائكة تتنزه من دخول هذه الأماكن التي تقع فيها هذه المعاصي فلا يدخلون بيتا فيه كلب أو صورة . قال ﷺ : « **لاَ تَدْخُلُ الْمَلاَئِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ** ». وفي رواية

---

(١) الاستنكاف : الأنفة والامتناع ، انظر القاموس المحيط باب الفاء فصل النون .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

(٣) فتح القدير للشوكاني .

(٤) أخرجه مسلم ك / فضائل الصحابة ب / من فضائل عثمان بن عفان ﷺ، والبيهقي في السنن الكبرى (٢ / ٢٣٠).

(٥) أثبت الطب أن الكلاب تنقل عدداً كبيراً من الأمراض لمن يعيش معها ويختلط بها (بحث الإعجاز العلمي للدكتور جون هنوفر لارسن) .

(٦) ورد ما يدل على استثناء لعب الأطفال من التحريم .

البخاري: «**وَلاَ صُورَةُ تَمَاثِيلَ**»(١) وعند مسلم عن أبي طلحة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**لاَ تَدْخُلُ الْمَلائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ تَمَاثِيلَ**»(٢).

[٧] **ولا يقربون السكران، والمضمخ بالزَّعْفَرَانِ، والجنب وجيفة الكافر**: فعن بريدة رضي الله عنه: أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**ثَلاثَةٌ لاَ تَقْرَبُهُمْ الْمَلاَئِكَةُ: السكران، وَالْمُتَضَمِّخُ بالزَّعْفَرَانِ(٣)، وَالْجُنُبُ**»(٤). وعن عمار بن ياسر أن الرسول ﷺ قال: «**ثَلاثَةٌ لاَ تَقْرَبُهُمْ الْمَلائِكَةُ: جِيفَةُ الْكَافِرِ، وَالْمُتَضَمِّخُ بِالْخَلُوقِ(٥)، وَالْجُنُبُ إِلاَّ أَنْ يَتَوَضَّأَ**»(٦).

---

(١) رواه البخاري ك/ الخلق ب/ إذا قال أحدكم آمين ... ومسلم ك/ اللباس ب/ تحريم تصوير صورة الحيوان.

(٢) أخرجه البخاري ك/ بدء الخلق ب/ إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء، ومسلم ك/ اللباس ب/ باب تحريم صورة الحيوانات.

(٣) المتضمخ بالزعفران: (التضمخ: التلطخ بالطيب وغيره، والإكثار منه) انظر النهاية لابن الأثير (٣ / ٩٩)، والزعفران: (نبات بصلي معمر من الفصيلة السوسنية، منه أنواع برية، ونوع صبغي طبي مشهور) انظر المعجم الوسيط (ص٣٩٤).

(٤) أخرجه الطبراني (٥ / ٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١ / ٥٨٧).

(٥) الخلوق: «هو طيب معروف مركب يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب، وتغلب عليه الحمرة والصفرة ...» انظر النهاية لابن الأثير (٢ / ٧١).

(٦) أخرجه أبو داود ك/ الترجل ب/ في الخلوق للرجال، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١ / ٥٨٧).

عبادة الملائكة لربهم

الملائكة في عبادة دائمة وطاعة مطلقة، وهم معصومون من ارتكاب المعصية[١] متعبدون بالطاعة. قال تعالى: ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾[التحريم: ٦].

▪ومن عبادتهم أنهم يشهدون لله بالألوهية والوحدانية: قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾[آل عمران: ١٨].

▪ومن عبادتهم أنهم لا يفترون عن تسبيحهم لله وتقديسهم له سبحانه. قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ۝٢٠ ﴾[الأنبياء: ٢٠] وقد حكى الله عنهم أنهم قالوا له سبحانه: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾

[البقرة: ٣٠].

▪ومن عبادتهم أنهم يقومون للصلاة بين يدي ربهم صفوفاً مستقيمة. قال تعالى حاكياً قولهم: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦ ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا**»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟

---

(١) ولا ينافي عصمة الملائكة ما إذا ترجح القول بأن هاروت وماروت في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ [البقرة: ١٠٢] أنهما ملكان، فقد أنزلا للابتلاء الذي خص الله به بعض مخلوقاته وعافى سائر ملائكته من ذلك، لبيان وجه الحكمة البالغة من خلق البشر. قال ابن كثير: (وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء وأنهما أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان، وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده رحمه الله، وعلى هذا فيكون تخصيصاً لهما فلا تعارض حينئذ ...) انظر تفسير ابن كثير، والحديث الذي أشر إليه الحافظ ابن كثير وفيه ذكر الزهرة قال فيه محققوا المسند: إسناده ضعيف ومتنه باطل، وقالوا: الصحيح أن هذا الحديث لا تصح نسبته إلى النبي ﷺ وإنما هو من قصص كعب الأحبار نقله عن كتب بني إسرائيل انظر تحقيق المسند (١٠ / ٣١٨).

قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ ثم يَتَرَاصُّونَ في الصَّفِّ»[١].

- ومن عبادتهم عمرانهم للبيت المعمور[٢] بالصلاة قال عليه الصلاة والسلام وهو يحكي رحلة الإسراء والمعراج: «فَرُفِعَ لي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ»[٣].

- ومن عبادتهم السجود لله رب العالمين: قال عليه الصلاة والسلام: «إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ، أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لله»[٤].

- وهم في خشية دائمة لربهم وإشفاق منه سبحانه. قال تعالى: ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٨].

- وينفذون كل ما يأمرهم به الله قال سبحانه: ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم:٦].

---

(١) أخرجه مسلم ك/ الصلاة ب/ السكون في الصلاة والنهي عن الإشارة، وهو في صحيح سنن أبي داود للألباني (١ / ١٣٠)، وفي مسند أحمد بتنقيح صدقي محمد جميل العطار (٧ / ٤٤٥ / ٢١٠٨٠)، دار الفكر /ط٢، ١٩٩٤-١٤١٤م وغيرهم.

(٢) البيت المعمور: قال علي وبن عباس ﷺ: هو بيت في السماء حيال الكعبة.. انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٧ / ٥٩).

(٣) أخرجه البخاري ك/ بدء الخلق. ب/ ذكر الملائكة عليهم السلام واللفظ له، ومسلم ك/ الإيمان ب/ الإسراء برسول الله ﷺ.

(٤) أخرجه الترمذي، ك/ الزهد ب/ في قول النبي ﷺ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً واللفظ له، والبيهقي في السنن الكبرى (٧ / ٩٢)، وأحمد (٥ / ١٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢ / ٢٦٨).

مقامات الملائكة

إن للملائكة منزلة رفيعة عند الله، ولهم مع ذلك مقامات متعددة ومنازل متفاوتة. قال تعالى: ﴿ **وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ** ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الصافات: ١٦٤].

وفي الحديث عن رفاعة بن رافع أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «**مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلائِكَةِ**»(١) وأشهر الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام.

١ - مقام جبريل عليه السلام:

اصطفى الله سبحانه وتعالى جبريل عليه السلام فجعله أميناً على وحيه وسفيراً إلى أنبيائه ورسله ووصفه بصفات لم يصف بها غيره من الملائكة.

- فسماه روح القدس، قال تعالى: ﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ** ﴾ [النحل: ١٠٢].

- كما شرفه فخصه بالذكر وقدمه في الترتيب على سائر الملائكة في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم: ٤].

- ومدحه بستِّ صفات في معرض تبليغه للقرآن الكريم قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ﴿١٩﴾ **ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ** ﴿٢٠﴾ **مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ** ﴿٢١﴾ ﴾

[التكوير: ١٩-٢١].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى -: قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ**

---

(١) أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ شهود الملائكة بدراً.

كَرِيمٍ﴾ يعني أن هذا القرآن لَتبليغُ رسول كريم أي مَلَكٌ شريف حسن الخلق بهي المنظر وهو جبريل عليه الصلاة والسلام ...

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٥-٦] أي شديد الخلق شديد البطش والفعل، ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي له مكانة عند الله عزوجل ومنزلة رفيعة...

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي له وجاهة فهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى. قال قتادة ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي في السماوات يعني ليس من أفناد[١] الملائكة ... وقوله تعالى: ﴿أَمِينٍ﴾ صفة لجبريل بالأمانة ...[٢]

٢- ميكائيل عليه السلام:

قرن النبي ﷺ ميكائيل مع جبرائيل وإسرافيل في دعائه عند استفتاحه لصلاة الليل: فقال: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[٣]

وقد ناصب اليهود العداء لجبريل عليه السلام وادعوا موالاة ميكائيل معللين عداوتهم لجبريل بأنه إنما يأتي بالشدة وسفك الدماء فقد أخبر عبد الله بن سلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن جبريل عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧][٤]، وقال اليهود للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنه لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيه بِالْخَبَرِ فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟ قَالَ: «**جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمِ**» قَالُوا: جِبْرِيلُ ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ

---

(١) أفناد الملائكة: أي آحادهم.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير عند الآيات المذكورة.

(٣) أخرجه مسلم ك/ صلاة المسافرين وقصرها ب/ الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

(٤) أخرجه البخاري ك/ التفسير ب/ من كان عدواً لجبريل.

بالحَرْب وَالْقتَال وَالْعَذَاب عَدُوُّنَا ! لَوْ قُلْتَ مِيكَائِيلَ الَّذي يَنْزِلُ بالرَّحْمَة وَالنَّبَات وَالْقَطْرِ لَكَانَ فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ** (٩٨) ﴾ [البقرة : ٩٨](١) .

« فإذا كان جبريل عليه السلام وُكِّل بالوحي الذي تحيا به الأرواح، فإن ميكائيل موكَّل بالقطر والنبات الذي تحيا به الأبدان، وبعملهما تتكامل المنة الربانية والعظمة الإلهية على خلقه أجمعين »(٢) .

٣- إسرافيل عليه السلام :

وقد ذكره النبي ﷺ في دعائه كما تقدم وقرنه بجبريل وميكائيل عليهم السلام، وقد اشتهر أنه هو الَّذي ينفخ في الصور، قال الحافظ ابن حجر : اشتهر أن صاحب الصور إسرافيل عليه السلام ونقل فيه الحليمي الإجماع (٣) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بالنَّفْخ فَيَنْفُخُ ؟** » فَكَأَنَّ ذَلكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَاب النَّبيِّ ﷺ ، فَقَالَ لَهُمْ : « **قُولُوا حَسْبُنَا الله وَنعْمَ الْوَكيلُ عَلَى الله تَوَكَّلْنَا** » (٤) .

٤- حملة العرش :

عرش الله مخلوق عظيم يليق بعظمة الله سبحانه، قال تعالى : ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** (١٢٩) ﴾ [التوبة : ١٢٩] .

---

(١) أخرجه أحمد (١ / ٢٧٤) واللفظ له ، والنسائي في السنن الكبرى (٥ / ٣٣٦) وهو حديث حسن كما في تحقيق المسند (٤ / ٢٨٥).

(٢) لمزيد من الفائدة انظر إغاثة اللهفان لابن القيم : (٢ / ١٢٧-١٢٨).

(٣) فتح الباري (١١ / ٣٦٨) في شرحه لباب نفخ الصور من كتاب الرقاق وزاد فيه :- أنه وقع في التصريح بأن إسرافيل هو الذي ينفخ في الصور عدد من الآثار ، وأورد ما يدل أيضاً على أن الذي ينفخ في الصور غيره، وقيل : إنهما ملكان يقومان بذلك ، وللاستزادة يرجع إليه .

(٤) رواه الترمذي في السنن ك/ صفة القيامة ب/ ما جاء في شأن الصور واللفظ له ، وأحمد في باقي مسند المكثرين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وأبو نعيم في الحلية (٥ / ١٠٥) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣ / ٦٦).

وقد وكَّل الله بحمل هذا العرش العظيم ملائكة يسبحون بحمد ربهم. قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ** ﴾ [غافر: ٧]. وبَيَّنَ القرآن عدد حَمَلَة العرش يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** ﴿١٧﴾ ﴾ [الحاقة: ١٧].

وبين الرسول ﷺ عظَم خلق حملة العرش. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أُذِنَ لي أن أُحدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكة الله من حملة العرش، أنَّ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه**[١] **مسيرةُ سبعمائة عامٍ**»[٢].

٥- المقربون:

لله ملائكة مقربون يشيعون أرواح المؤمنين من كل سماء إلى السماء السابعة كما جاء في حديث البراء بن عازب المشهور: «... **فتخرج نفسه (أي نفس المؤمن) كأطيب ريح وُجِدَت فتعرج به الملائكة فلا يأتون على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا ما هذه الروح؟ فيقال: فلان، بأحسن أسمائه حتى ينتهوا به أبواب سماء الدنيا فيفتح له، ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقال اكتبوا كتابه في عليين** ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ** ﴿١٩﴾ **كِتَابٌ مَّرْقُومٌ** ﴿٢٠﴾ **يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴿٢١﴾ ﴾ [المطففين: ١٩-٢١] **فيكتب كتابه في عليين**... الحديث[٣].

---

(١) عاتقه: (العاتق موضع الرداء من المنكب، يُذكَّر ويؤنث) انظر مختار الصحاح (ص٤٣٦).

(٢) أخرجه أبو داود ك/ السنة ب/ في الجهمية. واللفظ له وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١ / ٧٢)، وفي صحيح الجامع الصغير (١ / ٢٠٩).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤ / ٢٨٧، ٢٩٦-٢٩٥)، وأبو داود ك/ السنة ب/ في المسألة في القبر وعذاب القبر، وأخرجه النسائي في الجنائز ب/ عذاب القبر، وأخرجه ابن ماجه في ما جاء في الجنائز ب/ ما جاء في الجلوس في المقابر وب/ ذكر القبر، والحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وابن أبي شيبه في المصنف (٣ / ٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ١٦٧٢، وصححه أبو نعيم وابن القيم وغيرهم كما ذكر ذلك الألباني في كتابه: الجنائز.

أعمال الملائكة

يأمر الله سبحانه وتعالى ملائكته بتدبير شئون الكون وفق أمره. قال تعالى: ﴿ **فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** ﴿٥﴾ ﴾ [النازعات:٥] وحدد لكل منهم ما يقوم به فلا يسبقونه بالقول ولا يفرطون فيما أمرهم به.

قال تعالى: ﴿ **بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٧]، ويوضح هذا أيضا ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «**ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟**» قال فنزلت ﴿ **وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** ﴿٦٤﴾ ﴾ (١)

[مريم:٦٤].

ومن تلك الأعمال التي يقوم بها الملائكة ما يأتي:

١- إعمار السماوات بالعبادة:

خلق الله السماوات السبع وجعل الملائكة الكرام يعمرونها بالتسبيح والتمجيد والعبادة الدائمة والطاعة المطلقة. جاء في حديث الإسراء: «**فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ**»(٢).

وقال ﷺ: «**إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ، أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لله**» (٣).

---

(١) أخرجه البخاري ك/ بدء الخلق ب/ ذكر الملائكة عليهم السلام واللفظ له، وأحمد (١ / ٢٣٣).

(٢) رواه البخاري ك/ بدء الخلق، ب/ ذكر الملائكة عليهم السلام، ومسلم ك/ الإيمان ب/ الإسراء برسول الله ﷺ.

(٣) أخرجه الترمذي، ك/ الزهد ب/ في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً» واللفظ له، والبيهقي في السنن الكبرى (٧ / ٩٢)، وأحمد (٥ / ١٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢ / ٢٦٨).

٢- تدبير أمر الخلائق:

قال تعالى: ﴿ **فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** ⁽٥⁾ ﴾ [النازعات: ٥]. قال علي ومجاهد وعطاء وأبو صالح والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسُّدي: هي الملائكة، وزاد الحسن: «تدبر الأمرَ من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربها عز وجل»(١).

وقال تعالى: ﴿ **فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا** ⁽٤⁾ ﴾ [الذاريات: ٤] وذكر ابن كثير الأقوال عن عليّ بن أبي طالب وعمر بن الخطاب أن المقسمات هي الملائكة وقال: «تتنزل بأوامر الله الشرعية والكونية»(٢).

وقال تعالى: ﴿ **تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ** ⁽٤⁾ ﴾ [القدر: ٤]. فهذه الآية واضحة النص والدلالة على أن الملائكة وجبريل عليهم السلام ينزلون بالأوامر من الله سبحانه وتعالى في ليلة القدر من كل عام في العشر الأواخر من رمضان.

٣- حراسة السماء:

جعل الله سبحانه وتعالى ملائكة مُوَكَّلة بحفظ السماء وحراستها من الشياطين. قال تعالى: ﴿ **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا** ⁽٨⁾ ﴾ [الجن: ٨] قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: «أي حفظة يعني الملائكة»(٣).

٤- حماية الرسل والوحي:

أحاط الله رسله بملائكة يحفظونهم حتى يبلغوا رسالة ربهم. قال تعالى: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا** ⁽٢٦⁾ **إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا** ⁽٢٧⁾ **لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ**

---

(١) تفسير ابن كثير عند الآية المذكورة، وأخرجه عبدالرزاق بسند صحيح عن قتادة كما في التفسير الصحيح (٤ / ٥٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير.

(٣) الجامع لأحكام القرآن.

﴿شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن:٢٦-٢٨] . قال الإمام ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٧] «أي يخصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله ويساوقونه[١] على ما معه من وحي الله»[٢].

ونقل الشوكاني عن ابن عباس ﷺ في معنى قوله تعالى : ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ قال : «معقبات من الملائكة يحفظون رسول الله من الشياطين حتى يبين الذي أُرسل إليهم به»[٣].

٥ - سوق السحب وإنزال المطر :

إن ما نشاهده من سير السحب وتنقلها من مكان إلى آخر قد يظن بعض الناس أن هذا من تلقاء نفسها، أو أن الطبيعة العمياء هي التي تصرفها وتوجهها، ولكن الأمر غير ذلك، فإن هذا الأمر المشاهد والمنضبط بالسنن الربانية تُسَيِّرُه الملائكة بأمر خالقها سبحانه. عن ابن عباس ﷺ قال أقبلت يهود إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «**مَلَكٌ مِنَ الْمَلائكَةِ مُوَكَّلٌ بالسَّحَابِ مَعَهُ مَخَارِيقُ[٤] مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللهُ**». فَقَالُوا فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ ؟ قَالَ: «**زَجْرُهُ[٥] بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ**» قالوا : صدقت[٦].

---

(١) يساوقونه : أي يتابعونه ويسايرونه ويجارونه. انظر المعجم الوسيط مادة (ساق) (ص٤٦٤).

(٢) تفسير ابن كثير .

(٣) فتح القدير .

(٤) مخاريق : جمع مخراق وهو في الأصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً ، أراد أنه آلة تزجر الملائكةُ السحابَ به وتسوقه انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير : (٢ / ٢٦).

(٥) معنى زجره: سوقه ودفعه انظر التاج باب الراء فصل الزاي .

(٦) أخرجه الترمذي ك/ تفسير القرآن ب/ من سورة الرعد ، واللفظ له والنسائي في السنن الكبرى (٥ / ٣٣٦)، وذكره الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣ / ٦٤) وفي الصحيحة (٤ / ٤٩١) برقم (١٨٧٢).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**بَيْنَا رَجُلٌ بفَلاة منْ الأرْض، فَسَمعَ صَوْتًا في سَحَابَة: اسْق حَديقَةَ فُلان، فَتَنَحَّى ذَلكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغ مَاءَهُ في حَرَّة، فإذَا شَرْجَةٌ**[١] **منْ تلْكَ الشِّرَاج قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإذَا رَجُلٌ قَائمٌ في حَديقَته يُحَوِّلُ الْمَاءَ بمسْحَاته، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ الله، مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلانٌ، للاسْم الَّذي سَمعَ في السَّحَابَة، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ الله لمَ تَسْأَلُني عَنْ اسْمي؟ فَقَالَ إنِّي سَمعْتُ صَوْتًا في السَّحَاب الَّذي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْق حَديقَةَ فُلان، لاسْمكَ فَمَا تَصْنَعُ فيهَا؟ قَالَ: أَمَا إذْ قُلْتَ هَذَا، فَإنِّي أَنْظُرُ إلَى مَا يَخْرُجُ منْهَا فَأَتَصَدَّقُ بثُلُثه، وَآكُلُ أَنَا وَعيَالي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فيهَا ثُلُثَهُ**»[٢].

غيث الاستقاء:

ويظهر عمل الملائكة الموكلة بالقطر جلياً في سوق السحاب وإنزال المطر في الأماكن التي لجأ أهلها إلى الله طالبين السقيا بصلاة الاستسقاء، مما يدل على أن هذا السحاب يُساق، والمطر ينزل إلى المكان المطلوب بفعل الملائكة كما جاء في الحديث السابق «**اسق حديقة فلان**».

٦- الموكل بالجبال:

وَكَّل الله سبحانه وتعالى بالجبال الرواسي مَلَكاً، هو ملك الجبال كما جاء في الحديث عن عائشة ﷺ أنها قالت للنبي ﷺ: «يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «**لقد لَقيتُ من قومك، وكان أشدُّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد يالَيْل بن عبد كُلال فلم يُجبْني إلى ما أردت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب**[٣]، **فرفعت**

---

(١) شرجة: هي مسيل الماء من الحرة إلى السهل. انظر القاموس المحيط للفيروز آبادي باب الجيم فصل الشين، وقال في معجم مقاييس اللغة ٣ / ٢٦٩ مادة شرج: شرج الوادي منفسحه.

(٢) أخرجه مسلم ك/ الزهد والرقائق ب/ الصدقة في المساكين، واللفظ له، وابن حبان ٨ / ١٤٢، وأحمد (٢ / ٢٩٦).

(٣) قرن الثعالب: مكان بين مكة والطائف يبعد عن مكة ٨٠كلم، وهو ميقات أهل نجد، ويسمى أيضاً "قرن المنازل" انظر معجم البلدان (٤ / ٣٣٢)، والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص٢٢٦.

رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني فنظرت، فإذا فيها جبريل فناداني، فقال : إن الله عز وجل قد سَمِعَ قولَ قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئْتَ فيهم . قال : فناداني مَلَك الجبال، وسَلَّم عليَّ، ثم قال : يا محمد إن الله قد سَمِعَ قولَ قومك لك، وأنا مَلَكُ الجبال، وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئْتَ أن أُطبقَ عليهم الأخشبين؟» فقال : النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ به شَيْئًا**» [١].

٧- حراسة مكة والمدينة من الدجال :

جعل الله سبحانه وتعالى ملائكة تحرس مكة والمدينة من دخول الدجال إليهما : عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة وليس نقباً من أنقابها إلا عليه الملائكة صافين تحرسها فينزل بالسبخة فترجف المدينة ثلاث رجفات يخرج إليه منها كل كافر ومنافق**»[٢].

النقب في اللغة: هو الخرق في الجلد أو الجدار أو نحوهما[٣]، والأنقاب جمع نقب . وعندما قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ذلك لم يكن في مكة والمدينة نقب واحد، أما اليوم فمكة محاطة بالأنقاب التي أصبحت مداخل رئيسة إلى مكة، وللمدينة بعض الأنقاب .

٨- الموكَّل بالرَّحم وتصوير الأجنة :

ثبت في الصحيحين عن أنس ﷺ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «**وَكَّلَ بالرَّحِمِ مَلَكًا، يَقُولُ أي رَبِّ نُطْفَةٌ، أي رَبِّ عَلَقَةٌ أي رَبِّ مُضْغَةٌ، فإذا أَرادَ اللهُ**

---

(١) أخرجه البخاري ك / بدء الخلق ب / إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه ، واللفظ له ، ومسلم ك / الجهاد والسير ب / ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين .

(٢) أخرجه مسلم ك / الفتن وأشراط الساعة ب / قصة الجساسة .

(٣) انظر المعجم الوسيط ص٩٤٣

أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا قَالَ : أي رَبِّ ذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فَمَا الرِّزْقُ ؟ فما الأَجَلُ ؟ فَيُكْتَبُ كذلك في بَطْنِ أُمِّه»(١).

كما حددت الأحاديث الأخرى اليوم الذي يقوم فيه الملك بالتصوير، وخلق السمع والبصر والجلد واللحم والعظم والجنس (ذكر أم أنثى)، ونفخ الروح فيه لينتقل من الحياة النباتية إلى الحياة الآدمية . ففي الحديث، عن أبي ذر الغفاري ﷺ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «**إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً، فصوّرها، وخلق سمعها، وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال : أي رب : أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك**» (٢).

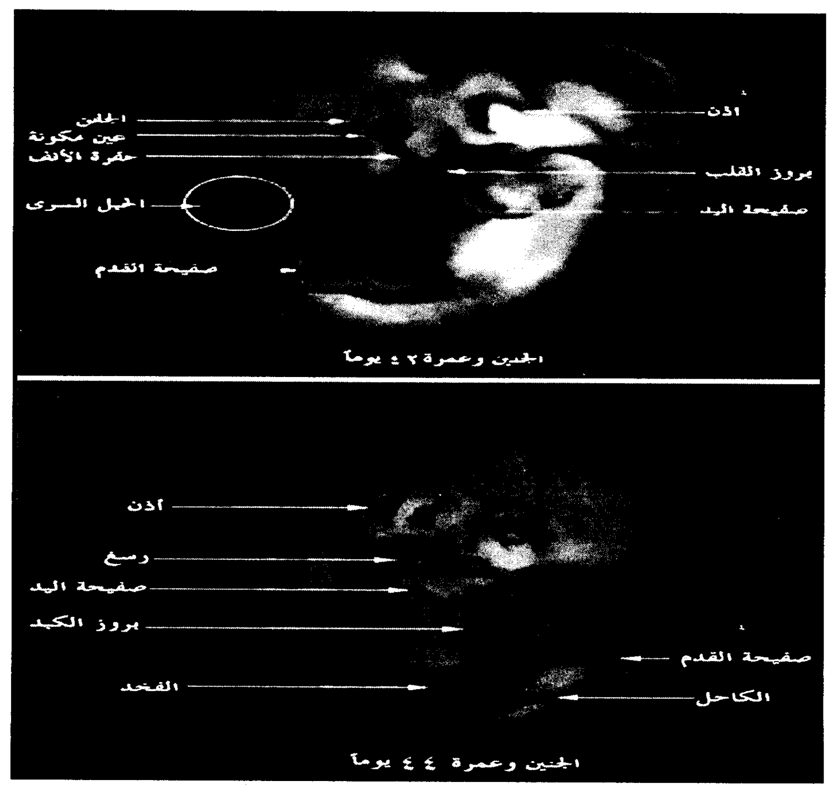
وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يُرى الناس في زماننا هذا مراحل تطور الجنين ومشاهدة أحواله في رحم أمه بواسطة الأجهزة المصنوعة لذلك، مما جعل هذا الحديث الشريف آية شاهدة على معجزة النبي صلى الله عليه وآله وسلم نرى في الصورة (أ) أن شكل الجنين إلى نهاية الأسبوع السادس إلى الليلة الثانية والأربعين



(١) أخرجه البخاري ك/ القدر ب/ حدثنا أبو الوليد هشام بن عبدالملك ، ومسلم ك/ القدر ب/ كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ...

(٢) أخرجه مسلم ك/ القدر ب/ كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ... ، وابن حبان (١٤ / ٥٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧ / ٤٢٢).

لا يأخذ الصورة الأدمية ولا تتكون له أجهزة السمع والبصر ولا يتبين فيه العظم واللحم أو الجلد .



الجنين وعمره ٤٢ يوماً

الجنين وعمره ٤٤ يوماً

فإذا ما بدأ الأسبوع السابع أي: بعد الليلة الثانية والأبعين بدأت الأحداث التي بَيَّنَهَا حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في غاية الدقة والوضوح كما هو مبين في الصورة (ج) «بعث إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها» ويبدأ ذلك بالظهور في اليوم الرابع والأربعين أي بعد اليوم الثاني والأربعين مباشرة .

وفي زمن قول الرسول ﷺ لهذا الحديث كان من المستحيل معرفة ما يحدث من تطورات للجنين في بطن أمه، فكيف بتحديد ليلة معينة يقع على إثرها أحداث معينة، كما فصلها حديث النبي ﷺ . وكشف علم الأجنة أن الجنين في هذه المرحلة التي يأتي فيها الملك يكون قابلاً للتشكل، ويتأثر بالعوامل المختلفة[1] ليسهل للملك تصوير الجنين وتشكيله، وهذا شاهد من العلوم التجريبية على عمل الملائكة الذي أخبر به الوحي .

٩ - الموكَّلون بحفظ الإنسان :

وَكَّل الله سبحانه وتعالى ببني آدم حفظة من ملائكته الأبرار، يحيطونه بالحفظ والرعاية فينجو من وقوع الشر والآفات، ولولا ذلك لما استطاع الإنسان العيش في أرض فيها الكثير من المخاطر، والمخلوقات الشريرة والوحوش المفترسة، والزواحف السامة، والحشرات الضارة، والكائنات الدقيقة الفتاكة والأشعة الضارة، وغيرها من أسباب المخاطر المهلكة. قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً** ﴾ [الأنعام : ٦١]، وقال تعالى : ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ**[2] **مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ [الرعد : ١١] .

قال ابن عباس ﵄ : « إن المعقبات من الله هم الملائكة جعلهم الله ليحفظوا الإنسان من أمامه ومن ورائه، فإذا جاء قَدَرُ الله الذي قدر أن يصل إليه، خَلَّوْا عنه »[3] .

ومصداق ذلك ما يُشاهد في الحياة لأناس يتعرضون لهلاك محقق فينجيهم الله كمن يخرجون أحياءً من تحت الأنقاض، أو أثناء حرب مدمرة، أو بعد سقوط

---

(١) كالأدوية التي تمنع الحوامل من استعمالها في فترة التشكل هذه .

(٢) وقد ثبت كذلك أن لكل إنسان خلايا مناعية دفاعية تجري مع الدم في تعاقب الإنسان من بين يديه ومن خلفه تحفظه من هجوم الجراثيم ، وغيرها من الكائنات الدقيقة وقد تتسع الآية لتشمل هذا المعنى .

(٣) انظر التفسير الصحيح (٣ / ١١١) .

طائرة بهم، أو غرقهم في باخرة أو سقوطهم من شاهق، أو نجاتهم من حوادث الصدام للسيارات أو القطارات أو غيرها من الحوادث المهلكة، فإذا ما جاء أجلهم ماتوا ولو بأيسر الأسباب، بعد أن يتخلى عنهم الملائكة الحافظون .

١٠ - كتابة الأعمال :

وَكَّل الله بكل إنسان ملكين حاضرين عن يمينه وشماله ملازمين له، لا يفارقانه لحظة من الزمان، يحصيان عليه كل أقواله وأفعاله، بل ويعلمان همه بالحسنة والسيئة، وقد بين القرآن ذلك فقال تعالى : ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**[١] ﴿١٨﴾ ﴾ [ق : ١٦-١٨] وقال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ** ﴿١٠﴾ **كِرَامًا كَاتِبِينَ** ﴿١١﴾ **يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار : ١٠-١٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا سَيِّئَةً وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا**»[٢] .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «**إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات**[٣] **عن العبد المسلم المخطئ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها وإلا كتبت واحدة**»[٤] .

١١ - مصاحبة الإنسان :

وَكَّل الله بكل إنسان قريناً من الملائكة يأمره بالخير ويرغبه فيه، وقرينا من الجن

---

(١) معنى رقيب : يرقب وعتيد : حاضر .

(٢) أخرجه مسلم ك/ الإيمان ب/ إذ هم العبد بحسنة كتبت ... واللفظ له ، وفي البخاري بنحوه ك/ التوحيد ب/ قول الله تعالى (يريدون أن يبدلوا كلام الله) [الفتح : ١٥] .

(٣) اليوم اثنتا عشر ساعة كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود ، والنسائي ، والحاكم ، وصححه الألباني انظر صحيح الجامع الصغير (٢ / ١٣٦٠) برقم (٨١٩٠)، ويكون اليوم والليلة بهذا الحساب ٢٤ ساعة .

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨ / ١٨٥) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٥ / ٣٩١) وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١ / ٤٢٢) برقم (٢٠٩٧) .

يأمره بالشر ويحثه عليه، كما جاء في الصحيح عن ابن مسعود ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة**»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي، إلا أن الله أعانني عليه**[١] **فأسلم. فلا يأمرني إلا بخير**»[٢].

وقد أوضح الرسول ﷺ علاقة الملك بالإنسان وكذلك علاقة الشيطان به فقال رسول الله ﷺ: «**إن للشيطان لَمّة بابن آدم، وللملَك لَمّة، فأما لَمّة الشيطان، فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم أنه من الله وليحمد الله، ومن وجد الأخرى؛ فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، ثم قرأ: ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)** ﴾ [البقرة: ٢٦٨][٣].

١٢- توفي أرواح بني آدم:

وكَّل الله ملكاً هو ملك الموت[٤] لقبض أرواح العباد عند نهاية آجالهم.[٥] قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)** ﴾ [السجدة: ١١]. وقد جعل الله له أعوناً يساعدونه في ذلك. قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١)** ﴾ [الأنعام: ٦١].

---

(١) قرينه من الجن أما الملك فهو معصوم لا يأمر إلا بالخير أصلا.

(٢) أخرجه مسلم ك/ صفات المنافقين وأحكامهم ب/ تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ...، وابن خزيمة (١ / ٣٣٠) واللفظ له وابن حبان (١٤ / ٣٢٧)، وأحمد (١ / ٣٨٥).

(٣) أخرجه ابن حبان (٣ / ٢٧٨)، وهو في موارد الظمآن (١ / ٤٠) سنن الترمذي (٥ / ٢١٩) برقم (٢٩٨٨) مسند أبي يعلى (٨ / ٤١٧ / ٤٩٩٩)، السنن الكبرى (٦ / ٣٠٢) رقم (١١٠٥١)، شعب الإيمان (٤ / ١٢٠) برقم (٤٥٠٦)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وأخرجه الطبري (٣ / ٨٨) موقوفاً على ابن مسعود بسند صحيح، وله حكم الرفع؛ لأن مثله لا يقال بالرأي. انظر تحقيق شعيب الأرناؤوط لصحيح ابن حبان (٣ / ٢٧٩).

(٤) وقد جاء في بعض الآثار تسمية ملك الموت باسم عزرائيل، ولا وجود لهذا الاسم في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة. البداية والنهاية ١ / ٥٠ بواسطة عالم الملائكة ص٢٢.

(٥) قال مجاهد: حويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء. انظر المصدر السابق.

وفي حديث البراء المشهور أن مَلَكَ الموت إذا قبض الروح لم يدعها الملائكة الذين معه في يده طرفة عين حتى يأخذوها منه[١].

١٣ - تبشير المسلمين :

وإذا حان أجل المسلم وكان من الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، أنزل الله إليه ملائكة تبشره بالجنة وتطمئنه من هول ماهو صائر إليه .

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١)** ﴾ [فصلت : ٣٠-٣١]

وفي حديث البراء ابن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوه كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّة وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّة حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِه فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللهِ وَرِضْوَانٍ ، قَالَ : فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَده طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوط ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ...**»[٢] .

---

(١) سبق تخريجه وهو حديث صحيح .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤ / ٢٨٧ ، ٢٩٦-٢٩٥)، وأبو داود ك / السنة ب / في المسألة في القبر وعذاب القبر، وأخرجه النسائي في الجنائز ب / عذاب القبر ، وأخرجه ابن ماجه في ما جاء في الجنائز ب / ما جاء في الجلوس في المقابر وب / ذكر القبر ، والحاكم في المستدرك وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وابن أبي شيبه في المصنف (٣ / ٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم : ١٦٧٢ ، وصححه أبو نعيم وابن القيم وغيرهم كما ذكر ذلك الألباني في كتابه : الجنائز .

١٤ - تعذيب الكافرين :

وإذا كان العبد الكافر والفاجر في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة أرسل الله إليه ملائكة غلاظاً شداداً ينزعون روحه نزعاً شديداً لا رفق فيه ولا رحمة. قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وفي حديث البراء أيضاً قال : «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ[١]، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ». قَالَ : «فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ[٢] مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ..» الحديث.[٣]

١٥ - سؤال الموتى في قبورهم :

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلِّيَ وَذَهَبَ

---

(١) المسوح : ثوب من الشعر غليظ. انظر تاج العروس.

(٢) السفود : حديدة ذات شعب معقفة يشوى بها. انظر تاج العروس للزبيدي (٥ / ٢٣) دار الفكر ١٤١٤-١٩٩٤م.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤ / ٢٨٧، ٢٩٦-٢٩٥)، وأبو داود ك/ السنة ب/ في المسألة في القبر وعذاب القبر، وأخرجه النسائي في الجنائز ب/ عذاب القبر، وأخرجه ابن ماجه في ما جاء في الجنائز ب/ ما جاء في الجلوس في المقابر وب/ ذكر القبر، والحاكم في المستدرك وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وابن أبي شيبه في المصنف (٣ / ٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم : ١٦٧٢، وصححه أبو نعيم وابن القيم وغيرهم كما ذكر ذلك الألباني في كتابه : الجنائز.

أَصْحَابُهُ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ فَيُقَالُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنْ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنْ الْجَنَّةِ» قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوْ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ لا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فَيُقَالُ لا دَرَيْتَ وَلا تَلَيْتَ ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلا الثَّقَلَيْنِ»(١).

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧]»(٢).

وقال رسول الله ﷺ : «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ ...... أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ(٣)، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ وَالآخَرُ النَّكِيرُ. فَيَقُولانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ نَمْ فَيَقُولُ أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ فَيَقُولاَنِ نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لاَ يُوقِظُهُ إِلاَّ أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ لاَ أَدْرِي فَيَقُولاَنِ قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ فَيُقَالُ لِلأَرْضِ الْتَئِمِي عَلَيْهِ فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلاعُهُ فَلا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري ك/ الجنائز ب/ الميت يسمع خفق النعال، ومسلم ك/ الجنة وصفة نعيمها ب/ عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه.

(٢) أخرجه البخاري ك/ تفسير القرآن ب/ «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت»، ومسلم ك/ الجنة وصفة نعيمها ب/ عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه.

(٣) قال صاحب التحفة (٤ / ١٨٢) بزاء فراء أي أزرقان أعينهما.

(٤) أخرجه الترمذي ك/ الجنائز، ب/ عذاب القبر وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع (١ / ١٨٦).

الملائكة والأنبياء عليهم السلام

١ - الملائكة وآدم عليه السلام :

ذكر القرآن الكريم المحاورة التي جرت في الملأ الأعلى بين الله وملائكته حول استخلاف آدم في الأرض. قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾ [البقرة : ٣٠-٣٣] .

ومضت مشيئة الله وقدرته فخلق آدم من صلصال من حمإٍ مسنون، وأمر ملائكته أن يسجدوا له بعد أن سواه بشراً ونفخ فيه الروح. قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) ﴾ [الحجر : ٢٨-٣١] .

وقد جاء في الحديث أن الله تعالى لما خلق آدم قال له : «**اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنْ الْمَلائِكَةِ جُلُوسٌ فَاسْتَمِعْ مَا يحيونك فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَذَهَبَ فَقَالَ : السَّلامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا : السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، قَالَ : فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللهِ**» [١] .

وعندما انقضى أجل آدم عليه السلام تولت الملائكة غسله ودفنه كما قال النبي

---

(١) رواه البخاري/ كتاب الاستئذان/ باب بدء السلام ، ومسلم ك/ الجنة وصفة نعيمها وأهلها ب/ يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير .

ﷺ : «**لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وتراً، وألحدوا له**[١]**، وقالوا: هذه سُنَّة آدم في ولده**»[٢] .

٢- الملائكة تبشر إبراهيم بإسحاق عليهما السلام :

جاءت الملائكة إلى إبراهيم عليه وعليهم السلام تحمل له البشرى بالولد بعد بلوغه الكبر وبلوغ زوجه سن اليأس .

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)** ﴾ [هود: ٦٩-٧٣]. قال الشوكاني - رحمه الله -: وكان مرورهم عليه لتبشيره بهذه البشارة المذكورة فظنهم أضيافاً وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وقيل كانوا تسعة وقيل أحد عشر[٣] .

٣- الملائكة وإسماعيل عليهما السلام :

ولما أسكن إبراهيم ولده وزوجه مكة وتركهما وانصرف طاعة لأوامر الله واتكالاً عليه، وكانت مكة يومئذٍ وادياً غير ذي زرع كما وصفها الله سبحانه، وبلغ من أم إسماعيل وابنها الجهد من العطش؛ فسعت بين جبلي الصفا والمروة لعلها تجد غوثاً، وفي حديث ابن عباس قال: «**فنظرَتْ هل ترى أحداً فلم تر أحداً؛ ففعلت ذلك سبع مرات**»، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ : «**فلذلك سعى**

---

(١) أي جعلوا له لحداً في قبره .

(٢) أخرجه الحاكم (٢ / ٥٩٥) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والطبراني في المعجم الأوسط (٨ / ١٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢ / ٩٢٤).

(٣) فتح القدير .

الناس بينهما»[١] فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت صه، تريدُ نفسَهَا ثم تسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء بسقائها وهو يفور بعدما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنْ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ ؛ فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللهِ يَبْنِيهِ هَذَا الْغُلامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ**»[٢].

٤ - الملائكة ولوط عليه السلام:

أرسل الله ملائكته إلى لوط[٣] عليه السلام لإخباره بهلاك قومه المكذبين والمصرين على ارتكاب أفظع الفواحش[٤]، وأمره بالخروج من هذه القرية الظالمة للنجاة من العذاب.

قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي**[٥] **هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا**

---

(١) بينهما: أي بين جبلي الصفا والمروة.

(٢) أخرجه البخاري ك/ أحاديث الأنبياء ب/ قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلا)، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف رقم ٥٦٠٠ والبيهقي في الدلائل (٢ / ٤٦-٥٢) انظر تخريج الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء ص٦٥.

(٣) ذكر ابن كثير رحمه الله أن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام فقال: ... لوط بن هارون بن تارح ـ وهو آزر، انظر قصص الأنبياء ص: ١٨١ - ١٨٣ منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت ط٣ م.

(٤) أي جريمة الشذوذ الجنسي.

(٥) الذي عليه غالب أهل التأويل أن عرض بناته عليهم هو تذكيره بنسائهم فهن في حكم بناته، وقيل عرض بناته ليزوجهم بهن نكاحاً لا سفاحاً. انظر الأقوال في ذلك في الطبري (٦ / ١٢-٥١).

فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾

[هود: ٧٧-٨١].

قال الطبري في تفسير الآية: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ [هود: ٧٧] ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ﴾ بمجيئهم ذرعاً يقول: « وضاقت نفسه غماً بمجيئهم، وذلك أنه لم يكن يعلم أنهم رسل الله في حال ما أساءه مجيئهم وعلم من قومه ما هم عليه من إتيانهم الفاحشة وخاف عليهم، فضاق من أجل ذلك بمجيئهم ذرعاً وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه ولذلك قال هذا يوم عصيب »[(١)].

قال ابن كثير: « ... لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم ... أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم[(٢)] ... اختباراً من الله تعالى لقوم لوط، وإقامة للحجة عليهم، فاستضافوا لوطاً عليه السلام وذلك عند غروب الشمس، فخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره، وحسبهم بشراً من الناس »[(٣)] .

وعندما علم قوم لوط بوجود أضياف عند لوط عليه السلام هرعوا إليه، وذكر ابن كثير... أن نبي الله لوط عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق، وهم يرومون فتحَهُ ووُلُوجَه، وهو يَعظهُم وينهاهم من وراء الباب، ... فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ لأحللت بكم النكال، قال الملائكة: ﴿ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل أنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر، فرجعوا

---

(١) تفسير الطبري .

(٢) سدوم : مدينة قوم لوط التي نزل عليها العذاب .

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ص١٨٣ بتصرف ، دار مكتبة الهلال ط٢ ، ١٩٨٨م .

يتحسسون مع الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن، ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شأن [١].

وجاء العذاب كما قال تعالى: ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)** ﴾ [الحجر:٧٣-٧٧] ثبت علمياً أن الرجم يصحب بصوت مدو وأن أشد ما يكون وقع الرجم على الأرض حال الشروق لتعامد الأحجار على سطح الأرض حال الشروق، ثم غُرِفت أرض سدوم ورفعت إلى السماء وجعل عاليها سافلها ؛ ومثل هذا يُحْدِث هبوطا في سطح الأرض جعل هذه المنطقة أخفض منطقة على الأرض. وأصبح مكانها بحيرة لا حياة فيها هي البحر الميت[٢] .

فأنجى الله لوطاً وأهله إلا امرأته، وأخرجهم منها أحسن إخراج، وترك قومه في محلتهم جاثمين، قال ابن كثير : «بعد أن صيرها عليهم بحيرة[٣] منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج، وحر يتوهج، وماءها ملح أجاج».

٥ - حمل الملائكة للتابوت في عهد نبي من أنبياء بني إسرائيل :

طلب الملأ من بني إسرائيل بعد عهد موسى عليه السلام من نبيٍ لهم أن يخرج لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، فأخرج لهم طالوت وذلك بأمر من الله سبحانه وأخبرهم أن علامة ملك طالوت أن يأتيهم التابوت[٤] وفيه سكينة[٥]

---

(١) المصدر السابق (ص١٨٥).

(٢) البحر الميت يختلف عن سائر البحار فلا يشترك معها في مستوى السطح فهو أخفض منطقة في الأرض، ولا حياة فيه .

(٣) بحيرة : هي البحر الميت .

(٤) التابوت في اللغة : هو الصندوق الذي يحرز فيه المتاع ، وهو هنا صندوق أثري لبني إسرائيل انظر تفسير ابن كثير عند الآية الكريمة .

(٥) السكينة : هي الرحمة كما روى ذلك الطبري عن ابن عباس ، وقيل : بل هي شيء مادي انظر الأقوال فيها في زاد المسير عند الآية المذكورة .

من الله سبحانه وبقية[١] مما ترك آل موسى وآل هارون، وحملت الملائكة ذلك التابوت فأتت به إليهم قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

٦- بشارة الملائكة لزكريا عليه السلام:

عندما رأى زكريا عليه السلام كرامة الله سبحانه لمريم عليها السلام كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير أوانها، فعلم أن الرزاق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً، وإن كان قد طعن في سنه وامرأته عاقر، فعندها دعا زكريا ربه أن يرزقه ولداً يرث عنه ميراث النبوة فبشرته الملائكة باستجابة الله لدعائه وهو قائم يصلي في المحراب.

قال تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا[٢] وَحَصُورًا[٣] وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) ﴾ [آل عمران: ٣٩].

٧- الملائكة وعيسى بن مريم عليه السلام:

ذكر الحق تبارك وتعالى أن الملائكة بشرت أم عيسى به فقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وقد تمثل لها جبريل عليه السلام بشراً سوياً كما قال تعالى: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) ﴾ [مريم: ١٧] فراعها ذلك فاستعاذت بالله منه وذَكَّرته بالله إن كان يخافه ويتقيه: ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) ﴾ [مريم: ١٨].

---

(١) البقية: قيل هي عصا موسى وبقية من الألواح وقيل غير ذلك.

(٢) سيداً: أي الذي يسود قومه وينتهي إلى قوله.

(٣) حصورا: أي يكف عن النساء ولا يقربهن مع القدرة. انظر تفسير القرطبي (٤ / ٧٦).

فبين لها حقيقته، وأنه ملك وليس بشراً، وأنه مرسل بمهمة خاصة هي أن يهبها غلاماً زكيا ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم : ١٩] .

وقد ثبت أن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان فيقتل الدجال ويكسر الصليب ويقتل الخنزير[١]، وذكر النبي ﷺ صفة نزوله كما جاء عند مسلم من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه «... **فينزل عند المنارة[٢] البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين[٣] واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ[٤] رأسه قَطَرَ وإذا رفعه تحدر منه جُمَانٌ[٥] كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات، ونَفَسُهُ ينتهي حيث ينتهي طَرْفُهُ ، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ[٦] فيقتله...**»[٧] .

٨- الملائكة والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

(أ) تهيئة النبي ﷺ لاستقبال الوحي :

لقد أوكل الله سبحانه وتعالى بعبده ونبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ملائكته الكرام وعلى رأسهم جبريل عليه السلام ليحيطوه بالرعاية والعناية والحفظ والتأييد منذ صغره وحتى مفارقته للدنيا وإليك بيان ذلك .

فعندما كان غلاماً يلعب مع الصبيان في بادية بني سعد كما جاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه : « أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو

(١) أخرجه البخاري ك / البيوع ب / قتل الخنزير .

(٢) المنارة البيضاء : قال النووي رحمه الله وهذه المنارة موجودة اليوم شرقي دمشق انظر صحيح مسلم بشرح النووي في ك / الفتن ، ب / ذكر الدجال وصفته .

(٣) مهرودتين : قال النووي أي ثوبين مصبوغين بورس ، ثم بزعفران ، وقيل هما شقتان ، والشقة نصف الملاءة . انظر المصدر السابق .

(٤) طأطأ : أي خفض رأسه .

(٥) جمان : الجمانة حبة تعمل من الفضة كالدرة انظر مختار الصحاح مادة جمن .

(٦) باب لد : قال النووي : هو بضم اللام وتشديد الدال مصروف ، وهو بلدة قريبة من بيت المقدس . انظر المصدر السابق.

(٧) أخرجه مسلم ك / الفتن وأشراط الساعة ب / ذكر الدجال وصفته وما معه ، والترمذي ك / الفتن عن رسول الله ﷺ ب / ما جاء في فتنة الدجال .

يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقه فقال هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه ثم أعاده في مكانه، فجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني : ظِئْرُهُ[١] فقالوا : إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره[٢].

ولما أراد الله إكرامه بالإسراء والمعراج أجرت الملائكة له عملية أخرى في قلبه لملئه حكمة وإيمانا كما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « فُرِجَ سقفُ بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل عليه السلام فَفَرَجَ صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغها في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء ... » [٣].

(ب) ولاية جبريل والملائكة للرسول ﷺ :

لقد كان لروح القدس جبريل عليه السلام وإخوانه من الملائكة الكرام عناية خاصة وعلاقة حميمة بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم. قال تعالى : ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم : ٤] .

(ج) الوحي إليه :

أرسل الله جبريل عليه السلام بالوحي إلى عبده ونبيه محمد ﷺ. قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾** ﴾ [الشعراء : ١٩٢-١٩٤] .

وقد حكت عائشة رضي الله عنها قصة بدء الوحي وفيها : « ...حتى جاءه الحق وهو

---

(١) الظئر : هي المرضعة غير الأم .

(٢) أخرجه مسلم ك/ الإيمان ب/ الإسراء ، وأحمد في باقي مسند المكثرين .

(٣) أخرجه البخاري ك/ الصلاة ب/ كيف فرضت الصلاة في الإسراء ، ومسلم ك/ الإيمان ب/ الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات .

في غار حراء فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت، ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣)** ﴾ [العلق: ١-٣] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُف فؤادُه...» وفيه أنه ﷺ خشي على نفسه، فأخذته خديجة إلى ورقة بن نوفل وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى: فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: «هذا الناموس الذي نَزَّلَ الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك...»[١].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «فبينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراءَ جالساً على كرسي بين السماء والأرض، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«فجئثت[٢] منه فَرَقًا، فرجعت، فقلت: زملوني زملوني، فدثروني فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)** ﴾ [المدثر: ١-٥]، **قال ثم تتابع الوحي»**[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ك/ بدء الوحي ب/ كيف كان بدء الوحي، ومسلم ك/ الإيمان ب/ بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

(٢) قال النووي: رواه مسلم من رواية يونس وعقيل ومعمر ثم كلهم عن ابن شهاب، قال في رواية يونس المذكورة في المتن فجئثت بجيم مضمومة ثم همزة مكسورة ثم ثاء مثلثة ساكنة ثم تاء الضمير، وقال في رواية عُقيل ومعمر فجثثت بعد الجيم ثاءان مثلثتان، هكذا هو الصواب في ضبط رواية الثلاثة، انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٢ / ٣٨١) ط. دار المعرفة ـ بيروت ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

(٣) أخرجه البخاري ك/ بدء الخلق ب/ ذكر الملائكة، ومسلم ك/ الإيمان ب/ بدء الوحي واللفظ له.

■ **كيفية إتيان الملك بالوحي للنبي ﷺ :**

ورد في صحيح البخاري عن عائشة ﵂: أن الحارث بن هشام ﵁ – سأل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟

فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : «**أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي**[1] **مَا يَقُولُ**» قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: « وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا » .[2]

(د) تعليمه :

لقد كان جبريل ﵇ يُعَلِّمُ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم ما يحتاج إليه من زيادة وبيان وإيضاح لأمور الدين ومن ذلك إمامته له في الصلاة .

ففي السنن عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : «**أَمَّنِي جِبْرِيلُ ﵇ عِنْدَ الْبَيْتِ مَرَّتَيْنِ، فَصَلَّى بِيَ الظُّهْرَ حِينَ زَالَتْ الشَّمْسُ، وَكَانَتْ قَدْرَ الشِّرَاكِ**[3]**، وَصَلَّى بِيَ الْعَصْرَ حِينَ كَانَ ظِلُّهُ مِثْلَهُ وَصَلَّى بِي - يَعْنِي الْمَغْرِبَ - حِينَ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**[4]**، وَصَلَّى بِيَ الْعِشَاءَ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ، وَصَلَّى بِيَ الْفَجْرَ حِينَ حَرُمَ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ عَلَى الصَّائِمِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، صَلَّى بِيَ الظُّهْرَ حِينَ كَانَ ظِلُّهُ مِثْلَهُ،**

---

(١) وقد رأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي خلقه الله عليها مرتين الأولى في الأفق والثانية عند سدرة المنتهى لحديث عائشة ﵂ عند مسلم وغيره عن مسروق قال : كنت عند عائشة ﵂ قال : قلت أليس الله يقول : "ولقد رآه بالأفق المبين" "ولقد رآه نزلة أخرى" قالت أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنهما فقال : "إنما ذاك جبريل لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين رآه منهبطا من السماء إلى الأرض ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض" ، انظر مسلم كتاب الإيمان باب (ولقد رآه نزلة أخرى) ، وعند البخاري عن ابن مسعود أنه قال : (رأى محمد ﷺ جبريل له ستمائة جناح) ، انظر البخاري ك / بدء الخلق ب / ذكر الملائكة .

(٢) أخرجه البخاري ك / بدء الوحي ب / كيف كان بدء الوحي ، ومسلم ك / الفضائل ب / عرق النبي في البرد وحين يأتيه الوحي .

(٣) معنى الشراك : سير النعل ، والمقصود به مقدار ظل الزوال ، والمقصود أنه الوقت انظر لسان العرب باب الشين .

(٤) حين أفطر الصائم . أي عند غروب الشمس .

وَصَلَّى بي الْعَصْرَ حينَ كَانَ ظِلُّهُ مِثْلَيْه ، وَصَلَّى بيَ الْمَغْربَ حينَ أَفْطَرَ الصَّائمُ ، وَصَلَّى بيَ الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُث اللَّيْل ، وَصَلَّى بيَ الْفَجْرَ فَأَسْفَرَ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، هَذَا وَقْتُ الأَنْبيَاءِ منْ قَبْلكَ ، وَالْوَقْتُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ»[١] .

(هـ) مدارسته القرآن الكريم :

كان جبريل عليه السلام يدارس النبي ﷺ القرآن الكريم في رمضان، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودُ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسُه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجودُ بالخير من الريح المُرسلة[٢] .

(و) الملائكة تحمي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

يختص الله تعالى الرسل بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونهم ليتمكنوا من أداء رسالاته سبحانه، وهذا عام في جميع الرسل . كما قال تعالى : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧)** ﴾ [الجن : ٢٦-٢٧] والرصد : هم الملائكة[٣] .

ومن حماية الله لرسوله بالملائكة ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ : هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ : فَقِيلَ : نَعَمْ، فَقَالَ : وَاللاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ في التُّرَاب، قَالَ فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ قَالَ : فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ

---

(١) أخرجه الترمذي ك/ الصلاة ب/ ما جاء في مواقيت الصلاة ، وأبو داود ك/ الصلاة ب/ في المواقيت واللفظ له وهو في صحيح سنن الترمذي : (١ / ٥٠). ورقمه (١٢٧). وصحيح سنن النسائي عن أبي هريرة (١ / ١٠٩). ورقمه (٤٨٨) .

(٢) أخرجه البخاري ك/ بدء الوحي ب/ كيف كان بدء الوحي واللفظ له، ومسلم ك/ الفضائل ب/ كان النبي أجود الناس بالخير من الريح المرسلة .

(٣) انظر تفسير ابن كثير عند الآية المذكورة ، وأصل الرصد في اللغة : الاستعداد للترقب ، يقال : رصد له وترصّد وأرصدته له ، انظر المفردات في غريب القرآن مادة (رصد) .

يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ : فَقِيلَ لَهُ : مَا لَكَ؟ فَقَالَ : إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلاً وَأَجْنِحَةً !! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «**لَوْ دَنَا مِنِّي لاَخْتَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضْواً عُضْواً**» [1] .

وهذا جبريل وميكائيل يقاتلان عنه يوم أحد . عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، قال : « رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان، يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض أشدَّ القتال ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام »[2] .

(ز) الملائكة تكشف السحر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم قالت حتى كان رسول الله ﷺ يُخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله[3]، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي دعا رسول الله ﷺ ثم قال : «**يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه ؟ جاءني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب قال : من طبَّه ؟ قال : لَبيد بن الأعصم . قال في أي شيء ؟ قال : في مِشْطٍ ومِشَاطةٍ[4] وَجُفٍّ[5] طلع نخلة ذكر قال : وأين هو ؟ قال : في بئر ذى أروان**» قالت : فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه ثم قال : «**يا عائشة، والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين» قلت يا رسول الله أفلا أحرقته؟ قال : «لا أما أنا فقد عافاني الله وكرهت أن أثير على الناس شراً**» فأمر بها[6] فدفنت [7] .

---

(١) أخرجه البخاري ك / تفسير القرآن ب / "كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ناصية كاذبة خاطئة" مختصراً ، ومسلم ك / صفة القيامة والجنة والنار ب / "إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى" واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاري ك / المغازي ب / "إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما" ، ومسلم ك / الفضائل ب / في قتال جبريل وميكائيل عن النبي ﷺ يوم أحد .

(٣) وهذا السحر هو من قبيل الأمراض التي تصيب البشر ولم تؤثر على تبليغه للرسالة والوحي ﷺ .

(٤) المشاطة : ما يخرج من الشعر إذا مشط . انظر فتح الباري (١٠ / ٢٣١) .

(٥) الجف : الغشاء الذي يكون على الطلع . انظر فتح الباري (١٠ / ٢٢٩)، وفي بعض الروايات وَجُبٌّ .

(٦) أي البئر .

(٧) أخرجه البخاري ك / الطب ب / السحر ، ومسلم ك / السلام ب / السحر واللفظ له .

(ح) نصر الملائكة له في غزواته :

فقد نصره الله بالملائكة في غزوة بدر، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ٩-١٠]. وأيده بالملائكة في غزوة الأحزاب كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]. والجنود التي لم تُر هي الملائكة كما قال مجاهد رحمه الله[١].

وأيده كذلك بالملائكة عند ذهابه لغزوة بني قريظة، قال أنس ﷺ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْغُبَارِ سَاطِعًا فِي زُقَاقِ بَنِي غَنْمٍ مَوْكِبَ جِبْرِيلَ - صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ - حِينَ سَارَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ»[٢].

وأيده كذلك بالملائكة في غزوة حنين، كما قال تعالى في ذكر غزوة حنين: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠]، والجنود التي لم يروها هي الملائكة[٣].

(ط) رقية جبريل للرسول صلى الله عليه وآله وسلم :

عن أبي سعيد: أن جبريل أتى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «**يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: بِاسْمِ الله أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ، أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، الله يَشْفِيكَ، بِاسْمِ الله أَرْقِيكَ**»[٤].

---

(١) راجع فصل بينات الرسالة "خوارق العادات" عن ذكر غزوة الأحزاب.

(٢) أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ مرجع النبي من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة، وقال الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث: ووقع هذا الحديث عند ابن سعد من طريق سليمان بن المغيرة عن حميد ابن هلال مطولا لكن ليس فيه أنس، وأوله «كان بين بني قريظة وبين النبي ﷺ عهد، فلما جاءت الأحزاب نقضوه وظاهروهم. فلما هزم الله عز وجل الأحزاب تحصنوا، فجاء جبريل ومن معه من الملائكة فقال: يا رسول الله انهض إلى بني قريظة، فقال: إن أصحابي جهدا قال: انهض إليهم فلأضعضعنهم. قال: فادبر جبريل ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غَنم من الأنصار».

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير عند الآية المذكورة، وقد أورد عدداً من الآثار تدل على تأييد الرسول وَ المؤمنين بالملائكة في تلك الغزوة.

(٤) أخرجه مسلم ك/ السلام ب/ الطب والمرض والرقى، واللفظ له، والترمذي ك/ الجنائز ب/ ما جاء في التعوذ للمريض، وابن ماجه ك/ الطب ب/ ما عوذ به النبي وما عوذ به.

الملائكة والمؤمنون

للملائكة مع المؤمنين صلة حميمة، يدعون للمؤمنين ويصلون عليهم ويستغفرون لهم ويتولونهم ويبشرونهم عند الممات، وسوف نعرض لطائفة من أعمالهم مع المؤمنين كما جاءت في الكتاب والسنة :

١- الصلاة على المؤمنين

قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب :٤٣]. قال الشوكاني رحمه الله : والصلاة من الله على العباد رحمته لهم، وبركته عليهم، ومن الملائكة الدعاء لهم والاستغفار[١].

ويذكر الله لعباده دعاء الملائكة المفعم بحب الخير للمؤمنين، قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** ﴿٧﴾ **رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴿٨﴾ **وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴿٩﴾ ﴾ [غافر :٧-٩].

وبينت السُّنَّة أن الملائكة تدعوا الله لمن يقومون بالأعمال الآتية :

(أ) **الذين ينتظرون صلاة الجماعة** : قال : رسول الله ﷺ : «**الْمَلائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ تَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ**»[٢].

وهذا نص يبين معنى الصلاة من الملائكة على المؤمنين .

---

(١) فتح القدير للشوكاني .

(٢) أخرجه البخاري ك/ الصلاة ب/ الحدث في المسجد واللفظ له ، ومسلم ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة .

(ب) الذين يُصَلُّون في الصف الأول : قال ﷺ : « ...إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصُّفُوفِ الأُوَلِ »(١).

(ج) الذين يَصِلُون الصفوف : عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الَّذِينَ يَصِلُونَ الصُّفُوفَ، وَمَنْ سَدَّ فُرْجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً»(٢).

(د) الذين يتسحرون : عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «... إن الله تعالى وملائكته يصلون على المتسحرين»(٣).

(هـ) الذين يصلون على النبي ﷺ : قال ﷺ : «ما من مسلم يصلي عليَّ إلا صلت عليه الملائكة مادام يصلي عليَّ، فليُقِلَّ العبدُ من ذلك أو ليُكثر»(٤).

(و) الذين يعلمون الناس الخير : قال ﷺ : «إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ»(٥).

(ز) الذين ينفقون أموالهم : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»(٦).

---

(١) أخرجه النسائي ك/ الإمامة ب/ كيف يقوم الإمام الصفوف ، وأبو داود ك/ الصلاة ب/ تسوية الصفوف ، وأحمد في أول مسند الكوفيين من حديث البراء بن عازب وهو في صحيح سنن أبي داود للألباني (١ / ١٣٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه ك/ إقامة الصلاة والسنة فيها ب/ إقامة الصفوف، وأحمد في باقي مسند الأنصار، وهو في صحيح سنن ابن ماجه (١ / ١٦٤).

(٣) أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين من حديث أبي سعيد الخدري وصحح في تحقيق المسند (١٧ / ١٥٠) وهو في صحيح الجامع للألباني (١ / ٦٨٦) .

(٤) أخرجه ابن ماجه ك/ إقامة الصلاة والسنة فيها ب/ الصلاة على النبي ، واللفظ له ، وأحمد في مسند المكيين من حديث عامر بن ربيعة وانظره في صحيح الجامع (٢ / ١٠٠١).

(٥) أخرجه الترمذي ك/ العلم ب/ ما جاء في فضل الفقه على العبادة وذكره الألباني في صحيح الجامع (٢ / ٧٧٦).

(٦) أخرجه البخاري ك/ الزكاة ب/ قول الله تعالى : "فأما من أعطى واتقى..." ، ومسلم ك/ الزكاة ب/ في المنفق والممسك .

(ح) **الذين يزورون المرضى** :عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «**مَا مِنْ رَجُلٍ يَعُودُ مَرِيضًا مُمْسِيًا إِلاَّ خَرَجَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى يُصْبِحَ ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ**(١) ، **وَمَنْ أَتَاهُ مُصْبِحًا خَرَجَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى يُمْسِيَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ**»(٢) .

٢- محبتهم لصالح المؤمنين :

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ : إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحْبِبْهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ**»(٣) .

٣- تثبيت المؤمنين عند القتال :

قال تعالى : ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)** ﴾

[الأنفال : ١٢] .

٤- تأييدهم ونصرهم للمؤمنين :

امتن الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين بإرسال جنود من الملائكة للتأييد والنصر للمؤمنين في بدر وأحد وفي أقسى حصار استهدف الوجود الإسلامي كله في المدينة المنورة حيث تحزب الأحزاب وجاءوا بما لا قبل للمسلمين به، فأرسل الله عليهم الريح والملائكة وكفى الله المؤمنين القتال . قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا**

---

(١) خريف في الجنة : أي بستان، وهو في الأصل التمر المجتنى . انظر تحفة الأحوذي (٤ / ٣٨) دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط١ / (١٤١٠هـ-١٩٩٠م) .

(٢) أخرجه أبو داود ك / الجنائز ب / من فضل العبادة على وضوء واللفظ له ، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة ، وذكره الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢ / ٢١٠) .

(٣) أخرجه البخاري ك / بدء الخلق ب / ذكر الملائكة ، ومسلم ك / البر والصلة والآداب ب / إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده .

الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ⑨ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ⑩ ﴾ [الأحزاب: ٩-١١]، ومن هذا التأييد ما كان لحسان بن ثابت وهو يرد على هجاء المشركين حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**اللهم أيده بروح القدس**»[١] .

٥- التأمين على دعائهم :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**لاتدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون**»[٢] .

وقد رغب الإسلام في حسن الصلة بين المسلمين ومن ذلك دعاء بعضهم لبعض بظهر الغيب فهو دعاء مستجاب مؤيد بتأمين الملك عليه، ففي الحديث عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة؛ عند رأسه ملك، كلما دعا له بخير قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل**»[٣] .

٦- فضل التوافق بين تأمين المؤمنين وحمدهم لله وبين تأمين وحمد الملائكة:

جعل الله سبحانه وتعالى بركة في موافقة عملِ المؤمن عمل الملائكة تقتضي مغفرة ما تقدم من ذنوب المؤمن، لذا ينبغي الحرص على طلب ذلك التوافق .

■ **ومن ذلك التوافق في التأمين**: قال رسول الله ﷺ : «**إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه**»[٤] .

---

(١) أخرجه البخاري ك/ الصلاة ب/ الشعر في المسجد ، ومسلم ك/ فضائل الصحابة ب/ فضائل حسان بن ثابت.

(٢) أخرجه مسلم ك/ الجنائز ب/ في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر ، وأبو داود ك/ الجنائز ب/ تغميض الميت ، وأحمد في باقي مسند الأنصار .

(٣) أخرجه مسلم ك/ الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ب/ فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب ، واللفظ له ، وابن ماجه ك/ المناسك ب/ فضل دعاء الحاج .

(٤) أخرجه البخاري ك/ الأذان ب/ جهر الإمام بالتأمين ، ومسلم ك/ الصلاة ب/ التسميع والتحميد والتأمين .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «**إذا قال أحدكم آمين، وقالت الملائكة في السماء آمين، فوافقت إحداهما الأخرى غُفر له ما تقدم من ذنبه**»(١) .

■ **ومن ذلك التوافق في الحمد** : قال ﷺ : «**إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده، فقولوا : اللهم ربنا لك الحمد، فإنه من وافقَ قولُه قولَ الملائكة غُفِر له ما تقدم من ذنبه**»(٢) .

٧ - تتبعهم حلق الذكر وحفهم أهلها بأجنحتهم :

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «**إنَّ لله مَلائكَةً يَطُوفُونَ في الطُّرُق، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْر فإذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ الله تَنَادَوْا : هَلُمُّوا إلَى حَاجَتِكُمْ، قَالَ : فَيَحُفُّونَهُمْ بأَجْنحَتهِمْ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ...**»(٣) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «**وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بُيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحَفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**» (٤) .

٨- تكريمهم لطالب العلم :

قال رسول الله ﷺ : «**إن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم**» (٥) .

---

(١) أخرجه البخاري ك/ الأذان ب/ فضل التأمين، ومسلم ك/ الصلاة ب/ التسميع والتحميد والتأمين .

(٢) أخرجه البخاري ك/ الأذان ب/ فضل اللهم ربنا ولك الحمد، ومسلم ك/ الصلاة ب/ التسميع والتحميد والتأمين.

(٣) أخرجه البخاري ك/ الدعوات ب/ فضل ذكر الله عزوجل ، واللفظ له ، وأحمد في باقي مسند المكثرين .

(٤) أخرجه مسلم ك/ الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ب/ فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ، وأبو داود ك/ الصلاة ب/ في ثواب قراءة القرآن ، واللفظ له ، والترمذي ك/ القراءات عن رسول الله ﷺ ب/ ما جاء أن القرآن أنزل على سبعة أحرف .

(٥) أخرجه الترمذي ك/ العلم ب/ ماجاء في فضل الفقه على العبادة ، والنسائي ك/ الطهارة ب/ الوضوء من الغائط والبول ، وأبو داود ك/ العلم ب/ الحث على طلب العلم ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢ / ٣٤٢).

٩- كتابة المصلين يوم الجمعة الأول فالأول :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد الملائكة يكتبون الأول فالأول، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر**» (١) .

١٠- تعاقب الملائكة على المصلين :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**يتعاقبون فيكم : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرُج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون**» (٢) .

١١- الملائكة تبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم سلام أمته :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**إن لله ملائكة سيّاحين في الأرض يبلغوني عن أُمَّتي السلام**» (٣) .

١٢- تبشير المؤمنين وولايتهم لهم :

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)** ﴾

[فصلت : ٣٠-٣٢] .

---

(١) أخرجه البخاري ك/ بدء الخلق ب/ ذكر الملائكة ، ومسلم ك/ الجمعة ب/ فضل التهجير يوم الجمعة .

(٢) أخرجه البخاري ك/ التوحيد ب/ قول الله تعالى : "تعرج الملائكة والروح إليه" ، ومسلم ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ، واللفظ له .

(٣) أخرجه النسائي ك/ السهو ب/ السلام على النبي ﷺ ، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة من حديث عبدالله بن مسعود ، والدارمي ك/ الرقاق ب/ في فضل الصلاة على النبي ﷺ ، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١ / ٢٧٤) .

قال ابن زيد ومجاهد : تتنزل عليهم عند الموت . وقال مقاتل وقتادة : إذا قاموا من قبورهم للبعث وقال وكيع : البشرى في ثلاثة مواطن : عند الموت وفي القبر وعند البعث .

واختار الإمام الشوكاني رحمه الله عدم تخصيص تنزل الملائكة على المؤمنين بوقت معين وعدم تقييد نفي الخوف والحزن بحالة مخصوصة [١] .

١٣- ولايتهم الخاصة للشهداء :

إن للشهيد منزلة رفيعة عند الله لذلك خُصَّ بمزيد من ولاية الملائكة له، ويظهر هذا في تظليلهم لعبد الله بن حرام والد جابر ﷺ، فقد ورد في الصحيح عن جابر ﷺ قال جئ بأبي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد مُثِّل به، ووُضِع بين يديه فذهبت أكشف عن وجهه فنهاني قومي فسمع صوت نائحة، فقيل : ابنة عمرو أو أخت عمرو، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «**لم تبكين، (أو لا تبكين) مازالت الملائكة تظله بأجنحتها**» [٢] وقد عنون له البخاري بقوله : (باب ظل الملائكة على الشهيد) [٣] .

ويظهر أيضاً في غسلهم لبعض الشهداء كما جاء في المعجم الكبير للطبراني عن ابن عباس ﷺ قال : لما أصيب حمزة بن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب وهما جنبان، فقال رسول الله ﷺ : «**رأيت الملائكة تغسلهما**» [٤].

---

(١) انظر فتح القدير .

(٢) أخرجه البخاري ك / الجنائز ب / الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه ، وأحمد في باقي مسند المكثرين من حديث جابر بن عبدالله .

(٣) صحيح البخاري ك / الجهاد والسير ب / ظل الملائكة على الشهيد .

(٤) المعجم الكبير للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ، تحقيق حمدي عبد المجيد لسلطي (١١ / ٣٠٩ / ١٢٠٩٤) دار إحياء التراث العربي ط٢ وحسن إسناده الهيثمي في المجمع (٣ / ٢٣) باب فيمن يَجْنُبُ ثم يموت قبل أن يُغسَّل، دار الكتاب العربي ـ بيروت ط٣ / (١٤٠٢ـ ١٩٨٢م) وحسن إسناده كذلك الألباني في أحكام الجنائز ص٧٥ .

خصوصيات بعض المؤمنين مع الملائكة

١ - الملائكة ومريم عليهم السلام :

لقد أكرم الله مريم بنت عمران بأن أرسل لها الملائكة المقربين تخاطبها وتبشرها باصطفاء الله لها وتطهيرها وتفضيلها على نساء العالمين. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣].

كما بشرتها الملائكة بعيسى ابن مريم ليكون وأمه آية للعالمين. قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وفي هذا دليل على أنه ليس كل من جاءه ملك يكون نبيًا[١]. بل هي صدِّيقة كما قال تعالى: ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقد قص الله لنا الحوار الذي دار بينها وبين الملك الذي حمل لها البشرى قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) ﴾ [مريم: ١٦-٢١].

ثم إن جبريل عليه السلام نفخ في جيب درعها[٢] فولجت فيها النفخة فحملت

---

(١) وكما في قصة الرجل الذي زار أخاً له في الله فبعث الله على مدرجته ملكاً يبشره، ولم يكن الرجل نبياً بهذه البشرى، مسلم ك/ البر والصلة والآداب ب/ في فضل الحب في الله، وأحمد في باقي مسند المكثرين.

(٢) ذكر ذلك غير واحد من السلف، كما قال الحافظ ابن كثير عند ذكر قصص الأنبياء انظر قصص الأنبياء له ص٦٧٥ بتحقيق الهلالي.

بعيسى عليه السلام قال تعالى : ﴿ **وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا** ﴾ [التحريم : ١٢] .

٢- جبريل يحمل البشارة لخديجة رضي الله عنها :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى جبريلُ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « **يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب . فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبَشِّرْها ببيت في الجنة من قصب**[١] **لا صخب فيه ولا نصب** » [٢] .

٣- المَلَك يقرئ عائشة السلام ويبشر بها النبي ﷺ :

عن ابن شهاب قال أبو سلمة : إن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما : « **يا عائشُ هذا جبريل يُقرئك السلام** » فقلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى (تريد رسول الله ﷺ) [٣] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال لي رسول الله ﷺ : « **أُريتك في المنام يجئ بك الملك في سَرَقَة**[٤] **من حرير ، فقال : هذه امرأتك فكشفت عن وجهك الثوب ، فإذا أنت هي** » ، **فقلت : « إن يَكُ هذا من الله يمضه »** [٥] .

٤- تبشير المَلَك بسيادة فاطمة على نساء أهل الجنة :

عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « **أَمَا رَأَيْتَ الْعَارِضَ**

---

(١) قصب : القصب أنابيب من جوهر انظر مختار الصحاح ص٥٣٦ كلمة قصب .

(٢) أخرجه البخاري ك / المناقب ب / تزويج النبي خديجة وفضلها ، ومسلم ك / فضائل الصحابة ب / فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها .

(٣) أخرجه البخاري ك / المناقب ب / فضل عائشة واللفظ له ، والترمذي ك / الاستئذان والآداب ب / ما جاء في تبليغ السلام .

(٤) في سرقة : أي في قطعة من جيد الحرير . انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢ / ٣٦٢) دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ط١ / (١٣٨٣-١٩٦٣م) .

(٥) أخرجه البخاري ك / المناقب ب / تزويج النبي عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها ، واللفظ له ، ومسلم ك / فضائل الصحابة ب / في فضل عائشة رضي الله عنها .

الَّذي عَرَضَ لي قُبَيْلُ»، قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَهُوَ مَلَكٌ مِنْ الْمَلائكَة لَمْ يَهْبطْ الأَرْضَ قَبْلَ هَذه اللَّيْلَة، فَاسْتَأْذَنَ رَبَّهُ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيَّ وَيُبَشِّرَني أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَأَنَّ فَاطِمَةَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّة ﷺ» [١].

٥- جبريل يبشر بسيادة الحسن والحسين على شباب أهل الجنة:

عن حذيفة ﷺ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أتاني جبريل فبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» [٢].

٦- الملائكة تستمع لقراءة أسيد بن حضير ﷺ:

عن أُسَيد بن حضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت[٣]، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفقَ أن تُصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حَدَّثَ النبيَّ ﷺ فقال له: «اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير»[٤] قال: فأشفقتُ يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً فرفعتُ رأسي فانصرفتُ إليه، فرفعتُ رأسي إلى السماء، فإذا مثلُ الظُّلة فيها أمثالُ المصابيح، فخرجتْ حتى لا أراها، قال: «وتدري ما ذاك»؟ قال: لا. قال: «تلك الملائكة دنَتْ لصوتك، ولو قرأتَ لأصبحتْ ينظرُ الناس إليها، لا تتوارى منهم» [٥].

---

(١) أخرجه الترمذي ك/ المناقب ب/ مناقب الحسن والحسين، وأحمد في مسند الأنصار من حديث حذيفة ابن اليمان، واللفظ له، وانظره في صحيح الجامع (١ / ٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي ك/ المناقب ب/ مناقب الحسن والحسين، وأحمد في مسند الأنصار من حديث حذيفة ابن اليمان، واللفظ له، وانظره في صحيح الجامع (١ / ٧٧).

(٣) في النسخة اليونينية من صحيح البخاري: «فسكتت» يعني الفرس، وذلك في الموضعين من الحديث.

(٤) قال ابن حجر: أي كان ينبغي أن تستمر على قراءتك، وليس أمراً له بالقراءة في حالة التحديث، وفهم أسيد ذلك فأجاب بعذره في قطع القراءة وهو قوله (خفت أن تطأ يحيى) انظر الفتح (١٠ / ٧٨).

(٥) أخرجه البخاري ك/ فضائل القرآن ب/ نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، واللفظ له، ومسلم ك/ صلاة المسافرين وقصرها ب/ نزول السكينة لقراءة القرآن.

٧- الملائكة تشهد جنازة سعد بن معاذ رضي الله عنه :

أكرم الله سبحانه وتعالى سعد بن معاذ رضي الله عنه بخصال منها أنه شهد جنازته سبعون ألفا من الملائكة قال صلى الله عليه وآله وسلم : «**هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لقد ضُمَّ ضَمَّة**[١] **ثم فُرِّجَ عنه**» [٢] .

٨- تنزلهم عندما يقرأ المؤمن القرآن :

ومنهم من يتنزل من السماء حين يقرأ القرآن، ففي صحيح مسلم عن البراء بن عازب قال: قرأ رجل سورة الكهف، وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته، قال فذكر ذلك للنبي ﷺ . فقال : «**اقرأ فلان، فإنها السكينة**[٣] **تنزلت عند القرآن، أو تنزلت للقرآن**» [٤] .

---

(١) أي انضغط عليه قبره ، وهي ضمة لا ينجو منها أحد ، نسأل الله السلامة .

(٢) أخرجه النسائي ك/ الجنائز ب/ ضمة القبر وضغطته وهو في صحيح سنن النسائي للألباني (٢ / ١٤١)، وذكر اهتزاز العرش أخرجه البخاري ك/ المناقب ب/ مناقب سعد بن معاذ .

(٣) السكينة : قال النووي : قد قيل في معنى السكينة هنا أشياء ، المختار منها : أنها شيء من مخلوقات الله تعالى فيه طمأنينة ورحمة ومعه الملائكة ، والله أعلم . انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٦ / ٣٢٣) دار المعرفة ـ بيروت ط١ / (١٩٩٤-١٤٠٤م).

(٤) أخرجه البخاري ك/ المناقب ب/ علامات النبوة في الإسلام ، ومسلم ك/ صلاة المسافرين وقصرها ب/ نزول السكينة لقراءة القرآن .

حقوق الملائكة على المؤمنين

واجبات المؤمن نحو الملائكة:

١- الإيمان بهم :

يجب على كل مؤمن الإيمان بالملائكة إجمالاً، وأنهم عباد الله المكرمون الذين لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، كما يجب الإيمان بمن ذكر منهم في الكتاب أو السنة المطهرة على وجه التفصيل، كجبريل ومكائيل وإسرافيل على جميعهم الصلاة والسلام .

٢- موالاتهم جميعاً :

إن على المؤمن أن يتولى جميع الملائكة بدون تفريق بين آحادهم فكلهم مكرمون ومن والى بعضهم وعادى بعضهم فقد عادى الله سبحانه .

وقد أنكر الله تعالى على اليهود إعلان عدواتهم لجبريل عندما علموا أنه الذي ينزل بالوحي على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقال تعالى : ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨)** ﴾

[البقرة :٩٧–٩٨] .

آداب المؤمنين مع الملائكة :

١- الاستحياء منهم :

ينبغي للمسلم أن يستشعر وجود الملائكة معه فيستحي منهم ويكرمهم، ومن إكرامهم عدم البصاق عن اليمين في الصلاة لنهي النبي عن ذلك فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا**

يبصُق أمامه فإنما يناجي الله ما دام في مصلاه ولا عن يمينه ؛ فإن عن يمينه ملكا ، وليبصُق عن يساره أو تحت قدمه فيدفنها» (١) .

٢- ترك ما يؤذيهم :

على المسلم أن يجتنب من الطعام ما له رائحة كريهة مثل الثوم والبصل والكُرّاث لأن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم . قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«من أكل الثوم و البصل والكُرّاث فلا يقربن مسجدنا**(٢) **؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»** (٣) .

---

(١) أخرجه البخاري ك / الصلاة ب / دفن النخامة في المسجد واللفظ له ، والنسائي ك / المساجد ب / ذكر نهي النبي عن أن يبصق الرجل بين يديه أو عن يمينه ، وأحمد في باقي مسند المكثرين .

(٢) قال النووي : قال العلماء : وفي هذا الحديث دليل على منع آكل الثوم ونحوه من دخول المسجد ، وإن كان خالياً لأنه محل الملائكة ، ولعموم الأحاديث ، انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٥ / ٥٢) .

(٣) أخرجه البخاري ك / الأذان ب / ما جاء في الثوم النيئ والبصل والكراث ، ومسلم ك / المساجد ومواضع الصلاة ب / نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوهما واللفظ له .

موقف الملائكة من عصاة بني آدم

إن الملائكة الذين لا يعصون الله سبحانه وتعالى ينفرون من العصاة نفرة شديدة ويبتعدون عنهم بل يلعنونهم بسبب ما يقترفون من المعاصي(١).

١- لعنهم كاتم العلم الشرعي:

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)** ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

قال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿ **وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** ﴾ يعني تلعنهم الملائكة والمؤمنون(٢).

٢- لعنهم الذين يحولون دون تنفيذ شرع الله:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « ... **وَمَنْ قَتَلَ عَمْدًا فَقَوَدُ يَدَيْهِ(٣)، فَمَنْ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(٤).

---

(١) اختلف العلماء في حكم لعن العاصي المعين على ثلاثة أقوال:- فقيل: لا يجوز بحال، وقيل: يجوز في حق الكافر دون الفاسق وقيل: يجوز مطلقاً، قال الحافظ ابن حجر:- والحق أن من منع اللعن أراد به معناه اللغوي، وهو الإبعاد من الرحمة، وهذا لا يليق أن يدعى به على مسلم بل يطلب له الهداية والتوبة والرجوع عن المعصية والذي أجازه أراد به معناه العرفي وهو مطلق السب، ولا يخفى أن محله إذا كان بحيث يرتدع العاصي به وينزجر، وأما حديث الباب فليس فيه إلا أن الملائكة تفعل ذلك ولايلزم منه جوازه على الإطلاق انظر فتح الباري (١٠ / ٣٦٩) وللاستزاده انظر موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع (١ / ٢٣٧).

(٢) تفسير ابن كثير.

(٣) القود: هو القصاص، أي فجزاؤه قصاص ما فعلت يداه.

(٤) أخرجه أبو داود ك/ الديات ب/ فيمن قتل في عميا بين قوم، واللفظ له، وابن ماجه ك/ الديات ب/ من حال بين ولي المقتول وبين القود أو الدية، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣ / ٨٦٧).

٣- لعنهم من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً :

قال صلى الله عليه وآله وسلم : «**من أحدث حدثاً أو آوى مُحدثاً، فعليه لعنة الله، والملائكة والناس أجمعين**» (١)، والمحدث هو من جنى جنايةً(٢).

٤- لعنهم من يشير إلى أخيه بحديدة :

قال أبو القاسم صلى الله عليه وآله وسلم: «**من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى يدعه وإن كان أخاه لأبيه وأمه**» (٣)، والإشارة بالحديدة لترويعه .

٥- لعنهم من سب أصحاب الرسول ﷺ :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»(٤) .

٦- الملائكة تلعن المرأة الممتنعة عن فراش زوجها :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**إذا دَعَا الرجلُ امرأتَهُ إلى فراشه، فَأَبَت أن تجئ لعنتها الملائكةُ حتى تُصبِح**». وفي رواية في الصحيح : (حتى ترجع)(٥).

---

(١) صحيح سنن أبي داود :(٣ / ٨٥٩).

(٢) انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٢ / ٢٦٢) / دار الفكر ـ بيروت / ط٣ .

(٣) أخرجه مسلم ك / البر والصلة والآداب ب / النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم ، واللفظ له ، والترمذي ك / الفتن ب / ما جاء في إشارة المسلم إلى أخيه بالسلاح .

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢ / ١٤٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٢ / ٤٨٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢ / ١٠٧٧).

(٥) أخرجه البخاري ك / النكاح ب / إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ، واللفظ له ، ومسلم ك / النكاح ب / تحريم امتناعها من فراش زوجها .

موقف الملائكة من الكافرين

إن الكفر بالله جريمة كبرى يعادي الملائكة بسببها الكفار بصور متعددة منها:

١ - لعنهم:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) ﴾ [البقرة: ١٦١].

٢ - قتالهم للكفار في غزوة بدر:

قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ﴾ [الأنفال: ١٢]. وقد رأى بعض الصحابة ﷺ آثار عمل الملائكة واشتراكها في القتال[١]. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس ﷺ أن الرسول ﷺ قال في يوم بدر: «**هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب**»[٢].

٣ - إنزال العذاب بالكافرين:

يرسل الله سبحانه وتعالى ملائكته بالعذاب لهلاك من أراد الله إهلاكه على أيديهم من الكافرين كقوم لوط عليه السلام.

---

(١) ففي صحيح مسلم رحمه الله عن ابن عباس ﷺ قال: "بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقيا فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ: فقال: "صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة"، مسلم ك/ الجهاد ب/ الإمداد بالملائكة في غزوة بدر.

(٢) أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ شهود الملائكة بدراً.

٤ - الملائكة والمحتضر من الظالمين والكافرين :

أخبر الله سبحانه وتعالى عن سوء خاتمة وعاقبة الكافرين والظالمين والمتقولين على الله بغير الحق، وأن الملائكة تقوم بتبكيتهم وإهانتهم والنَّيْل منهم بالضرب على وجوههم وأدبارهم عند الاحتضار. قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** (٩٣) ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** (٥٠) **ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** (٥١) ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١].

وفي حديث البراء ﷺ «... **وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الأخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ...**» الحديث[١].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤ / ٢٨٧، ٢٩٦-٢٩٥)، وأبو داود ك/ السنة ب/ في المسألة في القبر وعذاب القبر، وأخرجه النسائي في الجنائز ب/ عذاب القبر، وأخرجه ابن ماجه في ما جاء في الجنائز ب/ ما جاء في الجلوس في المقابر وب/ ذكر القبر، والحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وابن أبي شيبه في المصنف (٣ / ٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: (١٦٧٢)، وصححه أبو نعيم وابن القيم وغيرهم كما ذكر ذلك الألباني في كتابه: الجنائز.

الملائكة والدار الآخرة

(أ) الملائكة وبداية أحداث الساعة :

تنتهي الحياة الدنيا بالنفخة الأولى في الصور حيث ينفخ فيه بأمر الله أحد الملائكة نفخةً يصعق بها كل من في السماوات والأرض إلا من شاء الله .

ثم تبتدئ حياة الدار الآخرة من إعادة أرواح الكائنات إلى أجسادها بالنفخ في الصور مرة أخرى . قال تعالى : ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** (٦٨) ﴾ [الزمر : ٦٨] .

(ب) الملائكة تسوق الناس إلى المحشر :

وبعد قيام الناس وخروجهم من قبورهم يُوكِّل الله بكل إنسان ملكين، قال تعالى : ﴿ **وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ** (٢١) ﴾ [ق : ٢١] ، قال ابن كثير – رحمه الله – : « أي ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد عليه بأعماله وهذا هو الظاهر من الآية الكريمة وهو اختيار ابن جرير ... »[١] .

(ج) تنزل الملائكة يوم القيامة :

إن من الأحداث الجسام ليوم القيامة زوال السماوات وتشققها، ونزول الملائكة إلى عرصات[٢] القيامة قال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً** (٢٥) ﴾ [الفرقان : ٢٥] .

وقد أخبر الله عن الملائكة أنها تكون في أطراف السماء عند تشققها قال تعالى : ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ** (١٣) **وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**

---

(١) تفسير القرآن العظيم .

(٢) عرصات : هي ساحات عرض للخلائق يوم القيامة . قال بن الأثير : العرصات جمع عرصة وهي كل موضع واسع لا بناء فيه / انظر النهاية في غريب الحديث (٣ / ٢٠٨) دار احياء التراث العربي .

﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحاقة :١٣-١٨].

قال ابن كثير رحمه الله : ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴾ الملك اسم جنس: أي الملائكة على أرجاء السماء، قال ابن عباس على ما لَمَّ منها : «أي حافاتها، وكذا قال سعيد بن جبير والأوزاعي، وقال الضحاك : أطرافها، وقوله تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة:١٧] أي يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة، ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش : العرش العظيم أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء والله أعلم بالصواب»[١]، وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير وعبدالله بن عباس أن حملة العرش ثمانية صفوف من الملائكة[٢] وقال الشوكاني: أي يحمله فوق رؤسهم يوم القيامة ثمانية أملاك وقيل ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله عزوجل وقيل ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة[٣].

(د) مجئ الملائكة صفا صفا :

قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفجر:٢١-٢٢] قال ابن كثير - رحمه الله تعالى -: فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفا[٤].

الملائكة تجئ بجهنم :

قال تعالى : ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ [الفجر:٢٣] . وقال ﷺ : «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم .
(٢) المصدر السابق .
(٣) فتح القدير للشوكاني .
(٤) تفسير القرآن العظيم : (٦ / ٤٢٠) المصدر السابق .
(٥) مسلم ك/ الجنة ب/ شدة حر جهنم ، وصحيح الترمذي : (٤ / ٦٠٤) برقم (٢٥٧٣) عن ابن مسعود .

(هـ) الملائكة تسوق الكافرين إلى جهنم :

قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزمر : ٧١–٧٢]، قال ابن كثير رحمه الله : « يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار وإنما يساقون سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد ووعيد، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾[١] ، ولم يبق بعد هذا الاعتراف إلا الحكم عليهم بالسحق والمحق والبعد كما قال سبحانه : ﴿ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١١] .

خزنة جهنم وصفتهم :

جعل الله لجهنم خزنة من الملائكة على رأسهم مالك خازن النار عليه السلام ويناديه الكفار وهم يعذبون فيقولون كما حكى الله عنهم : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف : ٧٧]، ويخاطب الكفار كذلك خزنة النار فيقولون كما حكى الله عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [غافر : ٤٩–٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المدثر : ٣٠] قال الشوكاني : قال المفسرون : على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها، وقيل : تسعة عشر صنفاً من أصناف الملائكة، وقيل تسعة عشر صفاً من صفوفهم، وقيل تسعة عشر نقيباً مع كل نقيب جماعة من الملائكة، والأول أولى[٢] . وقد وصفهم الله سبحانه بقوله : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦]

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥ / ١٧٩) .

(٢) فتح القدير للشوكاني (٥ / ٣٩٤) .

(و) الملائكة تسوق المؤمنين إلى الجنة وفدا :

قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا** (٨٥) ﴾ [مريم : ٨٥] . قال تعالى : ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** (٧٣) ﴾ [الزمر : ٧٣] . قال الإمام الشوكاني رحمه الله : « أي ساقتهم الملائكة سوق إعزاز وتشريف وتكريم »(١) .

خزنة الجنة :

جعل الله سبحانه وتعالى للجنة خزنة يقومون على تدبير أمرها ، ويَفْتَح البابَ خازنُها وأول داخل هو رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، فيقول الخازن : مَنْ أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أُمرت لا أفتحُ لأحدٍ قبلك**»(٢) .

استقبال خزنة الجنة للمؤمنين :

يكرم الله أهل الجنة عند دخولهم بأن تتلقاهم خزنة الجنة بالتهنئة والبشرى ، والترحاب . قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** ﴾

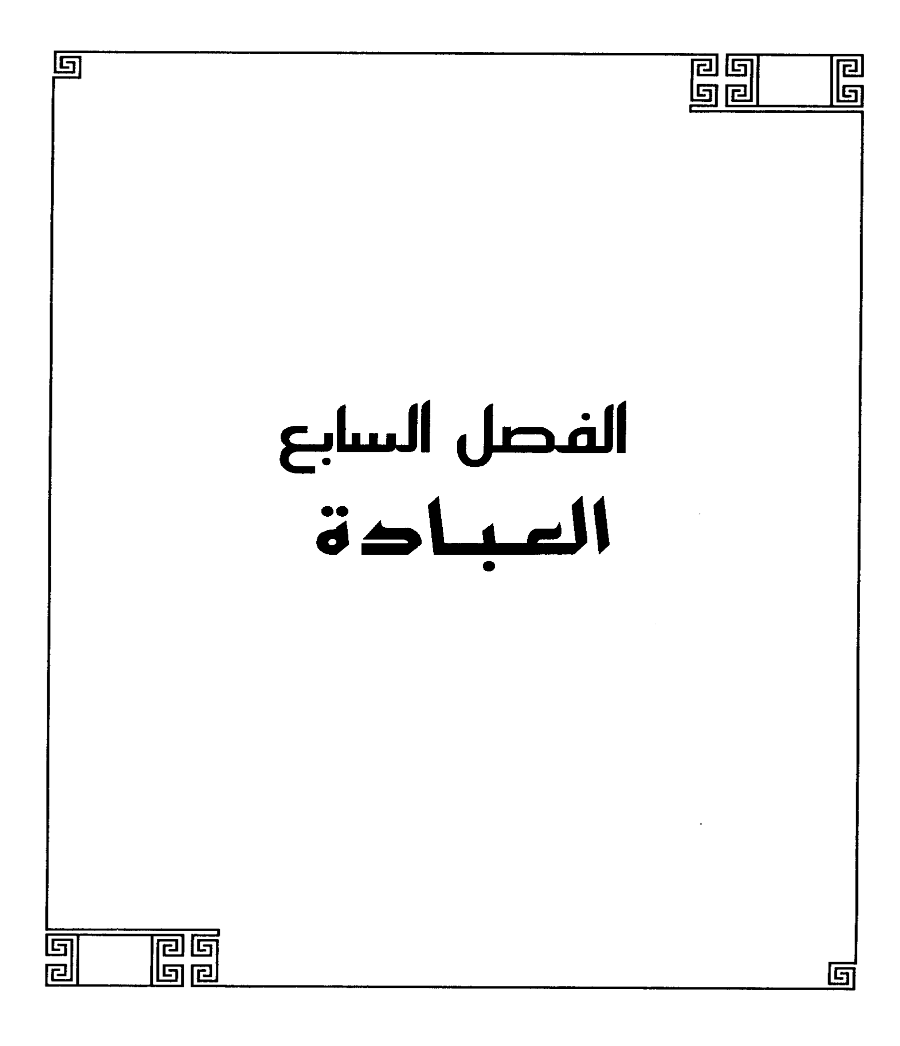
[الزمر : ٧٣] .

الملائكة يدخلون على أهل الجنة :

ومما يكرم الله به أهل الجنة دخول الملائكة عليهم من كل باب مُسَلِّمين ومُهنئين لهم على ما نالوه من النعيم المقيم جزاء صبرهم وجهادهم . قال تعالى : ﴿ **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ** (٢٣) **سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** (٢٤) ﴾ [الرعد : ٢٣-٢٤] .

---

(١) فتح القدير : (٤ / ٥٤٨) .
(٢) مسلم ك/ الإيمان ب/ أنا أول الناس يشفع في الجنة .



الفصل السابع

العبادة

العبادة

مقدمة:

لقد عرفنا الله بنفسه عن طريق آياته وآثار صفاته التي بثها في أنفسنا وفي صفحات الوجود، والتي تعرفنا بأنه الحكيم الخبير العليم الرازق الرحيم الهادي الحفيظ القادر الواحد الأحد المالك السميع المجيب الذي يستحق أن تخضع له الرقاب ويذل له العباد ويسلم له الوجود طوعاً وكرهاً . كما قال تعالى: ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقد أرسل إلينا رسولاً شهد له بصدق الرسالة بما أيده به من البينات والمعجزات التي تقنع كل من يطلب الحق، وبهذا العلم الذي ساقه لنا عن طريق أدوات العلم التي خلقها لنا شهد المسلم شهادة الحق المستندة إلى الأدلة البينة والحجج القاطعة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ولقد جاءنا الرسول ﷺ ببيان لنا من خالقنا يبين لنا حكمة وجودنا على هذه الأرض، وغاية خلقنا ومستقبلنا الذي نسير إليه، وبين لنا مراد ربنا الذي يجب علينا أن نقوم به. قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالغاية إذن من خلقنا ووجودنا هي تحقيق العبادة لله وحده لا شريك له، والتي بها يتحقق لنا الفوز والسعادة في هذه الحياة التي نعيش فيها وفي حياةٍ أبديةٍ في جنةٍ عرضها السموات والأرض لا يهددها الموت، ويتحقق لنا فيها ما تشتهيه أنفسنا كما قال تعالى: ﴿ **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴿٧١﴾ ﴾ [الزخرف: ٧١].

أما من أبى أن يعبد ربه وكفر به وغرته الحياة الدنيا فقد أعد الله له عذاباً

شديداً كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾ [غافر: ٦٠].

فما هي العبادة، وما حقيقتها وما شروطها، هذا ما سننظر إليه فيما يأتي.

تعريف العبادة:

(أ) العبادة في اللغة:

هي الطاعة[١]، يقالُ: عبدالله عبادةً وعبودية أي: انقاد له وخضع وذلّ[٢]، والتَّعبد التألُّه[٣]، وأصل العبودية:- الخضوع والتذلل[٤]، ويقال في اللغة:- طريق معبَّد أي مسلوك مذلَّل ذللته الأقدام بالسير عليه[٥].

قال الراغب الأصفهاني: العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى[٦].

(ب) العبادة في القرآن:

العبادة في القرآن تأتي بمعنى التأليه لله عز وجل كما قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣٢) ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وتأتي بمعنى الخضوع والذل كما جاء في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٧٥] فالعبودية للعبد المملوك تعني خضوعه وتذلله وعجزه أمام سيده، وكما في قوله تعالى في ذكر قصة فرعون: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ [الشعراء: ٢٢] وقد تحقق استعباد فرعون لبني إسرائيل بإخضاعهم وإذلالهم.

---

(١) مختار الصحاح، القاموس المحيط.
(٢) المعجم الوسيط.
(٣) لسان العرب.
(٤) مختار الصحاح، والقاموس المحيط.
(٥) لسان العرب.
(٦) المفردات في غريب القرآن.

وتأتي بمعنى الطاعة في التحليل والتحريم كما في قوله تعالى: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)** ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد استغرب عدي بن حاتم رضي الله عنه حين سمع هذه الآية ــ وقد كان نصرانياً قبل إسلامه وقال: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم! فقال له النبي ﷺ: «**أليس يحرمون ما أحلّ الله فتحرمونه، ويحلون ما حرّم الله فتحلونه؟**» قال قلت: بلى! قال: «**فتلك عبادتهم**»[١].

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: لم يأمروهم أن يسجدوا لهم، ولكن أمروهم بمعصية الله فأطاعوهم فسماهم الله بذلك أربابا[٢].

وتأتي العبادة بمعنى الدعاء والاستغاثة تعظيماً لله وتوكلاً عليه، كما قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)** ﴾ [غافر: ٦٠] ولذا قال النبي ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**» ثم قرأ الآية المذكورة[٣].

ومما سبق يتبين لنا أن القرآن استعمل العبادة بمعنى التأليه والدعاء تضرعاً وخيفة والخضوع والذل والطاعة في الأمر والنهي.

(ج) العبادة في أقوال العلماء:

عبر العلماء ــ رحمهم الله ــ عن العبادة وحقيقتها بأقوال متحدة المعنى، وإن اختلفت الألفاظ[٤]، منها:

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره عند الآية المذكورة واللفظ له، والترمذي في تفسير القرآن في تفسير سورة التوبة، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣ / ٥٦).

(٢) رواه الطبري في تفسيره عند الآية المذكورة.

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن في تفسير سورة البقرة وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣ / ٢٤)، وأبو داود ك / الصلاة ب / الدعاء، وابن ماجه ك / الدعاء ب / فضل الدعاء، وأحمد في مسند أول مسند الكوفيين من حديث النعمان بن بشير.

(٤) انظر: نضرة النعيم (٧ / ٢٧٤٢-٢٧٤٤).

[١]قول المناوي العبادة هي فعل المكلَّف على خلاف هوى نفسه تعظيماً لربه.

[٢]وقال القرطبي: أصل العبادة التذلل والخضوع، وسُمِّيَت وظائف الشرع عبادات لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى .

[٣]وقال ابن القيم: العبادة تجمع أصلين: غاية الحب وغاية الذل والخضوع.

[٤]وقال الحافظ ابن كثير: وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحذور وذلك هو حقيقة الدين الإسلامي، لأن معنى الإسلام الاستسلام لله تعالى المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع .

[٥] وقيل: العبادة: الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصت بالرب .

[٦]وقيل العبادة: اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته، وكمال الذل لله ونهايته.

[٧]وقال ابن تيمية: العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل.

ومما سبق يتبين لنا أن العبادة تأتي بمعنى: التأليه والدعاء والخضوع والتذلل والطاعة لله .

وقد عرفها ابن تيمية بقوله: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة [١] .

---

(١) العبودية / لابن تيمية (١٠ / ١٤٩) من مجموع الفتاوى .

أهمية العبادة وحاجة العباد إليها

إن المخلوق محتاجٌ أشد الاحتياج إلى خالقه وبارئه سبحانه، بل كلُّ خلية من خلاياه هي في غاية الافتقار إلى الله الخالق البارئ جل وعلا .

ومن هنا يظهر لنا أن حاجة الناس إلى العبادة ضرورية، بل هي فوق حاجتهم إلى كل شيء.

وتتبين أهمية العبادة فيما يأتي:

(أ) بالعبادة يحقق الإنسان الكمال الذي خُلق من أجله، والهدف والحكمة والغاية التي من أجلها وُجد. قال سبحانه: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** (٥٦) ﴾ [الذاريات:٥٦] .

قال ابن تيمية رحمه الله: كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته. وقال أيضاً: «فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله وأقواهم وأهداهم: أتمهم عبودية لله»[1].

(ب) وبدون العبادة يعيش الإنسان في هذه الحياة كالحيوان تافه الأهداف لاهدف له إلا التمتع بالطعام والشراب واللذائذ الفانية، وحينئذ يصبح من الخاسرين. قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** (١٢) ﴾ [محمد: ١٢].

(ج) وبالعبادة بأنواعها المختلفة تطهر النفس وتتزكى وتسمو ويرتاح البال وينشرح الصدر ويستيقظ الضمير فيعيش الإنسان في سعادة دائمة وحياة طيبة. قال تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾ [النحل:٩٧]. وبدون العبادة تظلم النفس ويضيق الصدر ويعيش الإنسان في

---

(١) العبودية (ص ١٠).

قلق دائم وشقاء مستمر وإن توفرت له أسباب الحياة المادية، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه: ١٢٤].

(د) وبالعبادة ينجو الإنسان من سخط الله وغضبه وعذابه في الدنيا والآخرة ويستحق الخلود في الجنة دار النعيم. قال تعالى: ﴿ **تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا** (٦٣) ﴾ [مريم: ٦٣] وبدون العبادة ينال العقوبة في دار الجزاء الآخرة. قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** (٦٠) ﴾ [غافر: ٦٠].

(هـ) وبعبادة الله سبحانه والخضوع له والذل له سبحانه يتحرر الإنسان من العبادة للمخلوقين، فيصبح عزيزاً كريماً لا يذل ولا يخضع ولا يخشى غير الله سبحانه، وفي هذا تحرر وسعادة للنفس لا تدانيها سعادة.

(و) والعبادة غذاء الروح ودواءها ومادة حياتها، ولذا ينبغي أن تشمل جميع تصرفات حياة الإنسان. قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٦٢) **لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** (١٦٣) ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]. ويطالب العبد بها طوال حياته، قال تعالى: ﴿ **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** (٩٩) ﴾ [الحجر: ٩٩].

فالعبادة حق الله على العباد، وهم المستفيدون منها لحاجتهم إليها، أما الله سبحانه فهو الغني، ولذا قال سبحانه كما في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُم مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**»[١].

وقال موسى عليه السلام لقومه كما حكى الله عنه: ﴿ **وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ** (٨) ﴾ [إبراهيم: ٨].

---

(١) أخرجه مسلم ك/ البر والصلة والآداب ب/ تحريم الظلم، وأحمد في مسند الأنصار من حديث أبي ذر الغفاري.

إن الإنسان مهما فقد من متاع الحياة الدنيا، فلن يتضرر كما يتضرر بترك عبادة الله سبحانه. إن غاية ما يحصل له بعدم الطعام والشراب مثلاً هو الموت والفناء، أما ترك عبادة الله سبحانه، فتركها يعني الشقاء والخسارة الدائمة في الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)** ﴾ [الزمر: ١٥-١٦] .

شمول العبادة لكل جوانب الحياة

إن هدى الله يشمل كل جوانب الحياة، كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[النحل: ٨٩] وكذلك العبادة لله والتي تكون باتباع الهدى يجب أن تكون شاملة لكل جوانب الحياة، كما فهم ذلك الجيل الأول من الصحابة ﷺ والتابعون لهم بإحسان بأن العبادة تشمل أنواع الطاعة لله كلها فلم يحصروها فقط داخل فرائض العبادة، بل كان نهجهم أن حياتهم كلها عبادة، وأن الشعائر المفروضة إنما هي لحظات مركزة يؤدي فيها المؤمن ما فرضه الله عليه، ويرتاح فيها لمناجاة ربه ويتزود الإنسان فيها بالطاقة الإيمانية التي تعينه على أداء بقية العبادة المطلوبة منه. فالصلاة والنسك عبادة، والكدحُ عبادة سواءً كان كدحاً سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو فكريا أو علمياً، ما دام يقصد بذلك كله وجه الله وفي حدود شرعه، بل إن كل عمل مباح يصير عبادة يثاب عليها الإنسان إذا اقترن بالنية الصالحة التي تجعل الاستفادة من العمل المباح وسيلة للتقوى والاستعانة على عبادة الله، كما قرر ذلك العلماء[١].

وعلى هذا فحتى الترويح عن القلوب في حدود الشرع وضوابطه بحيث لا تكل ولا تمل إذا قصد به الاستعانة على الطاعة والاتباع للرسول ﷺ الذي كان يتلطف بأهله ويدخل السرور عليهم يصبح عبادة وطاعة، كما قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص ﷺ: **«وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ»**[٢].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر الفتح (١٤ / ٢٧٧) ط دار الفكر (١٤١٤هـ ١٩٩٣م) "أن المباحات يؤجر عليها بالنية إذا صارت وسائل للمقاصد الواجبة أو المندوبة أو تكميلاً لشيء منها" بعد ذكر فوائد الأثر المروى عن معاذ ﷺ "أما أنا فأنام وأقوم وأرجو في نومتى ما أرجو في قومتي"، وقال النووي: في شرح صحيح مسلم (١٢ / ٤١٣) ط دار المعرفة "معناه: أني أنام بنية القوة، وإجماع النفس للعبادة. وتنشيطها للطاعة، فأرجو في ذلك الأجر كما أرجو في قومتي أي صلواتي.

(٢) أخرجه البخاري ك/ الفرائض ب/ ميراث البنات، ومسلم ك/ الوصية ب/ الوصية بالثلث واللفظ له.

وقد قرر العلماء أن كل قول أو فعلٍ أو إرادة أو هم، قصد به وجه الله وتبع فيه شرعه عبادة ينال العبد ثوابها عنده سبحانه وتعالى .

وهكذا تكون الحياة كلها عبادة تشمل نشاط الروح كله ونشاط العقل كله ونشاط الجسد كله ما دام هذا كله متوجها به إلى الله وملتزما فيه بما أنزل الله سبحانه وتعالى[1] .

وبذلك لايزال الإنسان في عبادة لربه حتى يخرج من الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾ [الحجر:٩٩] .

---

(١) مفاهيم ينبغي أن تصحح محمد قطب ص٢٠٥ بتصرف .

استحقاق الله وحده للعبادة

العبادة حق لله وحده:

لقد بين الله لعباده أنه هو الذي يستحق العبادة وحده، وحذرهم من أن يتخذوا له أنداداً وأن يعبدوا غيره، وقد عرض القرآن هذه القضية عرضاً بديعاً بحجج واضحة جلية، وخطاب يقنع العقل والعاطفة، ويزري بمن يعبد غير الله أو يصرف جزءاً من العبادة لغيره سبحانه. وهذه بعض نماذج الخطاب القرآني وحججه.

١- الله الخالق وحده:

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (٢١) ﴾ [البقرة: ٢١]. تبين الآية أن الله استحق العبادة لأنه الرب الذي ربّى الإنسان وأنشأه من نطفة وصوره وأكمل أجهزته وأحسن خلقه وهيأ له ما يحتاج إليه في كل طور من أطواره، ولأنه الذي خلقه من العدم وخلق آباءه الذين جاء من نسلهم، وهو المتصرف به بداءً ومعاداً على الصفة التي أراد وفي الزمن الذي أراد وفي البلد الذي أراد ومن الأبوين الذين اختارهما ومن الجنس الذي قدر ذكراً أو أنثى وهو الذي يحاسبه، فرضاه عنه واتقاء سخطه هو الغاية التي يجب أن تقصد ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾.

- ويستحق العبادة لأنه الذي أقرّ لكم هذه الأرض وجعلها مناسبةً لحياتكم عليها فجعلها مكاناً مناسباً لبقائكم كمناسبة الفراش لمن يجلس عليه[١].
- ويستحق العبادة لأنه الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض، فجعلها بناءً متماسكاً وسقفاً محفوظاً، ولولا ذلك لتحطمت الأرض ومن عليها باصطدام جرم من أجرام السماء بها.

---

(١) فرش الأرض بطبقة سميكة من الصخور يصل سمكها ما بين ٣٣ إلى ٧٤كلم تقريباً تحجز أخطار النيران الأرضية من أن تقضي على من على سطحها وجعل الأرض قابلة للزراعة ووفر فيها الماء ودرجة الحرارة المناسبة وأحاطها بالغلاف الجوي المناسب بخصائصه وكساها بالنباتات ووفر فيها الأرزاق.

■ ويستحق العبادة لأنه الذي أوجد الماء الذي تقوم به الحياة وبدونه تنعدم ويسوقه إلى المحتاجين إليه من بني الإنسان وكذا الحيوانات والنباتات في أواسط القارات. وقد صفاه سبحانه من الملح الذي كان مختلطاً به، وأنزله قطرات دقيقة لا تحطم زرعاً ولا تهدم بناءً ولكنها تجري بعد ذلك سيولاً وأنهاراً. ولولا الماء الذي يسوقه للناس لانعدمت الحياة، وقضي على كل حضارة لبني الإنسان(١).

إن عبادة الله وحده وعدم الإشراك به هو حق الله على عباده، فقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «**يَا مُعَاذُ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ**» قَالَ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلاَ أُبَشِّرُ النَّاسَ قَالَ: «**لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»(٢).

وقال تعالى: ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** (١٠٢) ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»(٣).

٢- إنه الله الرازق وحده:

ويستحق العبادة لأنه الذي يخلق الرزق لكم من النباتات في مصانعها الخضراء الفريدة التي تصنع الطعام للإنسان والحيوان والنبات بقدرة الله وإرادته وتخزنه، في صورة ثمار متنوعة الأحجام والأشكال والألوان والطعوم والروائح(٤).

---

(١) راجع من آيات الله في الماء ج١ من علم الإيمان.

(٢) البخاري ك/ الجهاد والسير ب/ اسم الفرس والحمار ومسلم ك/ الإيمان ب/ الدليل على من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري ك/ تفسير القرآن ب/ قوله تعالى: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾، ومسلم ك/ الإيمان ب/ كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده.

(٤) راجع درس: من آيات الله في النبات.

وخلق لك جهازاً هضمياً مهيئاً لهضم هذه الثمار وتحويلها إلى مادة مناسبة ليستفيد منها الجسم فينمو به عظمه ولحمه ودمه وتتغذى به سائر خلاياه. وبالطاقة المخزونة تعمل أجهزة الجسم ويمارس الإنسان بها جميع أنشطته الحيوية، ولولا ذلك لما نبت لحم أو عظم ولا تحرك إنسان من مكان إلى آخر.

فكيف يُجعل لله ند في العبادة من الأوثان والأصنام والطواغيت الحجرية والبشرية وغيرها ولم يشاركه أحد في الخلق.

﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة: ٢٢]. وعندما علم الإنسان أن جميع أنواع الطعام التي يعيش عليها هو وكذلك الحيوان والنبات إنما تصنع بقدرة الله وحده في المصانع الخضراء في النبات وحاول أن يصنع طعاماً كما تصنع المصانع الخضراء (البلاستيدات الخضراء) باءت جميع محاولاته بالفشل، وعلم من يبحث عن الحق أن الله هو الرزاق وحده.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٧]. وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[النحل: ٧٣] وقد عرف الإنسان أن جميع أنواع الرزق من صنع الله وحده. قال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾[قريش: ٣-٤].

٣- الضر والنفع ملك لله وحده:

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾[المائدة: ٧٦]، إن كل ما في الكون من أسباب نفع فهي من خلق الله سبحانه وتقديره كالحياة وأسبابها والنعم بصورها، وكل ما في الكون من أسباب ضر هي كذلك من خلقه وتقديره كالموت وأسبابه والنقم والمصائب وأشكالها.

ويعطي الله الأمم والجماعات من صور النفع والضر وفق حكمته وتقديره فيفتح عليهم من أبواب الهدى والعلم والرزق والصحة والأمن وسائر النعم كما يشاء أو يأخذهم بأنواع النقم والمصائب كالزلازل والعواصف والطوفان والفيضانات والأوبئة والفتن والفقر والحروب وجور السلطان وفق مشيئته وحكمته. قال تعالى: ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)** ﴾ [فاطر: ٢] وقال تعالى: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)** ﴾ [يونس: ١٠٧]

وقال تعالى يحكي خطاب إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿ **إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢)** ﴾ [مريم: ٤٢]. فكل ضر أو نفع إنما يجري وفق سنن قدَّر الله فيها الضر والنفع فهي تجري كما قَدَّر لها، وإذا شاء أن يمنع الضر والنفع المقدر في السنن فلا يقيد إرادته شيء وترى المقدمات قد أسفرت عن غير ما كان يتوقع الإنسان من سير الأمور، وفي كل حال لا يكون إلا ما قدره الله، كما قال عليه الصلاة والسلام: «... **وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الأَقْلامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»(١).

٤- الله رب السموات والأرض والمدبر لأمر هذا الكون وحده:

فهو الذي خلقها من العدم إشعاعات ثم جسيمات ثم ذرات فصيرها دخاناً، وصير الدخان مجرات تشتمل على مليارات النجوم والكواكب، وأجراها في مدارات محكمة وسيرها بسرعات مقدرة ووزنها بموازين متقنة، وكوّن الأرض

---

(١) أخرجه الترمذي ك/ صفة القيامة والرقائق والورع وأحمد من مسند بني هاشم بداية مسند عبد الله ابن العباس رضي الله عنهما، وانظره في صحيح الترمذي للألباني (٢ / ٣٠٨) رقم ٢٦٤٨ ط١- مكتب التربية العربي لدول الخليج ٨م .

فسطحها وأخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها، وأنبت فيها أزواجاً وبث فيها من كل دابة وأقرها لحياة ما عليها، وغلفها بهواء تقوم عليه الحياة وحفظها من أخطار الكون، فاستحق لذلك أن يُعْبَدَ وحده لا شريك له .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ** (٣) ﴾ [يونس:٣] . ويبين القرآن الكريم أن الذي يستحق العبادة هو الذي خلق السموات والأرض وهو الذي يدبر الأمر في الكون كله نجومه وكواكبه وبث في الأرض والسماء المخلوقات، وهو الذي يرجع إليه أمر كل شيء خلقاً وتقديراً وتدبيراً فمنه بداية كل شيء وإليه المآب . قال تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** (١٢٣) ﴾ [هود:١٢٣] . وقال تعالى : ﴿ **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** (٦٥) ﴾ [مريم:٦٥] .

٥ - الله الذي يملك الموت والحياة:

قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس:١٠٤] . الموت هو إنهاء وإفناء لهذه الحياة الدنيا ومصادرة وإلغاء لكل مقوماتها وأسبابها .

والحياة انتقال من عالم الموات إلى عالم الحياة بكل ما فيها من أنشطة حيوية نمواً وتغذية وإحساساً وتكاثراً وحركة وفكراً وإبداعاً وتمتعاً .

ومن يملك الموت والحياة وأسبابهما هو الذي يستحق أن يعبد وأن تتعلق به القلوب خوفاً ورجاءً ومحبة، وهو الذي يستحق أن تخضع له الرقاب وتنحني له الجباه ويطاع في كل أمر، قال تعالى : ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (٢٨) ﴾ [البقرة:٢٨] فالذي يقهر العباد بالموت

ويكتب لهم الحياة هو الملك الحق الذي إليه المآب، وعليه الحساب فهو الذي يستحق العبادة والخضوع له وحده .

٦- الله المتفرد في الملك لكل ما في الوجود :

مالك الشيء هو القادر على التصرف فيما يملك دون منازع، ونحن نرى الكون مملكة واحدة يخضع لنظام واحد وتصرف واحد، ونرى وحدة وتكاملاً وتناسقاً في أنظمة الكون التي تُصرف بها المخلوقات في الأرض والسماء من الذرة إلى المجرة .

فالذي خضع الكون لأمره، واستجابت النجوم والكواكب والأفلاك لتدبيره وتقديره، واستسلمت الذرات والمركبات والمواد لتصريفه هو الملك الحق الذي يستحق أن يُعبَدَ وأن يُستَسلم لأمره دون تردد، وأن تعظمه القلوب وتجلُّه وتكبره وتسبحه وتدعوه خوفاً وطمعاً .

وليس له سبحانه منازع في هذا الكون أو مشارك في تصريف الوجود يستحق أن يصرف له شيء من العبادة، فهو الله الملك الحق الذي استحق أن يُعبد وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢)** ﴾ [سبأ: ٢٢] . وقال تعالى: ﴿ **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)** ﴾ [فاطر: ١٣-١٤] .

٧- الله صاحب الكمال والجلال والعظمة والكبرياء والعلو:

ومن يتأمل في آفاق الكون الواسعة وحدوده الممتدة بما لا يقدر الإنسان على الإحاطة به، يشعر بعظمة هذا الكون الدالة على عظمة خالقه سبحانه. والتأمل

في أنظمته البديعة ومخلوقاته العظيمة، وما يزخر به من آيات الجلال والكمال والقوة الدالة على جلال خالقه وكماله وقوته وعظمته وعظيم نعمه، يجعل القلب معلقاً بالله صاحب هذا الجلال والكمال والعظمة والعلو والكبرياء فينفعل بذلك القلب والوجدان مخبتاً بين يدي ربه مردداً قوله سبحانه: ﴿ **تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ** (٧٨) ﴾ [الرحمن: ٧٨] وقوله: ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** (١) ﴾ [الأعلى: ١] مقراً بقوله سبحانه: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** (٦٢) ﴾ [الحج: ٦٢].

٨- الله الذي يثيب عباده بالجنة ويعاقب الكافرين بعذاب النار:

وإن هذه الحياة مهما طالت أيامها فالموت قادم يكتب نهايتها، ومهما تملك فيها الإنسان فيستخلى عنه ويخرج من الدنيا كما دخل إليها، فهي دار فناء وغرور تنكشف حقيقتها مع لحظات الموت وحشرجته، يوم أن يفارق الإنسان كل حبيب كان يحرص على البقاء معه.

ويعلم الإنسان عندئذ أنه منتقل إلى دار الحياة الأبدية التي لا يهددها موت ولا انقطاع، والإنسان فيها إن كان ممن عبد الله حق عبادته فهو صاحب الفوز العظيم بنعيم مقيم مع الخالدين في جنات النعيم. قال تعالى: ﴿ **تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا** (٦٣) ﴾ [مريم: ٦٣]، وإن كان ممن ترك عبادة الله أو أشرك معه غيره في عبادته فهو في سواء الجحيم وفي العذاب الأليم. قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** (٦٠) ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ** (٢٢) **مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ** (٢٣) ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

فكيف لا يحرص عاقل على عبادة ربه وهي الموصلة إلى الجنة دار المتقين، وتضييعها يدخل صاحبه في جهنم دار الجحيم.

أنواع العبادة

العبادة طوعاً وكرهاً:

إن الله الملك المتصرف في الوجود قد أخضع من في الكون لأمره وقهرهم بسلطانه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[الأنعام:١٨].

وجعلهم مستسلمين لأمره طوعاً وكرهاً كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[آل عمران:٨٣].

كما جعلهم وظلالهم يسجدون له طوعاً وكرهاً بالغدو والآصال[١] قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿١٥﴾﴾[الرعد:١٥].

وشاء الله أن يبتلي عباده بالعبادة الاختيارية التي يمارسونها بإرادتهم وهي الغاية التي من أجلها خلقهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات:٥٦]، وأرسل رسله لبيان أوامره ونواهيه التي طلب من العباد أن يلتزموا بها. وهذه العبادة أنواع، فكما أن الإيمان اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان تمارسه الجوارح، فالعبادة كذلك منها ما هو قلبي ومنها ما يتعلق باللسان، ومنها ما يتعلق بالجوارح.

العبادة القلبية:

لقد خلق الله القلب الذي بتوقفه أو انعدامه تنقطع الحياة، وأناط به عبادات منها ما هو واجب مأمور به، ومنها ما هو حرام منهي عنه.

---

(١) حركات الوجود كله حركات موجية في انخفاض وارتفاع تشبه حركة الساجد في ارتفاعه وانخفاضه، وسكان الأرض وظلالهم يسجدون ويرتفعون مع كل دورة للأرض حول نفسها.

(أ) العبادات القلبية الواجبة:

للقلب عبادات كثيرة أهمها الإخلاص والتصديق. قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]. وقال سبحانه عن المؤمنين الصادقين: ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

والإخبات لله سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٤] .

والخشية من الله سبحانه والوجل منه، كما قال تعالى: ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقال سبحانه في صفة المؤمنين الصادقين: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٣٥].

والتوكل: وهو اعتماد القلب على الله سبحانه في تصريف الأمور، قال تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣].

ومحبة الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والصبر، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله حتى يؤديها، وصبر عن معصية الله فلا يقع فيها وصبر على المصائب التي تقع على العبد.

والخوف منه سبحانه. قال تعالى: ﴿ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴾ [آل عمران: ١٧٥] والإنابة إليه سبحانه وهي الرجوع إليه في كل وقت توبة وإخلاصاً ومحبة، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر: ٥٤].

والرجاء وهو الثقة والاستبشار والانتظار لفضل الرب سبحانه وجوده وكرمه.

قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾[الأحزاب: ٢١].

والرغبة إليه والرهبة منه والخشوع له سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾[الأنبياء: ٩٠].

إلى غير ذلك من أنواع عباداته[١].

(ب) المحرمات القلبية:

وهناك محرمات قلبية نهى الله سبحانه عنها مثل النفاق وهو إظهار الإيمان وإبطان الكفر في القلب. قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾[النساء: ١٤٠].

والغفلة وهي اشتغال القلب بمتاع الحياة الدنيا عن عبادة الله كما قال سبحانه مخاطباً نبيه ومنبهاً مَنْ وراءه من المؤمنين ﴿ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) ﴾ [يونس: ٧-٨].

والكبر وهو رد الحق واحتقار الناس، قال سبحانه: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) ﴾ [النحل: ٢٣]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنةَ من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْر**»[٢].

---

(١) للتوسع انظر: القلب ووظائفه في الكتاب والسنة، وتهذيب مدارج السالكين.

(٢) أخرجه مسلم ك/ الإيمان ب/ تحريم الكبر وبيانه واللفظ له، والترمذي ك/ البر والصلة ب/ ما جاء في الكبر وابن ماجه في المقدمة ب/ في الإيمان.

والرياء، كما ذم سبحانه المرائين فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء: ٣٨] وفي الحديث: «من راءى راءى الله به ومن سمَّع سمَّع الله به»[١] .

والعجب والفخر بالنفس والخيلاء كما قال تعالى: ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) ﴾ [الإسراء: ٣٧]. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) ﴾ [لقمان: ١٨].

والحسد، كما ذم سبحانه أهل الكتاب لحسدهم قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وأمر سبحانه بالاستعاذة من شر الحاسد. قال سبحانه: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق: ٥].

والقنوط وهو اليأس من رحمة الله قال سبحانه: ﴿ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾ [الحجر: ٥٦] .

والحزن والغم بانتصار الإسلام والمسلمين، والسرور والفرح بمصائبهم، كما هو حال المنافقين. قال سبحانه: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ [آل عمران: ١٢٠] .

وشهوة المحرمات وتمنيها وهي الممرضة للقلب كما قال تعالى: ﴿ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

العبادات القولية:

خلق الله اللسان وأتقن تركيبه، وجعله مبيناً لما في النفس، ولو شاء لجعله أخرساً لا يبين، وكما أخضع عملية النطق باللسان لأقداره الحكيمة، فقد علق بها عبادات قولية .

---

(١) أخرجه البخاري ك/ الرقائق ب/ الرياء والسمعة، ومسلم ك/ الزهد والرقائق ب/ من أشرك في عمله غير الله.

فمما أوجبه الله سبحانه وتعالى من العبادات القولية: النطق بكلمة الحق التي بها سعادة الدنيا والآخرة وهي: بالشهادتين وتلاوة ما تلزمه تلاوته من القرآن وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، ومن واجبه رد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان الحق والهدى وإظهار العلم وتعليم الجاهل وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث وغيرها .

ومن مستحبات العبادة القولية: تلاوة القرآن ودوام ذكر الله تعالى والمذاكرة في العلم النافع وتوابع ذلك .

ومن المحرمات القولية: النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله ﷺ كالنطق بالشرك والكفر والنفاق، وقذف المسلم وإيذائه بكل قول، والكذب، وشهادة الزور والقول على الله بلا علم ونحو ذلك .

ومن المكروهات القولية: كثرة الكلام بغير ذكر الله، وما لا فائدة فيه من الكلام.

عبادات الجوارح:

كما جعل الله للقلب واللسان عبادات تطهرهما وتزكيهما فقد جعل أيضاً لكل جارحة عبادة تحصل بها طهارتها وزكاتها، ومن ذلك:

١ - العبادة المتعلقة بالسمع:

خلق الله للإنسان جهاز السمع وهو لا يزال جنيناً في بطن أمه، لأنه يريد له أن يكون سميعاً عند مغادرته رحم أمه فيسمع الأصوات ويفهم اللغات، ولو شاء لجعله أصماً ولعجز كل من في الأرض أن يهبوا له سمعاً. قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ** (٤٦) ﴾[الأنعام: ٤٦] وكما يسر الله للإنسان آلة السمع بخلقه وقدره، فقد علق بها عبادات تكون سبباً لفوزه ونجاته.

فمن الواجب في ذلك الاستماع لما أوجبه الله سبحانه أو رسوله ﷺ من الاستماع لهدى الإسلام والإيمان وفروضهما التي لا تتم سعادة العبد إلا بها، وكالاستماع للقراءة في الصلاة، والاستماع لخطبة الجمعة ونحو ذلك .

ومن المحرمات في ذلك :- الاستماع للكفر وللنفاق والبدعة على وجه القبول والموافقة، والاستماع لأصوات النساء الأجانب على وجه الشهوة والتلذذ، وكذلك الاستماع للمعازف المحرمة وآلات اللهو الباطل، ونحو ذلك من أي استماع يؤدي إلى المعصية .

ومن المستحب في ذلك :- الاستماع للمستحب من العلم، وقراءة القرآن وذكر الله، ونحو ذلك من الاستماع لكل ما يحبه الله وليس بواجب .

ومن المكروه في ذلك :- الاستماع لما لا فائدة في الاستماع له .

٢ - العبادة المتعلقة بالبصر :

خلق الله للإنسان جهازاً بصرياً بديعاً محكماً وهو لايزال في ظلمات الرحم، ليكشف له به ما حوله، ويرى به طريقه ويوجه به عمله عند مفارقة ذلك الرحم ولو شاء جعله أعمى، ولعجز كل من في الأرض أن يمنحوه بصراً. قال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل :٧٨] وجعل الله شكر هذه النعمة معلقاً بعبادات يؤدي العبد بها حق هذه النعمة الكبرى، وتتمثل عبادة البصر في واجبات ينبغي أداؤها وحرمات ينبغي اجتنابها، ومستحبات ومكروهات .

فمن الواجبات : النظر إلى ما أوجب الله عز وجل ورسوله ﷺ كالنظر إلى آيات الله المشاهدة في الكون ليستدل بها على توحيده وحكمته، وكالنظر في المصحف وكتب العلم، والنظر لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها .

ومن المحرمات: النظر إلى ما حرم الله ورسوله النظر إليه مثل النظر إلى النساء الأجنبيات والنظر إلى العورات وكل من تخشى الفتنة بالنظر إليه، ويدخل في ذلك تحريم النظر في المنشورات الخليعة ووسائل الإعلام الهدامة، وكذلك النظر في كتب ومنشورات الكفر والإلحاد والاطلاع عليها على وجه القبول والموافقة، ونحو ذلك .

ومن المستحبات: كل نظر يزداد به المؤمن إيماناً وعلماً، كالنظر في المصحف وفي آيات الله المشهودة، وكتب العلم المختلفة ونحو ذلك .

ومن المكروهات: فضول النظر، وهو كل نظر لا مصلحة فيه ولافائدة من ورائه.

٣ - العبادة المتعلقة بالذوق والطعم:

فمن الواجب في ذلك: الأكل والشرب مما أذن الله فيه، لتبقى النفس لتؤدي الوظيفة التي خُلِقَت من أجلها، ومن ذلك تناول الدواء إذا تعين للنجاة من الهلاك.

والذوق الحرام: وهو تناول كل ما حرّمه الله ورسوله، كالميتة والدم والخنزير وشرب المسكرات والسموم القاتلة، والأكل والشرب في نهار رمضان بلا عذر، وأكل الأموال المحّرمة، ونحو ذلك .

والمستحب: مثل تناول ما يزيد في قوتك على طاعة الله تعالى من الطيبات، ومع الضيف .

والمكروه منه: كذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وأكل أطعمة المتبارين[١] ونحو ذلك .

٤ - العبادة المتعلقة بالشم:

فيجب منها شم التمييز بين الحلال والحرام، والخبيث والطيب وما يملك الانتفاع به وما لا يملك ونحو ذلك .

---

(١) المتبارون : هم المتعارضون المتفاخرون في الولائم رياءً .

ويحرم منه مثل: تعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات للفتنة .

والمستحب: شمّ كل ما أعان على طاعة الله، وبسط النفس للعلم والعمل.

٥ - العبادة المتعلقة باليد:

فالواجب منها: كالجهاد في سبيل الله، وما يتعلق بالعبادة الواجبة كالوضوء والتيمم ورمي الجمار، والتكسب المقدور للنفقة على النفس والأهل والعيال، وإعانة المضطر ونحو ذلك .

والمحرم من ذلك مثل: قتل النفس المحّرمة، ولمس الأجنبية، والسرقة، وإيذاء من لا يحل إيذاؤه، وكتابة شهادة الزور والظلم والحكم الجائر، وكتابة الكفر والإلحاد والبدعة والفجور وكل ما يضر بالإسلام والمسلمين في دينهم أو دنياهم، وكتابة الفتوى التي تخالف حكم الله ورسوله مع العلم بذلك، ونحو ذلك.

والمستحب: عمل كل ما فيه منفعة في الدين أو الدنيا مثل كتابة ما فيه منفعة في الدين أو مصلحة للنفس أو للآخرين .

والمكروه: كل عمل لا منفعة فيه ولا فائدة من ورائه .

٦ - العبادة المتعلقة بالقدم:

الواجب منها: المشي إلى ما أوجبه الله كالجمعة والجماعة والحج وصلة الرحم، وطلب العلم والجهاد في سبيل الله، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دعي إليه .

والمحرم من ذلك: المشي إلى كل معصية لله .

والمستحب: المشي إلى كل طاعة مستحبة .

المكروه: كل ما لا مصلحة فيه ولا منفعة، وما تركه خير من فعله[1].

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم (١ / ١٤٣-١٥٠) بتصرف .

شروط قبول العبادة من العباد

إن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من عباده أي عبادة ما لم يلتزم صاحبها بالشروط الآتية:

١ - الإيمان: لا يقبل الله أي عمل إلا إذا كان صاحبه مؤمناً، ولذا لا يثيب الله الكافر على ما عمل لأنه لم يقصد بعمله وجه ربه[١]. قال تعالى: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)** ﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)** ﴾ [النور: ٣٩].

٢ - الإخلاص: فلا يقبل الله العبادة من أحد إلا إذا كانت خالصة له سبحانه.

قال تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ [البينة: ٥]. وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١)** ﴾ [الزمر: ١١]. وقال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى...**»[٢]. وقال ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[٣]. وقال ﷺ: «**إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ نَادَى مُنَادٍ مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لله عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ اللهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ**»[٤].

---

(١) انظر علم الإيمان (١ / ١٧-٢٠).

(٢) أخرجه البخاري ك/ بدء الوحي ب/ بدء الوحي، ومسلم ك/ الإمارة ب/ قوله إنما الأعمال بالنية ... وأبو داود ك/ الطلاق ب/ فيما عني به الطلاق والنيات.

(٣) أخرجه مسلم ك/ الزهد والرقائق ب/ من أشرك في عمله غير الله، واللفظ له، والترمذي ك/ تفسير القرآن ب/ من سورة الكهف وابن ماجه ك/ الزهد ب/ الرياء السمعة.

(٤) أخرجه الترمذي ك/ تفسير القرآن ب/ ومن سورة الكهف، وابن ماجه ك/ الزهد ب/ الرياء والسمعة، وأحمد في مسند المكثرين حديث أبي سعيد بن أبي فضالة، وانظره في صحيح الترمذي للألباني (٣ / ٧٤) برقم (٣٣٧٤)، وصحيح ابن ماجه (٢ / ٤١٠)، وصحيح ابن حبان تحقيق شعيب الأرنؤوط (٢ / ١٣٠) برقم ٤٠٤ ط٣ مؤسسة الرسالة (١٤١٨هـ ١٩٩٧م).

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢] أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً وصواباً، والخالص أن يكون لله والصواب إذا كان على السنة[١].

فالعبادة ليست شكلاً يتعلق بالمظهر، ولا رسماً يتصل بالجسد فحسب، ولكنها مع ذلك عمل قلبي وإخلاص ينبع منه، لذلك كان الإخلاص شرطاً للقبول.

٣ - الإتباع للكتاب والسنة: إن العبادة المقبولة هي التي تكون موافقة لما جاء به النبي ﷺ من ربه، لأن العبادة لله لا تكون صحيحة مقبولة إلا بالامتثال لمراده المبين في الكتاب والسنة، ومن عبده بما لم يشرعه فعبادته مردودة لأنه لم يمتثل لأمر ربه، وإنما امتثل لهوى نفسه أو هوى غيره. قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا** ﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩].

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[٢] وكان النبي ﷺ يقول في خطبة الحاجة: «**خَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ** - ﷺ - **وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وكل بدعة ضلالة**»[٣].

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: «اللهم اجْعَلْ عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً»[٤].

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (ص٧٢).

(٢) أخرجه البخاري ك/ الصلح ب/ إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ومسلم ك/ الأقضية ب/ نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور.

(٣) أخرجه مسلم ك/ الجمعة ب/ تخفيف الصلاة والخطبة واللفظ له.

(٤) ابن تيمية الفتاوى (ج١٠ ص١٧٣).

قال ابن تيمية : دين الإسلام مبني على أصلين :

أحدهما – ألا نعبد إلا الله .

والثاني – أن لانعبده إلا بما شرع[١] .

والمتابعة لا تتحقق إلا إذا كان العمل موافقاً للشريعة ووفقاً للأمور الستة الآتية:

١- السبب:

إذا شرع الله عبادة مقرونة بسبب فلا تصح بغير سببها، مثل صلاة الكسوف في غير الكسوف، ولا يصح ابتداع سبب غير مشروع لممارسة أي عبادة مثل: أن يجعل خروج الجنازة من المنزل سبباً للتقرب إلى الله بالذبح . ومثل أن يجعل وداع المسافر سبباً للأذان . فالذبح عبادة، والأذان عبادة، ولكنهما لما قرنا بسبب غير مشروع أصبحا بدعة .

٢- جنس العبادة:

ومن شروط قبول العبادة أن تكون جنساً مشروعاً، فلو تعبد إنسان لله سبحانه وتعالى بعبادةٍ لم يشرع جنسها فهي غير مقبولة منه، كمن ضَحَّى بفرس فلا تقبل منه هذه الأضحية وإن كان الفرس أغلى من البقر والإبل لأنه خالف الشريعة في الجنس .

٣- القَدْر:

لقد حد الشارع لكل عبادة حداً لا تتجاوزه ولا تنقص عنه، فلو أن رجلاً زاد في صلاة الفريضة ركعةً مثلاً بقصد القربة إلى الله فهذا العمل مبطل للعبادة مخالف للشرع بالاتفاق .

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٠ / ١٧٢-١٧٣) بتصرف يسير .

٤- الكيفية:

شرع الله لكل عبادةٍ كيفيةً خاصة بها، فمن خالفها فقد ابتدع في دين الله فلا تُقبَل منه هذه العبادة، كمن بدأ الصلاة بالتشهد .

٥- الزمن:

جعل الله لبعض العبادات أزمنةً محددة لا يصح مخالفتها تقديماً أو تأخيراً بإحداث زمن غير الذي حدده الشرع. كمن حجّ في غير أشهر الحج، وكمن ضحى في أول أيام ذى الحجة فلا تقبل أضحيته لأنه أداها في غير وقتها.

٦- المكان:

ربط الشارع بعض العبادات بأمكنةٍ خاصةٍ بها مثل الحج والطواف والاعتكاف، فمن ابتدع مكاناً خصه بأداء عبادة من تلقاء نفسه فعمله بدعة مردودة عليه، كمن حج إلى غير بيت الله الحرام .

التشريع حق لله وحده

إن الصانع لأي شيء هو صاحب الحق في توجيه ذلك المصنوع وبيان كيفية سيره، وهذه بديهية لا ينازع فيها أحد .

لكن الكافرين ينازعون خالقهم في استحقاقه لهذا الأمر المتعلق بالحكم والتشريع لعباده فقد قال سبحانه : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** (٥٤) ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

والصانع لأي مصنوع هو الأعلم بكيفية تسيير ذلك المصنوع وما يصلحه وما يفسده، وهو صاحب الحق في ذلك، لكن الكافرين يَدَّعُون أنهم الأعلم بشئونهم من خالقهم الذي خلقهم القائل : ﴿ **هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ** ﴾ [النجم : ٣٢] .

والقائل : ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** (١٤) ﴾ [الملك : ١٤] .

كما يسلم العقلاء بأن المالك لأي شيء هو صاحب المشروعية في التصرف بما يملك، لكن الكافرين لا يقرون لخالقهم المتصرف فيهم بهذا الحق.

قال تعالى : ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** (٥٤) ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وغداً يقف الناس بين يدي الله فيحاسبهم فيسألهم ماذا أجبتم المرسلين، وتكون النجاة مرهونة بالخضوع لشرعه وحكمه، كما يكون العقاب لمن أبى أن يستسلم لشرعه وحكمه سبحانه وتعالى .

الابتداع في العبادة

خطر الابتداع في الدين:

أكمل الله سبحانه وتعالى الدين وأتم الشريعة، وختم برسالة محمد ﷺ الرسل والرسالات فبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه ولا دين إلا ما شرعه، فليس لأي إنسان أن يُحدث في الدين شيئاً، لأن هذا يعد مشاركة لله في تقرير الدين أو استدراكاً عليه سبحانه وكأن الشرع ناقص.

قال الإمام مالك رحمه الله: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً خان الرسالة لأن الله يقول: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة:٣] فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً[١].

ولا دين إلا ما أذن الله به. قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١] فمن شرع لنفسه أو لغيره ديناً لم يأذن الله به فقد جعل نفسه نداً لله.

ولخطر البدعة حذّر منها النبي ﷺ فقال: «... **إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: عليكم بالاستقامة والأثر وإياكم والتبدع[٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم كل ضلالة[٤].

---

(١) الاعتصام (١ / ٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود ك/ السنة ب/ في لزوم السنة، واللفظ له وابن ماجه في المقدمة ب/ اجتناب البدع والجدل، وأحمد في مسند الشاميين من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه والدارمي في المقدمة ب/ اتباع السنة، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣ / ٨٧١).

(٣) ابن وضاح ص٢٥ بواسطة حقيقة البدعة وأحكامها (١ / ٧٣).

(٤) بواسطة المرجع السابق (١ / ٧٤).

تعريف البدعة:

(أ) البدعة في اللغة:

هي مصدر بَدَعَ، والباء والدال والعين أصلان:

أحدهما: ابتداء الشيء وصنعه من غير مثال.

والآخر: الانقطاع والكَلال .

فالأول قولهم أُبدع الشيء قولاً أو فعلاً: إذا بُدىء من غير سابق مثال .

والأصل الآخر: أبْدَعَت الراحلةُ، إذا كَلَّت وعَطِبت[١] .

(ب) البدعة في الاصطلاح:

تنوعت عبارات العلماء - رحمهم الله - في تعريف البدعة، وحاصل أقوالهم أن البدعة هي الأمر المحدَث في الدين مما يتقرب به إلى الله ولا أصل له في الشريعة، سواء كان ذلك في مسائل الاعتقاد أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة، وبعبارة أخرى: البدعة هي التقرب إلى الله بما لم يشرعه أو التعبد لله بما لم يشرعه.

ومما قاله أهل العلم في تعريف البدعة:

[١] عرفها الشاطبي رحمه الله بقوله: البدعة في الاصطلاح: هي طريقة في الدين مخترعة تضاهي الطريقة الشرعية،يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية[٢] .

[٢] وعرفها ابن تيمية بقوله: البدعة في الدين هي ما لم يشرعه الله ورسوله، وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب .

---

(١) معجم المقاييس في اللغة بشيء من التصرف .

(٢) الاعتصام (ص٥٠-٥١).

[٣]وعرفها الحافظ ابن حجر بقوله: والمحدثات جمع محدثة والمراد بها ما أحدث وليس له أصل في الشرع[١] .

[٤]وعرفها الجرجاني بقوله: البدعة هي الأمر المحدَث الذي لم يكن عليه الصحابة والتابعون، ولم يكن مما اقتضاه الدليل الشرعي[٢] .

وهذه التعريفات مأخوذة مما فهم العلماء رحمهم الله من قول النبي ﷺ: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»**[٣] .

---

(١) فتح الباري (١٥ /١٧٨) ط ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م ، دار الفكر ــ بيروت لبنان .

(٢) التعريفات (ص٤٣) .

(٣) أخرجه البخاري ك / الصلح ب / إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ومسلم ك / الأقضية ب / نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور .

أنواع البدع في الدين

يمكن أن تقسم البدعة في الدين إلى أنواع متعددة باعتبارات مختلفة :

(أ) فهي باعتبار كونها قولية أو عملية تنقسم إلى نوعين:

النوع الأول : بدعة قولية اعتقادية(١) .

النوع الثاني : بدعة في الشعائر التعبدية .

وهذه أنواع منها:

[١] ما يكون في أصل العبادة . كأن يُحدِث عبادة لا أصل لها في الشرع مثل إحداث صلاة غير الصلوات المشروعة أو صيامٍ أو نحو ذلك .

[٢] ما يكون في الزيادة على أصل العبادة المشروعة أو الإنقاص منها كزيادة ركعة رابعة في صلاة المغرب مثلاً، أو نقص حد القاذف إلى خمسين جلدة لمجرد قصد القربة إلى الله .

[٣] ما يكون في صفة أداء العبادة المشروعة : بحيث يؤديها على صفة غير التي شرعت العبادة عليها كأن يبدأ الصلاة بالسجود .

[٤] ما يكون بتخصيص وقت للعبادة المشروعة لم يخصصه الشرع كتخصيص يوم معين من شهر معين بصيام مثلاً بدون دليل(٢) .

(ب) وتنقسم البدعة بالنظر إلى ذاتها إلى: بدعة حقيقية وإضافية:

فالحقيقية : هي التي لا تستند إلى دليل معتبر ولا إلى شبهة دليل لا في الجملة ولا في التفصيل، كالقول بعصمة الأئمة عند بعض الفرق .

---

(١) كاعتقادات ومقالات الفرق الضالة كالباطنية والجهمية والرافضة وغيرهم .

(٢) هذا التقسيم من كتاب البدع والمحدثات ومالا أصل له (ص١٠١) .

والإضافية: هي التي تستند إلى شبهة دليل فقط، كالامتناع عن بعض المباحات لغير غرض صحيح بقصد التقرب والتعبد لله، كالوضوء بالماء البارد في شدة البرد بقصد التعبد مع وجود الماء الدافئ.

(ج) وتنقسم البدعة باعتبار الفعل والترك إلى:

بدعة فعلية وأمثلتها كثيرة[١]، وبدعة تركية، كترك بعض المباحات تعبداً كما ذكرنا في المثال السابق وقد جاء في الحديث النبوي أنه جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا ! وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ ولاَ أُفْطِرُ! وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا واللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[٢].

قال الحافظ ابن حجر: قوله «**فمن رغب عن سنتي فليس مني**» المراد بالسنة الطريقة ... والمراد من ترك طريقتي وأخذ طريقة غيري فليس مني.

(د) وبالنظر إلى كونها مركبة أو بسيطة تنقسم إلى بدعة مركبة وبدعة بسيطة:

فالبدعة المركبة هي المشتملة على مجموعة بدع، كبدعة الحج إلى غير بيت الله إذ تضم هذه البدعة لفيفاً من البدع والمخالفات مثل: تخصيص يوم معين وذكر معين وهيئة معينة بغير دليل، وأوراد وأشعار تحوي أشياء من الجهالات والأكاذيب[٣]. والبسيطة التي لا يدخل معها غيرها[٤].

---

(١) مثل بدعة الطواف بالجنازة حول البيت العتيق سبعاً، وبدعة الاجتماع في المساجد على صلاة مقدرة دائماً- غير واردة - كالاجتماع على مائة ركعة بقراءة (قل هو الله أحد) ألف مرة، فهذا من البدع لعدم وروده، انظر معجم البدع (ص٢٦، ٨٨).

(٢) البخاري ك/ النكاح ب/ الترغيب في النكاح، ومسلم ك/ النكاح ب/ استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه.

(٣) وكبدعة العزاء يوم عاشوراء على الحسين رضي الله عنه مشتملة على عدة بدع كالحزن والنوح واللطم والصراخ والعطش بزعم أن الحسين رضي الله عنه قتل عطشانا ونحو ذلك.

(٤) مثل التيمم لزيارة القبر، وصلاة الظهر عقب صلاة الجمعة، انظر معجم البدع (ص١٠٧، ٣٢٧).

(هـ) وبالنظر إلى كونها كلية أو جزئية تنقسم إلى بدعة كلية، وبدعة جزئية:

فالبدعة الكلية بمعنى أنها تعتبر كالقاعدة والأصل لبدع أخرى تنبني عليها كالقول بعصمة الأئمة عند بعض الفرق، انبنى عليها عدد من البدع، كإنزالهم هؤلاء الأئمة منزلة الأنبياء، واعتقاد الصواب المطلق في أقوالهم وأفعالهم، وطلب الحاجات التي لا تطلب إلا من الله منهم إلى غير ذلك من الضلالات .

وبالمقابل تكون البدعة جزئية لا تتجاوز ذاتها ولا يبنى عليها شيء من البدع كحال أغلب البدع[١].

---

(١) للتوسع ومعرفة الأمثلة على الأنواع المذكورة وغيرها انظر حقيقة البدعة وأحكامها لسعيد الغامدي (ج٢ ص٧-١٨٩) والاعتصام للشاطبي(ج١ ص٣٦٧) ، ومعجم البدع لرائد صبري.

أسباب الوقوع في البدع

من أهم أسباب الوقوع في البدع ما يلي:

١- الجهل بالدين:

فقد ظهرت كثير من البدع نتيجة الجهل بأن الدين لا يكون إلا بهدى وشرع من الله سبحانه. قال تعالى: ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾ [الشورى: ٢١] ونتيجة للجهل بأن الدين قد كَمُلَ: قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ [المائدة: ٣].

ويزداد الأمر سوءاً حين يظن أهل الجهل في جاهلٍ مبتدعٍ أنّه من أهل العلم، أو أن كلامه حجة في الدين ولو لم يكن عليه دليل، بينما هو جاهل بدين الله فحينئذ يَضلّ ويُضلهم معه، كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[١].

ومن مظاهر الجهل الموقع في البدع: الاعتماد على الحكايات والمنامات والقياسات التي تخالف الأدلة الصحيحة، وكذا الاعتماد على الأحاديث والآثار الضعيفة أو الموضوعة التي تخالف الأصول القطعية.

٢- التقليد المذموم واتباع العقائد الباطلة:

ومعناه: اتباع أهل الضلال على باطلهم لمجرد الموافقة، ومجانبة الحق المؤيد بالأدلة الصحيحة.

وقد عاب الله سبحانه في كتابه المقلدين بالباطل، فقال سبحانه: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ**

---

(١) أخرجه البخاري ك/ العلم ب/ كيف يُقبَضُ العلم، ومسلم ك/ العلم ب/ رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن.

لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة: ١٧٠] .

٣- اتباع الهوى:

بعض الناس يكون له حظ من العلم بالشريعة، ولكن الذي يحمله على الوقوع في البدعة هو اتباع هوى نفسه أو غيره، وعدم التسليم والانقياد للنصوص الشرعية، وقد وُصِفَ العلماء السائرين على هذا النهج بأنهم أهل الأهواء .

وقد ذم الله سبحانه من اتبع هواه وترك الحق، فقال سبحانه: ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [القصص: ٥٠] .

وقال سبحانه: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣)** ﴾

[الجاثية: ٢٣] .

ومن مظاهر اتباع الهوى: معارضة النصوص الشرعية بالأذواق أو بالآراء والقياسات والتأويلات الفاسدة اتباعاً لهوى النفس أو هوى الآخرين.

الفرق بين البدعة في الدين والسنة الحسنة

ورد عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ جَاءَ نَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَلَيْهِمُ الصُّوفُ فَرَأَى سُوءَ حَالِهِمْ قَدْ أَصَابَتْهُمْ حَاجَةٌ فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ فَأَبْطَئُوا عَنْهُ حَتَّى رُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ قَالَ ثُمَّ إِنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ جَاءَ بِصُرَّةٍ مِنْ وَرِقٍ ثُمَّ جَاءَ آخَرُ ثُمَّ تَتَابَعُوا حَتَّى عُرِفَ السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»**[١].

يتضح من سياق الحديث أن السنة الحسنة التي قام بها الصحابي الأول صاحب الصُّرة تمثل استجابة لأمر النبي ﷺ وابتداء عمل يحقق الاستجابة وليست ابتداعاً في الدين، إنما هي ممارسة لإقامة أمر من أمور الدين.

وكذلك إحياء عمر ﷺ لصلاة التراويح، إنما كان إحياءً لما فعله النبي ﷺ في عهده من قيامٍ للصلاة في الليل، وإنما تركه خشية أن يفرض على الأمة فلما انتفى هذا المانع أحياها عمر ﷺ ووافقه على ذلك الصحابة والتابعون ولم يكن ذلك ابتداعاً جديداً في الدين[٢].

وكذلك كتابه المصحف في عهد عثمان ﷺ لم تكن تغييراً للقرآن أو ابتداعاً فيه، وإنما كانت عملاً يحافظ به على القرآن، ومن هذا نعرف أن البدعة

---

(١) أخرجه مسلم ك/ الزكاة ب/ الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، اللفظ له، والترمذي ك/ العلم ب/ ما جاء فيمن دعا إلى هدى فاتبع أو إلى ضلالة، والنسائي ك/ الزكاة ب/ التحريض على الصدقة، وابن ماجه ك/ المقدمة ب/ من سن سنة حسنة أو سيئة.

(٢) أما ما ورد من قول عمر ﷺ: نعمت البدعة هذه. حين جمعهم على صلاة التراويح، فالبدعة هنا في قوله هي البدعة اللغوية، أي أن هذا الأمر لم يكن معمولاً به وكان متروكاً فابتدأ عمله، وذلك لأن أصل الاجتماع على قيام الليل مشروع.

هي اختراع بالحذف أو الإضافة في الدين مما لم يشرعه الله، أما السُّنَّة الحسنة: فهي ابتداء عمل أو اختراع وسيلة لإقامة أمر ثابت في الدين .

الاختراعات والوسائل المستحدثة:

وكل ما يستخدم لإقامة الدين من مخترعات ووسائل مستحدثة لا يعتبر بدعة مذمومة، لأنه ليس إحداثاً في الدين وإنما هو وسيلة لإقامة الدين وإحيائه كالأسلحة الحديثة لإقامة الجهاد، ووسائل الإعلام لنشر الدين، ووسائل التعليم والإيضاح لتعليم الدين وبيانه وهكذا .

ضوابط وتنبيهات في البدعة:

(أ) بعض قواعد معرفة البدع:

[١] كل عبادة تستند إلى رأي مجرد أو هوى فهي بدعة .

[٢] كل عبادة تستند إلى حديث مكذوب فهي بدعة .

[٣] كل تقرب إلى الله بفعل ما نهى عنه وحرمه فهو بدعة ومعصية في آن واحد .

[٤] كل عبادة تركها الرسول مع كون سببها المقتضي لها قائماً، والمانع منها منتفياً ففعلها بدعة(١) .

[٥] كل عبادة وردت على صفة مقيدة فتغيير هذه الصفة بدعة(٢) .

(ب) تنبيهات:

[١] ينبغي التحقق من كون العمل بدعة قبل الحكم عليه بذلك .

[٢] عذر المبتدع المجتهد وحُسن نيته لا يقتضي إقراره على البدعة ولا يبيح اتباعه في ذلك، بل يُنكَر عليه بالطرق الشرعية .

[٣] ينبغي إنكار البدعة بالوسائل المشروعة التي لا تؤدي إلى ظهور منكر أكبر منها .

---

(١) كترك الرسول ﷺ مثلاً الأذان لصلاة العيد، أما إن وجد المانع من فعلها في عهده وانتفى المانع بعد وفاته فلا يعد فعلها بدعة، كصلاة التراويح فإنما تركها في عهده لوجود المانع وهو خوف أن تفرض على الأمة، فلما زال هذا المانع بعد وفاته فعلت في عهد الصحابة ﷺ .

(٢) ومن الأمثلة على ذلك :- أن الطواف المشروع مقيد بأن يجعل الطائف الكعبة على يساره، فلو طاف إنسان جاعلاً الكعبة على يمينه زاعماً أن ذلك أفضل فقد وقع في البدعة .

الشرك

الشرك ضد التوحيد، ولكي نعرف الشرك وأقسامه وأنواعه، لابد أن نعرف معنى التوحيد وأقسامه.

التوحيد ومعناه:

(أ) **التوحيد في اللغة:** مصدر قولهم: وحد يوحّد، قال ابن فارس: الواو والحاء والدال أصل واحد يدل على الانفراد، والواحد المنفرد(١).

قال ابن منظور: التوحيد الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحد الأحد ذو الوحدانية والتوحيد(٢).

(ب) وفي الاصطلاح: قال الفيروزآبادي: التوحيد توحيدان:

الأول: توحيد الربوبية، وصاحب هذا التوحيد يشهد قيومية الرب فوق عرشه يدبر أمر عباده وحده، فلا خالق ولا رازق ولا معطي ولا مانع ولا مميت ولا محي ولا مدبر لأمر المملكة (والملكوت) ظاهراً وباطناً غيره، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه ولا يجري حادث إلا بمشيئته، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض إلا وقد أحصاها علمه وأحاطت بها قدرته، ونفذت فيها مشيئته، واقتضتها حكمته .

والآخر: توحيد الألوهية ويعني: أن يجمع الموحد همه وقلبه وعزمه وإرادته وحركاته على أداء حق الله، والقيام بعبوديته(٣). وتوحيد الألوهية مستمد من قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** (٢٥) ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة .

(٢) لسان العرب مادة : وحد وانظر المعجم الوسيط مادة : وحد .

(٣) بصائر ذوي التمييز (٥ / ١٧٢) بواسطة نضرة النعيم (٤ / ١٣٠١) بتصرف يسير .

وقال العلامة السفاريني عن التوحيد: إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً[١].

وذكر بعض العلماء أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد في الربوبية وتوحيد في الألوهية، وتوحيد في الأسماء والصفات.

وأما توحيد الأسماء والصفات فيعني إفراد المولى عز وجل بأسمائه وصفاته وذلك بإثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، ونفى ما نفاه عن نفسه، والسكوت عما سكت عنه الله ورسوله[٢].

تعريف الشرك:

(أ) الشِّرك في اللغة:

قال ابن فارس: الشين والراء والكاف أصلان يدل أحدهما على مقارنة وخلاف انفراد[٣].

وجاء في لسان العرب: الشِّرْكة، والشَّرِكة سواء: مخالطة الشريكين، يقال اشتركنا بمعنى تشاركنا، وقد اشترك الرجلان وتشاركا، وشارك أحدهما الآخر، والشريك: المشارك.

وقد سأل موسى عليه السلام الله عزوجل أن يشرك معه أخاه هارون في أمر النبوة والرسالة فقال منادياً ربه سبحانه: ﴿ **هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي(٣٢)** ﴾ [طه: ٣٠-٣٢]، قال في مختار الصحاح: المعنى أي اجعله شريكي فيه.

- ومن معاني الشرك في اللغة: النصيب، يقال شَرَكه في كذا إذا جعل له نصيباً[٤].

---

(١) لوامع الأنوار البهية (١ / ٥٧) بواسطة الشرك في القديم والحديث (١ / ٢٠).

(٢) الجواب المفيد في بيان أقسام التوحيد (١٧٨) بتصرف وإيجاز، وانظر أيضاً فتاوي الشيخ العثيمين (١١٢) وما بعدها بواسطة نظرة النعيم (٤ / ١٣٠١-١٣٠٢).

(٣) معجم مقاييس اللغة، والمعنى الآخر: يدل على امتداد واستقامة ومنه شراك النعل.

(٤) المعجم الوسيط، ولسان العرب.

■ وكذلك من معاني الشرك في اللغة: التسوية، قال ابن منظور في لسان العرب: يقال طريق مُشَرَّك: أي يستوي فيه الناس، واسم مْشتَرَك: تستوي فيه معان كثيرة.

وأشرك بالله: جعل له شريكاً[١].

(ب) الشرك اصطلاحاً:

للعلماء تعريفات مختلفة للشرك منها: أنه اتخاذ النِّدِّ والشبيه والمثيل والعديل لله تعالى.

قال تعالى مخبراً عن ندم المشركين يوم القيامة حيث يقولون لأوليائهم: ﴿ **تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)** ﴾ [الشعراء: ٩٧ – ٩٨]. وقال تعالى: ﴿ **فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)** ﴾ [البقرة: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿ **ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)** ﴾ [الأنعام: ١]. وقال تعالى: ﴿ **فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ** ﴾ [النحل: ٧٤]. وقال تعالى: ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)** ﴾ [الإخلاص: ٤].

ومنها ما قاله المناوى: الشرك إما أكبر وهو إثبات الشريك لله تعالى، أو أصغر وهو مراعاة غير الله في بعض الأمور[٢].

■ فالشرك ضد التوحيد، وهو اتخاذ نِد لله تعالى فيما لا يكون إلا له سبحانه من ذاتٍ وأفعال وأسماء وصفات وعبادة.

---

(١) انظر المعجم الوسيط.

(٢) في التوقيف (ص٢٠٣) بواسطة نضرة النعيم (١٠ / ٤٧١٠).

بطلان الشرك والتحذير منه

لما كانت عبادة الله وحده وعدم الشرك به هي حق الله على العباد، كان الشرك أكبر الموبقات وأعظم المهلكات التي حذر منها الشرع.

وقد تنوعت أساليب التحذير البليغ من الشرك في الكتاب والسُّنَّة وبيان بطلانه، ومن ذلك:

١ - لا حجة للمشركين:

■ إن الأوثان والأصنام التي تُعبد من دون الله من صنع البشر، لا تملك لنفسها ولا لغيرها نصراً أو هداية أو سمعاً أو بصراً. قال تعالى: ﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ (١٩٥)** ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٥] وهذه الأصنام والأوثان ومن يُعبد من طواغيت البشر لم يخلقوا شيئاً في الأرض ولا في السماء، ولم يشركهم الله بالعبادة بكتاب من عنده. قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا (٤٠)** ﴾ [فاطر: ٤٠]

■ وهذه المعبودات من دون الله لا تملك لنا خلقاً ولا رزقاً ولا حياة بعد موت. قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)** ﴾ [الروم: ٤٠]

■ ولو كان مع الله آلهة أخرى لاستحوذ كل خالق على ما خلق، ولفسد الكون قال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) ﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢].

٢ - المشركون ومثل السوء:

وقد ضرب الله أمثلة لبيان حال المشركين السّيء، كما قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فالبيت يأوي إليه صاحبه ليحميه من الأخطار، وليختفي فيه عن أنظار أعدائه وليجد السكينة والأمن فيه، وبيت العنكبوت لا يحقق للعنكبوت شيئاً من ذلك[١] وكذلك حال المشركين المستجيرين بالأوثان والطواغيت.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾ [الحج: ٣١]. وكذلك الذي يشرك مع الله غيره فيسقط في الضلال الكبير في الدنيا، ويهوى به الشرك إلى أعماق سحيقة في النار.

وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر: ٢٩]. وكذلك المشرك يقع في حيرة وتخبط لا يدري من الأولى بالطاعة من الأوثان والطواغيت حين يسلم نفسه وعقله وماله لمطالب الشرك المتعارضة.

٣ - تسلط الشيطان على المشركين:

المؤمن في حرز من الشيطان بإيمانه وتوكله على ربه، والمشرك يتسلط عليه الشيطان لتوليه له وشركه به. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ

---

(١) فلا يمنع ريحاً ولا غباراً ولا عدواً ومعرض للزوال بسهولة.

الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠].

٤ - جريمة الشرك:

■ أول المحرمات: قال تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ [الأنعام: ١٥١].

■ أعظم الظلم: قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (١٣)﴾ [لقمان: ١٣].

■ أعظم ضلال: قال تعالى: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا** (١١٦)﴾ [النساء: ١١٦].

■ أعظم الإثم والافتراء: قال تعالى: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا** (٤٨)﴾ [النساء: ٤٨].

■ أعظم ذنب: فقد سُئِلَ الرسولُ ﷺ أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»[١].

■ أكبر كبيرة، قال النبي ﷺ: «**أكبر الكبائر الإشراك بالله ...**»[٢].

٥ - الشرك يحبط الأعمال الصالحة:

إذا أشرك العبد بعد أن قضى عمره في عمل الصالحات من الطاعات والعبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها من القربات، فإن الشرك يمحو جميع أعماله الصالحة ويذهب بأجرها، فكما أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله من الذنوب، فإن الشرك يُحبط ما قبله من الطاعات. قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٦٥)﴾ [الزمر: ٦٥].

---

(١) أخرجه البخاري ك/ تفسير القرآن ب/ قوله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾، ومسلم ك/ الإيمان ب/ كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده.

(٢) أخرجه البخاري ك/ الديات ب/ قول الله تعالى ومن أحياها، والترمذي ك/ تفسير القرآن ب/ ومن سورة النساء، وأبو داود ك/ الأدب ب/ في الغيبة.

وأخبر سبحانه أن الأنبياء لو أشركوا لحبط عملهم فكيف بغيرهم. قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٨٨) ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقد اختلف العلماء في بقاء أجر العمل إذا تاب العبد من الشرك ومات على الإيمان، هل يبقى له سابقُ عمله أم لا؟

قال الإمام مالك رحمه الله: من ارتد حبط عمله، فإن عاد إلى الإسلام لزمه أن يحج مرة أخرى وإن كان قد حج قبل ردته لأن عمله قد حَبُطَ.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: إنما يحبط عمله إذا مات على الكفر، أما إذ عاد إلى الإسلام فإن عمله باق ولا يلزمه إعادة حجه(١).

٦ - لا طاعة للأبوين في الشرك:

ومع عظم حق الوالدين إلا أن الله سبحانه نهى عن طاعتهما إذا أمرا ولدهما بالشرك، فقال سبحانه: ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** (٨) ﴾ [العنكبوت: ٨].

٧ - نجاسة المشركين:

إن من خَلَقَهُ الله ويعبد غيره، ورزقه ويشكر غيره، ليدل على خبث نفسه وقذر سريرته(٢)، فوصفه الله بالنجس. قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** ﴾ [التوبة: ٢٨].

---

(١) انظر تفسير القرطبي عند قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (٢١٧) ﴾ (البقرة: ٢١٧).

(٢) ورد في الحديث النبوي: إن مثل من أشرك بالله كمثل رجلٍ اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري وهنا عملي، فاعمل وأدِّ إليَّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده! فأيكم يحب أن يكون عبده كذلك؟! أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم: ٥٣٣ وابن خزيمة.

٨ - شدة عداوة المشركين للمؤمنين:

وهم بهذه النفوس الخبيثة يكرهون الإيمان وأهله، ويشتركون مع اليهود في أنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ [المائدة:٨٢]، ومن علاماتهم الاشمئزاز عند توحيد الله عز وجل والاستبشار عند ذكر معبوداتهم كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)** ﴾ [الزمر:٤٥].

٩ - قتال المشركين للمؤمنين:

ونظراً لخبث نفوس المشركين وشدة حقدهم على المؤمنين فهم يتحينون كافة الفرص لقتال المؤمنين، فأوجب الله على المؤمنين قتالهم كافة، كما قال تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾ [التوبة:٣٦].

وقال ﷺ: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم**»[١].

بل رفض النبي ﷺ الاستعانة برجل مشرك يريد أن يحارب معه، فقد لحقه حين خروجه إلى بدر رجل مشرك جرئ، ففرح المسلمون بمقدمه، فقال لرسول الله: جئت لأَتَّبِعَك وأُصيب معك، فقال له: تؤمن بالله ورسوله ؟

قال: لا. قال: فارْجِع فلن أستعين بمشرك. فلم يقبل منه حتى أسلم بعد ذلك[٢].

إلا إذا كانوا في حلف تحت قيادة المسلمين، ويؤمن مكرهم بالمسلمين كما هو حال قبيلة خزاعة المشركة التي دخلت في حلف رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه النسائي ك/ الجهاد ب/ وجوب الجهاد، واللفظ له، وأبو داود ك/ الجهاد ب/ كراهية ترك الغزو، وأحمد باقي مسند المكثرين في مسند أنس بن مالك، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٢ / ٦٤٩).

(٢) أخرجه مسلم ك/ الجهاد والسير ب/ كراهة الاستعانة في الغزو بكافر واللفظ له، والترمذي ك/ السير عن رسول الله ب/ ما جاء في أهل الذمة يغزون مع المسلمين هل يسهم.

١٠ - براءة الله ورسوله من المشركين:

ولعظم قبح الشرك تبرأ الله سبحانه ورسوله من المشركين، قال تعالى: ﴿ **وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ** ﴾ [التوبة: ٣].

وتبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من قومهم المشركين، كما قال تعالى: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** ﴾

[الممتحنة: ٤].

وتبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه لما رفض عبادة الله وحده. قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ** ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقال هود عليه السلام لقومه كما حكى الله عنه: ﴿ **إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤)** ﴾ [هود: ٥٤].

وقال سبحانه آمراً رسوله أن يعلن للمشركين براءته من شركهم: ﴿ **قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)** ﴾ [الأنعام: ١٩].

ومن البراءة من المشركين نهي الله سبحانه عن التزوج منهم أو تزويجهم. قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)** ﴾

[البقرة: ٢٢١].

وأمر النبي ﷺ بمخالفة المشركين وعدم التشبه بهم فقال: «**خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ، أَحْفُوا الشَّوَارِبَ، وَأَوْفُوا اللِّحَى**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري ك/ اللباس ب/ تقليم الأظفار، ومسلم ك/ الطهارة ب/ خصال الفطرة.

١١- الرعب للمشركين والأمن للمؤمنين:

إن المؤمنين الذين لم يلبسوا إيمانهم بشرك يعتقدون أن جميع الأمور بيد الله، وأن جميع ما سواه مخلوقاتٌ ضعيفة عاجزة أمرها بيده سبحانه، فيشيع هذا الإيمان في قلوب المؤمنين الأمن والرضا بقدر الله الحكيم .

بينما ترى المشركين في حيرة من أمرهم لا يدرون من المؤثر الحقيقي في مجرى الأمور، ولا يدرون على من يتوكلون من الأرباب والآلهة، فيعيشون في قلق وخوف من المصير المجهول المعلق في نظرهم بيد الآلهة المدعاة، كما قال تعالى عن محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿ **وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)** ﴾ [الأنعام: ٨١-٨٢] .

وتوعد المشركين عند قتالهم للمؤمنين الصادقين بأنه سيقذف في قلوبهم الرعب بسبب شركهم، كما قال تعالى: ﴿ **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** ﴾ [آل عمران: ١٥١] .

١٢- النهي عن الاستغفار للمشركين:

ولعظم قبح الشرك ولعدم مغفرته نهى الله تعالى نَبِيَّهُ والمؤمنين أن يستغفروا للمشركين إذا ماتوا على الشرك .

قال تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)** ﴾ [التوبة: ١١٣] .

عاقبة الشرك يوم القيامة

١ - إن الله لا يغفر أن يُشرك به:

إن من يتخذ لله نداً وهو خلقه، ويشرك مع الله معبوداً سواه، يستحق بذلك الحرمان من مغفرة الله. قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ فكل ذنب يُرجى لصاحبه المغفرة دون الشرك بالله إذا مات مشركاً.

٢ - حشرهم مع معبوداتهم من دون الله وخزيهم يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)** ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٦].

وقال تعالى: ﴿ **ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧)** ﴾ [النحل: ٢٧].

٣ - تبرؤ المعبودين من المشركين:

قال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)** ﴾ [سبأ: ٤٠-٤٢].

٤ - تخاصم وتلاعن المشركين مع ما كانوا يعبدون من دون الله:

قال تعالى مبيناً نعي إبراهيم عليه الصلاة والسلام على قومه عبادة الأوثان: ﴿ **وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)** ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال سبحانه مبيناً تخاصم المشركين عنده يوم القيامة قادة

وأتباعاً: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

٥ - إدخالهم النار وخلودهم فيها وتحريم دخول الجنة عليهم:

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) ﴾ [المائدة: ٧٢] ويعرض القرآن صورتهم المخزية وهم يُسْحَبون في الحميم، والأغلال في أعناقهم، ويُسجَرون في النار ويُسألون عن معبوداتهم التي توهموا نفعها لهم، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) ﴾ [غافر: ٦٩-٧٦] وقال عليه الصلاة والسلام: «**من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار**»[1].

٦ - تخاصم أمم الشرك في النار:

قال تعالى مبيناً تخاصم الأمم المشركة السابقة واللاحقة في النار: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) ﴾ [الأعراف: ٣٨-٣٩].

---

(١) أخرجه البخاري ك/ الجنائز ب/ ما جاء في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله، ومسلم ك/ الإيمان ب/ من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة.

أنواع الشرك في العبادة

الشرك نوعان: أكبر وأصغر:

■ **فالشرك الأكبر**: هو أن يجعل المكلف لله نداً (مثيلاً ونظيرا) أو أن يسوي بين الخالق والمخلوق، إما في اعتقاد الاتصاف بصفة من صفات الله عزوجل أو في الدعاء والاستعانة، أو في طلب الرزق، أو في اعتقاد القدرة على الضر والنفع، أو في الخضوع والانقياد أو غير ذلك مما يوجب تسوية بين الخالق والمخلوق.

■ وحكمه : أنه أعظم الذنوب، ويُخرج من الملة، ويُوجب الخلود في النار، قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢)** ﴾ [المائدة: ٧٢] .

■ **وأما الشرك الأصغر**: فهو الرياء كما عرفه النبي ﷺ، وألحق به العلماء ما وصفه الوحي بأنه شرك ولا يخرج صاحبه من الملة، وكل ما كان وسيلة توقع صاحبها في الشرك الأكبر .

■ وحكمه: أنه ينافي كمال التوحيد ويخل به، ولكنه لا يُخرج من الملة، وهو من كبائر الذنوب التي حذر منها الشرع لأنه يتنافى مع الإخلاص لله في العبادة، قال تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ [البينة: ٥] .

وقال ﷺ: «**أخوفُ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغر**»، فَسُئِلَ عنه؟ فقال: «**الرياء**»[١].

---

[١] رواه الإمام أحمد في المسند من حديث محمود بن لبيد، والطبراني في المعجم الكبير (٤ / ٣٥٣) وهو حديث حسن كما في تحقيق المسند (٣٩ / ٣٩).

مظاهر الشرك الأكبر وصوره

أولاً - من صوره في الاعتقاد:

(أ) **اعتقاد تعدد الآلهة**: كشرك المجوس القائلين بوجود إلهين اثنين أحدهما إله النور وهو إله الخير، والثاني إله الظلمة وهو إله الشر.

وهذا الباطل تدمغه حقائق التوحيد وآياته الظاهرة في أرجاء الوجود ومنها:

[١] **إن هذا الكون مركب من لبنة واحدة هي الذرات التي تتكون منها أجسام المواد التي تجلب للإنسان الخير أو تجلب له الشر**، فسم الثعبان مكون من ذرات تتركب من جسيمات (إلكترونات وبروتونات وميزونات وغيرها)، كما يتكون لبن الأنعام من ذرات مكونة من نفس الجسيمات (الكترونات وبروتونات وميزونات وغيرها) وهذه الجسيمات في سم الثعبان أو لبن الأنعام محكومة بقوانين واحدة، وكما تتكون النار التي تحرق المنازل والمزارع وغيرها من طاقة أصلها من الشمس، فإن الطاقة التي تتحرك بها أجسامنا وأجسام الكائنات الحية أصلها أيضا ما خزن في الطعام من طاقة الشمس. والماء الذي نشربه وينبت به الزرع في الحقول والبساتين هو نفس الماء الذي قد تغرق به المزارع والمنازل، فالماء واحد يشهد أنه من صنع خالق واحد . والظلام الذي يسود في الليل يكون بسبب دوران الأرض الذي ينشأ عنه إشراقة النهار، فالسبب للنور والظلام واحد هو دوران الأرض يشهد أن الإله واحد والخالق واحد كما قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا** ﴾ [غافر: ٦١] .

[٢] **التكامل في بناء الكون بين سنن الخير وأقداره مع سنن الشر وأقداره** يشهد أنه من صنع إله واحد سبحانه، فعمليتا الهدم والبناء في أجسام الكائنات الحية تتكاملان في نظام واحداً في حياة أجسام هذه الكائنات[١].

---

(١) الهدم هو عبارة عن تفكيك الغذاء إلى مركباته الأولية مصحوباً بإطلاق الطاقة، والبناء على عكسه حيث يجعل المركبات أكثر تعقيداً ليبني بها الخلايا والنسج مستهلكاً قدراً معنياً من الطاقة وتُسمى "عملية الأيض" (Metablaism) انظر موسوعة الزاد (٨ / ١٩٥١) بتصرف .

وظلمة الليل ضرورية لسكن الكائنات واستراحة أجسامها، كما أن نور النهار ضروري لسعي تلك الكائنات وتحصيل معاشها .

وحرارة نار الشمس في جو الأرض لابد منها لرفع ماء المطر من البحار والمحيطات، كما أن برودة جو الأرض ضرورية لإيقاف ارتفاع بخار الماء وتكثيفه ليسقط مرة أخرى على الأرض، وهكذا تتكامل الحرارة مع البرودة في نظام واحد لدورة الماء على الأرض .

وتكامل أقدار الخير لبعض الكائنات وأقدار الشر[١] للبعض الآخر [كتغذي بعض الكائنات على البعض الأخر، وتحلل النباتات لإخصاب التربة] يضمن استمرار الحياة وتوازن البيئة للكائنات .

وعوامل التعرية : كالرياح، والأمطار، وتقلب درجات الحرارة، تعري سطوح الجبال وتفتتها وتجرفها رملاً مع الأنهار، لتضغط على قاع البحر أو المحيط فيضغط بدوره على ما تحته من صهير بركاني ليرتفع بعد ذلك مرة ثانية إلى سطح الأرض في صورة بركان يلد جبلاً يحفظ التوازن للأرض .

(ب) شرك التسوية بين الخالق والمخلوق (شرك اليهود والنصارى):

من شرك التسوية بين الخالق والمخلوق : ما يزعمه النصارى في قولهم إن الله ثالث ثلاثة، كما قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ** ﴾ [المائدة:٧٣] أو أنه اتخذ ولداً، كما يزعم اليهود والنصارى قال تعالى : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾** ﴾ [التوبة : ٣٠] وقد دمغ القرآن هذه الفرية فقال تعالى : ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾** ﴾ [المؤمنون : ٩١] فلن يقبل إله

---

(١) « موت الحيوان وتحلل النبات » مع أقدار الخير للبعض الآخر (توفير الغذاء لحياتها) .

أن يتحكم غيره بمخلوقاته، وإذاً فسيستقل كل إله بما خلق، فيذهب رب الشمس بشمسه ورب النبات بنباته ورب الماء بمائه وهكذا، وعندئذ يقع النزاع ويحاول بعضهم أن يعلو على بعض وعندئذ يفسد الكون كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

(ج) الإشراك مع الله في تصريف المخلوقات:

كل من اعتقد أن مخلوقاً يتصرف في هذا الكون، ويضر وينفع بطريقة غيبية غير طريقة الأخذ بسنن الله التي قدر الله بها النفع، كأن يعتقد أن إنساناً من الأحياء أو الأموات يهب الأولاد، ويجيب دعاء المضطر، ويأتي بالمطر، ويحمي البيوت أو الأنعام أو الأولاد من القوى الخفية الضارة فقد وقع في الشرك. قال تعالى يصف نفسه بتدبير أمر المخلوقات: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾ [يونس: ٣].

وقال سبحانه: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

وقال سبحانه: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]. وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ [النمل: ٦٢].

ومما يدخل في هذا إسناد التأثير في الحوادث إلى النجوم والكواكب، فمن اعتقد أن الكواكب أو النجوم هي المدبرة لما يقع من الحوادث، أو أن لها شركاً مع الله في ذلك فقد أشرك بالله سبحانه شركاً أكبر.

ومن زعم أنها سبب للحوادث فقط مثل: أن يجعل طلوع النجم أو غروبه سبباً لولادة أو وفاة أو غنى أو فقر أو نحو ذلك، فقد افترى ما ليس له به علم. وقد ورد في الحديث النبوي تسمية مثل ذلك كفراً، فقد صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر في الحديبية على إثر سماء كانت من الليل ثم قال لأصحابه: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، أَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِه، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرنا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**»(١).

ولما كسفت الشمس في عهده ﷺ بيّن للناس أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته(٢).

أمّا جعل حركات النجوم مجرد علامات لما قدّره الله تعالى من قوانين الكون المعروفة مثل نزول المطر أو هبوب الرياح أو دخول الفصول فمثل هذا جائز لا شيء فيه(٣).

وأسوأ من هذا كله اعتقاد أصحاب الطبيعة والدهريين(٤) الذين يسندون أمر تدبير الكون وما فيه من حوادث إلى الطبيعة أو إلى الدهر. قال تعالى مبيناً ضلال من سار على هذا المنهج: ﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** (٢٤) ﴾ [الجاثية: ٢٤].

---

(١) أخرجه البخاري ك/ الأذان ب/ يستقبل الإمام الناس إذا سلم، ومسلم ك/ الإيمان ب/ بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.

(٢) أخرجه البخاري ك/ الجمعة ب/ الصلاة في كسوف الشمس واللفظ له، ومسلم ك/ الكسوف ب/ ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة.

(٣) وعلى هذا فنسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:
١- نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر.
٢- نسبة سبب، وهذه شرك أصغر.
٣- نسبة وقت، وهذه جائزة، تقول جاءنا المطر في هذا النوء أي في وقته، فلا يجوز أن تقول مطرنا بنوء كذا لأن الباء للسببية ويجوز أن تقول: في نوء كذا لأن «في» ظرف للوقت، انظر القول المفيد(٢ / ٣١).

(٤) هم الذين ينسبون الإحياء والإماته والتأثير إلى الدهر.

(د) اعتقاد امتلاك غير الله للضر والنفع:

إن الله هو الذي خلق الوجود وقدر فيه الخير والشر والضر والنفع وأسبابها، وهو الذي يملك التغيير لما قدره من سنن وأسباب للضر والنفع ﴿ **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس: ٨٣] .

وقد ذم سبحانه المشركين لتعلقهم بغيره من مخلوقاته التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرا. قال تعالى: ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا** ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٣] .

وإذا أراد الله أن يصيب عبداً من عباده بخير فلا راد لفضله، وإذا مس عبداً بضر فلا كاشف له إلا هو . قال تعالى: ﴿ **وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ** ﴿١٠٦﴾ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧] .

أما من أخذ بالأسباب التي قدرها الله للنفع والضر ممن أقدره الله عليه كالطبيب يعرف أقدار المواد الطبية التي تدفع أقدار المرض، وكدفع قدر الجوع بالطعام، وقدر الخوف بالتحصن وغير ذلك مما أقدر الله الإنسان به أن يدفع قدر الشر بقدر الخير وقدر الضر بقدر النفع، فليس ذلك من امتلاك الضر والنفع بل هو من باب الاستفادة مما قدره الله من أسباب وقضى من سنن .

وبناءً على ذلك فإن من يعتقد أن مخلوقاً يملك له ضراً أو نفعاً بغير الأسباب التي قدرها الله للضر والنفع، أو أنه قادر أن يوصل ذلك إليه بطريقة غيبية خارقة للسنن والأسباب التي قدرها الله فقد وقع في الشرك، لأنه لا يملك الضر والنفع خلقاً وإيجاداً وتقديراً وخرقاً لما أوجد من السنن إلا الله .

وحتى إذا امتلك غير الله أسباب الضر والنفع فإنها لا تنفذ في الواقع إلا بإذن الله كما روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «... **وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ**

اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الأَقْلامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ» [١].

(هـ) الخوف من غير الله:

الخوف لغة مأخوذ: من مادة (خَوَفَ) قال ابن فارس: هو أصل واحد يدل على الذعر والفزع يقال: خفت الشيء خوفاً وخيفة [٢].

واصطلاحاً هو كما قال الراغب[٣]: الخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، ويضاده الأمن.

وقال الجرجاني: هو توقع حلول مكروه أو فوات محبوب.

وقيل: اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف [٤].

والخوف من الله عبادة قلبية قال تعالى: ﴿**وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقال تعالى: ﴿**لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ**﴾ [المائدة: ٩٤]، ويلحق بخوف الله الخوف من عقابه وعذابه في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ** ﴿١٠٣﴾﴾ [هود: ١٠٣]. وقال تعالى: في صفة المتقين: ﴿**وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: ٢١] وقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ** ﴿٢٦﴾﴾ [هود: ٢٦].

والخوف من الله يرقى بصاحبه إلى درجة التقوى التي تحفزه لفعل الطاعات وتكبحه عن المعاصي والسيئات.

---

(١) أخرجه الترمذي ك/ صفة القيامة والرقائق والورع من رسول الله، وصححه الألباني في ظلال الجنة (١٠ / ١٣٨)، وأحمد في مسند بني هاشم.

(٢) المقاييس.

(٣) المفردات.

(٤) التعريفات (ص١٠١).

وهو الدواء الناجع لمن أسر الهوى قلبه وغلب عليه حُبُّ الدنيا، وهو البداية الحقيقية لسير القلب إلى الله عز وجل، يقول النبي ﷺ : «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ**[١] **وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ الله غَالِيَةٌ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ الله الْجَنَّةُ**»[٢].

والخوف نوعان:

الأول - خوف عبادة وتذلل وتعظيم وخضوع، وهذه عبادة لا تكون إلا لله تعالى، وهو المقصود في بحثنا، وهو الخوف الذي يحمل صاحبه على الطاعة لله، واجتناب معاصيه ويجعل صاحبه في حالة من التقوى والمراقبة الدائمة لله في سره وعلانيته.

وخوف الشرك هو الذي يحمل صاحبه على عبادة غير الله باعتقاد أن له قوة خارقة غيبية لا تخضع للسنن المعتادة، كمن يخاف من صنم أو ميت فيصرف له شيئاً من العبادة التي لا تكون إلا لله، قال تعالى: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦)** ﴾ [الزمر: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ **وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)** ﴾ [الأنعام: ٨١].

وأثنى الله على الذين يُبلِّغون دينه ولا يخافون إلا الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)** ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

---

(١) أدلج: الدُّلْجة السير أول الليل، وقيل سير الليل كله، قال الطيبي رحمه الله: هذا مثل ضربه النبي ﷺ لسالك الآخرة، فإن الشيطان على طريقة، والنفس، وأمانيه الكاذبة أعوانه، فإن تيقظ في مسيره وأخلص النية في عمله، أمن من الشيطان وكيده ومن قطع الطريق بأعوانه أ.هـ، تحفة الأحوذي (٧ / ١٢٤) ط. دار الكتب العلمية.

(٢) أخرجه الترمذي ك/ صفة القيامة والرقائق والورع من رسول الله ب/ ما جاء في صفة أواني الحوض، وصححه الحاكم (٤ / ٣٠٨-٣٠٧) ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢ / ٢٩٧).

والثاني - خوف جبلي فطري كالخوف من سبع مفترس أو عدو متربص[١] يجري وفق السنن المعتادة، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ** ﴾ [القصص:١٨] فهذا خوف لا يتعلق به ذمّ[٢]، أما إذا ساق هذا الخوف إلى صرف شيء من العبادة لغير الله فهو شرك لأنه ساق إلى الشرك، وأما إذا ساق إلى معصية فهو إثم بحسب تلك المعصية وتأثيرها على قلبه.

(و) الشرك في التوكل:

التوكل لغة: مأخوذ من مادة (و ك ل) التي تدل على اعتماد على الغير في أمرٍ ما.

واصطلاحاً: اعتماد القلب على الله عزوجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، وكِلَةُ الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه[٣].

ويشمل التوكل تفويض الأمر لله والتسليم له، ثقةً بأنه الكافي والقادر على كل شيء سبحانه .

---

(١) إن الله خالق كل شيء قد قدر لكل مخلوق قدره، وقضى له سنناً يسير عليها. قال تعالى: ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** (٤٩) ﴾ [القمر:٤٩]، وقال سبحانه: ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** (٢٣) ﴾ [الفتح:٢٣]، فقدر ما ينفع وما يضر وقضى سنن الضر والنفع، ولا يملك مخلوق أن يخرج عن قضاء الله وقدره من ضر يخاف ونفع يرتجى. والخوف مما قدره الله في المخلوقات من أسباب ضر كالخوف من سبع مفترس أو عدو متربص هو خوف جبلي فطري لا ينكره الشرع، ومن الناس من ينظر إلى ما قدر الله في المخلوقات من أسباب وسنن تضره فيخافها خوفاً شديداً يتحكم في سلوكه ومشاعره، ويذله ويستعبده ويقلقه ويرعبه، لكن المؤمن بالله يقيم لتلك السنن والأقدار قدرها، ويتعامل معها وفق ما سنَّ الله فيها، ولكن قلبه يتعلق بمن خلقها وقدرها فهو يدفع سنن الضر بسنن النفع، وسنن الخوف بسنن الأمن، ويتطلع إلى عون خالقه ولطفه الذي بيده مقاليد كل شيء، فتراه شجاعاً في مقاومة الأخطار متوكلاً على ربه في مواجهة الشدائد والنوائب، فهو وإن كان يخاف تلك السنن والأقدار، ولكنها لا تستذله ولا تستعبده بل تحفزه لجلب سنن النفع التي تدفعها ويلجأ إلى ربه الذي بيده مقاليد كل شيء ليكشفها .

(٢) انظر القول المفيد (٢ / ٢٠٤-٢٠٥).

(٣) جامع العلوم والحكم (ص٤٠٩).

وكفى بالله وكيلا :

يتوكل المؤمن على ربه لأنه خالق كل شيء ومقدر كل شيء ومالك كل شيء ومسيّر كل شيء، فهو الذي بيده النفع والضر والعطاء والمنع وبيده مقاليد السموات والأرض. قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣)** ﴾ [الزمر:٦٢-٦٣] ، والله هو الذي إذا قضى أمراً أنفذه ولا يحول دون أمره شيء. قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا(٣)** ﴾ [الطلاق: ٣]. قال ابن كثير: ﴿ **بَالِغُ أَمْرِهِ** ﴾ أي: منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريده ويشاؤه سبحانه [(١)].

وكل ما يجري في الكون فهو من الله خلقاً وإيجاداً، ويعمل بأمره سيراً ونظاماً، ويقع بإذنه تحققا ونفاذاً. قال تعالى: ﴿ **وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)** ﴾ [هود:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٣٢)** ﴾ [النساء:١٣٢].

والله وحده هو الذي يستحق أن يكل العبد أمره إليه، لأنه الحي الذي لا يموت القيوم على خلقه، الذي قال تعالى: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (٥٨)** ﴾ [الفرقان:٥٨] ، وهو الذي يرى كل شيء في مخلوقاته ولا يحجبه عنه شيء قال تعالى: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩)** ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢١٩] أي: ولما كان شأن الله أنه خالق كل شيء ومالك كل شيء ومسير كل شيء ومُطّلع على كل شيء وهو الذي بيده الضر والنفع والعطاء والمنع فكيف لا يكفي عبده الذي يتوكل عليه، وكيف يخاف الإنسان من مخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

---

(١) تفسير القرآن العظيم عند الآية الكريمة المذكورة .

قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ [الزمر : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) ﴾ [المائدة : ٢٣] .

وكل ما في الكون من مخلوقات قد قدر الخالق لها أقدارها، وسن لسيرها سنناً لا تحيد عنها فهي لا تملك إلا ما قدر الله لها من نفع أو ضر، فلا يليق بعبد أن يتوكل على مخلوق مثله لا يملك لنفسه إلا ما قدر الله له وقضاه .

وقد أوحى الله إلى موسى كما قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ﴾ [الإسراء : ٢] . وإذا جاء أمر الله فلن نجد وكيلا يدفع عنا ما قدره وقضاه قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) ﴾ [الإسراء : ٦٨] .

إن الخالق سبحانه هو الذي قدر الضر والنفع في كل ما خلق، فمن اعتقد أن غير الله يملك له ضراً أو نفعاً غير ما قدر الله واعتمد عليه في ذلك فقد جعل لله نداً أشركه في التوكل عليه .

وقد جعل الله سنناً لإيصال الضر والنفع إلى العباد، فمن اعتقد أن غير الله يستطيع أن يوصل الضر أو النفع للناس بطريقة غيبية خارقة للسنن الإلهية واعتمد عليه في ذلك فقد أشرك في توكله على الله باعتقاده هذا، أمّا من اعتمد على غير الله في أن يقضى له حاجته وفقاً لما قدر الله من المقادير وما أجرى من السنن مع اعتقاده أن الفعل لله خلقاً وتقديراً وتصريفاً فلا يقع في الشرك[١] .

---

(١) وعلى هذا فالتوكل على غير الله على ثلاثة أنواع :

الأول - أن يتوكل على غير الله في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله كالخلق والإيجاد والإحياء والإماته، فهذا شرك أكبر .

الثاني - أن يتوكل على المخلوق، فيما يقدر عليه المخلوق من جلب منفعة مقدورة له أو دفع مضرة، ولكن مع تعلق قلبه به وشعوره بالافتقار إليه، فهذا شرك أصغر .

الثالث - أن يتوكل على المخلوق فيما يقدر عليه المخلوق دون شعور بالافتقار إليه ودون تعلق القلب به، فهذا جائز لاشيء فيه، وهو التوكيل والإستنابة .

وإذا كان الأخذ بالسبب واجباً كلفنا الله به في مثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ [الملك: ١٥]. وفي مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) ﴾ [النساء: ٧١]. وفي مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فإن التوكل على هذه الأسباب شرك كما قال تعالى فيما أوحى إلى موسى عليه السلام: ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ﴾ [الإسراء: ٢][١] لأنه الخالق لكل شيء والوكيل على كل شيء وبيده مقاليد كل شيء، بما في ذلك الأسباب التي يتوكل عليها بعض الناس.

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) ﴾ [الزمر: ٦٢-٦٣].

فالأخذ بالأسباب طاعة لله والتوكل عليها شرك[٢].

(ز) شرك الأسباب:

إن الأخذ بالأسباب واجب شرعي، والتوكل عليها من دون الله شرك، ولتوضيح ذلك نضرب المثل الآتي:

ولله المثل الأعلى، فحين ننظر إلى علاقة أي دولة بأنظمتها وقوانينها والمقربين إليها، نجدها تطلب من الجميع الالتزام بأنظمتها فإذا ما أراد المقربون لها شيئاً غير

---

(١) ﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾: أي كفيلاً بأمورهم، حكاه الفراء، وقيل: رباً يتوكلون عليه في أمورهم قال الكلبي، وقال الفراء: كافياً. انظر تفسير القرطبي عند الآية المذكورة.

(٢) قال السعدي: في القول السديد (ص٣٤) بواسطة القول المفيد على كتاب التوحيد (ص٢١٤) لابد من معرفة ثلاثة أمور في الأسباب:

١- ألا يجعل منها سبباً إلا ما ثبت أنه سبب شرعاً أو قدراً.
٢- ألا يعتمد عليها، بل يعتمد على مسببها ومقدرها وهو الله سبحانه وتعالى.
٣- أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره، ولا خروج لها عنه.

ما تمنحه القوانين التمسوه من صاحب الأمر في الدولة أن يوصلهم إليه بقوانين خاصة تكون في الغالب لمحسوبي الدولة وأوليائها .

لكن تلك القوانين في الدولة والأنظمة لا تفعل بذاتها ولا يتوكل عليها الناس من دون القائمين عليها .

وعليه فالمؤمن يأخذ بسنن الله ومقاديره فيسعى لجلب السنن النافعة ودفع السنن الضارة قياماً بالواجب عليه وامتثالاً لأمر ربه، وعندما لا تكفي السنن لإيصاله إلى غاياته يلجأ إلى الله تعالى بالدعاء لتسهيل أمره وتلبية حاجته .

ذلك لأن الله قد أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ومما يشتمل عليه خلق الأشياء صفاتها وخصائصها التي تميزها عن غيرها، وكذلك تأثيرها في غيرها. قال تعالى : ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا** ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان : ٢]. وجعل سبحانه سنناً تربط العلاقات بين هذه المخلوقات وتنظمها وتحكم سيرها وعملها قال تعالى : ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفتح :٢٣].

وبهذا الثبات للخصائص والسنن يتمكن الإنسان من التعامل مع سائر المخلوقات وفق خصائصها الضارة والنافعة التي قدرها الله، فإذا أراد أن يشبع اتجه إلى الطعام، وإذا أراد أن يروى اتجه إلى الماء، وإذا أراد الشفاء اتجه إلى الدواء، وهكذا في سائر شؤون حياته .

أما إذا تبدلت طبائع الأشياء وصفات المخلوقات بطريقة عشوائية غير منضبطة، فعندئذ قد نجد أن النار لا تحرق والماء لا يروي والطعام لا يشبع، وعندئذ تسود الفوضى في الكون فيعجز الإنسان عن السعي لتحقيق أي هدف والوصول إلى أي غاية .

لكن الله تعالى حفظ هذه الخصائص وأجرى هذه السنن وأمرنا بالأخذ بها امتثالاً لأمره ورضاء بقضائه وسيراً مع نظام الكون، لذا كان الأخذ بالأسباب

والسنن طاعة لله، وتحقيقاً لمراده، واستقامة مع نظامه في مخلوقاته، فيكون بذلك واجباً على المؤمنين.

لكن ثبات السنن هذه قد أغرى البعض باعتبارها فاعلةً بذاتها مؤثرة بطبعها، فاعتمد وتوكل عليها من دون الله فوقع بذلك في الشرك مع أنها ليست إلا مخلوقات مأمورة لا تملك لنفسها تبديلاً ولا تحويلاً، وسننا قضاها الله إن شاء أجراها وإن شاء أبطلها، كما يحدث في صلاة الاستسقاء حين يأتي الله بالمطر وأسباب الجفاف قائمة، وكما يكشف الله المرض بعد الدعاء دون أسباب مادية للشفاء يراها الناس، وكما ينزل الله النصر على المؤمنين مع قلة ما معهم من الأسباب وكثرة ما بيد عدوهم، وكما بدل الله صفة النار في حق إبراهيم عليه السلام فجعلها برداً وسلاماً، وكما شق الله لموسى طريقاً في البحر يبساً، وكما حفظ الله محمداً ﷺ في الغار هو وصاحبه والمطاردون له من أعدائه يقفون على فم الغار. فهذه الأسباب والسنن مخلوقة تعمل بأمر الله، إن شاء أمضاها وإن شاء أوقفها بسنن أخرى.

(ح) الشرك في المحبة:

المحبة لغة: هي الاسم من الحب، مأخوذة من مادة حبب التي تدل على اللزوم والثبات، والحبُّ: الوداد وهو نقيض البغض[١].

والمحبة نوعان:

فطرية كمحبة الوالد لولده ومحبة الجائع للطعام.

ومحبة عبودية ولا تكون إلا لله.

فالإله هو الذي يألهه العباد حباً وذلاً وخوفاً ورجاءً وتعظيماً وطاعة له بمعنى مألوه، وهو الذي تألهه القلوب أي تحبه وتذل له[٢].

---

(١) انظر مقاييس اللغة، ولسان العرب.

(٢) نضرة النعيم (٨ / ٣٣٢٩).

وحب التأليه هذا لا يكون إلا لله، فمن جعل منه شيئاً لغير الله فقد أشرك، أما أصناف المحبة الأخرى التي لا تتضمن حب التأليه كحب الوالد لولده والزوج لزوجه وحب الشخص لمن أحسن إليه، وكحب الإنسان للمال والصحة والنجاح والفوز، فهذا كله من المحبوبات التي لا يكون مُحِبُّهَا مشركاً .

كما قال تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

وكقوله تعالى في وصف الفائزين بالجنة : ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** ﴿٨﴾ ﴾ [الإنسان : ٨] فحب هذه المحاب المغروسة في فطرة الإنسان وغيرها ليس من الشرك في محبة الله .

ولا يجوز أن يطغى حب أي محبوب على حب الله جل وعلا، لأن سبب تعلق القلب بالمحبوب لا يكون إلا :

[١] لكمال صفاته وليس هناك من هو أكمل من الله أو يدانيه في صفات الكمال .

[٢] لعظيم نعمه ومننه، وليس هناك من هو أكثر إنعاماً ومنة من الله على العبد إذ هو الذي خلقه وصوره وأحياه ورزقه في كل أطواره وحفظه بتدابير الحفظ الظاهرة والباطنة وأنعم عليه بالصحة وسخر له الكثير من مخلوقاته في الأرض والسماء، وأعطاه القدرة على السعي والكسب، وهداه إلى ما به فلاحه في الدنيا والآخرة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وليس لأحد على أحدٍ نعمةٌ أو منةٌ تساوي هذه النعم أو تدانيها .

[٣] لما يرجوه في مستقبل أيامه من الخيرات والمنافع والمحاب، وليس هناك ما هو أعظم مما أعد الله لعباده المؤمنين من خير ومنافع ومحاب تتعلق بها القلوب كالفوز برضى الله والجنة التي يتحقق للعبد فيها الخلود وله فيها كل ما تشتهيه نفسه إضافة إلى الحياة الطيبة في دار الحياة الدنيا .

ولقد أنكر الله على المشركين الذين يحبون الأنداد كحبهم الله فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وبيَّن سبحانه أن حب المؤمنين لربهم لا يدانيه حب فقال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقد توعد الله من قدّم محبة شيء من أمور الدنيا على محبته ومحبة رسوله والجهاد في سبيله، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة: ٢٤].

(ط) ادعاء علم الغيب:

الحوادث التي تجري في الكون على نوعين:

منها ما يمكن مشاهدته والعلم به عن طريق الحواس، وهذه هي الحوادث التي تقع وتُعلم في عالم الشهادة.

أما عالم الغيب فهو العالم المحجوب عن البشر مما لا تستطيع الحواس البشرية إدراكه ولا الإحاطة بما يجري فيه، ومنه غيب المستقبل المحجوب عنا بحجب الزمان.

ويمكن أن يقسم الغيب إلى قسمين:

(أ) **غيب مطلق** لا سبيل لأحد من البشر أن يصل إليه إلا بوحي من الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

وإذا كان الله تعالى يُطْلِع من شاء من رسله على بعض الغيب كما في الآية المذكورة فإن هذا لا يقتضي أن الرسول يعلم كل غيب، ولذا أمر تعالى رسوله أن

يبين للناس أنه لا يعلم الغيب الذي لم يطلعه الله عليه فقال: ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)** ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وإذا كان هذا في حق الرسل، فكيف يدعي علم الغيب الأفاكون من السحرة والكهنة والمشعوذين وغيرهم؟!.

ولقد بينت الآية لنا الدليل العملي الذي يكشف زيف من يدعي علم الغيب، وهو أن يطالبوا بأن يعلموا ما ينفعهم من الأمور كالعلم بالتجارة الرابحة ومواطن الثروات الغائبة قبل ظهورها، ويطالبوا بالعلم بما يضرهم كالعلم بما يبيته العدو للأمة من مكائد، وما يخفى على الناس من المخاطر والكوارث التي تقع على الناس أفراداً وجماعات فيجتنبوا أسباب الشر والخسران المادي أو المعنوي قبل وقوعه، فلا يفوتهم خير ولا يمسهم سوء، وكفى بهذا البيان القرآني دحضاً لدعوى المدَّعين من الكهان وغيرهم ممن يَدَّعون علم الغيب .

وقد أمر تعالى رسوله أن يعلن للناس أنه لا يدرى ما يُفعل به في مستقبل الحوادث ولا ما يفعل بغيره، قال تعالى: ﴿ **قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ** ﴾ [الأحقاف: ٩] وقال النبي ﷺ: «**والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفْعل بي ...**»[(١)] إذ أن علم الغيب مختص بالله سبحانه .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ [النمل: ٦٥]. وقوله تعالى: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ** ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وجاء ذكر هذه المفاتيح في الحديث النبوي، قال النبي ﷺ: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله لا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا**

(١) أخرجه البخاري ك/ الجنائز ب/ الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه، وأحمد في مسند بني هاشم.

الله[١] **ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله** [٢]. **ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»**[٣].

وعلى هذا فمن ادعى أنه يعلم الغيب فقد جعل نفسه شريكا لله في هذه الصفة، ومن زعم أن مخلوقاً يعلم الغيب فقد جعله شريكاً لله في هذه الصفة .

(ب) غيب نسبي: قد يدركه إنسان دون إنسان كمن يشاهد من قمة جبل ما يدور في ساحة واسعة مما لا يراه من هو في سفح الجبل، فيغيب عمن في السفح ما يقع في دائرة مشاهدة من هو في قمة الجبل، وكمن يرى بالأجهزة العلمية ما لا يراه غيره بدونها، ومن الغيب النسبي اطلاع الجن على أمورٍ لا يطلع عليها البشر ويوحون بها إلى أوليائهم من الكهان والسحرة .

---

(١) الغيض في اللغة هو : الغور أو النقص، وكلاهما يحدث لماء الرجل عند غوره في الرحم حتى ينتهي بمنوي واحد من بين مئات الملايين، كما يحدث الغور للبيضة في قناة الرحم (قناة فالوب) وتنقص السوائل عند غورها من حولها، وتلتقي بالمنوي الذي يلقحها وتكون النطفة الأمشاج (الزيجوت) وبدورها تغور في قناة الرحم وتنقسم خلاياها دون زيادة في الحجم ثم تغور ما بين اليوم السادس والسابع في الرحم إلى اليوم العاشر ولايزيد حجمها. وكل هذا داخل في معنى الغيض الذي بين الحديث أنه من مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، والمرأة في الأيام العشرة الأولى قبل أن تستقر النطفة الأمشاج وتزاد لا تعلم ولا تحس كما لا يعلم الطبيب بالحمل من عدمه فضلاً عن معرفته ماهيته وصفاته التي تشتمل على الذكورة والأنوثة. (راجع بحث مفاتيح الغيب في الإعجاز العلمي) .

(٢) لا يستطيع علماء الأرصاد الجزم بموعد نزول المطر على جهة القطع ولذلك تتصدر نشرة أخبار الطقس في جميع وسائل الإعلام بقول المختصين في الطقس بعبارة : "مع احتمال نزول مطر" بعد أن خابت الكثير من توقعات من كان يقطع بزمن محدد لنزول المطر. والسبب يرجع إلى أن نزول المطر يتوقف على عوامل كثيرة متعددة، لابد من توافرها، ويصعب الإحاطة بها مثل شكل ذرات الغبار التي تحملها الرياح وحبوب اللقاح وجزيئات الدخان وكيفية أسطحها التي ستتشكل عليها أغلفة قطرات الماء، ومثل اتجاهات الرياح والمرتفعات والمنخفضات الجوية، ودرجات الحرارة وغيرها. (راجع أبحاث الإعجاز العلمي التي ألقيت في مؤتمر إسلام أباد بإشراف هيئة الإعجاز العلمي بمكة المكرمة برابطة العالم الإسلامي .

(٣) أخرجه البخاري ك/ التوحيد ب/ قول الله تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) واللفظ له، وأحمد مسند المكثرين من الصحابة .

ومن أمثلة ادعاء الغيب ما يلي:

١ - الكهانة والعرافة:

الكاهن لغة: المخبر عن الغيب.

والعرَّاف: صيغة مبالغة من المعرفة.

والكهانة والعرافة: هما إدّعاء معرفة الغيب مثل: الإخبار عن الأمور الغائبة وحوادث الزمان المستقبلية كأن يخبر عن مكان المسروق والضالة[١] ونحو ذلك بغير طرق العلم المعروفة التي وهبها الله للبشر، وقد يخبر هؤلاء الكهان بحقيقة عن طريق الاستعانة بالشياطين مع ما يضيفونه إلى ذلك من الكذب والتخرص.

وقد حذّر النبي ﷺ من إتيان الكهان والعرافين.

فقال: «**من أتى عرّافاً فسأله عن شيء لم تُقْبل له صلاة أربعين ليلة**»[٢].

وقال: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»[٣].

وبينّ عليه الصلاة والسلام الطريقة التي يستطيع بها الكاهن الإخبار عن الأمر المستقبلي الغيبي، وبينّ كيف يستغل ذلك في التدليس على الناس والكذب عليهم.

فقال: «**إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا لِلذي قال: الحق وهو العليّ الكبير، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ**

---

(١) يعرف الكهنة والعرافون مكان المسروق والضالة بواسطة استعانتهم بأوليائهم من الجن.

(٢) أخرجه مسلم ك/ الطب ب/ تحريم الكهانة وإتيان الكهان، وأحمد في مسنده (٤ / ٦٨، ٥ / ٣٨٠) بنحوه.

(٣) أخرجه ابن ماجه ك/ الطهارة وسننها ب/ النهي عن إتيان الحائض، وأحمد باقي مسند المكثرين واللفظ له، والحاكم في المستدرك، وقال صحيح على شرطهما وصححه العراقي وقواه الذهبي، وقال عنه محققو المسند إسناده صحيح على شرط مسلم (٢٧ / ١٩٦).

السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِه، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَه الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنْ السَّمَاءِ»[١].

وقد وصف الله هؤلاء الذين تتنزل عليهم الشياطين بقوله سبحانه: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣].

٢- الطرق:

وهو الخط على الأرض، ويزعم فاعله أنه يعلم الغيب من خلاله وقيل: هو ضرب بالحصى لمعرفة الغيب[٢]، ويسمى علم الرمل حيث يستدلون بأشكال الرمل على أحوال المسألة حين السؤال[٣]. وأياً كان فهو من ادِّعاء علم الغيب ويدخل في ذلك قراءة الكف وقراءة الفنجان وضرب الودع، ونحو ذلك من الخرافات.

٣- السحر:

لغة: هو مصدر قولهم: سحره يسحره أي خدعه، وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر وأصل السحر:- صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ك/ التفسير، ب قوله (إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) وابن ماجه ك/ المقدمة ب/ فيما أنكرت الجهمية.

(٢) وقد ورد في الحديث أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت" أخرجه أحمد وأبو داود والعيافة هي زجر الطير لمعرفة الخير من الشر، والجبت قال الحسن هو: رنة الشيطان :- أي وحيه، وروى عن عمر رضي الله عنه أنه السحر.

(٣) انظر ترتيب القاموس المحيط (٣ / ٧١)، وشرح السنة للبغوي (١٢ / ١٧٧)، ومختصر سنن أبي داود للمنذري (٥ / ٣٧٤) ومفتاح السعادة لطاش كبري زاده (١ / ٣٣٦)، بواسطة نواقض الإيمان القولية والعملية (ص٥٢٣).

(٤) نضرة النعيم (١٠ / ٤٥٨٩).

اصطلاحاً: هو عزائم ورُقى وعُقد تؤثر في القلوب والعقول والأبدان وربما نتج عنها مرض البدن أو التخييل للإنسان أوالتفريق بين المرأة وزوجها لوجود البغضاء[١] ولكنه لا ينفذ في الواقع إلا بإذن الله سبحانه قال تعالى: ﴿ **وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

وهو يدخل في الشرك من جهتين: الأولى: ما فيه من ادّعاء علم الغيب كما تقدم في الحديث النبوي في استراق السمع، والثانية: من جهة اشتماله على الاستعانة بالشياطين وتقديم بعض العبادات لهم ليقوموا هم أيضاً بخدمة الساحر فيما يطلبه منهم .

وقد قرر القرآن الكريم كفر الساحر فقال تعالى: ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** ﴾ [البقرة: ١٠٢] . قال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)** ﴾ [الأنعام: ١٢٨][٢] .

وفي الحديث النبوي الشريف «**أنَّ التِّولَة شرك**»[٣] .

والتِّوَلَةُ: ضرب من السحر، قال الأصمعي: وهو الذي يحبب المرأة إلى زوجها[٤] .

---

(١) معجم ألفاظ العقيدة (ص٢٢٦) بتصرف .

(٢) استمتاع الجن من الإنس أنهم تلذذوا بطاعة الإنس إياهم، وتلذذ الإنس بقبولهم أصناف الإغواء من الجن، ومن الاستمتاع ما كان يلقيه الجن إلى الإنس من الأراجيف والكهانة والسحر. انظر تفسير القرطبي رحمه الله عند الآية المذكورة .

(٣) أخرجه أبو داود ك/ الطب ب/ في تعليق التمائم، وابن ماجه ك/ الطب ب/ تعليق التمائم وأحمد مسند المكثرين من الصحابة مسند عبد الله بن مسعود، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢ / ٢٦٩) .

(٤) انظر شرح السنة للبغوي (١٢ / ١٥٨) بواسطة نواقض الإيمان القولية والعملية (ص٥١١) .

٤ - التنجيم :

ومما يلتحق بالسحر في ادعاء علم الغيب : التنجيم، والمراد به الاستدلال بالأحوال الفلكية على ما سيقع من الحوادث الأرضية، بمعنى أن المنجم يربط ما يقع في الأرض بالنجوم وبحركاتها وطلوعها وغروبها واقترانها وتفرقها .

جاء في الحديث النبوي الشريف : «**من اقتبس علماً من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**»(١) .

وقد تقدم تفصيل ما يتعلق بالاعتقاد في النجوم عند ذكر الشرك في تصريف المخلوقات(٢) .

(ي) إرادة الإنسان بعبادته الدنيا فقط:

كل من أراد بالعبادة الدنيا فقط، فقد أشرك وانتفى كمال توحيده وأحبط عمله بالكلية .

قال تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)** ﴾ [هود : ١٥-١٦](٣) .

---

(١) أخرجه أبو داود ك/ الطب ب/ في النجوم واللفظ له، وابن ماجه ك/ الأدب ب/ تعلم النجوم، وأحمد في مسند بني هاشم، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢ / ٧٣٩) .

(٢) ومن أنواع التنجيم: "ما يفعله من يكتب حروف أبي جاد، ويجعل لكل حرف منها قدراً من العدد معلوماً، ويجري على ذلك أسماء الآدميين والأزمنة والأمكنة وغيرها، ويجمع جمعاً معروفاً عنده، ويطرح منه طرحاً خاصاً، ويثبت إثباتاً خاصاً، وينسبه إلى الأبراج الإثني عشر المعروفة عند أهل الحساب، ثم يحكم على تلك القواعد بالسعود والنحوس وغيرها مما يوحيه إليه الشيطان. "قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوم يكتبون أبا جاد، وينظرون في النجوم : ما أدري من فعل ذلك له عند الله خلاق، أخرجه عبدالرزاق والبيهقي . انظر نواقض الإيمان القولية والعملية (ص٥٢٠-٥٢١) .

(٣) الآية في الكفار، أو فيمن يجعل الغاية من أعماله الدينية مقصوراً على حظوظ الدنيا. قال الشوكاني في تفسير الآية : « وإدخال كان في الآية يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم لا يكادون يريدون الآخرة » .

وسأل رجلٌ النبيَّ ﷺ فقال له: يا رسول الله، الرجل يجاهد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا ؟ فقال: «**لا أجرَ له**» ! فأعظمَ الناسُ ذلك[١]، فعادَ الرجل[٢]، فقال ﷺ: «**لا أجرَ له**»[٣].

وقال ﷺ: «**مَنْ تعلَّم علمًا ممَّا يُبْتَغى به وَجْهُ الله تعالى، لاَ يَتَعلَّمُهُ إلاَّ ليُصيبَ به عَرَضًا منْ الدُّنْيَا لَمْ يَجدْ عَرْفَ الجنَّة يَوْمَ الْقيَامَة**» يَعْني ريحَهَا[٤].

ولا غرو أن نجد أن النبي ﷺ سمى من استغرق حياته من أجل الدنيا عبداً لها كما قال: «**تَعسَ عَبْدُ الدِّينَار، تَعسَ عَبْدُ الدِّرْهَم، تَعسَ عَبْدُ الخَميصَة، تَعسَ عَبْدُ الخميلة، إنْ أُعْطيَ رَضيَ، وَإنْ لَمْ يُعْطَ سَخطَ تَعسَ وَانْتَكَسَ، وَإذَا شيكَ فَلاَ انْتَقَشَ**»[٥].

ثانياً - صور الشرك الأكبر في العبادات العملية:

من صوره في العبادات العملية ما يأتي:

(أ) عبادة الأصنام[٦] والأوثان والأموات على زعم أنها تقرب العابدين لها إلى الله:

فأنكر الله عليهم فعلهم بقوله سبحانه: ﴿ **أَلا للَّه الدِّينُ الْخَالصُ وَالَّذينَ اتَّخَذُوا من دُونه أَوْليَاءَ[٧] مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ ليُقَرِّبُونَا إلَى اللَّه زُلْفَىٰ إنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ في مَا هُمْ فيه**

---

(١) أي استعظموا أن يكون لا أجر له.

(٢) أي عاد وكرر نفس السؤال.

(٣) أخرجه أبو داود ك/ الجهاد ب/ فيمن يغزو ويلتمس الدنيا وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢ / ٤٧٨) وكذلك أخرجه ابن حبان في صحيحه والحاكم باختصار وصححه، انظر الترغيب والترهيب (٢ / ١٧٢) ط. دار الفكر.

(٤) أخرجه أبو داود ك/ العلم ب/ طلب العلم لغير الله، وابن ماجه في المقدمة ب/ الانتفاع بالعلم والعمل به والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم انظر صحيح الترغيب والترهيب (١ / ٤٦).

(٥) أخرجه البخاري ك/ الجهاد والسير ب/ الحراسة في الغزو في سبيل الله، وابن ماجه ك/ الزهد ب/ في المكثرين.

(٦) الصنم والوثن: تمثال من حجر أو خشب أو معدن، يزعم المشركون أنّ عبادته تقرب إلى الله، كما قال تعالى: (فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم) انظر المعجم الوسيط.

(٧) الأولياء هنا: أصنام المشركين كما في تفسير ابن كثير.

يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر: ٣] . وقال تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ [الحج: ٣٠] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٤] . وقد عاب إبراهيم عليه السلام على قومه عبادة الأوثان فقال كما حكى الله عنه : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٧] .

(ب) الشرك في الدعاء:

إن المخلوق محتاج أشد الحاجة إلى خالقه سبحانه، بل كل ذرة فيه بحاجة ماسة إلى ربه سبحانه الغني القوي القادر، فهو محتاج إلى دوام الاتصال والطلب واللجوء إلى خالقه ورازقه سبحانه، ولذلك كان الدعاء من أعظم أنواع العبادة، وقد أمر الله به فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠] .

بل قال النبي ﷺ : «**الدعاء هو العبادة**» ثم قرأ الآية المذكورة[(١)] .

فمن دعا غير الله سواء كان ملكاً مقرباً، أو نبياً مرسلاً، أو ولياً من الصالحين أو جنياً من الشياطين، أو أي مخلوق حياً أو ميتاً فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه من جلب نفع أو كشف ضر أو قضاء حاجة أو نحو ذلك من المطالب فقد أشرك بالله شركاً أكبر[(٢)] .

ولما كان الشرك في الدعاء من أعظم أنواع الشرك، نوّع سبحانه أساليب النهي والزجر عنه في القرآن الكريم .

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ب/ ومن سورة المؤمن وحسنه ووافقه الأرناؤوط، انظر جامع الأصول (٩ / ٥١١) وأبو داود في الصلاة ب/الدعاء، وأحمد في المسند وإسناده صحيح كما في تحقيق المسند (٣٠ / ٢٩٨).

(٢) أما من دعا المخلوق الحي فيما أقدره الله سبحانه عليه، مثل قول القائل : اسقني ماءً لمن يستطيع أن يسقيه، مع اعتقاده أنه لا يضر ولا ينفع إلا بإذن الله فليس ذلك بشرك .

قال تعالى ناهياً عن دعاء غيره : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) ﴾ [الجن : ١٨] وقال : ﴿ وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) ﴾ [يونس : ١٠٦] .

وقال : ﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

وقال سبحانه مبيناً فقر وعجز من يُدعى من دونه : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ [فاطر : ١٣-١٤] . وقال سبحانه : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) ﴾ [سبأ : ٢٢] .

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج : ٧٣] .

وبيّن سبحانه أن من دُعي من دونه لا يستطيع نصر نفسه ، فكيف ينصر غيره ؟! فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٩٧] بل بين أن المشركين هم جنود يحمون آلهتهم التي يعتمدون عليها لنصرهم ! فقال : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) ﴾ [يس : ٧٤-٧٥] .

وبين أن بعض من يُدعى من دونه ، هو نفسه يرجو من الله الرحمة ويطلبها منه ، فكيف يدعى من دون الله ؟! قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾

[الإسراء : ٥٦-٥٧] .

وبين أن من يُدعى من دونه لا يملك ضراً ولا نفعاً، فقال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١)﴾ [الأنعام: ٧١].

وقال سبحانه مبيناً حال المشرك في ضلاله حين يدعو غير الله: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)﴾ [الحج: ١٢-١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)﴾ [الأحقاف: ٥].

وذكر سبحانه أنه إذا دهمت الخطوب المشركين فإنهم ينسون آلهتهم الباطلة، ويدعون الله وحده مخلصين له الدين لعلمهم بأنه لا ينجيهم إلا هو، فإذا ما نجوا من الشدائد رجعوا إلى شركهم فذمهم سبحانه على ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤)﴾

[الأنعام: ٦٣-٦٤].

وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

ولذا قال النبي ﷺ آمراً بالسؤال من الله وحده: «**إذا سألت فاسأل الله**»[١].

---

(١) أخرجه الترمذي ك/ صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، وصححه ـ الألباني في ظلال الجنة (١٠ / ١٣٨) وأحمد في مسند بني هاشم.

وحذر من دعاء غير الله فقال: «**من مات وهو يدعو من دون الله نِدّاً دخل النار..**»[١].

وأجمع العلماء على كفر من دعا غير الله تعالى، وجعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم.

قال ابن تيمية رحمه الله: من أعظم أنواع الشرك دعاء الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم، وعند قبورهم، وفي مغيبهم، وخطاب تماثيلهم والاستغاثة بهم، وطلب الشفاعة منهم، وهو من الدين الذي لم يشرعه الله، ولا ابتعث به رسولا، ولا أنزل به كتابا، وليس هو واجباً ولا مستحباً باتفاق علماء المسلمين، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ، ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين، وإن كان ذلك مما يفعله كثير من الناس ممن له عبادة وزهد، ويذكرون فيه حكاياتٍ ومناماتٍ، فهذا كله من الشيطان، وفيهم من ينظم القصائد في دعاء الميت والاستشفاع به، والاستغاثة به، أو يذكر ذلك في ضمن مديح الأنبياء والصالحين، فهذا كله ليس بمشروع، ولا واجبٍ، ولا مستحب باتفاق أئمة الدين، فإن الله لا يُعبد إلا بما هو واجب أو مستحب.

ولم يكن النبي ﷺ بل ولا أحد من الأنبياء قبله شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين ويستشفعوا بهم، لا بعد مماتهم ولا في مغيبهم[٢].

وقال أيضا: فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع، ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنوب، وهداية القلوب، وتفريج الكروب، وسد الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ك/ التفسير ب/ قوله: "ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم"، وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة.

(٢) مجموع الفتاوى (١ / ١٥٩)، وما بعدها (بإيجاز وتصرف) بواسطة نضرة النعيم (ص٤٧١٣-٤٧١٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١ / ١٢٤)، ونقل هذا الإجماع راضياً مقرراً له ابن حجر الهيثمي في الإعلام بقواطع الإسلام (ص٩٥)، انظر الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية (٢ / ٥٣٤).

الاستعاذة والاستغاثة والاستعانة بغير الله :

الاستعاذة : هي الالتجاء والاعتصام والتحرز ، وحقيقتها الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه .

والاستغاثة : هي طلب الغوث ، وتكون ممن أصابه كرب لمن يغيثه ، كما حدث من الرسول ﷺ والصحابة في غزوة بدر . قال تعالى : ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ⑨ ﴾[الأنفال : ٩] ، وكما جاء في دعاء النبي ﷺ : « **يا حي يا قيوم برحمتك استغيث** »[١] .

والله سبحانه هو القادر أن ينجي من استغاثه من كل كرب ، قال تعالى : ﴿ **قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ** ⑥④ ﴾[الأنعام : ٦٤] وهو وحده الذي يجيب المضطر بما شاء وكيف شاء أو بقوة غيبية خارقة للسنن ، قال تعالى : ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ⑥② ﴾[النمل : ٦٢] .

والاستعانة : هي طلب العاجز للعون ممن يقدر عليه ، كما يفعله المصلون في كل ركعة عند قراءة الفاتحة ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ⑤ ﴾ وكما أمر الرسول ﷺ بقوله : « **وإذا استعنت فاستعن بالله** »[٢] .

والاستعاذة والاستغاثة والاستعانة بغير الله من المخلوقات إذا كانت تُطْلَب وفق سنن الله التي أجراها في الكون وجعلها في قدرة المخلوقين فليست شركاً كاستعاذة أفراد المجتمع بسلطة الدولة ، واستغاثة الغريق بمن ينقذه ، واستعانة المريض بالطبيب .

---

(١)أخرجه الترمذي ك / الدعوات ب / منه وانفرد به ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣ / ١٧٢) .

(٢)أخرجه الترمذي ك / صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ب / منه وصححه ـ الألباني في ظلال الجنة (١٠ / ١٣٨) وأحمد في مسند بني هاشم .

أما من استعاذ أو استغاث أو استعان بغير الله معتقداً أنه يقدر على إعاذته أو إغاثته أو إعانته بقوة غيبية خارقة لسنن الله التي أجراها في الكون، فذلك هو الشرك، لأنه يتضمن اعتقاداً بأن لله أنداداً يسمعون استغاثة من استغاثهم أو استعاذتهم أو استعانتهم بقوة غيبية خارقة، وأنهم يقدرون على التصرف في الكون كما يريدون، والله سبحانه يقول: ﴿ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)** ﴾ [فاطر:١٣-١٤].

(ج) السجود لغير الله:

الركوع والسجود غاية الذل والخضوع، فمن سجد أو ركع لغير الله كالصنم أو الشمس، أو القمر، أو الطاغوت، أو أي مخلوق يعظمه كتعظيم الله فقد أشرك بالله، لأن هذه العبادة لا تكون إلا لله سبحانه وحده. قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)** ﴾ [فصلت:٣٧].

وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ** ﴾ [الحج:٧٧] وقد ذكر سبحانه قصة سبأ وعبادتهم للشمس، وحكى سبحانه ما قاله الهدهد لسليمان عليه السلام فقال: ﴿ **وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)** ﴾ [النمل:٢٤-٢٥].

وقد منع النبي ﷺ الانحناء عند الملاقاة ساداً لذريعة الشرك فعندما سُئل عن الرجل يلقى أخاه أو صديقه أينحني له؟ قال: « **لا** .... »[1].

---

(١) أخرجه الترمذي ك/ الاستئذان والأدب ب/ ما جاء في المصافحة، واللفظ له، وحسنه ووافقه الأرناؤوط انظر جامع الأصول (٦ / ٦٠٨) ، وابن ماجه ك/ الأدب ب/ المصافحة، وأحمد في باقي مسند المكثرين، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢ / ٣٥٢) .

تنبيه: سجود الملائكة لآدم عليه السلام إنما كان سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة، لأن الله سبحانه هو الذي أمرهم بذلك، فامتثلوا أمره فسجودهم كان طاعة لله وعبادة له سبحانه بامتثال أمره، وتكريماً لآدم عليه السلام، وكذلك سجود إخوة يوسف ليوسف هو سجود تحية لا سجود عبادة .

أما في شرعنا فالسجود لغير الله محرم بإجماع المسلمين(١)، بل حتى الانحناء لمجرد التحية منع منه النبي ﷺ سداً لذريعة الشرك كما ذكرنا .

(د) الذبح لغير الله:

الذبح عبادة من العبادات، فمن ذبح لغير الله تقرباً أو تعظيماً فقد أشرك بالله سواءً كان لشخص أو لمكان مثل سوقٍ، أو قُبَّة، أو قبر، أو شجرة وهذا كذبح الجاهلية للأنصاب(٢)(٣).

قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ**

---

(١) انظر تفسير القاسمي المجلد (٢ / ١٠١-١٠٢) عند تفسير قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم..) .

(٢) الأنصاب :- حجارة كانوا يذبحون قرابينها عندهم، كما نقله الحافظ ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وغيرهم، قال تعالى : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)، وقال سبحانه : (إنما حرم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ...) ومثل لذلك القرطبي بذبيحة الوثني يذبح لوثنه والمجوسي يذبح للنار، انظر تفسير القرطبي عند الآية المذكورة .

(٣) انظر تطهير الاعتقاد للصنعاني ص٢٦، وذكر فيه أن بعض الناس قد يغالط ويزعم أنّه ما ذبح إلا لله تعالى عند صاحب القبر والمشهد فقال مناقشاً لذلك : فإن قال إنما نحرت لله، وذكرت اسم الله عليه، فقل إن كان النحر لله فلأي شيء قربت ما تنحره من باب مشهد من تفضله وتعتقد فيه ؟ هل أردت بذلك تعظيمه ؟ إن قال : نعم، فقل له هذا النحر لغير الله تعالى، بل أشركت مع الله تعالى غيره، وإن لم ترد تعظيمه، فهل أردت توسيخ باب المشهد وتنجيس الداخلين إليه ؟ أنت تعلم يقيناً أنك ما أردت ذلك أصلاً، ولا أردت إلا الأول، ولا خرجت من بيتك إلا قصداً له، وناقش الشوكاني رحمه الله أيضاً من يذبح عند القبر فقال : وكذلك النحر للأموات عبادة لهم ...... وهكذا إن كنت تنحر لله، وتنذر لله، فلأي معنى جعلت ذلك للميت وحملته إلى قبره، فإن الفقراء على ظهر البسيطة في كل بقعة من بقاع الأرض، وفعلك وأنت عاقل لا يكون إلا لمقصد قد قصدته، أو أمر قد أردته !! انظر الدر النضيد له (ص٧٥).

لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] قال سعيد بن جبير والضحاك والسدي: ونسكي: أي ذبحي[١].

وقال تعالى: ﴿ **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾** ﴾ [الكوثر: ٢] . قال الشوكاني رحمه الله: ولاشك أن النحر نوع من أنواع العبادة التي تَعَبَّد الله العبادَ بها كالهدايا والفدية والضحايا[٢].

وعن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**...لعن الله من ذبح لغير الله...**»[٣].

بل قد نهى النبي ﷺ عن الذبح في المكان الذي كان فيه شيء من أوثان الجاهلية أو أعيادها وإن كان الذبح لله تعالى! فعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه، قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببُوانة فسأل النبيَّ ﷺ، فقال ﷺ: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟**» قالوا: لا، قال: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**» قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: «**أوفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم**»[٤].

(هـ) جعل نصيبٍ من الرزق لغير الله:

الذي يقدم شيئاً مما رزقه الله تعظيماً وخضوعاً لغير الله لاعتقاد أنه يضره وينفعه من دون الله فقد وقع في الشرك، كمن يقدم السمن أو العسل أو الحبوب

---

(١) تفسير ابن كثير .

(٢) شرح الصدور بتحريم رفع القبور، ومما ذكره فيه أيضاً قوله : "ومن المفاسد البالغة إلى حدّ يرمي بصاحبه إلى وراء حائط الإسلام: أن كثيراً منهم يأتي بأحسن ما يملكه من الأنعام، وأجود ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر، متقرباً به إليه، راجيا ما يضمر حصوله منه، فيهل به لغير الله، ويتعبد به لوثن من الأوثان، إذ أنه لا فرق بين نحر النحائر لأحجار منصوبة يسمونها وثناً، وبين قبر لميت يسمونه قبراً ...

(٣) أخرجه مسلم ك/ الأضاحي ب/ تحريم الذبح لغير الله تعالى، والنسائي ك/ الضحايا ب/ من ذبح لغير الله عز وجل، وأحمد مسند العشرة المبشرين بالجنة .

(٤) أخرجه أبو داود ك/ الإيمان والنذور ب/ ما يؤمر به من الوفاء بالنذر، وابن ماجه ك/ الكفارات ب/ الوفاء بالنذر، وأحمد من باقي مسند الأنصار، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢ / ٦٣٧).

لبعض الأشجار والأحجار والقبور أو من يقدم اللحم واللبن للجن، أو من يجعل أول مولود من بقرته أو شاته لغير الله، والذي يقدم البيضة (يكسرها) أمام العروس إرضاءً للجن، والذي يقدم شاة للجن لحماية بيته أو بئره. كلٌّ من فعل ذلك معتقداً أن تلك المخلوقات تضره أو تنفعه من دون الله فقد وقع في الشرك، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) ﴾ [النحل: ٥٣-٥٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

النذر لغير الله:

النذر عبادة لله ولذا أمر الله بالوفاء به، فقال سبحانه: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٩]، وأثنى سبحانه على الموفين بالنذر فقال: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) ﴾ [الإنسان: ٧] فمن نذر لغير الله شيئاً فقد أشرك، ومن أمثلة ذلك من ينذر شيئاً من ماله أو زراعته أو حيواناته لغير الله تعالى مثل صنم أو قبر أو شجر أو حجر أو غير ذلك، فكل ذلك داخل تحت قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ [النحل: ٥٦][(١)].

وقد يكون النذر معصية فلا يلزم الوفاء به قالت عائشة ـ أم المؤمنين رضي الله عنها ـ: « من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه »[(٢)].

---

(١) انظر تطهير الاعتقاد للصنعاني (ص ٣٠-٣١) وذكر فيه أن بعض الناس قد ينذر جزءاً من ولده لصاحب القبر أو يشتري الحمل في بطن أمه من صاحب القبر ليعيش بزعمهم، أو يجعل شيئاً من الزرع يسمونه "تلماً" لصاحب القبر.

(٢) أخرجه البخاري، ك / الإيمان والنذور ب / النذر فيما لا يملك وفي معصية.

كبيرة الشرك الأصغر

سبق البيان أن الرياء هو الشرك الأصغر، وكل ما وصفه الوحي بأنه شرك ولا يخرج صاحبه من الملة أو ما كان سبباً يوقع في الشرك الأكبر، وهو أنواع منها:

١ - شرك القول:

(أ) الحلف بغير الله عز وجل:

الحلف بالشيء تعظيم له، والذي يجب أن يُعظَّم ويُحلف به هو الله عز وجل، والحلف بغيره سبحانه شرك. قال رسول الله ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»[١].

وقال ﷺ: «**من حلف منكم فقال في حَلفِه باللات والعُزَّى فليقُل لا إله إلا الله**»[٢]. والحلف بالأصنام شرك أكبر، لكن اعتياد الصحابة عليه في جاهليتهم قد يوقع بعضهم بالحلف باللات والعزى دون قصد التعظيم فأمرهم النبي – ﷺ – بأن يعقبوا على حلفهم بذكر كلمة التوحيد: لا إله إلا الله.

وقال ﷺ: «**إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله، أو ليصمت**»[٣]. وقال ﷺ: «**من حلف بالأمانة فليس منا**»[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي ك/ النذور والإيمان ب/ ما جاء في كراهية الحلف بغير الله واللفظ له وصححه الألباني في إرواء الغليل (٨ / ١٨٩)، وأبو داود ك/ الإيمان والنذور ب/ في كراهية الحلف بالأباء، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة.

(٢) أخرجه البخاري ك/ الأدب ب/ من لم ير إكفار من قال ذلك متأولا أو جاهلاً، ومسلم ك/ الإيمان ب/ النهي عن الحلف بغير الله تعالى.

(٣) أخرجه البخاري ك/ الأدب ب/ من لم ير إكفار من قال ذلك متأولا أو جاهلاً ومسلم ك/ الإيمان ب/ النهي عن الحلف بغير الله تعالى.

(٤) أخرجه أبو داود ك/ الإيمان والنذور ب/ كراهية الحلف بالأمانة واللفظ له وقال النووي صحيح عن بريدة ﷺ، وأحمد في باقي مسند الأنصار، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢ / ٦٢٨).

وقال ابن مسعود ﷺ : « لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً »(١). ومن المعلوم أن الحلف بالله كذبًا كبيرة، لكن الشرك كبيرة أعظم، ويلحق بالحلف بغير الله من يحلف بشرفه أو النبي أو الوطن أو غيرها .

فلنحذر من الوقوع في مثل هذه الأقوال .

(ب) الألفاظ التي تتضمن التسوية بين الله ومخلوقاته:

يجب على المسلم التحرز من الألفاظ التي تتضمن التسوية بين الله سبحانه وتعالى وبين مخلوقاته ؛ لأنها شرك نهانا رسول الله ﷺ عن التلفظ بها، وأرشدنا إلى ألفاظٍ خير منها، فعن ابن عباس ﷺ قال: قال رجل للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت، قال: «**أجعلتني لله نداً !! قل: ما شاء الله وحده**»(٢). وقال ﷺ : «**لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ؛ ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان**»(٣).

وجاء يهودي إلى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادو أن يحلفوا أن يقولوا: «**ورب الكعبة، وأن يقولوا ما شاء الله ثم شئت**»(٤).

ونهى ﷺ عن التسمِّي بملك الأملاك فقال: «**إن أخنع(٥) اسم عند الله عز وجل رجل تسمى ملك الأملاك(٦)**»(٧).

---

(١) صححه الألباني في إرواء الغليل (ج٨ ص١٩١) وقال أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣ / ١٧ / ٢) وابن أبي شيبة في المصنف (٤ / ١٧٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسند بني هاشم، وابن ماجه ك/ الكفارات ب/ النهي أن يقال ما شاء الله وشئت، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١ / ٣٦٢) .

(٣) أخرجه أبو داود ك/ الأدب ب/ لا يقال خبثت نفسي، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣ / ٩٤٠).

(٤) أخرجه النسائي ك/ الإيمان والنذور ب/ الحلف بالكعبة واللفظ له، وأحمد في باقي مسند الأنصار، حديث قُتيلة بنت صيفي، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٢ / ٨٠٠) .

(٥) أخنع أي : أذل .

(٦) ملك الأملاك : أي ملك الملوك .

(٧) أخرجه البخاري ك/ الأدب ب/ أبغض الأسماء إلى الله، ومسلم ك/ الآداب ب/ تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك، واللفظ له .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في الشرك الخفي: «أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء، في ظلمة الليل. وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلانة وحياتي. ويقول: لولا كلبهُ هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت. وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلان، فإن هذا كله به شرك»[١].

(ج) الألفاظ التي فيها غلو في مدح النبي ﷺ أو الصالحين:

قال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله**»[٢]. ومعنى الإطراء: الغلو في المدح برفع الشخص فوق المكانة التي يستحقها بكونه بشراً مخلوقاً.

وقد سمع النبي ﷺ جاريتين تمدحانه فقالتا: وفينا نبي يعلم ما في غد، فنهاهما عن ذلك قائلاً: «**أما هذا فلا تقولوه، ما يعلم ما في غد إلا الله**»[٣].

وقد يصل الغلو إلى حدّ الشرك الأكبر، فقد غلا اليهود في عزير، وأطرت النصارى عيسى بن مريم عليه السلام فزعموا أنه ابن الله أو أنه هو الله. قال تعالى: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ** ﴾ [التوبة: ٣٠]. وقد كان سبب شرك قوم نوح هو الغلو في الصالحين وتصوير تماثيلهم ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** (٢٣) ﴾ [نوح: ٢٣] قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون

(١) انظر التفسير الصحيح عند قوله تعالى: (فلا تجعلوا لله اندادا).

(٢) أخرجه البخاري ك/ أحاديث الأنبياء ب/ قول الله (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها)، وأحمد مسند العشرة المبشرين بالجنة، والدارمي ك/ الرقاق ب/ في قول النبي لا تطروني.

(٣) أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ شهود الملائكة بدراً، واللفظ له، وابن ماجه ك/ النكاح ب/ الغناء والدف، وانظر صحيح ابن ماجه (١ / ٣٢٠).

فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسِخَ العلم عُبِدَت(١).

٢- شرك الرياء والسمعة:

وهو: إظهار العبادة بقصد رؤية الناس لها وتسميعهم بها ليحمدوا صاحبها.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [الكهف: ١١٠].

فالعبادة لابد أن تكون مقيدة بالسُّنَّة كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وخالصة من الرياء كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [الماعون: ٤-٧]، عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به، فعرّفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلتَ لأن يقال: فلان جريء، فقد قيل، ثم أُمر به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار! ورجل تعلّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمتُ العلمَ وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت! ولكنك تعلّمت ليُقَالَ: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار! ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ماتركت من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال:

---

(١) أخرجه البخاري ك/ تفسير القرآن ب/ وداو سواعاً ولا يغوث ويعوق، وانظر تفسير ابن كثير (٦ / ٢٨٢).

كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أُمر به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِي في النار»(١).

ويقول سبحانه وتعالى للمرائين يوم القيامة: «**اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا هل تجدون عندهم جزاء**»(٢). فبئس موقف من كان يعمل لغير الله.

وقال سبحانه وتعالى في الحديث الآخر: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غير تركته وشركه**»(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «**أخْوَفُ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فَسُئِلَ عنه، فقال: الرياء**»(٤). وعن جندب بن عبدالله قال قال النبي ﷺ: «**من سمَّع سمَّع اللهُ به**(٥) **ومن يرائي يرائي الله به**»(٦). وعن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ فقال: «**يا أيها الناس إياكم وشرك السرائر**»! قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال: «**يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه! فذلك شرك السرائر**»(٧).

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من سمَّع الناس بعمله سمَّع الله به مسامع خلقه وصغَّره وحقَّره**»(٨).

---

(١) أخرجه مسلم ك/ الإمارة ب/ من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، والنسائي ك/ الجهاد ب/ من قاتل ليقال فلان جريء.

(٢) أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار وانفرد به، وحسن إسناده في تحقيق المسند (٣٩ / ٤٤).

(٣) مسلم ك/ الزهد والرقائق ب/ من أشرك في عمله غيره الله واللفظ له، والترمذي ك/ تفسير القرآن ب/ ومن سورة الكهف، وابن ماجه ك/ الزهد ب/ الرياء والسمعة.

(٤) رواه الإمام احمد في المسند (٥ / ٤٢٨) وهو في المعجم الكبير (٤ / ٢٥٣)، وهو حديث حسن كما في تحقيق المسند (٣٩ / ٣٩).

(٥) معنى الحديث: من أظهر عمله للناس رياء وأسمعهم به، أظهر الله نيته الفاسدة في عمله وفضحه. وانظر صحيح الترغيب والترهيب (١ / ١٦).

(٦) أخرجه البخاري ك/ الرقاق ب/ الرياء والسمعة واللفظ له، ومسلم ك/ الزهد والرقائق ب/ من أشرك في عمله غير الله.

(٧) رواه ابن خزيمة في صحيحه وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١ / ١٧).

(٨) رواه أحمد والطبراني في الكبير بأسانيد أحدها صحيح، والبيهقي انظر صحيح الترغيب والترهيب (١ / ١٦)، وقال عنه محققو المسند إسناده صحيح على شرط الشيخين بلفظ [من سمَّع الناس بعمله سمَّع الله به مسامع خلقه وصغره وحقره] (١١ / ٥٦).

حكم العبادة إذا اتصل بها الرياء:

والعبادة إذا اتصل بها الرياء تكون على ثلاثة أوجه:

[١] أن يكون الرياء هو الباعث على العبادة فتكون باطلة[١].

[٢] أن يطرأ الرياء بعد انتهاء العبادة فلا يؤثر على قبولها، لأنها تمت صحيحة[٢].

[٣] أن يطرأ الرياء أثناء العبادة، فإن دافع الرياء فتصح عبادته، وإن اطمأن إلى الرياء ردت عبادته[٣].

تنبيه: وليس من الرياء أن يسر الإنسان بفعل الطاعة لأن سروره بذلك دليل إيمانه: قال رسول الله ﷺ: «**من سَرَّتهُ حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن**»[٤].

ومما يلتحق بالشرك الأصغر ما يلي:

(أ) تعليق التمائم:

التميمة ما يعلق على المخلوق يقصد به دفع العين أو غير ذلك من المضرات، بطريقة غيبية لا تخضع للأسباب التي قدرها الله كمن علق خرزة أو ودعة أو معدناً أو غير ذلك مما يقصد به دفع العين أو غير ذلك من المضرات، وهذا نوع من الشرك كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إن الرُّقَى[٥] والتَّمَائِم والتِّولة[٦] شِرك**»[٧].

(١) كمن صلى ركعتين وكان باعثه على ذلك الرياء والسمعة.

(٢) كمن صلى ركعتين مخلصاً لله، ثم طرأ الرياء عليه بعد ذلك.

(٣) كمن ابتدأ صلاة ركعتين مخلصاً لله، ثم طرأ عليه الرياء بعد انتهاء الركعة الأولى، فإن دافع الرياء صحت صلاته، وإن اطمأن إليه بطلت.

(٤) أخرجه أحمد في المسند والترمذي في الفتن ب/ ما جاء في لزوم الجماعة وقال: حسن صحيح غريب.

(٥) الرُّقَى الممنوعة هي المحتوية على أشياء شركية، أما الرقية بكلام الله تعالى أو الذكر المشروع فلا تدخل في هذا لأنه قد ورد الإذن بها، كما رخص النبي ﷺ في الرقية بفاتحة الكتاب وغيرها من القرآن. قال عليه الصلاة والسلام: «**اعرضوا عليَّ رُقَاكُم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك**» أخرجه مسلم ك/ السلام ب/ لابأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك.

(٦) التولة: ما يعلق على الزوج أو الزوجة يزعمون به أنه مما يحفظ المحبة بينهما، ومما يدخل في ذلك خاتم الخطوبة "الدبلة" إذا كان بهذا القصد.

(٧) أخرجه أبو داود ك/ الطب ب/ في تعليق التمائم وابن ماجه ك/ الطب ب/ تعليق التمائم، والحاكم (٤ / ٤١٨) وقال صحيح الإسناد على شرط الشيخين وأقره الذهبي وأيضاً صححه الألباني في الصحيحة (١ / ٣٩) برقم (٣٣١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**من تعلَّق تميمةً فلا أتمَّ الله له، ومن تعلَّق وَدَعَةً فلا وَدَعَ اللهُ له**[١]»[٢].

وفي رواية «**من علق تميمة فقد أشرك**»[٣].

وعن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنّه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً: أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت»[٤].

قال مالك: أرى أن ذلك من أجل العين[٥].

ويدخل في ذلك أيضاً من ربط خيطاً في جسمه أو لبس حلقه[٦] أو غير ذلك ليدفع البلاء المتوقع عن نفسه أو يرفعه بعد نزوله[٧].

(ب) الطيرة:

التطير هو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو غير ذلك.

وأصله أن بعض العرب كانوا يتفاءلون أو يتشاءمون بالطيور على طريقة معروفة عندهم بزجر الطير ثم ينظر فإن ذهب الطير يميناً أقدم أو همَّ على الأمر الذي يريده، وإن ذهب شمالاً أحجم عن ذلك العمل وتشاءم.

---

(١) لا ودع الله له: أي: لا تركه الله في دعَة وسكون، وقيل: لاترك الله له خيراً.

(٢) أخرجه أحمد (٤ / ١٥٤) والطحاوي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وقال المنذري في الترغيب: إسناده جيد. وهو حديث حسن كما في تحقيق المسند (٢٨ / ٦٢٣).

(٣) رواه أحمد وإسناده قوي كما في تحقيق المسند (٢٨ / ٦٣٧).

(٤) أخرجه البخاري ك/ الجهاد ب/ ما قيل في الجرس ونحوه، ومسلم ك/ اللباس والزينة ب/ كراهة قلادة الوتر في رقبة البعير.

(٥) الموطأ (٢ / ٩٣٧) ط. عبدالباقي.

(٦) لا يدخل في هذا ما ثبتت فائدته طبياً كالحزام الطبي، وكذا ما ثبت نفعه وفق المعلومات الطبية الصحيحة.

(٧) فعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر، فقال: ما هذه قال: من الواهنة، قال: انزعها فإنها لاتزيدك إلا وهنا، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً" والواهنة: وجع في الذراع أو العضد. ورأى حذيفة رضي الله عنه رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه وتلا قوله تعالى: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون).

وهذا نوع من الشرك لأن المتطير تعلق بأمر لا حقيقة له بل هو وهم وتخييل، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله .

قال النبي ﷺ : «**الطيرة شرك**»[١] .

ولما تشاءم فرعون وقومه من موسى عليه السلام ومن معه ردّ الله سبحانه ذلك عليهم فقال : ﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** (١٣١) ﴾ [الأعراف : ١٣١]، ومعنى الآية : أن قوم فرعون إن أصابهم قحط أو جَدْبٌ ونحو ذلك تطيروا بموسى ومن معه وقالوا : ما جاءنا هذا الجدب والقحط إلا من شؤمكم، وقوله سبحانه : ﴿ **طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ** ﴾ [الأعراف : ١٣١] : أي ما لحقهم من القحط والشدائد إنما هو من عند الله عز وجل بذنوبهم لا من عند موسى وقومه[٢] .

ونفى عليه الصلاة والسلام تأثير الطيرة في الأمور فقال : «**لا طيرة**»[٣] .

---

(١) أخرجه الترمذي ك/ السير ب/ ما جاء في الطيرة وأبو داود ك/ الطب ، واللفظ له، وابن ماجه ك/ الطب ب/ ما كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢ / ٧٤٠).

(٢) انظر تفسير القرطبي عند الآية المذكورة .

(٣) أخرجه مسلم ك/ الطب ب/ الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم .

النهي عن ذرائع الشرك

وردت النصوص الشرعية بالنهي والتحذير من بعض الأمور لكونها وسيلة وذريعة إلى الشرك ومن ذلك:

(أ) البناء على القبور:

فقد نهى النبي ﷺ عن تجصيص القبور والبناء عليها كما قال جابر رضي الله عنه: « نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه »(١).

ونهى عن الكتابة عليها أيضاً(٢)، وعن الزيادة عليها غير ترابها(٣) بل أمر بهدم القبور المشرفة(٤)، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأبي الهياج الأسدي: « ألا أَبعَثُكَ على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته »(٥).

وكل ذلك سد لذريعة الشرك، قال الشوكاني رحمه الله:

« ولا شك أن علة النهي عن جعل القبور مساجد وعن تسريجها وتجصيصها

---

(١) أخرجه مسلم ك/ الجنائز ب/ النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه، والنسائي ك/ الجنائز ب/ تجصيص القبور، وابن ماجه ك/ ما جاء في الجنائز ب/ ما جاء في النهي عن البناء على القبور وتجصيصها.

(٢) أخرجه الترمذي ك/ الجنائز ب/ ما جاء في كراهية تجصيص القبور والكتابة عليها وقال حسن صحيح عن جابر رضي الله عنه قال: (نهى النبي ﷺ ان تجصص القبور وأن يُكتب عليها وأن يبنى عليها وأن توطأ)، وابن ماجه ك/ ما جاء في الجنائز ب/ ما جاء في النهي عن البناء على القبور وتجصيصها بلفظ (نهى رسول الله ﷺ ان يُكْتَب على القبر شيء).

(٣) أخرجه النسائي في السنن عن جابر رضي الله عنه قال نهى رسول الله ﷺ ان يبنى على القبر أو يزاد عليه أو يجصص ...) في الجنائز ب/ الزيادة على القبر، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٢ / ٤٣٥).

(٤) القبر المشرف: العالي.

(٥) أخرجه مسلم ك/ الجنائز ب/ الأمر بتسوية القبر، والترمذي ك/ الجنائز ب/ ما جاء في تسوية القبور، والنسائي ك/ الجنائز ب/ تسوية القبور إذا رفعت.

ورفعها وزخرفتها هي ما ينشأ عن ذلك من الاعتقادات الفاسدة ... وكل عاقل يعلم أن لزيادة الزخرفة للقبور وإسبال الستور الرائعة عليها، وتسريجها والتأنق في تحسينها تأثيراً في طبائع غالب العوام[١] ينشأ عنه التعظيم والاعتقادات الباطلة»[٢].

ولهذا ترى كثيراً من القبور المشيدة عليها القباب والمشاهد قد أصبحت مزاراً لكثير من العوام لما يظنونه في أصحابها من القدرة على تحقيق المطالب ودفع المكاره، وعندها ينادون الميت من دون الله، وقد يذبحون له أو ينذرون أو يتمسحون بقبره، ويأتون بأعمال شركية ومنكرات أخرى لا تمت إلى الشريعة الإسلامية بصلة[٣].

(ب) اتخاذ القبور مساجد والصلاة عندها:

نهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، فقال: «... **ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك**»[٤].

وقال عند موته: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر ما صنعوا[٥].

---

(١) فقد حكى الشوكاني أن رجلاً من العوام وصل إلى قبة مبنية على قبر فرآها وهي مسرجة بالشمع والبخور ينفخ من جوانبها وعلى القبر الستور الفائقة فقال عند وصوله إلى الباب: أمسيت بالخير يا أرحم الرحمين، انظر الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ص ٣٧ .ط الأولى دار الندوة الجديدة ١٤١٣هـ.

(٢) المرجع السابق (ص٣٦-٣٧).

(٣) انظر كتاب دمعة على التوحيد، لترى آثار القبورية السيئة في البلاد المختلفة.

(٤) أخرجه مسلم ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ النهي عن بناء المساجد على القبور واللفظ له، والنسائي ك/ الجنائز ب/ اتخاذ القبور مساجد.

(٥) البخاري ك/ الجنائز ب/ ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ومسلم ك/ المساجد ب/ النهي عن بناء المساجد على القبور.

وذكرت أم سلمة ﵂ لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصَوَّرُوا فيه تلك الصُّور، أولئك شِرار الخلق عند الله**»(١).

قال ابن القيم رحمه الله في بيان علة النهي عن اتخاذ القبور مساجد: «وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفَهِم عن رسول الله مقاصده، جزم جزماً لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه باللعن والنهي بصيغة «**لا تفعلوا**» وصيغة «**إني أنهاكم عن ذلك**» ليس لأجل النجاسة(٢)، بل هو لأجل نجاسة الشرك... وهذا صيانة منه ﷺ لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك»(٣).

ويلتحق بهذا النهي عن الصلاة إلى القبور، فقد نهى عنه النبي ﷺ فقال: «**لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها**»(٤).

قال القرطبي رحمه الله: «أي لا تتخذوها قبلة فتصلوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى، فيؤدي إلى عبادة مَنْ فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام، فحذَّر النبي ﷺ عن مثل ذلك، وسدَّ الذرائع المؤدية إلى ذلك ...»(٥).

(ج) الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها:

نهى النبي ﷺ عنها معللاً ذلك بأنها حين طلوعها يسجد لها الكفار وكذلك حين غروبها، فقال لعمرو بن عَبَسَةَ: «**صلِّ صلاةَ الصبح ثم اقصر عن**

---

(١) أخرجه البخاري ك/ الصلاة ب/ الصلاة في البيعة. واللفظ له ومسلم ك/ المساجد ب/ النهي عن بناء المساجد على القبور.

(٢) والتعليل بالنجاسة غير صحيح، لأنه قد ورد النهي والوعيد لمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد، والأنبياء صلوات الله عليهم طاهرون مطهرون.

(٣) إغاثة اللهفان (١ / ١٨٩) بتصرف. ط. دار المعرفة بيروت.

(٤) أخرجه مسلم ك/ الجنائز ب/ النهى عن الجلوس على القبر والصلاة عليه، الترمذي ك/ الجنائز ب/ ما جاء في كراهية المشي على القبور والجلوس عليها، وأبو داود ك/ الجنائز ب/ كراهية القعود على القبر.

(٥) تفسير القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

الصلاة حتى تطلع الشمس وترتفع، فإنها تطلع بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار ... [ثم ذكر أنه يصلي العصر] قال: **ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب فإنها تغرب بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار**»[١]. ولذا قال ﷺ: «**لا يتحرى أحدكم فيصلي عند طلوع الشمس ولا عند غروبها**»[٢].

فقد نُهِينَا أن نصلي لله تعالى ونسجد له في الوقت الذي يسجد فيه الكفار للشمس حين تطلع بين قرني الشيطان وكل ذلك صيانة وحماية للتوحيد من أي شائبة من الشرك[٣].

(د) التصوير:

والتصوير ذريعة لعبادة المصورات كما حصل في قوم نوح عليه السلام حيث كانوا يعبدون خمسة أصنام، كما قال سبحانه: ﴿ **وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** ﴿٢٣﴾ ﴾ [نوح:٢٣].

وأصل تلك العبادة أن ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرا كانوا قوماً صالحين، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أتباعهم: لو صورناهم كانوا أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون ونُسيَ العلم وسوس إليهم الشيطان فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم!![٤].

---

(١) أخرجه مسلم ك/ صلاة المسافرين وقصرها ب/ إسلام عمرو بن عبسة واللفظ له، والنسائي ك/ المواقيت ب/ النهي عن الصلاة بعد العصر، وأبو داود ك/ الصلاة ب/ من رخص فيهما إذا كانت الشمس مرتفعة .

(٢) أخرجه البخاري ك/ مواقيت الصلاة ب/ لا يتحرى الصلاة قبل غروب الشمس، ومسلم ك/ صلاة المسافرين ب/ الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢ / ٢٥٥):- "فإنها تطلع بين قرني شيطان" فيه إشارة إلى علة النهي عن الصلاة في الوقتين المذكورين، وزاد مسلم من حديث عمرو بن عبسة :- وحينئذ يسجد لها الكفار"، فالنهي حينئذ لترك مشابهة الكفار .

(٤) أخرج ذلك ابن جرير الطبري عن محمد بن قيس بنحوه، وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس نحوه وفيه أن هؤلاء الصالحين كانوا من قوم نوح عليه السلام. انظر صحيح البخاري ك/ التفسير ب/ (وداً ولاسواعاً ولا يغوث ويعوق ...) .

وقد جاء الوعيد الشديد أيضاً للمصوِّر لكونه مضاهياً لخلق الله تعالى قال النبي ﷺ: قال الله تعالى: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذَرَّة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة**»[١].

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهؤون بخَلْقِ الله**»[٢].

ولذلك أمر النبي ﷺ علياً أن لا يدع صورة إلا طمسها كما ذكرنا ذلك[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ك/ التوحيد ب/ قول الله تعالى (والله خلقكم وما تعلمون)، ومسلم ك/ اللباس والزينة ب/ تحريم تصوير صورة الحيوان .... واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري ك/ اللباس ب/ ما وطئ من التصاوير، ومسلم ك/ اللباس والزينة ب/ تحريم تصوير صورة الحيوان ...

(٣) التصوير له أحوال:

الأولى: الصور المجسمة للإنسان أو الحيوان، فهذا مجمع على تحريمه.

الثانية: المصور بالتلوين والتخطيط (الرسم) للإنسان أو الحيوان فهذا محرم أيضاً لعموم نصوص النهي، ويدل على ذلك حديث النمرقة التي فيها التصاوير (أخرجه البخاري ك/ اللباس ب/ من كره القعود على الصور) ومسلم ك/ اللباس ب/ تحريم تصوير صورة الحيوان)، ولفظ البخاري عن عائشة ﵂ أنها اشترت غرفة فيها تصاوير فقام النبي ﷺ بالباب فلم يدخل: فقلت :- أتوب إلى الله مما أذنبت! قال: ما هذه النمرقة! قلت: لتجلس عليها وتوسدها قال: إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم أحيوا ما خلقتم، وإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصور"، والنمرقة :- جمعها نمارق وهي الوسائد التي يصف بعضها إلى بعض، وقيل :- هي الوسادة التي يجلس عليها. انظر فتح الباري (١٠ / ٣٨٩).

الثالثة: التصوير بالأشعة للإنسان أو الحيوان، وهذا مختلف فيه بين العلماء المعاصرين، ويجوز للحاجة كإثبات الشخصية والتعليم في غير تعظيم لصاحب الصورة ولأنها لا تحمل معنى المضاهاة لخلق الله لأنه تشبه الصورة التي تنعكس على الماء والمرآة ولم يقل أحد من العلماء بحرمة تكوين الصورة على المرآة ويسمونها عكساً لأنها تعكس الأشعة الساقطة عليها.

الرابعة: تصوير غير الإنسان والحيوان والراجح جوازه. وللاستزادة انظر القول المفيد (٢ / ٤٣٨- ٤٤٢).

حكم الجهل في باب الشرك

إنك لتعجب أن تجد المسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان ويحج البيت، ويؤمن بكل ما في القرآن، ويحب رسول الله ﷺ وسنته ويغار على الإسلام، ومع ذلك تراه يأتي أعمالاً وأقوالاً، ويعتقد معتقدات توقعه في الشرك وهو لا يعلم حقيقتها، بل ربما ظن أن ما هو عليه هو الصواب الذي يرضي الله .

فما حكم مثل هذا الشخص ؟

أجاب العلماء على هذا السؤال فقالوا :

الجاهل معذور ولكن يجب عليه أن يتعلم ويتبع الحق إذا جاءه .

فالجاهل الذي وقع في شركٍ ولم يقصد نقض إيمانه فهو معذور، ولكن عليه أن يتعلم ويبادر بالتوبة، ومما يدل على ذلك ما ورد عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع النبي ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون[1] بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط [يعتقدون أنها تؤثر في نصرهم] فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ : «**الله أكبر ! إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾** [الأعراف :١٣٨]، **لتركبن سنن من كان قبلكم**»[2] .

---

(١) يعلقون .

(٢) رواه الترمذي في الفتن ب/ ما جاء لتركبن سنة من كان قبلكم وقال حسن صحيح ورواه أحمد في المسند عن أبي واقد، وابن حبان وابن أبي عاصم في السنة والطبراني في الكبير والبيهقي في المعرفة، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢ / ٢٣٥) .

لقد وقع فيما يوجب الشرك أصحاب هذين السؤالين لموسى، ومحمد عليهما الصلاة والسلام جهلاً منهم، فكان جواب النبي ﷺ : «**لتركبن سنن من كان قبلكم**». وكان جواب موسى عليه السلام: ﴿**إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٣٨] فبينوا لهم أن هذا شرك ولم يحكموا عليهم بالشرك لكونهم يجهلون ذلك.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

(أ) القرآن الكريم

(ب) كتب التفسير وعلوم القرآن

١- تفسير القرآن العظيم / للحافظ ابن كثير .

٢- جامع البيان في تأويل آي القرآن / لمحمد بن جرير الطبري .

٣- الجامع لأحكام القرآن / لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .

٤- فتح القدير / لمحمد بن علي الشوكاني .

٥- تفسير الجلالين / لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي .

٦- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل / لعلاء الدين علي ابن محمد بن إبراهيم البغدادي المشهور بالخازن .

٧- تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل / لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي .

٨- البحر المحيط في التفسير / لمحمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي الغرناطي المشهور بأبي حيان .

٩- روح المعاني / لمحمود بن شكري الألوسي .

١٠- أنوار التنزيل وأسرار التأويل / عبد الله بن عمر البيضاوي .

١١- الكشاف عن حقائق التنزيل / محمود بن عمر الزمخشري .

١٢- زاد المسير في علم التفسير / لعبد الرحمن بن علي بن الجوزي .

١٣- محاسن التأويل / لمحمد جمال الدين القاسمي .

١٤- التفسير الصحيح [موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور] : حكمت بشير ياسين، دار المآثر، المدينة المنورة ط . أولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م .

١٥- مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبدالعظيم الزرقاني، دار الكتب العلمية بيروت : ط . أولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨ م .

١٦- صفوة التفاسير / محمد علي الصابوني، دار الفكر، بيروت .
١٧- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن / محمد عبد الله دراز رحمه الله، دار طيبة الرياض : ط. ثانية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .
١٨- بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية يسرى السيد محمد دار ابن الجوزي ـ الدمام، ط. أولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .
١٩- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرفاعي، دار الكتاب العربي، بيروت . ط. ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .
٢٠ - المعجزة الخالدة، حسن ضياء الدين عتر، ط. الثانية، دار ابن حزم ـ بيروت ـ لبنان، ١٩٨٩م.
٢١- الإتقان في علوم القرآن / للسيوطي .
٢٢- علوم القرآن : نور الدين عتر، دار الخير، دمشق ط أولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
٢٣- بيان إعجاز القرآن / لأبي سليمان حمد بن حمد بن إبراهيم الخطابي، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة. ط رابعة، ضمن مجموعة رسائل في إعجاز القرآن .
٢٤- الجواهر الحسان في تفسير القرآن / عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي .
٢٥- مدارك التنزيل وحقائق التأويل / أبي البركات عبدالله بن أحمد محمود النسفي.
٢٦- تفسير النسائي / للإمام أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي.
٢٧- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / لأبي الحسن الواحدي .
٢٨- تفسير مجاهد / مجاهد بن جبر المخزومي التابعين أبو الحجاج .
٢٩- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم / محمد بن محمد العمادي أبو السعود.
٣٠- تفسير القرآن / عبدالرزاق بن همام الصنعاني .
٣١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور / جلال الدين السيوطي .

(ج) كتب الحديث وشروحه :

١- صحيح البخاري .
٢- صحيح مسلم .
٣- سنن أبي داود .
٤- سنن الترمذي .
٥- سنن ابن ماجة .
٦- سنن النسائي .
٧- مسند الإمام أحمد، نشر مؤسسة قرطبة، مصر .
٨- مسند أبي عوانة الإسفراييني، ط. الأولى ـ دار المعرفة ـ بيروت ١٩٩٨م تحقيق: أيمن الدمشقي في خمسة مجلدات، وطبعة أخرى بدار المعرفة في جزئين.
٩- مسند أبي يعلى التميمي ط. الأولى دار المأمون للتراث دمشق ١٤٠٤هـ تحقيق حسين سليم أسد .
١٠- مسند الحميدي ط. دار الكتب العلمية ومكتبة المتنبي، بيروت ـ القاهرة تحقيق جيب الرحمن الأعظمي .
١١- مسند الروياني ط. الأولى دار القاهرة مؤسسة قرطبة ١٤١٦هـ تحقيق أيمن علي أبو يماني .
١٢ - مسند الشهاب / للقضاعي، ط. ثانية مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٧هـ تحقيق حمدي السلفي.
١٣- العظمة للأصبهاني ط. الأولى ـ دار العاصمة ـ الرياض ١٤٠٨هـ تحقيق رضاءالله بن محمد إدريس المبارك فوري .
١٤ - المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ط. الأولى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١١ هـ- ١٩٩٠م، تحقيق / مصطفى عبدالقادر عطا.
١٥ - المعجم الأوسط للطبراني ـ دار الحرمين ـ القاهرة ١٤١٥هـ ـ تحقيق/ طارق الحسيني.
١٦ - المعجم الصغير للطبراني ط. الأولى ـ المكتب الإسلامي ودار عمار ـ بيروت وعمان - ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥م، تحقيق/ محمد أمرير .

١٧ - المعجم الكبير للطبراني ط. الثانية ـ مكتبة العلوم والحكم ـ الموصل ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م تحقيق/ حمدي السلفي .

١٨- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٩- تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير ـ لابن حجر العسقلاني ـ المدينة المنورة ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م، تحقيق السيد/ عبدالله هاشم اليماني المدني.

٢٠ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني ـ ط. الرابعة ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت - ١٤٠٥هـ.

٢١ - سنن البيهقي الكبرى ـ مكتبة دار الباز مكة المكرمة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ـ تحقيق/ محمد عبدالقادر عطا .

٢٢- سنن الدارمي ط. الأولى ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٤٠٧هـ ـ تحقيق ـ فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي .

٢٣- صحيح مسلم بشرح النووي تحقيق : خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت ط. أولى ١٤١٤هـ-١٩٩٤م .

٢٤- شعب الإيمان للبيهقي ط. الأولى- دار الكتب العلمية- بيروت ١٤١٠هـ ـ تحقيق محمد زغلول.

٢٥- المصنف لابن أبي شيبة ط. الأولى مكتبة الرشد ـ الرياض ١٤٠٩هـ ـ تحقيق/ كمال يوسف الحوت.

٢٦-موطأ الإمام مالك بن أنس، تصحيح : محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية .

٢٧-الأحاديث المختارة/ للمقدسي تحقيق/ عبدالملك بن عبد الله بن دهيش ط. الأولى ـ مكتبة النهضة الحديثة مكة المكرمة ١٤١٠هـ .

٢٨ - فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ـ دارا لمعرفة ـ بيروت - ١٣٧٩هـ. تحقيق/ محمد فؤاد عبدالباقي و محب الدين الخطيب.

٢٩- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لأبي بكر الهيثمي ـ دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي ـ القاهرة وبيروت ١٤٠٧هـ .

٣٠ - السُّنَّة ــ لعبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني ــ ط. الأولى. دار ابن القيم ــ الدمام - ١٤٠٦ هـ تحقيق د. محمد سعيد القحطاني .
٣١ - السنن الكبرى للنسائي ط. الأولى ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت - ١٤١١ هـ - ١٩٩١م ــ تحقيق د. عبدالغفار البنداري ــ سيد كسروى حسن.
٣٢- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ١٤١٤هـ ١٩٩٣م ــ تحقيق شعيب الأرنؤوط .
٣٣-المنتخب من مسند عبد بن حميد ــ ط. الأولى ــ مكتبة السنة ــ القاهرة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ــ تحقيق/ صبحي البدري السامرائي و محمد الصعيدي.
٣٤- مسند البزار المسمى البحر الزخار ــ ط. الأولى ــ مؤسسة علوم القرآن ــ بيروت - ١٤٠٩هـ ــ تحقيق/ محفوظ الرحمن زين الله .
٣٥- التمهيد لابن عبدالبر ــ وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية ــ المغرب - ١٣٨٧هـ - تحقيق/ مصطفى بن أحمد العلوى و محمد عبد الكبير البكري .
٣٦- صحيح سنن الترمذي للألباني ط. الأولى المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
٣٧- سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ــ ط. الثانية ــ الدار السلفية ــ الكويت والمكتبة الإسلامية الأردن - ١٤٠٤ هـ .
٣٨- صحيح الجامع الصغير للألباني ط. الثانية ــ المكتب الإسلامي بيروت - ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.
٣٩ -صحيح سنن ابن ماجة للألباني ط. الثالثة ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت - ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م .
٤٠- صحيح سنن أبي داود للألباني ط. الأولى المكتب الإسلامي ــ بيروت - ١٤٠٩ - ١٩٨٩م.
٤١- صحيح الترغيب والترهيب ط. ثانية ــ المكتب الإسلامي - ١٤٠٦هـ
٤٢ -مسند الإمام أحمد بن حنبل : تحقيق جماعة من الباحثين بإشراف الشيخ

المحدِّث شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ط أولى - ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

٤٣- ترتيب أحاديث صحيح الجامع الصغير وزيادته، رتبه وبوبه عوني نعيم الشريف، مكتبة المعارف، الرياض. ط أولى، ١٤٠٦هـ .

٤٤- جامع الأصول في أحاديث الرسول لمجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر، بيروت ط. ثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٤٥ - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي : لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف، دار إحياء السنة النبوية، بيروت. ط ثانية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ .

٤٦- نزهة النظر : للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق علي الحلبي ط. الأولى دار ابن الجوزي السعودية، ١٤١٧هـ .

٤٧- دلائل النبوة : البيهقي ط. الأولى دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، تعليق عبدالمعطي قلعجي، ١٩٨٥م .

٤٨- المسند : أحمد بن حنبل تحقيق أحمد شاكر .

٤٩- عون المعبود شرح سنن أبي داود : للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان، دار الفكر بيروت. ط ثانية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٥٠- دلائل النبوة : سعيد بن عبدالقادر بن سالم باشنفر، مكتبة دار البار ومكتبة الخراز ط. أولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

٥١- دلائل النبوة : لأبي نعيم الأصبهاني، تخريج عبد الله البر عباس، تحقيق محمد رواس قلعجى، المكتبة العربية، حلب. ط. أولى، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

٥٢- مسند ابن الجعد تحقيق : علي بن عبيد تحقيق : عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر، بيروت، ط. أولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

٥٣ - الزهد لابن المبارك : عبد الله بن المبارك بن واضح المروزى، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمى، دار الكتب العلمية، بيروت .

٥٤- الكامل في ضعفاء الرجال : عبد الله بن عدى بن عبد الله المرجاني، تحقيق يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت ط. ثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .

٥٥- الجامع لمعمر بن راشد : معمر بن راشد الأزدي، تحقيق : حبيب الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت ط. ثانية، ١٤٠٣هـ .

٥٦- كرامات الأولياء : هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي، تحقيق : أحمد سعد الحمان، دار طيبة، الرياض. ط. ثانية ١٤٠٣هـ .

٥٧- مسند الشاشي : الهيثم بن كليب الشاشي تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم الحكم، المدينة المنورة ط. أولى، ١٤١٠هـ .

٥٨- سنن الدارقطني : علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .

٥٩- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل. محمد ناصر الدين الألباني، إشراف محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق ط. الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٦٠- دلائل النبوة : جعفر بن محمد بن الحسن الفريابي تحقيق عامر حسن صبري، دار حراء، مكة المكرمة ط. أولى ١٤٠٦هـ .

٦١- الإيمان : محمد بن إسحاق بن يحيى بن مندة تحقيق/ علي بن محمد ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط. ثانية، ١٤٠٦هـ .

٦٢- مسند إسحاق بن راهوية : إسحاق بن إبراهيم بن مخلد المروزى تحقيق/ عبدالغفور عبدالحق حسين البلوشي، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة ط. أولى، ١٩٩٥م .

٦٣- الزهد لهناد : هناد بن السري الكوفي، تحقيق عبدالرحمن عبدالجبار الفريوائي دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت. ط. أولى، ١٤٠٦هـ .

٦٤-عمل اليوم والليلة : أحمد بن شعيب بن علي النسائي، تحقيق فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت ط. ثانية، ١٤٠٦هـ .

٦٥-التاريخ الكبير : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري،،تحقيق : هاشم الندوي، دار الفكر .

٦٦-الإصابة : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق : علي محمد الجباوي، دار الجيل، بيروت ط. أولى، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م .

٦٧-الاعتقاد : أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق : أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت ط .أولى ١٤٠١هـ .

٦٨-أخبار مكة : محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي، تحقيق : عبدالملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت ط. ١٤١٤هـ .

٦٩-معجم الصحابة : عبدالباقي بن قانع، تحقيق صلاح بن سالم المصراتي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة ط. أولى، ١٤١٨هـ .

٧٠-الإيمان / للحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ــ ط. ثانية ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت ١٤٠٣هـ .

(د) كتب العقيدة :

١-شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ــ لهبة الله الطبري اللالكائي ط. الرابعة. دار طيبة ــ الرياض - ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م تحقيق د. أحمد الغامدي .

٢-العبودية لابن تيمية مطبوع ضمن الفتاوى الكبرى له ــ دار المعرفة ــ بيروت.

٣-الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : للشيخ/ أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، ت: علي بن حسن بن ناصر، وآخرون، دار العاصمة، الرياض ط. ثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

٤-معجم البدع : رائد بن صبري بن أبي علفة، دار العاصمة الرياض، ط. أولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م .

٥-حقيقة البدعة وأحكامها : سعيد ناصر الغامدي، مكتبة الرشد، الرياض. ط. ثانية، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م .

٦- عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام رضي الله عنهم : ناصر علي عائض حسن الشيخ، مكتبة الرشد، الرياض. ط. ثانية، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٧- البدع والمحدثات ومالا أصل له، جمع وإعداد : حمود عبد الله المطر، دار ابن خزيمة، الرياض. ط. أولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨ م .

٨- براهين وأدلة إيمانية : عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق. ط. أولى، ١٤٠٨ هـ -١٩٨٧م.

٩- القول المفيد على كتاب التوحيد : محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، ودار العاصمة، الرياض . ط أولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م .

١٠- الشرك في القديم والحديث : أبو بكر محمد زكريا، مكتبة الرشد، الرياض. ط. أولى، ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م .

١١- الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية : جيلان بن خضر العروسي، مكتبة الرشد، شركة الرياض للنشر والتوزيع، الرياض ط. أولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م .

١٢- الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد : محمد بن علي الشوكاني، تعليق، وتخريج أبو عبد الله الحلبي، دار ابن خزيمة، ط. أولى، ١٤١٤هـ.

١٣- عالم الملائكة الأبرار : عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن ط. سابعة، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م .

١٤- تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد : محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، ط أولى، ١٤١٢هـ المكتبة الثقافية ــ بيروت .

١٥- الحبائك في أخبار الملائكة : جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت. ط. أولى، ١٤٠٨هـ .

١٦- علم الإيمان : الشيخ عبدالمجيد الزنداني، شركة النور، صنعاء ط. أولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م .

١٧- شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة : سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض ط. السادسة، ١٤١٩هـ .

١٨- معجم ألفاظ العقيدة : عامر عبد الله فالح، مكتبة العبيكان، الرياض. ط. ثانية، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م .

١٩- الاعتصام : إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي، تحقيق : سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، الخبر، السعودية ط. أولى ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م .

٢٠- نواقض الإيمان القولية والعملية : عبدالعزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، دار الوطن، الرياض. ط. ثانية، ١٤١٥هـ .

(هـ) كتب اللغة :

١- لسان العرب للعلامة ابن منظور .

٢- معجم المقاييس في اللغة لابن فارس .

٣- مختار الصحاح .

٤- المعجم الوسيط .

٥- القاموس المحيط - للفيروزآبادي .

٦- المفردات / للراغب الأصفهاني .

٧- الصحاح للجوهري .

٨- تاج العروس .

(و) كتب العلوم الحديثة :

١- مجلة العلوم الأمريكية / أعداد مختلفة .

٢- أسرار المحيطات : أكاديميا انترناشيونال الفرع العلمي من دار الكتاب العربي بيروت ــ لبنان .

٣- موسوعة الزاد للعلوم والتكنولوجيا بالكتاب والفيديو : مطابع ديداكو برشلونه، إسبانيا.

٤- عالم النبات نباتات الصحراء : أكاديميا، بيروت، ١٩٩٥م .

٥- المحيط الكوني وأسراره : نجيب زبيب، دار الأمير، بيروت ط. أولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

٦- تاريخ العلوم العام : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت. ط ثانية، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م .

٧- موسوعة العلم والإيمان، الجزء الخامس، منف للنشر والخدمات الإعلامية، رئيس التحرير ممدوح الغالي.
٨- معجم البيولوجيا المصور تأليف : كورين ستوكلي ـ أكاديمياً ترجمة د. محمد أحمد شومان، د. محمد دبس، بيروت ـ لبنان .
٩- موسوعة النبات العام د. عبدالعزيز الصباغ، منشورات عويدات .
١٠- عالم النبات ـ أكاديميا ـ بيروت ـ لبنان .
١١- النبات العام، مكتبة الأنجلو المصرية تأليف : مجموعة من الدكاترة .
١٢- موسوعة الزاد، محمد سعيد صباريني .
١٣- الموسوعة العلمية الشاملة، رئيس التحرير : أحمد شفيق الخطيب، مكتبة لبنان.
١٤- أسئلة وأجوبة في العلوم وعلوم النبات، مكتبة العبيكان .
١٥- النباتات الزهرية نشأتها ـ تطورها ـ تصنيفها، تأليف الدكتور : شكري إبراهيم سعد، دار الفكر العربي .
١٦- النباتات وبيئتها تأليف : آر . إف . وينماير، ترجمة الدكتور/ يحيى داوود المشهداني، جامعة الموصل .
١٧- الماء في حياة النبات، تأليف د/ رياض عبداللطيف أحمد، جامعة الموصل .
١٨- الأحياء للصف العاشر، وزارة التربية والتعليم الأردنية .
١٩- مدخل إلى فلسفة العلوم العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، د. محمد عابد ـ مركز دراسات الوحدة العربية .
٢٠- الزراعة الجافة أسسها وعناصر استثمارها د. عبد الله قاسم الفخري، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بالعراق .
٢١- موسوعة اكس فورد، (قرص مدمج) .
٢٢- موسوعة انكارتا (أقراص مدمجة) .
٢٣- رحلة إلى عالم النبات (قرص مدمج) .
٢٤- الحياة الخاصة للنباتات (فيلم علمي) .

٢٥- كيف تدافع النباتات عن نفسها .
٢٦- أحدث طرق العلاج بالعسل .

(ز) كتب أخرى

■ مجموع فتاوى ابن تيمية : لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية، دار عالم الكتب، الرياض. ١٤١٢هـ-١٩٩١م .
■ مدارج السالكين / لابن القيم ـ تحقيق أحمد الرفاعي وعصام الحرستاني ط. أولى ـ دار الجيل بيروت ١٤١٢هـ .
■ تهذيب مدارج السالكين .
■ الكليات / لأبى البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي الحنفي ط. ثانية مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤١٣هـ .
■ أحكام الجنائز وبدعها : لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف الرياض. ط. أولى للطبعة الجديدة، ١٤١٢هـ
■ معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار الفكر ـ بيروت .
■ الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعية : الشيخ/ محمد مصطفى شلبي، الدار الجامعية، بيروت ط ١٩٨٢م .
■ البداية والنهاية : للحافظ ابن كثير، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان. ط. ثانية ١٤٠٨هـ .
■ فقه السيرة : محمد الغزالي تخريج العلامة محمد ناصر الدين الألباني، مطبعة حسان، القاهرة ط. ثامنة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
■ السيرة النبوية : لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
■ نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة : راجح عبدالحميد الكردي، مكتبة المؤيد، الرياض ط. أولى، ١٩٩٢-١٤١٢م .
■ موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ـ ﷺ ـ إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن ملوح، دار الوسيلة، جدة. ط. أولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

■ القلب ووظائفه في الكتاب والسنة : سلمان زيد سلمان اليماني، دار بن القيم، الدمام. ط. أولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م .

■ المدخل إلى التشريع الإسلامي : كامل موسى، مؤسسة الرسالة، بيروت. ط. أولى، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م .

■ إنه الحق : الشيخ عبدالمجيد الزنداني .

■ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام [جزء السيرة النبوية] : للحافظ الذهبي تحقيق عمر عبدالسلام تدمرى، دار الكتاب العربي، بيروت ط. ثانية، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .

■ قصص الأنبياء : لابن كثير، دار ومكتبة الهلال، بيروت. ط. ثالثة، ١٩٨٨م وطبعة أخرى بتحقيق سليم بن عيد الهلالي، دار النبلاء، عمان. ط. أولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م .

■ إغاثة اللهفان من مصياد الشيطان : لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت .

■ التعريفات : الشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت ط. ثالثة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م .

■ مفاهيم ينبغي أن تصحح : لمحمد قطب، دار الشروق، القاهرة ط. سادسة ١٤١١هـ -١٩٩١م .

■ مدخل إلى فلسفة العلوم العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت ـ لبنان ط. ثالثة ١٩٩٤م .

■ البحر الرائق في الزهد والرقائق، د. أحمد فريد ط. أولى مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ـ لبنان ١٤١٠هـ .

■ دولة القرآن : طه عبدالباقي سرور، المكتبة العلمية، القاهرة. ط. ١٩٦١م .

مصادر باللغة الإنجليزية

1 - Agrios, George N., Plant Pathology 4 th ed., American Press, Inc., San Diego : 1997.

2 - Atlas of the Oceans, Crescent Books, and New York , 1977 .

3 - A. W. Lishman Science, University of Natal. From th Internet .

4 - Desmond Morris, Animal Watching, Crown Publishing, Inc., New York 1990 .

5 - D.M. Moore (General Editor) , Plants of the World, Great Britain : 1991.

6 - George Constable, editor, Voyage Through the Universe : Comets, Asteroids, and Meteorites, The Tims Inc. Book Company , 1990 .

7 - Margaret C. Neville Ph. D., Department of Physiology, Milk Secretion : An Overview. From the Internet .

8 - Moore, Patrick and Hunt Garry , Atla of the Solar System, Rand Mc Nally and Company , Chicago, 1983 .

9 - Ross, David A., Introduction To Oceacography, 2nd ed, Prentice - Hall International, Inc., London, 1977.

10 - The World Book Encyclopedia of Science, Vol. 5, the Plant World, World Book, Inc., 1997 .

11 - The World Book Encyclopedia of Science, Vol. 6, the Animal World, World Book, Inc., 1997 .

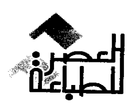
12 - The World Book Encylopedia of Science, Vol. 7, the Human Body, World Book, Inc, 1997 .

13 - Wallen, Robert N., Introduction to Physical Geography, WCB Pulishers, USA, 1992.

14 - Winer, Jonathan, Planet Earth, Bantam Books, Toronto, 1986.

15 - W.L. Hurley, Department of Animal Sciences, University of Illinois, Mammary Gland Histology and Cell Biology. From the Internet.

فهرس



فاكس : ٢٤٣٣٢٤٩
محمول : ٠١٠١٩٠٠٠٣٨٠